

جامعة الجزائر 1/ بن يوسف بن خدة
كلية العلوم الإسلامية
قسم: العقائد والأديان

الدَّرْسُ الْحَدِيثِيُّ عِنْدَ الْإِمَامِ ابْنِ بَادِيَسَ؛ مَنْهَجُهُ، وَمَقَاصِدُهُ.

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية.
تخصص: الكتاب والسنة.

إعداد الطالب:
بوحمدو يونس.

السنة الجامعية: 1436-1437 هـ / 2015-2016 م.

جامعة الجزائر 1 / بن يوسف بن خدة
كلية العلوم الإسلامية
قسم: العقائد والأديان

الدَّرسُ الحَدِيثِيُّ عِنْدَ الإِمَامِ ابْنِ بَادِيسَ؛ مَنْهَجُهُ ، وَمَقَاصِدُهُ.

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية.
تخصص: الكتاب والسنة.

إشراف:
الدكتور: رضا بوشامة.

إعداد الطالب:
بوحامدو يونس.

لجنة المناقشة:

الاسم واللقب:	الرتبة العلمية:	المؤسسة الأصلية:	الصفة:
أ/د: تمزغين محمد	أستاذ محاضر	كلية العلوم الإسلامية / جامعة الجزائر - 01-	رئيساً
د/ رضا بوشامة	أستاذ محاضر	كلية العلوم الإسلامية / جامعة الجزائر - 01-	مقرراً
د/ سليمان بن صفيّة	أستاذ محاضر	كلية العلوم الإسلامية / جامعة الجزائر - 01-	عضواً

السنة الجامعية: 1436-1437 هـ / 2015-2016 م.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شكر وتقدير

بعد حمد الله تعالى والثناء عليه بما هو له أهل، لما أنعم به من توفيقه وتيسيره، أتقدم بالشكر الجزيل والثناء الجميل إلى كل من أسهم في إنجاز هذا العمل من قريب أو بعيد، بالكثير أو اليسير، بالعبارة أو الإعارة، وهم أكثر والحمد لله تعالى، ولكن أحقهم إفراداً بالذكر في هذا المقام:

✽ الوالدين الكريمين؛ حفظهما الله تعالى لي عوناً وسنداً على الخير والنفع.
✽ عمي وزوجته؛ لما أوليانيه من الرعاية والتوجيه اثنا عشرة سنة كاملة.
✽ الشيخ الدكتور: رضا بوشامة، الذي تفضل عليّ بقبول الإشراف على هذا البحث، والحرص على التوجيه والإرشاد لإخراج الموضوع في أفضل حلة.
✽ السادة المناقشين؛ الشيخ الدكتور: سليمان بن صفيّة، والشيخ الدكتور: تمرغين محمد حفظهم الله تعالى.

✽ كلّ المعلمين والأساتذة والمدرّسين والشيّوخ الذين أخذت عنهم عبر مراحل التعليم والدراسة والمجالسة؛ التي أنعم الله تعالى بها عليّ.
✽ القائمين على كلية العلوم الإسلامية بالجزائر العاصمة؛ الطاقم التعليمي والإداري، وكلّ الموظفين باختلاف تصنيفاتهم ورتبهم.
✽ الأصدقاء والزّملاء ممن درسنا معهم عبر كلّ السّنات الجامعيّة، وبخاصّة منهم طلبة الدراسات العليا بقسم العقائد والأديان.

جزاكم الله تعالى خير الجزاء.



ព័ត៌មាន



إِنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأمينه على وحيه، وخيرته من خلقه، وسفيره بينه وبين عباده، المبعوث بالدين القويم، والمنهج المستقيم، أرسله الله رحمة للعالمين، وإماماً للمتقين، وحيَّة على الخلائق أجمعين.

أما بعد/ إنه لمن جميل الذكر، ومحمود الكلام، أن يحتفي المرء بأسلافه من أهل الصَّلاح والإصلاح، خاصَّة في زمن الرِّدَاءة و البحث عن بلسم الشِّفاء ذات اليمين و ذات الشِّمال، وذلك لأُمَّة طالما صدَّرت أطباء القلوب للأُمم كلِّها، وهذا الاحتفاء ليس بالشُّعارات و النِّداءات العاطفيَّة الجوفاء، أو بالتَّمجيد والتَّقديس للأشخاص، بل بالانكباب العلميِّ على إرثهم دراسة و بحثاً، بموضوعيَّة وتركيز كفيِّلين بإعطاء نتائج صحيحة، أو على الأقلَّ تكون قريبة إلى الصُّحَّة المنشودة. لعلَّ من أولئك الذين لم توفَّهم الأُمَّة حقَّهم؛ الإمام الشَّيخ الرَّئيس عبد الحميد ابن باديس، والبحث في تراثه ليس إحياء للمَوَات، أو نبشاً للقبور، بل هي نظرة إلى الخلف تشدُّ الهمة لسعي أكثر ثقة وثباتاً إلى الأمام، و الإمام من أولئك الرَّافضين الذين شحَّ الزَّمان أن يأتي بمثلهم، فقد كان (أُمَّة) -ولا أقول رجلاً- لأنَّ معدن الرِّجال ليعجزُ عن حمل همَّة مثل همته رحمه الله.

لقد تجاذب هذه الشَّخصيَّة العظيمة، ونهل من مواردها الدَّافق؛ رجال الفكر والتَّاريخ، والإصلاح والأدب والدَّعوة، والوطنيَّة والجهاد والسياسة، أضف إليهم رجال الزَّهد والتَّربية والتَّعليم؛ فلم يَحِبُّ أحدٌ منهم، بل وجدوا فيه كلَّهم مادَّة خصبة ومواتية لمواضيعهم، كيف لا؟ ولإمام في كل علم جولة، وفي كل فنٍّ صولة، فكلُّ يدَّعي وصلاً بعلوم الإمام والإمام يُقرُّ لهم بذلك، فهو معدن العلوم، ومنجم الخبرات.

ما يهْمُنَّا هنا: الدِّراسات الشَّرعية المستفيضة حول الإمام ابن باديس؛ لعلاقتها المباشرة بعنوان هذا المشروع، و لا يعني هذا الاستغناء عن الدِّراسات التَّاريخيَّة، والتَّربويَّة، كونها تجلِّي لنا الكثير من الحبايا والقضايا التي لا تظهر إلا بردها إلى إطارها التَّاريخي حتَّى تُفهم فهماً صحيحاً، وبالتالي تنزيلها تنزيلاً مطابقاً للواقع، يحصل به المقصود، ويؤتي أكله على أحسن ما يكون.

التعريف بموضوع البحث:

إنَّ الجهاد العمليَّ الميدانيَّ الذي خاضته الأمة الجزائرية ضدَّ الصليبيين الفرنسيين الغزاة، سبقه جهاد علميٌّ، أعلن قيامه، وشيّد أركانه وبنياته الإمام عبد الحميد ابن باديس، فإذا كان وقود الأوّل النَّاس والسَّلاح، فإنَّ الثَّاني كان وقوده التَّربية والتَّعليم الإسلاميّين الخالصين، وإذا كان الأوّل قد حرّر الأبدان والأوطان، فإنَّ الثَّاني قد حرّر الأرواح والعقول والألسنة.

لَمَّا أدرك أهل اليقظة والنَّظر عظيم الجهاد الذي قام به الإمام ابن باديس على المستوى العلميِّ والفكريِّ؛ عكف المخلصون منهم على تراثه يستنبطون منه مواضع العبرة، ويستخلصون منه التَّجربة والخبرة، فلم يخبَّ منهم ملتمس، ولم يرجع صفر اليدين آخذ ولا مقتبس، بل الكلّ عاد من تراثه بتجارة رابحة، وفكرة صالحة.

لعل من جوانب النُّبوغ الباديسيِّ مما لم تصل إليه أيدي الباحثين، ولم تسبر أغواره قرائح العارفين إلَّا إشارة فقط، وهو الجانب الحديثيُّ من تراث الإمام، وهذا هو الميدان الذي سأطفّل عليه في هذا البحث الأكاديميِّ، والذي سأصبّ فيه الجهد، وأحصر فيه التَّنقيب، وذلك بمحاولة تحليل جهوده في مجال السنّة وشرح الحديث النَّبويِّ، من خلال الجوانب التي ألزمت بها نفسي في هذا البحث، والتي ستتجلّى في الحدود المرسومة للدراسة.

أهمية الموضوع:

لم يتمّ اختيار هذا الموضوع كبحث سيقدم لنيل درجة علميّة؛ إلَّا لأهمّيّته وقيّمته المعرفيّة، هذه الأهميّة التي ستظهر بجلاء في طيّاته؛ لكن هذا لا يمنع من الإشارة إلى الأمور الآتية:

1/ لفت أنظار أبناء الصَّحوة الجزائرية، إلى أنّ الإمام ابن باديس هو باني النّهضتين العلميّة والفكريّة في الجزائر، وهذا باعتراف المحييين والحاسدين، فعليهم أن يسيروا على نهجه، ولا يستسلموا للصّيحات المغرضين، والكفّ عن الالتفات بحثا عن قدوة للأمة من أصقاع أجنبيّة.

2/ تتبّع الحركة العلميّة للإمام؛ خاصّة أثناء مرحلة التَّلقي، ودراسة علاقتها بتحصيل الحديث، واقتفاء آثاره في كلّ من تونس والحجاز والشَّام ومصر، مع العلم أنّ هذه الحواضر كان فيها من المعتنين بالحديث شخصيّات بارزة، ثبت أنّ الإمام قد درس عند بعضهم، وتلقّى عنهم، وهذا كفيل بالوصول إلى نتائج موضوعيّة في هذا الموضوع الظلّ.

3/ الوصول إلى قراءة مركّزة ومتأنّية لطبيعة المصادر التي استعان بها الإمام في درسه الحديثي، وإظهار مدى تنوعها وكثرتها؛ بدءاً من الموطأ كمصدر أساس، وانتهاء بالمصادر والموارد الحديثية الأخرى التي استعان بها الإمام في درسه الحديثي.

4/ دراسة الأثر العملي للأحاديث التي شرحها الإمام ابن باديس، لمعرفة مدى علاقتها بالواقع الذي نزلت عليه، ثم معرفة رَدّة الفعل، أو أثرها الذي أحدثته في ذلك الواقع الذي وصف له الإمام ذلك الحديث.

5/ الوصول إلى المنهج العلمي للإمام ابن باديس في شرح الحديث النبوي، وتحديد ملامح هذا المنهج، ومراحله، ومميّزاته، ثم محاولة إيجاد الوسائل والأدوات المعرفية التي كان يستعين بها في درسه، والآليات التي كان يحقق من خلالها هذا المنهج ويطبّقه.

6/ الوصول إلى نتيجة علمية مؤصّلة في الحكم على الزاد الحديثي للإمام ابن باديس، ومعرفة مرتبته ومكانته العلمية الحديثية، كما تمّ ذلك في دراسات كثيرة؛ من حيث الجوانب المعرفية الأخرى كالتفسير والدعوة، والتربية والتعليم.

أسباب اختيار الموضوع:

يمكن تقسيم أسباب اختياري لهذا الموضوع إلى قسمين، و هذا كونه أَدْعَى إلى تجنّب الخلط والتداخل بين الدّوافع؛ وهي كالآتي:

أ / أسباب شخصية: يمكن أن أجملها فيما يأتي:

1/ محاولة الاستمداد من شمس هذا العالم المصلح، وهنا أخالف العرف العلميّ عندما يعبر كثير من الباحثين فيقول: (تسليط الضّوء على...)، فهل يُعقل أن يُسلّط الضّوء على الشّمس أو القمر، ذلك أن الضّوء إنّما يسلّط على فاقده، أمّا مصدره وينبوعه فيلتمس منه الضّوء ويُقتبس.

2/ محاولة توفية الإمام ولو بعض حقّه من التّكريم، والاعتراف بجهوده وأعماله في سبيل إحياء الأُمّة الجزائريّة، تلك الجهود التي مازلنا ننعّم بوارف ظلالها ووافر آثارها إلى يوم النّاس هذا، خاصّة مع علوّ بعض الأصوات اليائسة البائسة؛ التي تحاول عبثاً- النّيل من جهود الإمام، أو التّهوين منها ومن أعماله، أو حصرها في جوانب يتيمة، ومَن أنصت إليهم، أو استمع إلى لغاتهم، أدرك من حينه مواردها ومصدرها الاستعماري المشبوه.

3/ رجائي أن أكون ممن لبّى نداء الإمام ابن باديس، والشيخ البشير الإبراهيمي، وغيرهما من شيوخ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الذين صرخوا في الشباب الجزائري؛ يدعونه إلى الافتخار بترائمه، ومقوماته الإسلامية، وأن يحتفي بعلمائه الصالحين المصلحين، وأن يستمدّ منهم مواطن العبرة والفائدة، وأن يسلك طريقهم؛ طريق العلم والعمل، والصبر على الأذى فيها.

4/ قناعتي التامة بأنه مازال الفكر الإسلامي في الجزائر يتطلب الدراسة والتنقيب، ولا شك بأن البحث عنه يكشف عن كنوز يمكن الافتخار بها، كما أن هذا المسعى هو دأب كل الأمم الراقية، التي تعكف على تراثها بالبحث والتنقيب، تأخذ بالصواب منه، وتتّعظ من الخطأ وتعتبر.

ب/ أسباب موضوعية: يمكن أن أجملها فيما يأتي:

1/ إذا كان الإمام عبد الحميد ابن باديس حقاً عالماً من علماء الجزائر، ورائداً من رواد نهضتها الإسلامية، والباعث لما اندرس من علوم الدين والعربية فيها، فلا بدّ من إقامة الدعوى والدليل على صحة هذا الادّعاء وصوابه، وإلا كان الأمر مجرد مزايدات قولية جوفاء خالية من الاعتبار، ذلك أنّ العالم في الإسلام لا يكون عالماً حتّى يأخذ -أول ما يأخذ- بأزمة الوحيين، وقد أثبت بأن الإمام ابن باديس مفسّر لكتاب الله تعالى، خبير به وبأسرارها، لكنّ شطر الأمر ونصيفه لم يثبت فيه قول شاف وكاف، فما زالت علاقة الإمام بالحديث النبوي تكتنفها الكثير من التساؤلات والإشكالات.

2/ عدم وقوفي على دراسة مستقلة وخاصة اعتنت بتراث الإمام في مجال الحديث، بل أغلبها كما سبق الإشارة إليه، وكما سيأتي لاحقاً؛ ركّزت على الجانب الدعوي والاصلاحي، مع العلم أنّه في هذا الوقت الحاجة ماسّة إلى معرفة الوسائل التي حقّق بها هذه النتائج المذهلة، للاستعانة بها والاستفادة منها في نهضة علمية أخرى في عهد الحرية والاستقلال، لعلّ الأمة الجزائرية اليوم في أشدّ الحاجة إليها، خاصة مع تفرّق السبل، وتشتّت الآراء والأفكار، أما التّغني فقط بما حقّقه السّابقون دون الأخذ بما أخذوا به، فهو بكاء على الأطلال، لا يصلح إلا لشعراء العواطف الجيّاشة.

3/ بعد عملية إحصائية وجدت بأن تفسير الإمام المدوّن يشمل: 62 موضعاً قرآنيّاً، أمّا الأحاديث التي شرحها من كلام البشير النذير فهي: 57 درساً، فلماذا الاهتمام فقط بالدّرس التّفصيري وإهمال قسمه الحديثي؟، رغم أن الموجود منها متقارب جدّاً، بل أضف إلى ذلك أنّي وجدت له في آثاره:

400 حديثاً أوردها في موضع الاستشهاد والاستدلال، ما يعني أن مجموع الأحاديث الواردة في آثار الإمام ابن باديس تفوق: 450 حديثاً، تشكّل مادّة خام وزادا حديثاً لبحث أرجو أن أوفيه حقّه.

4/ اعتدادي بتوجيهات أساتذتنا من أصحاب الاطلاع والخبرة، خاصة المعتنين منهم بتراث جمعيّة العلماء المسلمين، كيف لا والطّالب حديث عهد، فقد أكّدوا لي أن هذا الجانب مازال في الظلّ ولم يرى النور بعد، رغم المحاولات والإشارات التي بدأت تظهر هنا وهناك، ما طمأنني بأنّي لست أخوض في موضوع بحث فلا يحصل المقصود منه.

5/ الاحتفاء بالإمام عبد الحميد ابن باديس كمفسّر وذكره بذلك، وعدم الإشارة إليه عند الكلام حول الحديث وعلومه في الجزائر ورجالاته، فكان حريّاً دراسة القضية دراسة أكاديميّة بطريقة علميّة وموضوعيّة، لمعرفة موضع الإمام من هذا العلم الأصيل من علوم الإسلام.

إشكالية البحث:

إن المطّلع على الكتابات والبحوث المعنيّة بتراث الإمام ابن باديس يجدها لا تخرج عن جوانب محدّدة، أهمّها ما يأتي: الجوانب اللّغويّة/ الجوانب الاصلاحية/ الجوانب السياسيّة/ جانب التّفسير، هذا الأخير الذي نال الحظّ الأوفر من الاهتمام.

فمن هنا حقّ لنا التّساؤل: هل العبقرية الباديسية تُحتزل فقط في الدّرس التّفصيري، ما يعني أنّ بضاعته في الحديث مزجاة؟، أليس هو الذي كان يدعو دائماً للعودة إلى الوحيين (الكتاب والسّنة) والأخذ بهما في أي عمليّة إصلاحية؟، أليس هو من شرح الموطّأ لمُدّة سنوات عديدة، واحتفل به والأمة الجزائرية احتفالاً عظيماً لا يقلُّ عن نظيره لما ختم تفسير القرآن العظيم؟.

ألرّ يصف وينعت الكثير من الباحثين والدّارسين الإمام ابن باديس بأنّه محدّث بصير من الطّراز العالي؟، فهل هذا الوصف مجرّد مزايدة لفظيّة؟، أم أنّها دعوى علميّة من باحثين لا يمكنهم إطلاق هذه الألقاب بلا مستند علمي، بل هي تنتظر من يقيم الدّليل العلمي والعملي على صحتها؟.

وإذا كانت طريقته في التّفسير قد شغلت الدّارسين، فمن خلال تراثه الحديثي؛ ما هو منهجه وطريقته في تناول الحديث النبوي وعرضه؟؛ وذلك سواء من حيث مصادره، أو من حيث انتقاؤه للأحاديث، وكذا طريقة شرحه لها، واستنباطه للعبر والدّروس منها؟.

من خلال ما سبق يفرض سؤال جوهريُّ أيضاً نفسه، وفحواه: ما هي المقاصد والأهداف التي كان يُضمِّنُها الإمامُ درسه الحديثيُّ؟ وما هي المرامي والغايات الأساسيّة والجوهريّة التي كان يسعى إليها من خلال شرحه؟.

حدود الدراسة:

لقد حاولت البحث عن إجابات للإشكاليّة (المركّبة) السّابقة، فوجدت أنّ ذلك ممكن إذا أدرجت جهدي وحصرته تحت عنوان جامع وهو: **الدّرس الحديثيُّ عند الإمام ابن باديس؛ منهجه، ومقاصده.** فهذا العنوان كفيل ببيان ما يشفي الغليل حول الإشكاليّة السّابقة، التي نجد -بعد قراءة مركّزة ومتأنّية- أنّها تحوي ثلاث إشكاليّات فرعيّة، وثلاث قضايا علميّة، وقد أجاب عنها العنوان في عناصره المكوّنة له، والتي يمكن اعتبارها بمثابة الضّوابط والحدود التي تحدّد البحث، وتمنع الباحث من الخروج عن الموضوع والإطار المرسوم إلى جوانب أخرى لا تعنيها الإشكالية، ولا ترمي إليها، ويمكن الإشارة إلى مكوّنات العنوان كالآتي:

1/ **الدّرس الحديثي عند الإمام ابن باديس:** وفيه إجابة عن الإشكاليّة الأولى، والعموم الملاحظ في هذا الشّطر متعمّد، وذلك لخصوصيّة الحديث، وكونه يُدرس دائماً من خلال جانبين؛ هما: جانب التّلقي، وجانب الأداء، وهذا المعبر عنه يجمع كلا النوعين معاً، كما يمكنه أن يجمع بين الالتقاء والإملاء، والكتابة.

كما أنّي تحاشيت استعمال مصطلحات توحى بالنتيجة، مثل: اهتمام، أو عناية...، وتركت هذا أو ضده إلى موضعه من البحث، ذلك أنّ النتائج إنّما يُتوصّل إليها بعد التّقليب والنّظر، عكس من يرسم النتائج أولاً، ثمّ يسعى جهده للتّدليل والانتصار لها.

2/ **منهجه:** أو طريقته في تناول الحديث النّبوي، هذا الجزء يجيب عن الإشكال الثّاني، والذي يتطرّق لعدّة جوانب من منهج الإمام في شرح الحديث، وهو شامل لعدّة جوانب أهمّها:

- منهج الإمام في اختيار مصادره الحديثيّة.
- منهجه في اختيار الأحاديث التي يعرض لها بالشرح والبيان.
- منهجه في قبول أو ردّ الحديث النّبوي، وأهمّ قواعده في هذا الجانب، ممّا أمكن الوصول إليه.
- منهجه في عرض الحديث وتحليله، وسبر أغواره، واستنباط معانيه وحكمه.

3/ **مقاصده:** إجابة على الإشكالية الأخيرة حول مقاصد الشيخ وأهدافه من الدرس الحديثي، وهنا اخترت مصطلح: المقاصد، عوض الآثار و النتائج، ليكون أوفى لحق البحث، كون محاكمة الشخص أو المنهج إلى النتائج أو الآثار، غير دقيق غالباً، لأن النتيجة أو الأثر قد تكون استجابة جزئية فقط لجهد الرجل، وليس نتيجة مطابقة له، لذا دراسة الجهد أوفى من دراسة أثره.

الدراسات السابقة:

حسب الدراسات المتاحة، والتي أمكنني الوصول إليها فيما يخص الإمام ابن باديس وجمعية العلماء المسلمين؛ وجدت تصبّ في اتجاهات مختلفة، وهي في أغلبها تعني بالجوانب الآتية:

1/ **جوانب لغوية:** مثل: * جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في خدمة اللغة العربية في الجزائر 1931/1954م، للباحث: مزعاش مراد، (رسالة ماجستير)، وقد نوقشت هذه الأطروحة في جامعة قسنطينة 2001م.

* جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها في اللغة والأدب، للباحث: صالح بن عبد الله بن محمد الجلعود، وهي أطروحة دكتوراه بجامعة الأزهر، بجمهورية مصر، وذلك سنة 1394هـ.

2/ **جوانب دعوية إصلاحية:** مثل: * منهجية الدعوة عند الشيخ عبد الحميد ابن باديس، للطالب: شارف طيب، إشراف: د/ عمار طالبي، (رسالة ماجستير) بكلية أصول الدين / الجزائر، 1991م .

* منهجية الدعوة عند الشيخ عبد الحميد ابن باديس، إشراف: د/ محمد دراجي، (رسالة ماجستير) بكلية العلوم الإسلامية / الجزائر، 2001م.

* الإمام عبد الحميد ابن باديس ومنهجه في الدعوة من خلال آثاره في التفسير والحديث، للباحث: عامر علي عرابي، (رسالة ماجستير) بجامعة أم القرى / السعودية، 1409هـ.

* المنهج الاصلاحى عند جمعية العلماء المسلمين، وعلاقاته بالمناهج الاصلاحية الأخرى (تأثراً وتأثيراً)، للباحث: هارون الرشيد بن موسى، إشراف: د/ عبد الرزاق قسوم، الجزائر 2008م.

3/ **جوانب سياسية:** مثل: * الفكر السياسي عند الشيخ عبد الحميد ابن باديس -دراسة تحليلية-، للطالب: جباري مسعود، إشراف: د/ محمد دراجي، (رسالة ماجستير) بكلية العلوم الإسلامية / الجزائر، 2001م.

* الفكر السياسي عند العلامة عبد الحميد ابن باديس، للطالب: مالك بن يخلف، إشراف: د/ صالح نعمان، (رسالة ماجستير) بجامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة، 2007م.

4/ جانب التفسير: مثل: منهجية التفسير عند الإمام ابن باديس، للباحث: صالح عبد الرحيم، إشراف: د/ محمد مقبول حسين (رسالة ماجستير) بكلية العلوم الإسلامية/ الجزائر 1992م.

هذه النماذج التي ذكرتها؛ على سبيل التمثيل فقط، وليس المقصود منها الحصر والإحاطة، خاصة الجانب الأخير منها، فالإمام ابن باديس من المفسرين المبرزين، ومن فرسان ميدانه، رغم كون المتاح منه للدراسة قليل جداً، فهو لا يتعدى مجلدين متوسطي الحجم، لكنه مادة دسمة للبحث و الدراسة. كما سبق وقلت؛ لم أجد دراسة مستفيضة تناولت منهجية الإمام ابن باديس في التعامل مع الحديث النبوي الشريف كدراسة مستقلة، وإن كانوا قد أشاروا إلى أن دعوة الإمام قد قامت على الكتاب والسنة، أي على خطى الإمام محمد عبده، ورشيد رضا وكذا شيخه الطاهر بن عاشور الذين تأثر بهم ابن باديس، لكن الباحثين ركزوا على جانب التفسير بحكم وفرة الدراسات وتعدد من كتب عنه كمفسر، وهذا لا يمنع من أن هناك إشارات إلى الجانب الحديثي كما وجدته في بعض الرسائل الجامعية والبحوث العلمية، ولعل أحقها بالذكر والتنويه منها، ما يأتي:

(الإمام عبد الحميد ابن باديس ومنهجه في الدعوة من خلال آثاره في التفسير والحديث، للباحث: عامر علي عرابي، (رسالة ماجستير) بجامعة أم القرى/ السعودية، 1409هـ)، فقد أشار في الفصل الخامس من رسالته إلى منهجه في شرح الحديث، وقد حوى هذا الفصل مبحثين اثنين، كان الأول منهما بعنوان: علاقة ابن باديس بشرح الحديث وكيفية تدريسه للموطأ وختمه له، والمبحث الثاني: كان حول المصادر والطريقة، وقد تناول هذا الفصل في 37 صفحة فقط، فكان بمثابة إشارات مركزة، ولا يمكن اعتبار ما وصل إليه منهجاً للإمام في شرح الحديث النبوي.

ويبقى أن الباحث لم يوف هذا الجانب حقه من البحث، وهذا ليس تقصيراً منه، بل لأن رسالته أصلاً لم تكن تنصب في هذه الغاية، ولم يقصد لدراسة هذا الجانب، ولم يلزم به نفسه علمياً، ولهذا فلا يمكننا محاكمته إلى أمر لم يشترطه في رسالته، ولكونه كان يدرس منهج الإمام في الدعوة والإصلاح، ومع هذا يجب الاعتراف باحتواء هذا الفصل لإشارات يمكن الاستفادة منها في البحث.

كما أشارت أستاذتنا؛ الدكتورّة عقيلة حسين في كتابها الموسوم بـ: "جهود جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين في خدمة السنّة النبويّة"، إلى جهد ابن باديس في خدمة السنّة النبويّة، لكنّ عملها جاء كمقتطفات مختصرة، لا يمكنها أن تكون كافية في الموضوع، فقد درست جهود الجمعيّة ككلّ (جهد جماعي)، وليس جهد الإمام ابن باديس مفردًا، كما أنّ الأستاذة قد جانبّت الصّواب في بعض ما ذهبت إليه، خاصة فيما يتعلّق بالحجم الفعلي للتراث الحديثي الذي خلفه الإمام ابن باديس، وكذا كيفيّة تلقّي الإمام للحديث النبوي، وطريقته في شرحه وأدائه، وقد أشرت في أثناء البحث إلى بعض هذه الملاحظات، وذلك لكون البحث قد قدّم في مؤتمر دولي.

من البحوث التي أشارت إلى الجهود الحديثيّة للإمام ابن باديس؛ (الشيخ عبد الحميد بن باديس، السلفية والتّجديد)، لمؤلّفه الدّكتور: محمد دراجي، فقد خصّص الجزء الرّابع من بحثه لـ: جهود الشيخ بن باديس في خدمة السنّة النبويّة الشّريفة، فقد تناول في 40 صفحة عنصرين اثنين، أولهما: احتفاء الشيخ بن باديس بالسنّة النبويّة، وثانيهما: منهجه في شرح الحديث النبوي الشّريف.

وقد أشار الدّكتور إلى قضايا مهمّة في هذا الجانب، لكن تنطبق عليه نفس الملاحظات المسجّلة على الدّراسات السّابقة، وذلك من حيث العموم والجزئيّة في التّناول، وذلك ليس راجعاً إلى عدم القدرة أو القصور في الطّرح، بل لكون هذه البحوث لم تتخصّص في الجانب الحديثي من تراث الإمام ابن باديس.

من خلال ما سبق نجد بأنّنا مضطّرون علميًّا لخوض هذا الموضوع، وإفراد الدّرس الحديثي الباديسي بالدراسة، والنّظر في المنهج والمقاصد التي كان الإمام يضمّنّها درسه الحديثي، وهذا حتّى لا يبقى هذا الموضوع تتناوشه البحوث والرّسائل، ولكي نتقل به من عالم الشّتات إلى عالم الجمع.

المنهج والمنهجية:

طبيعة موضوع البحث تفرض عليّ عدم الالتزام بمنهج علمي واحد فقط، بل أعمال عدّة مناهج على النّحو الآتي:

1/ المنهج الاستقرائي والتّاريخي الاستردادي : يظهر هذا الأخير جليًّا في الفصل الأوّل من البحث، باعتباره دراسة حول ابن باديس ورحلاته وطلبه للعلم، وكذا واقع الأمّة الذي وُجد فيه الإمام وعاشه، وهنا المقصود به الأمّة الكبرى (العالم الإسلامي)، والأمّة الصّغرى (الجزائر)، ولا

نسبى أهمية هذا المنهج في ردّ النصوص إلى إطارها التاريخي لفهمها فهما صحيحا، وإدراك الواقع الذي نُزِلت عليه، وهذا لا يصلح معه إلا المنهج التاريخي مع ما يتخلّله طبعاً من تحليل ووصف أحيانا.

أمّا الاستقرائي فسيكون حاضرا في البحث لأنّ طبيعته تتطلّب تتبّع كلّ ما له علاقة بالموضوع سواء من المصادر الأصليّة أو الفرعيّة، أو حتى من المراجع المساعدة للاستئناس، ولا يُتوقف هنا؛ بل تُحصى وتُحصر قبل دراستها وتحليلها، مع نقل الأقوال والآراء من المصادر المعتمدة ووصفها بما يلائمها من الأوصاف والأحكام.

2/ المنهج التحليلي: وهو المنهج الغالب على البحث، والمناهج الأخرى في الحقيقة خادمة له، ومتفرّعة عنه، وهو يقوم على تحليل مضمون ومحتويات النصوص التي جمعت من تراث الإمام ابن باديس، وذلك بتأمّلها ودراستها وتمحيصها، وسيكون ظاهرا بجلاء في الفصلين: الثاني والثالث، وهذا غير خاف، كون الحكم على المنهج الذي التزمه الإمام، ومقاصده من وراء درسه الحديثي؛ لا يمكن الوصول إليهما واستنباطهما إلا بعد تحليل ونظر كفيّين بتحقيق المقصود.

أمّا المنهجية العلميّة التي سلكتها في أثناء البحث وسرّت عليها، فإنّ أهمّ معالمها وأصولها ما يأتي:

- تحريّ الاختصار والتركيز في التطرّق للقضايا المراد دراستها، وتجنّب الحشو والتّطويل المخلّين بمقاصد البحث ومراميه، إلّا إذا كان هناك داع للتّفصيل في بعض المباحث التي يمكن اعتبارها أساسية وجوهريّة لا يمكن الإشارة فيها والإجمال.

- إقامة الحجّة من كلام الإمام عبد الحميد ابن باديس على كلّ القضايا والمسائل التي أريد الجزم فيها باتجاه الإمام ورأيه، وذلك حتّى لا أقوله ما لم يقله، أو أحمله من المعاني ما لم يقصده.

- أولى المصادر والمنابع التي أرجع إليها في فهم كلام الإمام ابن باديس، ومعرفة الظروف والملابسات التي كانت تحيط به؛ هم أقرانه، وزملاؤه، وتلاميذه، ممّن عاشوا معه وكانوا قريبين منه، ثمّ أتدرّج في ذلك من الأولى إلى الأولى، وذلك على قدر الاطلاع والمستطاع.

- التّركيز على جانب التّحليل والتّدقيق في المعطيات الأساسيّة في البحث، ومحاولة إتباع أهمّ النّصوص والاقتباسات الواردة بالملاحظات والاستنتاجات العلميّة المناسبة.

- أمّا من حيث الصّناعة والصّياغة التّحريريّة؛ فقد حرصت على أهمّ الجوانب الضّرورية والأساسيّة في مثل هذه البحوث والرّسائل العلميّة، ولعلّ أهمّها ما يأتي:
- التّقديم للفصول بمقدّمة مختصرة، واختتامه بخاتمة موجزة أضمنها أهمّ التّائج المرحليّة، والخلاصات الفصليّة.
 - كتابة الآيات القرآنيّة برسم رواية حفص لقراءة عاصم، وذلك لتيسّر المصحف الإلكتروني لهذه الرواية المشتهرة.
 - الاكتفاء في تخريج الأحاديث بالحدّ الذي يحصل منه المقصود، ويتمّ به المراد، وذلك بالاكتفاء بذكر مواضعه في الصّحيحين إذا كان فيهما، أو أحدهما فقط، وفي حالة ما لم يكن في الصّحيحين فإنّي أخرجه من مضانّه الأخرى، إلى غاية الوصول إلى حكمه عند أهل الصّناعة والاختصاص.
 - التّرجمة لأهمّ الأعلام والشّخصيات التي تكرّر ورودها في البحث، أو الأسماء المهمّة فقط، واستثنيت من ذلك: الصّحابة، رجال الأسانيد والأثبات، الشّخصيات التي وردت عرّضاً، الولاة والشّخصيات الأجنبيّة التي لا يضرّ جهلها، وذلك تجنباً لإثقال الهوامش.
 - الشّرح والتّعريف بأهمّ المصطلحات الواردة في الموضوع، والإعراض عن تلك المعروفة والمتداولة، ممّا لا تقوم ضرورة إلى الإشارة إليها.
 - وضعت في آخر الرّسالة أهمّ التّوابع العلميّة التي تتعلّق بمثل هذه البحوث، خاصّة فيما يتعلّق بالفهارس، حيث أثبتّ فيها أهمّها؛ وهي: فهرس الآيات القرآنيّة، فهرس الأحاديث والآثار، فهرس الأشعار، فهرس الأعلام والشّخصيات، فهرس الأماكن والبلدان، فهرس لأهمّ المصطلحات، فهرس المصادر والمراجع، فهرس الموضوعات.
 - بذلت الجهد والمستطاع في التقيّد بالمنهجيّة العلميّة المطلوبة في مثل هذه البحوث الأكاديميّة، وسلكت في ذلك الأعراف العلميّة المعتمدة في جامعاتنا الجزائريّة، وذلك سواء في النّصوص والهوامش، أو في الإحالات والاختصارات، وغيرها من الجوانب المشهورة المعروفة.

خطة البحث:

الخطة التي أقترحها هنا، في الحقيقة أمّلتها المادّة العلميّة، أو طبيعة العنوان، فبين الخطة والعنوان علاقة وطيدة، كون كلّ منهما يعبر عن الآخر، ذلك أنّه من العيب العلمي أن يردّ في الخطة ما لا يشير

إليه العنوان، أو أن يحتوي العنوان على عناصر لا تتناولها الخطّة في عناصرها ومكوّناتها، وهذا ما حاولت أن أحرص عليه في الخطّة الآتية:

لقد ألزمني الموضوع أن أتناول البحث في مقدّمة وثلاثة فصول وخاتمة.

أمّا المقدّمة؛ فقد حوت أهمّ العناصر التي يمكن التّقديم بها للبحث، مثل الإشكالية، وأهميّة الموضوع، والمنهج والمنهجية المتّبعة.

أمّا الفصل الأوّل فقد كان بعنوان: الإمام عبد الحميد ابن باديس؛ عصره ونشأته، وتحت هذا العنوان ثلاثة مباحث؛ تناولت في الأوّل؛ عصر وواقع الإمام عبد الحميد ابن باديس، أمّا المبحث الثاني، فهو ترجمة مختصرة لأهمّ مراحل حياته وهجراته، لأختمه بالإشارة إلى الجانب الحديثي في الحياة الدّراسية للإمام عبد الحميد ابن باديس.

أمّا الفصل الثاني فقد تعرّضت فيه لمنهج الإمام ابن باديس في تناول الحديث النبويّ، وذلك من ناحية مكانة الحديث النبوي عنده، ثمّ مصادر وموارد الإمام في درسه الحديثي، لأفرغ منه بمبحث جوهريّ وأساسيّ عن منهجية الإمام في شرح الحديث النبوي وتدريسه.

أمّا الفصل الثالث؛ فقد حوى مقاصد وأهداف الدّرس الحديثي عند الإمام ابن باديس، والتي تمّ حصرها في ثلاثة مقاصد أساسية وهي: المقاصد الإصلاحية، والأهداف التربويّة، والمرامي العلميّة والمعرفيّة، وتحت هذه الفصول مباحث ومطالب، حسب موضوع كلّ بحث ومحتواه.

لأختم البحث بخاتمة ضمّنتها أهمّ النتائج العلميّة، والتوصيات النهائيّة.

صعوبات البحث:

واجهتني في إعداد هذه البحث العديد من الصعوبات والمعوقات، والتي سأذكر أهمّها:

- قلة الباع والاطّلاع لدى الباحث، مع صعوبة وحساسية الموضوع المطروق.
- قصر المدّة الزّمنية الممنوحة لإنجاز الرّسالة، خاصّة إذا استحضرنّا صعوبة وصول الباحث الجزائري إلى مصادر المعارف والعلوم، ممّا يتطلّب وقتاً أكثر.
- قلة التّمرّس بالمنهجية العلميّة الأكاديمية الدّقيقة، وكون هذه التّجربة جديدة علينا كمبتدئين.
- ندرة المصادر والمراجع العلميّة (الجادة) التي تتناول منهج الإمام ابن باديس من جانب الحديث النبوي، والموجود ليس سوى إشارات خفيفة، ومساهمات علميّة طفيفة، لا تشفي الغليل.

مصادر البحث ومراجعته :

لقد اعتمدت في إنجاز هذا البحث وتوثيقه على مجموعة من المصادر والمراجع، لعل أهمها ما يأتي:

المصادر: ركزت فيها على تراث الإمام ابن باديس المكتوب منه والمطبوع، خاصة منه ما تعلّق بتراث الإمام ابن باديس الحديثي، وكذا ما كتبه عنه تلاميذه، وزملاؤه، ومعاصروه، ممّا كشفوا به عن الكثير من الجوانب التي يمكنها المساعدة في فتح مغاليق هذا الموضوع، وتجليه منهجه في تناول الحديث النبوي، وأسلوبه وطريقته المسلوكة.

المراجع: تتمثل في ما أمكنني الوصول إليه، والاطّلاع عليه، وسبر أغواره، واستجلاء أسرارهِ، من الدّراسات، والكتب، والرّسائل، والمجلّات، والملتقيات، والمؤتمرات، التي لها علاقة بجهود الإمام ابن باديس، أو جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين، وبخاصّة ما كتب عن تاريخ الجزائر، والحركة الوطنيّة الجزائريّة.

وكّل هذه المصادر والمراجع مثبتة في موضعها من فهرس المصادر والمراجع، فلا داعي لإعادة ذكرها هنا، اجتناباً للتكرار والإعادة.

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

الفصل الأول

الإمام عبد الحميد ابن باديس،
عصره، ونشأته.

المبحث الأول:

عصر وواقع الإمام عبد الحميد ابن باديس.

المبحث الثاني:

ترجمة مختصرة للإمام عبد الحميد ابن باديس.

المبحث الثالث:

الجانب الحديثي في الحياة العلمية للإمام ابن باديس.

تمهيد:

إنَّ أيَّ جهد يرمي لدراسة موروث تاريخيٍّ أو جهد بشري لن يكون ذا قيمة علمية، أو ذا وزن معرفي، إلا إذا رجع بهذا الإرث إلى إطاره الزماني والمكاني، فيضمن الباحث بذلك صواب ودقة أحكامه؛ أو على الأقل إن لم يُواقعهما بالصورة المطلوبة والمرجوة فإنه سيقترّب منهما قُرباً نسبياً، فيكون بذلك قد قارب المرغوب وإن لم يطابقه.

وفيما يخصّ موضوع هذا البحث الذي يرمي لكشف بعض خبايا وخصائص الدرس الحديثي عند الإمام عبد الحميد ابن باديس، أجد نفسي مضطراً اضطراراً علمياً لأن أقدم دراسة أو على الأقل إطلالة مركّزة على عصر وواقع الإمام ابن باديس، وهذا الاختيار لم أُلجأ إليه سيرا على الأعراف العلمية فقط، أو تسويداً للأوراق وتضخيماً لحجم البحث، بل لأنّه ضرورة ومُتطلّب من مُتطلّبات البحث الضرورية، وسأجمل بعض هذه الضرورات:

1- قيمة الجُهد وحجمه يستحيل معرفته أو الحكم عليه حكماً صحيحاً إلا إذا عُرِفَت ساحته، وخبر ميدانه، واستنطقت ملابساته الزمانية والمكانية.

2- إنَّ الاستغناء عن هذه الدراسة سيجعلنا نحلّل هذا الجهد في اللامكان واللازمان؛ وهذا مستحيل ومعيّب على آحاد الناس وعامّتهم في بحوثهم العادية فكيف بدراسة تدّعي العلمية والأكاديمية.

3- إنَّ الإمام عبد الحميد ابن باديس ما لمع نجمه ولا ظهر اسمه إلا لأنّه كيّف عمله حسب واقعه وأكبّ يعمل ويصف البلسم المطابق للوقت والمكان، فإذا أهملنا نحن ما اهتمّ به هو فقد ابتعدنا عن المراد وجائبنا وجائبنا الصواب وصرنا في محض عبث لا يسمن ولا يغني من جوع.

4- إنَّ الإمام ابن باديس قد انطلق من الواقع لينتهي إلى الواقع ذاته، وبالتالي فهذه الدراسة يمكن أن نسمّيها: (دراسة المنطلق والموصول)، كما يمكن أن نعبر عنهما بالمبتدأ والمُنتهى، أو المبتدأ والغاية.

وبالتالي إذا طرحنا هذه الفكرة نكون قد أهملنا طرفي القضية وتركنا الأول والآخر، ولا يخفى ما في هذا من البتر والخلل الفاحش، كما يؤدّي (آلياً ومنطقياً) إلى نتائج خاطئة وأحكام غير صحيحة ومغلوبة، وكثيراً ما تؤدّي إلى نتائج عكسية تتمثّل في التشويه والتزوير والبُعد عن الصواب.

5- إن الإمام ابن باديس قد "ظلمه من مجده تمجيذا أعمى واعتبره عبقرية فذة دون أن يحاول البحث في الأسباب التي جعلت ابن باديس عبقرياً، ودون أن يُجهد نفسه في تحليل عصره والظروف التي اعتمدت في تكوينه وتوجيهه"⁽¹⁾.

المبحث الأول : عصر وواقع الإمام عبد الحميد ابن باديس.

سأتعرض في هذا المبحث إلى إطار من الأطر الكثيرة للجهد الباديسي؛ وهو الإطار الزماني والمكاني، وهنا لم أُعبر عنهما (المكان والزمان) بالتثنية رغم افتراقهما اللفظي والمعنوي؛ لأنهما في الواقع متلازمان ومترابطان ترابطاً يصيرهما وحدة مفردة، فلا يوجد جهد أو عمل في زمان دون مكان، ولا في مكان دون زمان، وهنا قد أعارض نفسي كوني لم أكتف في عنوان المبحث بإيراد العصر أو الواقع فقط؛ كون العصر يشير للزمان والواقع للمكان وبالتالي ذكر أحدهما يستلزم الآخر ما يعني أن فعلي هنا تمطيط وحشو، لكنني أقدمت عليه كون المكان والزمان اللذين وُجد فيهما الإمام عبد الحميد ابن باديس لهما خصوصيات كثيرة، فمن حيث الزمان فهو يشترك فيه مع كل أهل عصره (ولهذا بدأت به في عنوان المبحث)، أما المكان والميدان فلم يكن يُشاركه فيه إلا قلة من الناس فتميّز به وتفرّد.

سأتناول في هذا المبحث الواقع والحالة التي أحاطت بالإمام ابن باديس ومدى تأثيرها عليه وتأثره بها، وسأسير في هذا المبحث وفق الرؤية الآتية:

1- تناول أهمّ الجوانب فقط وهي: الحالة السياسية / الحالة الاجتماعية / الحالة الثقافية والعلمية / الحالة الأخلاقية.

2- التعرّض لها باختصار وتركيز غير مخلّين، والأخذ فقط بما له علاقة مباشرة ومؤثرة بالموضوع فلا أدعي الإمام والإحاطة كوني لست في بحث تاريخي، وحتى لا أخرج عن المقصود.

3- لعلّ ما يمكن أن أدعي كونه جديداً في هذا المبحث هو محاولتي توصيف عصر ابن باديس من كل جوانبه التي حدّدها في النقطة الأولى من خلال كتابات ابن باديس نفسه قبل أيّ أحد آخر ولو من المؤرّخين أهل الاختصاص، ثمّ أثني بما كتبه المتخصّصون أو أكتفي بالإشارة إلى مواضعه فقط.

(1): الميلي، محمّد، ابن باديس وعروبة الجزائر، (الجزائر: إصدار وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، د/ ط، 2007م)

4- كان من الأفضل في هذا المبحث أن أدرسه مكانياً بالنظر إلى وطن ابن باديس، وهذا يدلُّنا على أنَّه من خلال كتاباته كان يشير كثيراً إلى أوطان ثلاثة وليس إلى وطن واحد، وهي: الوطن الكبير (العالم الإسلامي)، الوطن الصغير (الجزائر)، الوطن الأصغر (قسنطينة)، لكن لم أفرد كل قطر منها بالدراسة بل أشرت إليها ضمناً في المطالب كل حسب الحاجة، كما أنَّ هذا التقسيم الثلاثي الذي أوردته اجتهادي غير إلزامي فقد يعترض معترض بكون الإمام أشار كذلك لأوطان أخرى مثل: المغرب العربي، أو العالم بأسره لمن يعتبر جهود ابن باديس جهوداً كونية وليست إقليمية.

المطلب الأول: الحالة السياسية.

إنَّ الحالة السياسية لأيِّ أمة تكمن أهميتها في كونها تمثل حالة رأس الهرم؛ الذي هو السلطة الحاكمة ومراكز اتخاذ القرار في البلد مهما تنوع واختلف نظام الحكم، كما أنَّ الاستقرار السياسي هو مطلب وغاية كل أمة، وفي هذا المطلب سأعرض لأهم المظاهر السياسية التي عاشتها الجزائر أواخر القرن 19م وبداية القرن 20م كونها المرحلة الزمنية التي عاش فيها الإمام ابن باديس؛ وهي:

الفرع الأول / القضاء على مقومات السيادة الوطنية:

بعد عزٍّ شامخ وعيش باذخ، وسلطان مُهاب عاشته الجزائر والأمة الإسلامية؛ رزئت الأمة الجزائرية بأحد أعتى وأفظع المستدمرين على مرِّ التاريخ البشري، فمنذ أن وطأتها أقدامهم وقلوبهم السوداء يوم 14 جوان 1830م لم تتوقف آلة الفساد الفرنسية عن التخريب والتدمير، لتكتمل حلقة الأغلال ويتمكن الاحتلال يوم: 05 جويلية 1830م بموجب اتفاقية التسليم ممَّن لا يملك لمن لا يستحق، أو الاستسلام من المغلوب إلى الغالب، هذه الاتفاقية التي تعهدت بأن تحفظ للجزائريين أعراضهم وأموالهم ومقدساتهم⁽¹⁾، وصوّر الفرنسيون أنفسهم كمخلصين ومحررين وحاملين للمدنية، وبأن ركوبهم للبحر لم يكن إلَّا لغاية نبيلة هي: إخراج الجزائريين من البداوة والتوحش إلى رحاب التطور والتقدم.

لكن سرعان ما ظهر الزيف وبانت الحقيقة وأُميظ اللثام عن وحش لا ضمير له ولا شرف ولا إنسانية، لتصير الجزائر مستباحة لكل أشكال الاضطهاد والتخريب والتدمير، فطالت كل المقومات.

(1): أنظر: الملي، مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، (الجزائر: مكتبة النهضة، د/ ط، 1964م)، (مج3، ص: 325).

أ/ القهر والاستبداد: وقد لازم الوجود الفرنسي إلى دقائقه الأخيرة، وقد عبّر عنه الإمام ابن باديس بحذر فقال: "ما أصيب المسلمون في أعظم ما أصيبوا به إلا بإهمالهم لأمر الاجتماع ونظامه، إمّا باستبداد أئمتهم وقادتهم ... وما ذلك إلا من سكوت علمائهم وقعودهم عن القيام بواجبهم في مقاومة المستبدين"⁽¹⁾، فهذا هو ابن باديس يعتبر الاستبداد الاستعماري من أعظم المصائب التي مسّت الجزائريين لأنّ من لوازمه: القهر والتّضييق والعنف والتّعامل بالقوانين الاستثنائية، والمحاكمات العسكرية، وسلب للحقوق.

لقد جرت الكوارث على الجزائريين تترى لكنّ "وبقدر ما كان الاستعمار نقمة وكارثة على الشعب الجزائري، بقدر ما كان نعمة بما قدّمه - عن غير قصد- من وخز للضّمان وإيقاظ لهمهم"⁽²⁾، وهذا التّصلّب الاستعماري كان له عدّة غايات وأهداف أهمّها ما يأتي:

- القضاء على كلّ ما يمكنه أن يشير إلى وجود سيادة غير السّيادة الفرنسية، وذلك بطمس معالم الحكم العثماني، والقضاء على الزّعامات والقيادات الجزائرية الدّينية منها والعسكرية؛ التي يمكن أن يلتفّ حولها الشعب في يوم من الأيام.

- إبعاد الجزائريين وإقصائهم من كلّ المسؤوليات والمناصب الحسّاسة وجعلها حكرا على غير المسلمين، والاكتفاء بتوجيه الموالين منهم إلى وظائف عادية وآنية فرضتها ظروف مرحليّة، وتطلّبها العمل الاستيطاني، مثل المترجمين والممثّلين الأهلين.

- منع الأعمال والنّشاطات ذات الطّابع السّياسي واعتبارها عملا معاديا للدولة الفرنسية، وفي حال وقوع ذلك من أحدهم، أو بمجرد الشك في نشاطاته فإنّه سيكون معرّضا لمحاكمات قاسية قد تؤدّي للنفي أو السّجن، أو التّصفية الجسدية.

- لقد ركّز الاستعمار ضرباته على مقوّمات الكيان السّياسي وهي: (الدّين / اللّغة / الأرض / النّظام الحاكم)، وأدرك أنّ أمة بغير هذه المقوّمات ليست سوى سلبا تفترسه الوحوش وتتناوشه السباع.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، إعداد وتصنيف: أ.د/ عمار طالبي، (الجزائر - برج الكيفان: دار الأئمة، د/ ط، 2009م)، (مج 1/ ص: 370).

(2): بن مزور، عمار، عبد الحميد ابن باديس ومنهجه في الدّعوة والإصلاح، (الجزائر - تيزي وزو: دار الأمل، د/ ط، 2010م)، (ص:

ب/ إصدار القوانين التعسفية: وهذه من أخطر الأسلحة السياسية التي استعملها المستعمر، فقد كان يُمهّد لأعماله الإبادة بغطاء قانوني يُعطيهِ شرعية - لا أقول أمام الغير - أمام نفسه فقط، وبالتالي فكل من عارضها لما فيها من هلاكه سيكون تلقائياً همجياً وخارجاً على القانون ومرتدّاً على النظام، وليس مدافعاً عن نفسه ووجوده، " هذه السياسة التي عملت بكل ما أوتيت من قوّة الحديد والنار والقوانين التعسفية على تخريب العوالم التي تشكّل المجتمع الجزائري، وتُمدّه بالبقاء والاستمرارية والتّمييز الحضاري العام، وهي عالم الأشخاص، وعالم الأشياء، وعالم الأفكار؛ تخريباً شاملاً، والذي يُعتبر أفظع شيء أصاب الأمة الجزائرية في تاريخها الحديث"⁽¹⁾ ومن هذه القوانين:

- قانون إلحاق الجزائر بفرنسا: وهو أحد شقّي سياسة الإدماج الذي كان يرمي إليه المستعمر وهو الإدماج المادّي (الأرض)، والإدماج المعنويّ (الإنسان)، ومتى فرغ من الاثنين فلن يكون في الوجود سوى فرنسا والفرنسي فقط، أمّا الجزائر والجزائري والمسلم فسيندثران.

وقد بدأت فرنسا بالأوّل لما أصدرت قانون 22 / 05 / 1834 م الذي صارت بموجبه الجزائر جزءاً لا يتجزأ من الجمهورية الفرنسية، ومقاطعة من مقاطعاتها تمارس عليها كامل الصلاحيات السيادية، وهي " مستعمرة من مستعمرات الجمهورية الفرنسية"⁽²⁾.

إنّ هذا الإلحاق تمّ عن طريق الاغتصاب والقوّة المفرطة، والتقرير الرّسمي للجنة التحقيق الفرنسية إلى الملك شارل العاشر سنة (1249 هـ / 1833 م) خير شاهد على ذلك، ومّا جاء فيه: " لقد أهدرت السّلطات الفرنسيّة حقوق الشّعب، وداست مقدّساته، وسلبت حرّياته، واعتدت على الملكية الفردية، ودنّس جنودها المساجد، ونبشوا القبور..."⁽³⁾.

- قوانين الأحوال الشخصية: الذي كان الهدف منها طمس معالم الإنسان الجزائري والقضاء على الهوية الإسلامية التي كانت دائماً تُذكّر الجزائريين بأنّهم أصحاب الأرض؛ والفرنسيين بأنّهم غرباء،

(1): زروقة، عبد الرّشيد، جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر (1913/ 1940)، (لبنان - بيروت: دار الشهاب، ط/ 01، 1420 هـ - 1999 م)، (ص: 109).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (مج 3 / ص: 278).

(3): د/ جمال عبد الهادي محمد مسعود، أ/ علي لبن، المجتمع الإسلامي المعاصر (ب) أفريقيا، (القاهرة - مصر، د/ ط، 1994 م)، (ص: 56).

فأصدر قرار (الساناتوس كنولت)⁽¹⁾ عام: 1865 م من طرف نابليون، لكنه لم يلق أي نجاح أمام تصلب الجزائريين في التمسك بقيمهم ومبادئهم، فخلال إحصاءات امتدت إلى الفترة (1865/1875 م) لم يتم إحصاء سوى بضع حالات فقط، وكان الغرض منه ومن القوانين الإدماجية التي تلتها هي تحويل الجزائريين إلى مواطنين فرنسيين، وليس رعايا فرنسيين.

- قانون الأهالي: وهو قانون عنصري صدر سنة: 1875 م وقد كان عبارة عن عقاب جماعي للجزائريين بعد الاستبسال والبطولة التي أظهروها في ثوراتهم الشعبية، ومن أبرز نقاطه:

- منح الوالي الفرنسي السلطات المطلقة في إيقاع العقوبات على الأهالي دون محاكمات، وقد استمر العمل بهذا القانون حتى سنة 1944 م.

- منح الإداريين الفرنسيين كامل السلطات بسجن الجزائريين أو مصادرة أملاكهم دون حكم قضائي، وقد استمر العمل به حتى سنة 1927 م.

كما حوى هذا القانون كثيرا من المخالفات التي هي في مجملها تقييد لحرية التعبير، والتنقل، والتعليم، بل وتجعل من الجزائري مجرد عبد خاضع، ويد عاملة بالمجان، فمن هذه المخالفات:

- التلّفظ بعبارات معادية لفرنسا، أو رفض التعاون مع أعوان الإدارة والقضاء.

- رفض العمل في المزارع الأوروبية، أو الامتناع عن حراسة الغابات بالمجان.

- التنقل من منطقة إلى أخرى دون إذن خاص من السلطات الفرنسية⁽²⁾.

ج/ نظام الحكم في الجزائر:⁽³⁾ بعد سقوط السلطة العثمانية مباشرة بعد الاحتلال، صارت الجزائر تحت حكم عسكري من 1830 م إلى 1870 م، فعندما تسلّم الفرنسيون الجزائر العاصمة يوم 05 جويلية 1830 م، بادر في اليوم التالي الجنرال بورمون BOURMONT بإنشاء لجنة حكومية لتسيير الشؤون الجزائرية، ثم تقرّر إنشاء لجنة حكومية جديدة في 16 أكتوبر 1830 م من قبل القائد الجديد للقوات الفرنسية.

(1): أنظر: صالح عوض، معركة الإسلام والصليبية في الجزائر، (الجزائر: الزيتونة للإعلام والنشر، د/ ط، 1989 م)، (ص: 194).

(2): أنظر: المصدر نفسه، (ص: 194-195).

(3): أنظر: د/ عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962 م، (لبنان-بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط/ 01،

1997 م)، (ص: 120/125). و صالح عوض، المصدر السابق، (ص: 196).

صدور الأمر الرئاسي يوم 22 جويلية 1834م الذي ينص على وجود حاكم عام فرنسي في الجزائر، يعين من طرف مجلس الوزراء الفرنسي والخاضع مباشرة لتوجيهات وزير الحرب الفرنسي. الأمر الرئاسي الصادر في 15 أفريل 1845م القاضي بتقسيم الجزائر إلى ثلاث مقاطعات هي: الجزائر، وهران، قسنطينة.

صدور الدستور الجديد في 4 نوفمبر 1848م والذي تنص المادة 109 منه على اعتبار الجزائر أرضا فرنسية، وهذا كان خاتمة لمراسيم وقرارات سابقة حول ضمّ الجزائر إلى فرنسا سياسيًا. صدور قانون 29 ديسمبر 1900م الذي يعطي الجزائر حكمًا ذاتيًا، وبالتالي فإنه يمكن للمعمّرين التصرف في الجزائر دون الرجوع إلى السلطة المركزية في باريس، وهذا القانون كان استجابة للضغوطات التي مورست على باريس من قبل المعمّرين الذين هددوا بالانفصال، كما يمنح القانون كذلك حرية التصرف المالي وتقسيم الميزانية.

تقسيم البلديات إلى ثلاثة أنواع هي: 1/ البلديات التامة: وهي التي يكون أغلبية مجلسها مؤلفًا من الأوروبيين (3من 5)، فيكون رئيسها أوروبيًا. 2/ البلديات الممتزجة: وتكون في المناطق ذات الأغلبية المسلمة، لكن مديرها موظف فرنسي. 3/ البلديات العربية: وتقع في الجنوب الخاضع للحكم العسكري، وبالتالي فمسيرها هو السلطة. هذا التقسيم يمثل انحدار "درجات السلطة في القطر الجزائري، وينحدر معها التعفن الاستعماري إلى أقصى الدرجات"⁽¹⁾.

وقد كانت هناك انتخابات استعراضية حاولت السلطة استغلالها أمام الرأي العام، ولكنها لم تولّد سوى المظاهر الآتية:

- سريان هذا الداء الاستعماري القاتل بين صفوف النخبة المفكّرة، "ولا يتصر فيها آخر الأمر إلا من استحوذ على الركنين الأساسيين: وفرة المال من أجل شراء الأصوات، وتأيد الاستعمار من أجل تدليس النتائج"⁽²⁾.

(1): توفيق المدني، أحمد، هذه هي الجزائر، (مصر-القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، د/ت/ط)، (ص: 101).

(2): توفيق المدني، أحمد، حياة كفاح مذكرات، (الجزائر-حسين داي: دار البصائر، د/ط، 2009م)، (مج 2/ ص: 33).

- انتشار الفوضى وفقدان الأمة لبوصلة القيادة، وقد نبّه الإمام ابن باديس لخطورته فقال: "حقاً إنّنا نعيش في وسط سادت الفوضى فيه من جميع جهاته... وزادتنا الأيام على كل ذلك فوضى جديدة ربّما كانت أخطر الفوضيات وأشدّها تأثيراً على حياة الأمة وهي فوضى التّكلم باسم الأمة"⁽¹⁾.
أمّا البديل عند الإمام فهو وجوب النّظام والانتظام لأنّ "النّظام أساس كل مجتمع واجتماع... لا بدّ له من رجال أكفاء يقومون به ويحملون الجموع عليه، وأولئك هم الوازعون"⁽²⁾.

الفرع الثاني / سياسة الاستيطان:

لقد أدرك الغزاة أنّ الاحتلال لن يدوم دون استعمار، خاصّة لما رأى الإصرار والممانعة من الشعب الجزائريّ، لهذا شجّعت فرنسا أبناءها على الهجرة والاستقرار في الجزائر، كما فتحت أبوابها للأوروبيين من غير الفرنسيين، كيف لا وقد كان "شعار المارشال بيجو، السّفاح الشّهير: احتلال الجزائر بالسيف والمحراث؛ السيف في رقاب العرب، والمحراث بيد المستعمر الفرنسي"⁽³⁾.
ومن خلال المراجع التّاريخيّة في الموضوع، يمكن القول بأنّ الفرنسيين استوطنوا الجزائر عبر عدّة إجراءات يكمل بعضها بعضاً؛ أهمّها المراحل الآتية:

أ/ تأميم الأراضي والممتلكات: وذلك بعدّة طرق وأساليب شتى؛ منها:

- مصادرة الأراضي من الجزائريين كعقاب لهم على المشاركة في مقاومة الاحتلال، أو بسبب ارتكاب مخالفة ولو كانت تافهة، أو بسبب عدم امتلاك أوراق تثبت حيازة هذا العقار أو المملكيّة.
- مصادرة الأملاك الوقفيّة واعتبارها ملكاً للدولة الفرنسيّة.
- فرض الغرامات الباهظة على الفلاحين لإرغامهم على بيعها أو التّنازل عنها لصالح السّلطات.
- طرد وتشريد السّكان الأصليين؛ بإبعادهم إلى الصحاري والقفار، والأراضي الجرداء القاحلة التي تكون غالباً ذات مردودية ضعيفة جدّاً.

ب/ توزيع الأراضي والعقارات على المستوطنين الجدد: تزامناً مع توسيع فرنسا لأملاكها في الجزائر كانت توازيها دعاية ضخمة للهجرة إلى الجزائر؛ ليس في فرنسا فقط بل في أوروبا كلّها.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (مج 3 / ص: 307).

(2): المصدر نفسه، (مج 2 / ص: 25).

(3): توفيق المدني، أحمد، هذه هي الجزائر، (ص: 97).

وقد "اعتمدت فرنسا في استعمارها للجزائر نظرية الاستيعاب، وهذا النوع من الإستعمار يعتبر أشد أنواعه خطراً"⁽¹⁾، ويمكننا من خلال المؤشرات⁽²⁾ الآتية معرفة حجم الكارثة :

- بلغت نسبة ما تملكه دولة الاحتلال والمستوطنين حوالي: 65٪ من أجود أراضي الجزائريين.
- في نهاية الاحتلال الفرنسي 1962م بلغ عدد المستوطنين في الجزائر 01 مليون نسمة، أي حوالي 10٪ من عدد السكان الأصليين، وقد كان عددهم مع الوقت يرتفع تصاعدياً، أما بالنسبة للجزائريين فقد تراجع عددهم في الفترة الممتدة بين 1861م و1871م بـ: 645000 نسمة، وذلك بسبب التقتيل والتّهجير والقضاء على مقومات الحياة لدى الجزائريين.
- هلاك أكثر من نصف مليون جزائري جرّاء المجاعة التي ضربت الجزائر بين الفترتين 1866م و1868م، بعد تجريدهم من أراضيهم الخصبة.
- قامت فرنسا بتشجيع الأوروبيين للهجرة إلى الجزائر خاصة ممن فاتهم الهجرة إلى أمريكا و قد كانوا من "حشالات الفرنسيين العاطلين، فأنشأت الإدارة أول الأمر 42 مركزاً استعماريّاً، وزعتها مجاناً على عشرين ألفاً من البارسيين، نقلوا بنفقة الحكومة إلى أرض الجزائر"⁽³⁾.
- يمكن أن نورد بلغة الأرقام تطور الورم الاستيطاني في الجزائر من حيث المدة والعدد كالاتي:

1833م	1839م	1847م	1866م
8 آلاف شخص	25 ألف شخص	110 آلاف شخص	220 ألف شخص

وفي 1948م بلغ عدد المستوطنين في الجزائر 931800 نسمة، منهم 744000 ولدوا في الجزائر⁽⁴⁾.

(1): عاطف عيد، قصة وتاريخ الحضارات العربية، موسوعة 22/21 تونس الجزائر، (لبنان-بيروت: Edito Creps Int، د/ ط 1998م-1999م)، (ص: 135)

(2): أنظر: المصدر نفسه، (ص: 133). وأندري ديرليك، عبد الحميد بن باديس مفكر الإصلاح وزعيم القومية الجزائرية، تقديم وترجمة: مازن بن صلاح مطبقاني، (الجزائر-المحمدية: عالم الأفكار، د/ ط، 2013م)، (ص: 68). و د/ تركي، رابح عمامرة، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، (الجزائر-روبية: المؤسسة الوطنية للاتصال النشر والإشهار، ط/ 05، 1422هـ-2001م)، (ص: 46).

(3): توفيق المدني، أحمد، هذه هي الجزائر، (ص: 97).

(4): د/ تركي، رابح عمامرة، المصدر السابق، (ص: 46 - 49).

الفرع الثالث / سياسة التنصير⁽¹⁾ :

أ/ علاقة التنصير بالسياسة: من صور هذه العلاقة الخفية والخطيرة ما يأتي:

- كون "التنصير والاستعمار وجهان لعملة واحدة"⁽²⁾، بل هو عميل من عملائه ودعامة من دعائمه التي يقوم عليها⁽³⁾، ويستعين بها في تحقيق مخططاته وإخضاع الشعوب لإرادته الاستغلالية.
- لقد كان المنصرون ورجال الدين النصارى راضين بأن يجعلوا دينهم وجهودهم "آلة طيعة في يد دولهم، انتهزت تلك الدول هذه الفرصة وجعلت تساعد المبشرين، إلا أنها في الحقيقة كانت تسعى إلى أهدافها السياسية والاقتصادية الخاصة باستغلال المبشرين والدين"⁽⁴⁾.
- يكمن سبب استعانة الأنظمة السياسية الغازية بالمنصرين ورجال الدين، رغم أن كثيرا من هذه السلطات قد لا تؤمن أصلا بالنصرانية، أو أنها من الدول التي تحارب الكنيسة في أوطانها الأصلية، "لما يمتازون به من طرق وأساليب خاصة في بثّ النفوذ السياسي"⁽⁵⁾.
- إنّ الغزو الفرنسي للجزائر لم يكن فقط من أجل البحث عن أراض جديدة، بل "تكشف وثائق الفاتكان وبشكل واضح أنّ عملية الغزو، كانت عبارة عن حرب صليبيّة إلى جانب طبعاً كونها حرب من أجل الكنوز والرغبة في الثأر"⁽⁶⁾.

(1): التنصير: حركة دينية نصرانية سياسية صليبية النزعة، بدأت بالظهور إثر فشل الحروب الصليبية، بغية فرض النصرانية بين الأمم المختلفة بعامة وبين المسلمين بخاصة، بهدف إحكام السيطرة على هذه الشعوب. د/ طعيمة، صابر عبد الرحمن، الإلحاد الديني في مجتمعات المسلمين، (لبنان-بيروت: دار الجيل، ط/ 01، 1425هـ-2004م)، (ص: 223). أنظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف: د/ مانع بن حماد الجهني، (السعودية-الرياض: دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط/ 04، 1420هـ)، (مج 02 ص: 665).

(2): عبد العزيز الكحلوت، التنصير والاستعمار في إفريقيا السوداء، (ليبيا-طرابلس: منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ط/ 02، 1412هـ-1992م)، (ص: 67).

(3): أ/ د البهي، محمد، المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، (مصر-القاهرة: مطبعة الأزهر د/ت، ط)، (ص: 01).

(4): د/ مصطفى خالدي، د/ عمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، (لبنان-بيروت: منشورات المكتبة العصرية، ط/ 03، 1372هـ-1953م)، (ص: 113).

(5): خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1871، 1830 (الجزائر: منشورات دحلب، د/ ط، 1977م)، (ص: 11).

(6): لورا فيشيا فالكيري، أرشيف الفاتيكان السري حول غزو الجزائر من قبل القوات الفرنسية لشارل العاشر أو الحرب الصليبية المجهولة، تقديم: إيمانويل باتاي، ترجمة: حميد عبد القادر، (الجزائر-المحمدية: عالم الأفكار، د/ ط، 2013م)، (ص: 10).

والمراسلات التي كانت بين بابا الفاتيكان والكاردينالات ورجال الدين النصارى أكبر دليل على ذلك، " ومن أجل تسهيل التصورات الصليبية قام البابا بتقديم مساعدة للفرنسيين تمثلت في نحو 200 فارس من فرسان سان جون بالقدس... حينها نسي هؤلاء دون شك رسالة المسيح (ضع سيفك في غمده، لأن كل من لجأ إلى السيف، سيموت بالسيف)"⁽¹⁾. والكلام عن علاقة التنصير بالسياسة موضوع مستقل نكتفي منه بما ذكرنا⁽²⁾.

ب/ وسائل التنصير: إنَّ الرّوح الإسلاميّة التي كانت وقود الجزائريّين في مواجهتهم لعدوان الكفار على حرّماهم وأعراضهم، واستبسالهم في ساحات الوغى أمام أقوى الجيوش في العالم آنذاك جعل " فرنسا ترى - كسائر دول الغرب - أن الوعي الإسلامي خطر على النفوذ الأجنبي في البلاد الإسلامية"⁽³⁾، لهذا كان المنصرون لا يدعون " وسيلة مهما كانت إلا واستغلوها لتحقيق أغراضهم وتراوحت أساليبهم بين الإغراء والشدة، واللين والقسوة، فمن الأساليب الرومانسية الساحرة إلى حرق القرى وإشعال النيران"⁽⁴⁾؛ ومن أهمها وسيلتان مباشرتان هما:

- التمريض والتطبيب: لقد استغلَّ المنصرون آلام الجزائريّين وأوجاعهم التي كانوا هم سبب أكثرها وأشدّها، لكن بعد أن يصنعها السياسيون والعسكريون يأتي من يُكمل المهمة (المنصرون) في صورة المنقذين والمساعدين، فيُظهرون للناس الشفقة والرحمة، ويعرضون عليهم خدماتهم الطبية مجاناً، والحقيقة أن هذه الخدمات لم تكن مجانية بل كانت بباھظ الأثمان وأغلاها لأن المريض سيساوم على أعزّ ما يملك وأشرف ما يحوز؛ وهو دينه وعقيدته الإسلامية.

لقد كانوا أنذالا في استغلال تلك الحالات لكونهم يعلمون أنّه " حيث تجد بشرا تجد آلاما، وحيث تكون الآلام تكون الحاجة إلى الطبيب، وحيث تكون الحاجة إلى الطبيب فهناك فرصة مناسبة

(1): المصدر نفسه، (ص: 12).

(2): أنظر: د/ البهي محمد، الإسلام في مواجهة المذاهب الهدامة، (مصر-القاهرة: مكتبة وهبة، ط/ 01، 1401هـ-1981م)، (ص: 22). و حبنكة الميداني، عبد الرحمن حسن، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، التبشير-الاستشراق-الاستعمار دراسة وتحليل وتوجيه، (سورية-دمشق: دار القلم، ط/ 08، 1420هـ-2000م)، (ص: 187).

(3): د/ عميرة، عبد الرحمن، الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وضلال الاستشراق، (لبنان- بيروت: دار الجيل، د/ ط/ ت)، (ص: 14). وانظر: حبنكة الميداني، عبد الرحمن حسن، المصدر السابق، (ص: 74).

(4): عبد العزيز الكحلوت، المصدر السابق، (ص: 73).

للتبشير"⁽¹⁾، ولهذا تجرّد المنصّرون من كل القيم الانسانية ونقضوا أيمانهم التي أقسموا بها على خدمة الانسان مهما كان انتهاؤه أو أصله وانتسابه، لكن هيهات للضمير أن يتحرّك أو للوازع أن يوقف هذا النزيف الأخلاقي، فكل الوسائل عند المستعمر مباحة لتحقيق سياساته.

- التّعليم: إذا قلنا التعليم فنحن نقصد المدرسة لأنها ميدانه ومكانه الطبيعي، ولهذا يعتبر المنصرون " أن المبشّر الأول هو المدرسة"⁽²⁾، وذلك لعدة اعتبارات أهمّها:

- الذين يقصدون المدارس في الغالب يكونون في سنّ لم يسبق لهم وتلقوا قبلها معارف تحصنهم من شبّهات المنصرين، فيكونون فريسة سهلة لأفكارهم الهدّامة.

- تقارب المستوى التفكيرى لدى التلاميذ بحكم توحدهم في السنّ، ما يسمح بمخاطبتهم بالطريقة اللازمة والمثلى، عكس التجمعات الأخرى التي يختلف فيها حال السامعين.

- كون المدرسة بعيدة عن الشّبّهات، فهي تظهر في صورة مكان للدراسة وتحصيل المعارف الكونيّة، وتقديم خدمة اجتماعية.

- الخبرة والتمرس لدى المدرّسين، وقدرتهم على استعمال وتكييف النظريات التربوية في إيصال ما يريدون إيصاله إلى ذهن الطفل بسلاسة وسهولة.

فمن هنا يظهر خطر هذه الوسيلة وفتكها كيف لا وواحد مثل اللواء الفرنسي (جورج كاترو) يقول عن هذا السلاح: " إنّ المدارس الفرنسيّة إنّما هي الأساس العريق القِدم لسيطرتنا على المشرق"⁽³⁾.

(1): د/ مصطفى خالدي، د/ عمر فروخ، المصدر السابق، (ص: 58).

(2): المصدر نفسه، (ص: 71).

(3): د/ عميرة، عبد الرحمن، المصدر السابق، (ص: 15).

المطلب الثاني: الحالة الاجتماعية والاقتصادية.

لقد تعرّض الإمام ابن باديس لوصف الحالة الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية للمجتمع الجزائري باختصار نريده؛ فأشار إلى "الإنسان الجزائري إلى حالته العقلية المنحطة، إلى حالته الأخلاقية الفاسدة، بسبب قلة مدارس التعليم والتّهذيب الحقيقية والمجازية المفتحة لأبناء الجزائريين، إلى حالته الصحية بسبب قلة أو عدم المستشفيات في كثير من القرى والاسعافات الطبية، إلى حالته الاقتصادية بفقد المدارس الفلاحية وعدم الإعانة لصغار الفلاحين"⁽¹⁾.

الملاحظ هنا أن الإمام ابن باديس لم يعبر عن الجزائري بـ: المسلم أو بـ: الجزائري مجرّداً من إضافة أخرى، بل عبّر عنه بـ: الإنسان ربّما يحرك في المستعمر ضميره وإنسانيته؛ إن كانت له إنسانية أصلاً، وأهم هذه الأوضاع:

الفرع الأول / الأوضاع الاجتماعية:

لقد كانت الأوضاع الاجتماعية في الجزائر صعبة جداً، نتيجة الانحطاط العام الذي صاحب الغزو وتبعاته السياسية، فتجلت هذه الأوضاع في مظاهر كثيرة:

- فشو الفقر والجهل: فقد كان الشعب الجزائري " في حالة من الجهل والفقر والتفرق والذل والاستعباد يرثي لها الجهاد"⁽²⁾، والجهل يؤدي إلى فقدان وسائل الحياة "وهذا هو طور انحطاط الأمم الانحطاط التام، وذلك عندما يرتفع منها العلم ويفشو الجهل وتنتشر فيها الفوضى بأنواعها"⁽³⁾.
فلاحظ " أن الجهل الأسود، والفقر المدقع، والظلم الشنيع، والإهمال الفادح، كل ذلك قد حطّ بكلاكله على سواد الشعب في كامل البلاد"⁽⁴⁾، ولعلّ هذا ما جعل انتفاضة الشعب شاملة كذلك .

- انتشار الخرافة: وحيثما وجد الجهل حضرت الخرافة، وهي نَعْم المعين للمستبدين كونها تحجب الفكر عن الحقيقة وتحوّل بينه وبين اليقظة التي بها ينتفض على واقعه، وبها يعترض لجلّاده بالمصابرة،

(1): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، إعداد: أ.د/ عمار طالبي، (الجزائر - المحمدية: عالم المعرفة

للنشر والتوزيع، ط/ 01، 2014م)، (مج 05 / ص: 119).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 01 / ص: 399).

(3): المصدر نفسه، (مج 01 / ص: 268). وانظر: (مج 01 / ص: 408).

(4): توفيق المدني، أحمد، حياة كفاح مذكرات، (مج 02 / ص: 32).

وهذا ما جعل " عددا من الطقوس الجاهلية انتعشت نتيجة لذلك، كما انقسم المجتمع الجزائري على نفسه انقساما خطيرا"⁽¹⁾.

- الإعراض واليأس: يقول ابن باديس: " ونحن نراها فاشيين في أكثر الناس على تفاوت بينهم على حسب ما عندهم من إيمان وعمل صالح"⁽²⁾، ولا شك أن هذا اليأس كان نتيجة الأوضاع الاجتماعية المخزية، وهذا ما حدا بابن باديس يستنهض الهمم ويشحذها ليوم مشهود، لأن هذا الداء سيكون في صالح المخططات الاستعمارية، كون اليأس يفقد ممانعته وصلابته في مواقفه تدريجياً حتى تخور قواه ويفقدها، وبالتالي سيسلم ويستسلم بين أنياب المفترس.

- الاختراق الاجتماعي: لقد فقد المجتمع الجزائري كثيرا من خصوصياته وعوامل تماسكه والتحامه، خاصة بعد اختراقه من طرف الأيدي الفرنسية التي كانت قد درستة وأعدت خرائط نفسية واجتماعية محكمة، وذلك قصد إصابته في مقاتله، ولهذا نجد الإمام ابن باديس يندد باختراق المنصرين للوحمة الأمة والسعي المشبوه لـ "معلمي اللغات والأديان والمروجين للنصرانية في السهول والصحاري والجبال، بين أبناء وبنات الإسلام، في أمن وأمان، بل في تأييد بالقوة والمال"⁽³⁾.

- تفكك الأسرة: إذا كانت الأسرة في أي مجتمع من المجتمعات هي الخلية الأولى والأساسية في تكوينه، فبالتالي استقراره من استقرارها، وسعادته من سعادتها، وأمنه من أمنها، وتماسكه من تماسكها، فإن الأسرة الجزائرية كانت في أسوأ مراحلها التاريخية، وفيما يأتي بعض ما مسها :

- فقدانها لأفرادها أو بعضهم أثناء المدافعة المسلحة مع المستعمر، ولا يخفى ما لكل فرد من مكانة.

- فقدانها لمصادر الكسب والعيش (الأراضي/ العقارات/ المواشي/ الأموال...) إما بسبب المصادرة، أو الغرامات الباهظة، أو بيعها بأبخس الأثمان، وبالتالي تفقد دخلها المادي الضروري.

- ابتعادها عن محيطها الذي اعتادت ملابساته وخصائصه لأجيال، وذلك بسبب الهجرة أو التهجير القسري، فتنتقل لمحيط غير خيرة به.

- فقدان كثير من العائلات لمكانتها الاجتماعية التي كانت تتمتع بها، ونزولها في السلم الاجتماعي.

(1): أندري ديرليك، المصدر السابق، (ص: 209).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 01/ ص: 337).

(3): المصدر نفسه، (مج 03/ ص: 244).

الفرع الثاني / الأوضاع الأخلاقية:

في هذه الفترة من الاحتلال " لم تعد أخلاق الماضي موجودة، لقد تراجع الجزائريون إلى حالة الجاهلية عندما كانت الغرائز والطيش تسيطر عليهم "⁽¹⁾، إنَّ هذا الوصف من أندري ديرليك فيه الكثير من الصَّحة والصَّواب، لكن فيه مبالغة زائدة، خاصة عند قوله: " لم تعد أخلاق الماضي موجودة "، والحقيقة أنَّ في إلغائها وإنكار وجودها مُجانبة للحقيقة، لأن الباقي منها هو الذي استثمره المصلحون، وتماه المرشدون أثناء قيامتهم للإصلاح.

ولعلَّ الوصف الأصوب هو ما رآه الإمام ابن باديس: " رأينا كما يرى كل مبصر ما نحن عليه معشر المسلمين من انحطاط في الخلق... وعود عن العمل وانحلال في الوحدة وتعاكس في الوجهة وافتراق في السير "⁽²⁾، فالجزائريون كانوا يعيشون انحطاطا وضعفا، وليس انعداما أخلاقيا.

وقد كانت نتائج هذا الانحطاط وخيمة على كل الفئات والمستويات، وكادت تعصف بتماسك المجتمع وثوابته، كيف لا وقد " خارت النفوس القوية وفترت العزائم المتقدمة، وماتت الهمم الوثابة، ودُفنت الآمال في صدور الرجال، واستولى القنوط القتال واليأس المميت، فأحاطت بنا الويلات من كل جهة، وانصبت علينا المصائب من كل جانب "⁽³⁾، ومن مظاهر هذا الفساد الأخلاقي:

- ظهور الفواحش والمنكرات: فتنشر وتلقي بأذيالها على فئات الأمة، فمن لم تُواقعه قاربتة على الأقل، فيترك الوعد ويُخَان العهد وتُضيّع الأمانات باختلافها، " فإذا أعدمتم منهم الأمانة فخانوا الله والرسول وخانوا أماناتهم وفشت الفواحش والمنكر والبدع فيهم وصاروا لا يتناهون عن منكر فعلوه "⁽⁴⁾، وبهذا يعمُّ فساده، وتتهادى ظلاله.

- مصاحبة الأشرار: من مظاهر الفساد الأخلاقي انتشار الصَّحبة السيئة، وكثرة الأمرين بالمنكر الدّاعين إليه، وقد حلَّ الإمام ابن باديس هذه الظاهرة فقال: " عندما تتخلل محبة شخص من الناس قلبك وتمتزج بروحك ويستولي بسلطان مودته عليك تصير أقواله وأفعاله كلها عندك مرضية

(1): أندري ديرليك، المصدر السابق، (ص: 242).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03 / ص: 24).

(3): المصدر نفسه.

(4): المصدر نفسه، (مج 01 / ص: 359).

وعيوبه ونقائصه عنك محجوبة، فتمسي طوع بنانه ورهن إشارته، يوجهك حيث شاء، ويصرفك عما أَراد، وهذه حالة من أخطر الأحوال عليك لأنك فيها قد سلبت تمييزك وخسرت إرادتك وصرت آلة في يد غيرك... "(1).

إنَّ الإمام لم يكتف فقط بالوصف فيترك القارئ مندهشا وتائها، بل أمعن في تحليل الظاهرة تحليلا نفسيا وواقعيا؛ إن دَلَّ على شيء فإنما يدل على الدقة وقوة النظر التي يتمتع بها المخلصون من قاصدي الإصلاح، والتحليل الصحيح للظواهر المرضية هو الكفيل وحده بوصف الدواء الملائم والمرهم الشافي، الذي لا يقاومه مرض ولا يثبت أمامه حاجز.

يبقى لنا القول بأن هذا الانحطاط الأخلاقي لم يكن وليد الصدفة، ولا منشأ من العدم بل له عوامل موضوعية كثيرة؛ أهمها:

- التعطيل والكساد المزمّن الذي مسّ مؤسسات التربية الأخلاقية في المجتمع، مثل: الأسرة، والمسجد، والمدرسة، والشارع، وذلك إما بسبب تدميرها تدميرا ماديا كليًا وإلحاقها بحكم العدم، كما حدث مع المساجد والمؤسسات التربوية الأهلية، أو اللجوء إلى التدمير المعنوي وذلك باختراقها وتفريغها من محتواها التربوي؛ بتركها هياكل بلا روح.

- تشجيع المسخ الاستعماري لكل أشكال الفساد والانحلال الخلقي في المجتمع، وفرضه بالقوة في حالة وجود معارضة أهلية، والتركيز في هذا المجال على الشباب والمرأة.

- إطلاع الأهالي على أنماط معيشية غريبة عنهم قدّم بها المستوطنون الجدد إلى الجزائر، وأكثرها سلبية منافية للأخلاق السوية والتعفف الفطري، خاصة ما كان يقترفه " حثالات الفرنسيين العاطلين"(2)، وأغلبية المستوطنين كانوا في بلدانهم من المنحرفين والبطالين، بل وحتى من المساجين وغير الأسوياء، فكانت المناطق الأهلية البعيدة عن تجمّعات المستوطنين أفضل حالا من الأخرى.

- غياب الأمن والردع في المجتمع، وكيف يكون الردع والمكلف به هو الذي يشجّعه ويسهر عليه، فكان المجتمع هو الذي يقوم به حسب الطاقة، متمثلا في سلطة المسنين وكبار القرى والقبائل.

(1): المصدر نفسه، (مج 01 / ص: 404).

(2): توفيق المدني، أحمد، هذه هي الجزائر، (ص: 97).

الفرع الثالث / الأوضاع الاقتصادية:

لقد كان نظام الغرسة والاستغلال الاستعماري " لا يهتم إلا بأمرين اثنين: أولهما راحة مليون من الأوربيين وثروتهم، وثانيهما: العناية بالأرض الاستعمارية، وتوسيعها، أمّا التسعة ملايين من أهل البلاد، فللبيت ربّ يحميه"⁽¹⁾، إذا فالاقتصاد الاستعماري وحده هو الذي كان ينمو ويتقدم على حساب مصالح الأهالي، وقد عبّر الإمام ابن باديس بعقريّة فذة عن هذا الواقع حين قال: " فإنّ الجزائر الأهلية اليوم تمثّل الشقاء بكل ما لهاته الكلمة من المعاني الدّامية، لا من الوجهة الأدبية فقط بل ومن حيث الوجهة المادية أيضا، فالأهالي الجزائريون اليوم يمثلون الفقر والجهل والذل، وبلادهم تمثل الخرابة"⁽²⁾.

نفهم من هذا النص الباديسي الواقع الاقتصادي للجزائر بتركيز، ونستنبط منه ما يأتي:

- الشّقاء المادي والاقتصادي الذي خيّم على الجزائر سنين الاستعمار، إنّما أصاب الجزائر الأهلية فقط، ولا يعني الجزائر الفرنسيّة، أي إنّ اقتصاد المستوطنين كان مزدهرا، ومتناميا بفضل الأولوية والدعم السياسي والمالي الذي كان يلقاه، عكس التضيق والتعنت اللذين يعاني منهما الأهالي.

- يشير ابن باديس عند كلامه عن الذّل؛ إلى الاستغلال المُشين لليد العاملة الجزائرية في مزارع المستوطنين كيد عاملة رخيصة، وما يصاحبه من الإمعان في الإذلال اللفظي والجسدي.

ومن مظاهر الضعف الاقتصادي في الجزائر الأهلية:

- الفوضى وانعدام التنظيم: " حقّا إنّنا نعيش في وسط سادت الفوضى فيه من جميع جهاته، فمن فوضى في الدين إلى فوضى في الأخلاق، إلى فوضى في الاقتصاد"⁽³⁾، إنّ احتجاج الإمام ابن باديس على الفوضى الاقتصادية في الجزائر الأهلية نابع من نظرتة إلى أنّ الاقتصاد لن يكون ذا أثر وفاعلية ومساهمة في النهوض بالأمة، إلّا إذا كان منظّمًا ومسيرًا بخطّ تضمن له الاستمرارية والتّأثير المطلوبين، فالإنتاج الكثير لن يكون ذا أثر إذا لم يكن هناك نظام في التّوزيع، كما أنّ القليل منه يمكن للنّظام أن يكثره بالعدالة في اقتسام الثروة.

(1): توفيق المدني، أحمد، هذه هي الجزائر، (ص: 122).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05 / ص: 33).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03 / ص: 307).

- ضعف التجارة: إن التجارة من أهم الركائز التي يقوم عليها الاقتصاد، ولهذا بعد قرن من احتلال الجزائر يصف لنا الإمام ابن باديس حالتها بقوله: "إننا لا نزال -رغم القرن- أمواتا موتا اقتصاديا جاهلين بطرق التجارة التي هي أساس الحياة"⁽¹⁾، إن هذا الوصف المرعب يؤكد لنا الوضع الكارثي الذي آلت إليه الأمور في الجزائر الأهلية، وهكذا كانت التجارة "عبارة عن معول هدام، مخرب، يحطم كل يوم شيئا من بقايا الكيان الجزائري، ويحكم على الأمة الجزائرية كل يوم حكما جديدا بالإفلاس والإملاق"⁽²⁾.

لن أنقل الإحصائيات عن الثروة الحيوانية، والنباتية والمعدنية، ولكن سأكتفي بالقول؛ بأن الاستعمار "إن كان قد استولى عنوة واقتدر على أكثر ما فوق الأرض، فهو استولى فعلا، وبصفة مطلقة، على كل ما تحت الأرض"⁽³⁾، بقي أن نشير إلى بعض أسباب هذا التدهور:

- سياسة الاحتكار: وذلك بالاستحواذ على كل الأسواق التجارية، والمجالات الصناعية، وتسييرها وفق المصالح الاستعمارية فقط.

- سياسة الإقصاء: وذلك بإبعاد العنصر الأهلي عن كل مصدر من مصادر الثروة، بل عوض ذلك يجب جعله وسيلة رخيصة، وأداة من أدوات الاستغناء الاستعماري.

- مراقبة رؤوس الأموال والحرص على أن تكون بأيدي المعمرين، وبالمقابل التضييق على العائلات الأهلية ميسورة الحال؛ بفرض الضرائب ومحاصرة نشاطاتها الاستثمارية.

- إصدار القوانين والمراسيم والقرارات التي تمنح الامتيازات غير المحدودة للمستوطنين، والتي تحدّ وتحاصر الأهالي وتعيقهم عن كل نشاط تجاري أو صناعي.

- إبعاد الأهالي عن الوظائف المحترمة والسيادية، وتوجيههم إلى الأشغال الشاقة والمخزية في المزارع والبساتين، ومخازن الخمور، والاسطبلات.

- ضعف الأجور وقلّتها مقارنة بأجور المستوطنين من جهة، والجهد المبذول من جهة أخرى، دون الحديث عن المنح العائلية، أو التغطية الاجتماعية والصحية.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05/ ص: 102).

(2): توفيق المدني، أحمد، هذه هي الجزائر، (ص: 124).

(3): المصدر نفسه، (ص: 127).

المطلب الثالث: الحالة العلمية والعلمية.

في هذا المطلب سأحاول تصوير الحالة الدينية والعلمية بتركيز، وذلك بالإشارة لأهم مسائله ومظاهره:

الفرع الأول / حالة التعليم:

على مستوى العالم الإسلامي كان التعليم واقعا تحت وقع التقليد، وضعف برامج التعليم، وبمنظرة على أكبر حواضره في العالم الإسلامي نجد " الأزهر وأهل الأزهر -إلا قليلا- على دين الدولة وهوى العامة... أما الجامعان اللذان يذكران مع الأزهر بشمالنا الافريقي وهما الزيتونة بتونس والقرويين بفاس -فهما- إلا قليلا- كما قال الأول:

فما شر الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذي لا تصبحينا

وكيف يكون حال العالم الإسلامي ومراكزه العلمية الدينية في ذلك الضلال المبين"⁽¹⁾، ومما يدل على متابعة الإمام ابن باديس للأوضاع؛ تصريحه بعد فترة بأن صوت " العلماء بالإصلاح الإسلامي والحمد لله قد ارتفع من مصر وطرابلس والجزائر والمغرب الأقصى وما بقي ساكنا إلا جامع الزيتونة، فلا تسمع له همسا"⁽²⁾.

أما الأوضاع في الجزائر فقد كانت أسوأ منها في البقاع الإسلامية الأخرى نتيجة للعوامل الآتية:

- غلق الفرنسيين للمدارس والمعاهد والمؤسسات التربوية الجزائرية، مثل: الكتاتيب والمساجد، وتحويل بعضها إلى استعمالات أخرى، أو تهديمها نهائيا، واعتبار التعليم الإسلامي تعليما أجنبيا.
- في حال السماح لبعض المدارس بتدريس العربية، فإنها ستظل تحت الرقابة الفرنسية، ومتى لوحظ عليها الخروج عن الإطار المحدد فإنها ستغلق ويتشرد تلاميذها.
- ملاحقة العلماء والمدرسين المسلمين ممن يُتوسّم فيهم الفكر التنويري واليقظة، وإجبارهم على النّفي والإذلال بالسّجن والملاحقات.

- إيجاد تعليم موازٍ تغريبي، تنصيري، يُحرّج أفرادا ممسوخين حضاريا ومعاقين فكريّا.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03 / ص: 66).

(2): المصدر نفسه، (مج 03 / ص: 116).

ومن العوامل التي يركّز عليها الإمام ابن باديس باعتبارها سببا في تدهور التعليم الإسلامي:

- خيانة العلماء للعامة: "وأعظم خيانة بعد الكفر خيانة العامة، لأن الذنب يعظم بعظم أثره وانتشار ضرره، ولهذا جاء الوعيد الشديد فيمن ولي أمرا من أمور المسلمين فغشّهم ولم ينصح لهم" ⁽¹⁾، فسكوت العلماء عن المنكر كان من أسباب استمرار الجهل والأمية في المجتمع، وهذا إما خوفا من بطش السلطات الفرنسية، أو خوفا من معارضة الناس في عوائدهم مما سيستعديهم عليهم.

- الإعراض عن المصلحة العامة: وذلك بسبب استقالة النخبة الوطنية من مهامها، وانصرافها عن مهمتها المتمثلة في إيقاظ الهمم، ونفض الغبار عن أمة مُستنزفة، ولقد صاح فيهم الإمام ابن باديس: "لنجعل المصلحة العامة غايتنا، والمقدمة عندنا حتى لا يكون - إن شاء الله - في مصالحنا الخاصة ما يصر فنا أو يشغلنا عنها" ⁽²⁾، هذه الصيحة التي استجاب لها كوكبة من أبرار الأمة الجزائرية.

- غياب القدوة في الأمة: لقد كان كثير من أهل العلم أو لنقل أهل المعلومات والمعارف "قطعهم ما حصلوا من علم عن العمل فوقف بهم عندما انتهوا إليه... وكانوا على أنفسهم وعلى الناس شر فتنة وأعظم بلاء" ⁽³⁾، فازداد الناس ضياعا على آخر، وهاموا على وجوههم بحثا عن مثال للسير خلفه.

- اندراس الحق وظهور الباطل: أدّى انزواء النخبة الجزائرية وخمود صوت الحق وانتشار الأمية وغياب التعليم، إلى بروز ضده ونقيضه، فإذا خَفَت الحق علا صوت الباطل وتجلّت مظاهره في ظهور الشرك بأنواعه وأقسامه، وانتشار البدع والمحدثات في الدين والقيام بها على أساس أنها جزء من الدين، وكثيرا ما بيّن الإمام عبد الحميد ابن باديس خطرهما في كتابات كثيرة ⁽⁴⁾.

- الاستيلاء على الأملاك الوقفية: ⁽⁵⁾ وذلك بموجب القانون الذي أصدره الجنرال دي بورمون في 08 سبتمبر سنة 1830م ثم الذي تلاه في 07 ديسمبر 1830م، والذي أمكن من خلاله للفرنسيين وضع الأوقاف الإسلامية تحت تصرّفهم، وبالتالي قطع المموّل الأساسي للتعليم في الجزائر كلها.

(1): المصدر نفسه، (مج 01/ ص: 361).

(2): المصدر نفسه، (مج 01/ ص: 371).

(3): المصدر نفسه، (مج 01/ ص: 348).

(4): أنظر: المصدر نفسه، (مج 01/ ص: 207-343-472). (مج 03/ ص: 292).

(5): أنظر: د/ توكي، رابع عمارة، المصدر السابق، (ص: 343-376). و صالح عوض، المصدر السابق، (ص: 204-219).

الفرع الثاني / حالة النخبة والمثقفين:

تظهر أهمية الإشارة لهذا الجانب في كون حالة النخبة والطبقات المثقفة هي المقياس والموجه لحال باقي طبقات المجتمع الجزائري، وفي عهد الإمام ابن باديس " كان الذين يتسمون بالعلم - إلا قليلا- بين جامد خرافي... وحاذق دنيوي قد غلبه الوظيف واستولى حبه على قلبه فأنساه نفسه وأنساه ذكر الله، وكان العلماء الأحرار المفكرون -على قلتهم- مغمورين مشتمين"⁽¹⁾.

من هذا النص نستنتج بأن العلماء كانوا على ثلاث مراتب متباينة؛ فالأولى وهي الكثرة؛ يمثلها أهل الجمود والخرافة ممن ساهموا في تخدير الأمة ووأد الوعي، والثانية هي طبقة المثقفين الموظفين لدى الإدارة الاستعمارية، وهؤلاء قد رضوا بوظائفهم ومالوا إلى عدوهم على حساب الأمة ومصالحها، أما الطائفة الثالثة فهم قلة من علماء أحرار متنورين، لكن نورهم لم يهد الأمة ولم ينفعها النفع المطلوب لتشتته وتفرقه.

إنّ هذا الواقع المؤلم للعلماء في الجزائر، يؤكد بأن الجانب الثقافي والعلمي كان في انحطاط كبير ألقى بظلاله السوداء على باقي فئات الأمة، خاصة وأن الجهود القليلة التي كانت تُبذل من طرف بعض الغيورين لم تنفع النفع المرجو؛ لكونها كانت فردية ومحدودة تتم على مستوى إقليمي جزئي محلي لا تتناول كل هموم القطر الجزائري، كما أنها كانت بعيدة عن المقاصد الكبرى والقضايا المهمة التي كانت تتطلبها عملية الإصلاح الشامل.

كما يرشدنا النص السابق إلى عدم صحّة القول؛ بأنه قبل الإمام ابن باديس " لم يكن هناك أي جهد في البلاد قد أجري لمحو آثار الذهنية التقليدية في المجتمع الجزائري"⁽²⁾، فقد كانت هناك جهود علمية مهّدت للجهد الباديسي خاصة " تلك الجهود الإصلاحية التي شهدتها قسنطينة مطلع القرن العشرين، قد أعادت إلى الأذهان ماضيا كان فيه الشيخ المجاوي والشيخ بن مهنا وأفراد آخرون يدأبون على البذل وزرع الحياة"⁽³⁾.

(1): المصدر نفسه، (مج 04 / ص: 367).

(2): أندري ديرليك، المصدر السابق، (ص: 336).

(3): أ/د عشراقي سليمان، ابن باديس رؤى وقراءات في تفاصيل المسيرة، (الجزائر-عين الدفلى: دار ألف للنشر والتوزيع، د/ط،

(م2013)، (ج 1 / ص: 35).

لقد وجد الإمام ابن باديس قواعد أو لنقل رسوما لأثر عمل إصلاحى سابق شيد عليه بنيانه وقوى أساسه، ومن معالم هذه الجهود السابقة:

- مدرسة محمد عبده⁽¹⁾ في الجزائر: لقد كان لأفكار محمد عبده في الجزائر صدئ وأثر، فقد وجدت من تأثر بها واعتنقها ولهذا صار " محمد عبده له مدرسة في الجزائر وعلى رأسها محمد بن مصطفى بن الخوجة وهذا عنصر من أهم العناصر في النهضة الإسلامية الحديثة في الجزائر "⁽²⁾، ونفس هذه العناصر تجددت في عهد ابن باديس بعد أن نفخ فيها الإمام من روحه الإصلاحية .

- دور الصحافة العربية: فقد ساهمت في إيقاظ الضمير وصنع النهضة في الجزائر خاصة مع مطلع القرن العشرين الميلادي، والدليل على ذلك الصحف و الجرائد الحرة التي صدرت في الجزائر خاصة الصادرة منها باللغة العربية، والتأثر فيها بالصحف المشرقية كان ظاهرا جلياً، " وبهذا نرى أن الصحافة لعبت دورا كبيرا في النهضة "⁽³⁾.

- الحركة العلمية في قسنطينة: إن سبب تخصيص قسنطينة هنا بالذكر دون باقي الأقطار الجزائرية، ليس فقط لأنها موطن الإمام ابن باديس، بل ولأنه " ما من انعطافة سجلها تاريخ الوطن إلا وكان لقسنطينة فيه شهادة "⁽⁴⁾، ولكون النهضة العلمية -على ضعفها- كان يتركز أكبر روادها في قسنطينة، فالشيخ صالح بن مهنا (ت: 1325هـ)⁽⁵⁾ " من العلماء الذين حاربوا البدع، وحاولوا

(1): محمد عبده (1266 - 1323هـ): " من كبار رجال الإصلاح والتجديد في العالم الإسلامي، مفتي الديار المصرية، تعلم بالجامع الأحمدى بطنطا، ثم بالأزهر، تصوف وتفلسف، وعمل في التعليم والقضاء، وكتب في الصحف والمجلات، أصدر مع أستاذه وصديقه جمال الدين الأفغاني جريدة العروة الوثقى، له عدة مؤلفات؛ منها: (تفسير القرآن الكريم)، (رسالة التوحيد) .

أنظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، (لبنان- بيروت: دار العلم للملايين، د/ ط / ت)، (مج 06 / ص: 252).

(2): د/ عمار طالبي، ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 01 / ص: 39).

(3): المصدر نفسه، (مج 01 / ص: 55).

(4): أ/ د عشاري سليمان، المصدر السابق، (ج 01 / ص: 35).

(5): صالح بن مهنا (1271 - 1328هـ): " القسنطيني الأزهرى، عالم سلفى، من رواد الحركة الإصلاحية الجزائرية، ولد بنواحي القل، ونشأ بقسنطينة وتعلم بها، كما درس في تونس والأزهر، عاد إلى قسنطينة حيث اشتغل بالتدريس والتعليم الإصلاحي " .

أنظر: عادل نويهي، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، (لبنان- بيروت: مؤسسة نويهي الثقافية، ط / 02، 1400هـ- 1980م)، (ص: 323).

تحريك المجتمع، وبذروا الحركة الإصلاحية... فإن مناجاته للضمير كادت توقظ أهل قسنطينة كلها حوالي سنة 1898م⁽¹⁾، ثم أكمل مسيرته الشيخ عبد القادر المجاوي (ت: 1332هـ)⁽²⁾، الذي جاهد بمؤلفاته النوعية ودروسه الموقظة جامعا بين القول والعمل في كل من قسنطينة والجزائر، كما حرص على إصلاح التعليم، ومن تتلمذ عليه الشيخ حمدان الونيسي أستاذ الشيخ عبد الحميد ابن باديس، والشيخ المولود بن الموهوب مفتي قسنطينة المالكي.

الفرع الثالث / الحالة الدينية:

لقد كاد الحق يندرس في الجزائر، ولم يبق في كثير من البلاد من الدين إلا رسمه فقط، واستحكمت العادات الفاسدة ومظاهر الشر والبدعة، وما سطره الباحثون في وصف الحالة الدينية للجزائر كثير جدا، لذا سأكتفي بالإشارة لأهمها فقط⁽³⁾:

- حال أهل الدين والفتوى: لقد كانت أوضاع الإسلام في العالم الإسلامي كلها متقاربة، مع التفاوت من قطر إلى آخر سلبا وإيجابا، كما أن هذه الأقطار كانت تؤثر في بعضها البعض بحكم الاتحاد الروحي والجغرافي الذي كان يجمع العالم الإسلامي، وقد أشار الإمام إلى هذا الوضع فقال: "في العالم الإسلامي كله اليوم طائفتان من المؤمنين تتنازعان خطة الهداية والندارة والتذكير، ولكل منهما في سلوكهما للقيام بتلك الخطة سبيل، وكل منهما تدعي أنها هي التي على الصواب"⁽⁴⁾.
أما الطائفة الأولى منهم؛ فهم العلماء العاملون الذين حفظوا عهد الله تعالى في خلقه، فقاموا قومة

(1): د/ عمار طالبي، المصدر السابق، (مج 01/ ص: 19).

(2): عبد القادر المجاوي (1264 - 1332هـ): "ولد بتلمسان وتعلّم بها، ثم أكمل دراسته بطنجة وتطوان وجامع القرويين بفاس، عاد إلى الجزائر فعين مدرسا بجامع الكتاني بقسنطينة، ثم في القسم العالي بالمدرسة الثعالبية في مدينة الجزائر، وهو خطيب ومصلح فذ، له كثير من المؤلفات منها: (اللمع في إنكار البدع)، (إرشاد المتعلمين)، (نزهة الطرف في المعاني والصرف)".
أنظر: عادل نويض، المصدر السابق، (ص: 286). و محمد الصالح الصديق، أعلام من المغرب العربي، (الجزائر: دار موفم، د/ ط، 2003م)، (مج 01/ ص: 30-43).

(3): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03/ ص: 66)، بن نبي، مالك، آثار ابن باديس، (مج 01/ ص: 11) ومشكلات الحضارة من أجل التغيير، (سورية-دمشق: دار الفكر، ط/ 04، 1426هـ-2005م)، (ص: 44)، د/ عمار طالبي، المصدر السابق، (مج 01/ ص: 17-18)، أ/ د عشراقي سليمان، المصدر السابق، (ج 01/ ص: 105).

(4): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (مج 01/ ص: 380).

المصلحين عاملين محتسبين لا يسألون الناس أجرا، واتخذوا الوحي دليلا لهم ومرشدا، وأحيوا في الناس غرس الخير والفضيلة، وراحوا في سبيلهم غير ناظرين إلى العوائق القاطعة.

أمّا الطائفة الثانية فهم العلماء الذين اتخذوا دينهم تجارة وطريقا للكسب غير المشروع بابتعادهم عن هدي القرآن الكريم، وتلييسهم على الناس بمحدثات عقولهم وما تشتهيهم أنفسهم، وتزيينه للناس على أنه هو الحق الذي لا يدانيه حق، والصواب الذي لا يعاكسه إلا الباطل والضلال.

والفرق بين هذين الفريقين " أن الأولين يصدعون بكلمة الحق مجلجلة، ويرسلون صيحة داوية ويعملون أعمالهم في وضوح النهار ومحافل الخلق، وأن الآخرين يتهامسون إذا قالوا ويستترون إذا فعلوا ويعمدون إلى الغمز والإشارة والتعمية ولو وجدوا السبيل لكانت لهم لغة غير اللغات، وكان الزمن ظلماً، والأرض كلها مغارات"⁽¹⁾.

- انحراف الطريقة⁽²⁾: بعد أن كانت بعض الطرق الصوفية رمزا للجهاد والتصدي للمحتل الكافر، صارت بعد برهة رمزا للخرافة والجهل والخضوع والخنوع، وعاملا من عوامل الانحطاط الديني والعلمي والثقافي في الجزائر وصاروا " حثالة لا تجتمع إلا على إفساد سمعة الوطن ولا تفرق إلا لجمع ما فيه خصوص نفع البدن... فكل حركاتها إضرار وكل أنفاسها إعصار، أصرت على الخبائث بكل وقاحة بعدما أُنذرها أهل الصّراحة"⁽³⁾، حقا لقد كان الإمام ابن باديس صريحا في وصفه، وما ذلك إلا للآثر والنزيف الحاد الذي أحدثته الطريقة من خلال مظاهر كثيرة منها:

- الرّعاة الروحية المضرة⁽⁴⁾: التي كانت تمارسها الطريقة على الدهماء من الجزائريين بغير وجه شرعي، وعوض توجيهها ضد المستعمر جهادا، ومقاومة، ونضالا، كثيرا ما كانت مخدّرا للعقول وقاتلا للهمم فكانت بردا وسلاما على المحتلين، بل ونعم الناصر والمعين في تسيير الجزائريين.

(1): المصدر نفسه، (مج 02 / ص: 125).

(2): الطريقة: "جمع طريقة، ويراد بها: جماعة صوفية، لها شيخ تنتسب إليه، وتخضع لفكره وتوجيهه، وتعاهده أو تعاهد خليفته أو نائبه على الالتزام بالورد، والطاعة الدائمة للشيخ، والولاء للطريقة"، د/ أحمد بن عبد العزيز القصير، عقيدة الصوفية وحدة الوجود الخفية، (السعودية - الرياض: مكتبة الرشد، ط/ 01، 1424 هـ - 2003 م)، (ص: 182).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05 / ص: 23).

(4): المصدر نفسه، (مج 05 / ص: 124).

- استعانة الطريقين بالحكام ضد الإصلاحيين: فكانت الطريقة كلما كرّ عليها الإصلاحيون بالحق والبيان الواضح الجلي، وبينوا انحرافها وزيف منهجها، واعوجاج سبيلها؛ التجأت وارتقت إلى الفرنسي "تستغيثه وتستعين به وتحطب في حبله، فأغاثها وانتقم لها وأمدّها وقربها وأدناها"⁽¹⁾. وكان عليها أن ترد بالحق والبيان، وتقنع بالحجج والبراهين، ولكن هيهات للمفلس أن ينفق، وللعافر أن تلد.

- دعم وتحكم الاستعمار في الطريقة: لم يكن الاستعمار ليدعم ويساند الطريقة ضد الإصلاحيين دون مقابل أو ثمن، بل ما كان ليقدم القليل النادر إلا مقابل الكثير المضاعف، وبما أن الطريقة كانت تقوم بعملها على أكمل وجه في إعاقه الوحدة الدينيّة، فقد كانت تلقى الدعم والمساندة من السلطات الفرنسية، لأن "الدول الاستعمارية تبغض كل فكرة اتحادية في الأمم التي قبضتها، فتعمل على شلّها ومضايقة مبتكرها، ومع هذا تحبّ جماعة الطرق، وتُعظم شيوخهم وتقلّدهم الأوسمة كما تقلّد الرجال العاملين، فهل هذا شذوذ عن القاعدة؟ أم هم في نظرها من أسباب التفريق؟"⁽²⁾.

- موقف الإمام ابن باديس من الطريقة: إن الإمام ابن باديس رغم كل ما كان يصدر من الطريقين، لم يسارع إلى التبرؤ منهم، أو إقصائهم، بل سلك معهم منهجين متكاملين هما:

1/ منهج النصيحة والنقد اللين: حيث أقام عليهم الحجّة وبيّن لهم الحق والصواب، ومدّ إليهم ذراعيه داعياً إيّاهم إلى الوحدة والاجتماع على كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، كلّ ذلك بخطاب رقيق، وقول لين، وإشفاق من يريد الخير لإخوانه؛ فقالها لهم: "إننا نصرّح أمام الله والناس أنّ هؤلاء القوم إخواننا في الدين والوطن نُحبُّهم ما نُحبُّ لأنفسنا ونكره لهم ما نكره لها، ولهم عندنا من الحق والحرمة ما للأخ عند أخيه، وإننا مع هذا - لا نُقرهم على جميع ما هم عليه، وإننا إذا قلنا كلمة الحق فإننا نقولها على وجه النصّح الذي فرضه الله على المسلمين.." ⁽³⁾.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 02 / ص: 98).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05 / ص: 351). أنظر: توفيق المدني، أحمد، حياة

كفاح مذكرات، (مج 2 / ص: 31).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (مج 5 / ص: 171).

في هذا النص يُذكر الإمام ابن باديس الطُّرُقِيِّينَ بالروابط التي تجمع بينهم، فتحدّث عن: (أخوة الدين / أخوة الوطن / حرمة الأخ عند أخيه / وجوب النصيحة)، وهذا كلّ طمعا منه في إيقاظ ضمائرهم، وتحريك نفوسهم، وضمّهم إلى صفّ الممانعة والمواجهة ضدّ المستعمر.

2/ منهج الشدّة والنقد الحادّ: بعد أن استنفذ الإمام ابن باديس وسائل الرّفق واللين، وسلك كل طريق للمّ الشّمل وتوحيد صفوف المؤمنين، وبعد أن قابله الطُّرُقِيُّونَ بالمعاندة والمكابرة، وازدادوا غيّا على غيهم، وأيقن الإمام أن القوم لن يردعهم برهان، ولن يكفّهم بيان، هنا استلّهم الإمام من بين الأمة كما تُستلّ الشعرة من العجين فقال: "من الناس قوم..! عريقون في التدجيل، عريقون في التضليل، رضعوا خسة الطّبع وأولعوا باستراق السمع ليفرغوه في قالب التزوير، ويطلوه بطلاء التعزير.." ⁽¹⁾.

بعد أن بين الإمام ابن باديس خبث أعمالهم، وفساد طريقهم؛ تبرّأ منهم علنًا وأعلن مجانبته إيّاهم لما وجد أن مخبرهم لا ينطوي على الخير للأمة، كيف لا وهو الذي يُقدّم دائما مصلحة الأمة على أي مصلحة أخرى، وقد قال مودّعا إيّاهم: "عرفت شيوخ الطّرق أوقاتا، ثم فارقتهم بتاتا، وما عرفتهم -علم الله- إلّا لأخدم معهم الجزائر بالإسلام والعربيّة... وما فارقتهم حتى عرفت منهم أنهم مذهب بهم في غير هذا السبيل، ومُساقون إلى ضد تلك الغاية" ⁽²⁾، ولم يتسرع الإمام لمثل هذا الكلام الحادّ، بل تركه وأخره كآخر دواء وحلّ، وذلك بعد أن استيقن افتراق الطّريق، وعاین انعكاس الغايات بينه وبينهم.

يبقى هذا الموضوع من القضايا التي تحتاج لدراسات مفردة موضوعية، بعيدا عن المزايدات والخلفيات غير العلمية، ويبقى كذلك التّنويه بالإمام ابن باديس من عدّة جوانب منها:

- رغم تبرّؤ الإمام ابن باديس من الطّرقية إلّا أنّه يُذكرهم كما في النص السابق بالإسلام والجزائر والعربيّة، وهذا ليُنَبِّههم إلى أنّه لا يُنازعهم سلطانا، وليست القضية شخصيّة بينه وبينهم، بل هي مصلحة الأمة الإسلامية كلّها.

(1): المصدر نفسه، (مج 5 / ص: 23).

(2): المصدر نفسه، (مج 6 / ص: 250).

- تنبيهه إياهم إلى أنهم مُستغلّون من طرف الاستعمار الفرنسي، وأنهم يخدمون مخططاته ويُنفّذون برامجها، وذلك لعلّه يوقظ الغافل ويفضح المتعمّد، وذلك حين عبّر بقوله: (مَذْهُوبٌ بهم / مُسَاقُونَ) ولم يقل: (ذاهبون / ينساقون).

- "لم يُعرف عن ابن باديس رحمه الله إطلاقه نعوت الكفر والشرك على أتباع الصّوفية المبتدعين، فقد كان قلمه عفيفاً نزيها بالرّغم من أن المعركة بين أتباع الطريقة وبين الإصلاح احتدمت"⁽¹⁾، وما ذلك من الإمام إلّا حرصاً على ترك الباب مفتوحاً لمن أناب منهم وتبصّر.

(1): مطبّقاني، مازن صلاح، عبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي، (سورية- دمشق: دار القلم، ط/ 02، 1420 هـ

1999م)، (ص: 138).

المطلب الرابع: موقف الإمام ابن باديس من واقع عصره، وأثر هذا الواقع فيه .

من المهم أن نختم هذا المبحث الذي تناولنا فيه بعض أهم الأحوال التي خيَّمت على الجزائر قُبيل وأثناء وجود الإمام عبد الحميد ابن باديس؛ بمطلب نتناول فيه قضيتين أساسيتين وضروريتين، هما: موقف الإمام من أهم الأحداث التي واكبها، ثم أهم آثارها في تكوينه و حركته الإصلاحية.

الفرع الأول / موقف الإمام عبد الحميد ابن باديس من أهم الأحداث:

إنَّ الإمام عبد الحميد ابن باديس بروح العالم المصلح، والرجل الذي يعيش مأساة شعبه، لم يقف وقفة المتفرج إزاء هذه الأوضاع، ولم يُدرّ ظهره معرضاً عنها، بل انكبَّ عليها بالتحليل والدراسة، ثم شرع يصف لها ما يلائمها من الدواء الشافي المبرئ، ومن أهم مواقفه ما يأتي:

1/ المواقف السياسيّة: لقد كان الإمام ابن باديس يشير إلى كثير من القضايا السياسية رفيعة المستوى، بكثير من الدقة والحذر المتناهيين، ومن هذه الإشارات:

- تألمه للأوضاع التي كان يعيشها العالم الإسلامي: خاصة أثناء زيارته للعالم العربي، فقد عبّر عن حالته أثناء العامين الذين قضاهما في بلاد العرب بأنهما "لم يخلُ من ألم"⁽¹⁾.

- تعريفه للعالم الإسلامي: هذا التعريف الذي يحتاج إلى دراسة، وإلى تنزيله على الواقع الإسلامي في مختلف الأزمنة والبقاع، حيث عرّفه بقوله: " إذا قلنا العالم الإسلامي فإننا نعني كل أمة تؤمن بالقرآن وتعتبره كتابها الديني الذي تعبد الله به"⁽²⁾.

- تقييمه للأنظمة التي كانت تحكم العالم الإسلامي في وقته: حيث وصل الإمام ابن باديس بفكره الثاقب إلى أن الأمم وأنظمة الحكم السائدة في العالم الإسلامي أربعة أنواع لا خامس لها، وهي:

" أمة لها حكومة إسلاميّة تنفّذ أحكام القرآن، كحكومة نجد واليمن...

أمة لا حكومة لها منها أصلاً، أو لها نوع حكومة، كالأمم الإسلاميّة التي استولى على أوطانها الغربيون بلون من ألوان الاستعمار.

أمة كانت تبني أحكامها على رأي مجلس الأمة وتُصرّح رسمياً بأنّها (لائكيّة) كالأمة التّركيّة.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04 / ص: 230) .

(2): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 06 / ص: 331) .

أمّة كانت تبني أحكامها على رأي مجلس الأمّة وتُصرّح رسمياً بأنّ دين الدولة الرسمي هو الإسلام، كالأمّة المصريّة⁽¹⁾.

ونلاحظ من خلال هذا النصّ العجيب ما يأتي:

1 / دقّة الملاحظة السياسية لدى الإمام عبد الحميد ابن باديس، وقدرته على إدراك الفروق الدقيقة بين هذه الأنظمة، وذلك في وقت كانت فيه مصطلحات مثل: (اللائكيّة / مجلس الأمّة / دين الدولة...) لم يستقرّ اصطلاحها بعد حتّى عند أهل السياسة أنفسهم.

2 / ثقته الكبيرة بهذا التحليل، خاصّة وأنّه قد ادّعى الحصر ولم يذكرها على سبيل المثال فقط، ومعلوم أنّ أصعب أنواع الادّعاءات هي تلك التي يدّعي فيها صاحبها الحصر والإمام، لأنها مدعاة للتعرض للانتقاد، حيث قال: "من هذه الأمم كلّها يتكوّن العالم الإسلاميّ الذي ناهز الأربعمئة مليون"⁽²⁾.

3 / إدراجه للحالة الجزائريّة في النوع الثّاني من هذه الأمم، وقد قام بذلك بدقّة وذكاء متناهيين، وتظهر هذه الدقّة في عدّة جوانب؛ ظهر لي منها:

- تعبيره عن الجزائريّين بالأمّة، وهذا شحذا لهمم الجزائريّين وتنبيهها لهم بأنّهم أمّة مثل باقي أمم العالم من حقّهم حكم أنفسهم، وإقامة نظامهم الإسلاميّ الخاص بهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ردّاً على المستعمر الذي يعتبر الجزائريّين مجرد خليط من الأعراق والأجناس لا جامع بينهم ولا نظام.

- لم يقل عن الأمّة الجزائريّة بأنّه لا حكومة لها، فيعارض الواقع ويؤلّب السلطات الفرنسيّة عليه لكونه سيلغيها ويجاهر بعدم اعترافه بها، كما أنّه لم يقل بأنّ للأمّة الجزائريّة حكومة؛ فيداهن المستعمر ويعترف بحكمه غير الشرعيّ، بل قال "أمّة لا حكومة لها منها"، وهذا صحيح لأنّ الجزائر كان لها حكومة تُسيّر شؤونها، لكنّها لم تكن نابعة من الأمّة الجزائرية نفسها، بل كانت حكومة استعمارية تسلّطت على الأمّة بالقهر والغلبة، لا بالرّضى والاختيار.

(1): المصدر نفسه، (مج 6 / ص: 331).

(2): المصدر نفسه.

- تعبير الإمام عبد الحميد ابن باديس عن هذا الواقع المتنوع والمختلف باختصار وتركيز شديد، يدلّ على تحكّم الإمام بمصطلحات السياسة، وإلمامه بأحداث الواقع وتفصيله.

- إيمانه بالنضال الهادئ: فالإمام ابن باديس من القلّة القليلة التي نهضت " تدعو إلى اليقظة والتعلّم والوحدة وتغيير أسلوب النضال ضد العدو، وتطالب حتّى بتقرير المصير الاستقلال... وعادت الجزائر من جديد لتثبت أنّها لم تخلد إلى الراحة ولم تستسلم"⁽¹⁾.

2/ المواقف الدينية: وهي أمّ المواقف التي كانت تُشغل الإمام ابن باديس، لأنّ الدين هو الأُمّة ولأنّ الدين هو أقوى وأهمّ الروابط التي تصنع اللّحمة بين الجزائريّين باختلاف لغاتهم، وعاداتهم، وأصولهم، ولكونه كذلك الهدف والغاية الأولى التي وجّه إليها المستعمر سهامه الغاشمة.

- الأولويّة في الجهاد الإصلاحي⁽²⁾: لقد أدرك الإمام ابن باديس أن جهاده سيكون على شوطين؛ شوط مع الاستعمار الآثم بسياسته وجنوده وعتاده، وشوط ثان مع أذئاب الاستعمار وأعوانه من أبناء الأُمّة؛ الخونة منهم والغافلين.

أدرك الإمام ابن باديس أنّ "فرنسا قد كوّنت حول سلطانها الاستعماريّ الفظيع سياجا، خالته قويا متينا، مؤلّفا من شيوخ الطرق الصوفية... يتكلمون كلامها، ويبشرون بأعمالها، ويؤيدون وجودها، وينفرون من كل عامل ولو عملا جزئيا ضدها"⁽³⁾، فمن خلال تموقع الطّرقين كان من المنطقي أن يبدأ بهم، ثم يُثني بالاستعمار الفرنسيّ، ووصف توفيق المدني هنا بليغ جدّا إذ لا يمكن بلوغ المستعمر إلّا باختراق السّياج الذي أحاط به نفسه.

- إصلاح التّعليم: سبقت الإشارة إلى انتقاد الإمام ابن باديس لمستوى التّأطير التّعليمي في أكبر حواضره في العالم الإسلاميّ آنذاك، ودعوته إلى تدارك برامجها بالإصلاح والتّعديل اللّازمين، والكفيلين بالنّهوض بها إلى مصافّ المؤسسات التّعليمية الكبرى في العالم، حتّى لا يضطر أبناء الأُمّة

(1): د/ سعد الله، أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، (الجزائر - حسين داي: دار البصائر، ط/ خاصة، 2007م)، (مج 4/ ص: 16).

(2): أنظر: زروقة، عبد الرّشيد، المصدر السابق، (ص: 132).

(3): توفيق المدني، أحمد، حياة كفاح مذكرات، (مج 2/ ص: 31).

الإسلامية لأن يشدّوا الرّحال إلى مؤسسات التعليم الغربيّة حيث ينالهم التّغريب والمسح الفكري الاستعماري.

والإمام لم يكن يتنقد فقط، بل كان يُشيد بأي حركة بناءً مهما كان حجمها، ومهما كان مصدر نورها كما استبشر في الجزائر بحركة تعليميّة مباركة، ذهب إلى حدّ اعتبارها فريدة في العالم الإسلامي كلّ حين قال: " لم تقم في أمة إسلامية هيئة علمية منظمة تعلن الدعوة إعلاناً عاماً... غير الأمة الجزائرية... وأسسوا لها أعظم مؤسسة دينية -جمعية العلماء المسلمين الجزائريين- حتى أصبحت الدعوة الإصلاحية- والفضل لله والحمد لله- ثابتة الأركان، مشيدة البنيان، بأسقة الأفنان، دانية الثمار، وارفة الظلال- لا على الجزائر وحدها بل على الشمال الإفريقي كله"⁽¹⁾.

ف نجد أن الإمام ابن باديس يعتبر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مكسباً للشمال الإفريقي كله، وليس على الجزائر فقط، كما أشاد بكونها جمعية علمية منظمة، بعيدة عن الوظائف الحكوميّة.

الفرع الثاني / أثر واقع الإمام ابن باديس في اتجاهه الإصلاحية:

إنّ أيّ تأثير يسبقه تأثير قبله، فمن هنا نتساءل: ما هو أثر الأوضاع السابقة على الحركة الإصلاحية الباديسية؟ هل كانت عامل دفع وشحن للهمّة؟ أم كانت عائقاً وعقبة في طريق ابن باديس الشاق؟. يمكن أن نتناول العناصر الآتية، التي ستجيب لنا عن هذه الإشكالية الفرعية:

- نعم لقد كثر المستعمر عن أنيابه، واستعان بأعوانه وأحزابه، وأحكم قبضته على سياطه وسياساته قاصداً " أن يحاصر الجزائر بمحو شخصيتها العربيّة الإسلاميّة، فحاصره ابن باديس بالجزائر العربيّة المسلمة"⁽²⁾، وبهذا انقلب السحر على السّاحر، وهكذا أيضاً استطاع الإمام ابن باديس أن يُصير الأمل أملاً للأمة جمعاء.

- إنّ الأوضاع السابقة طال أثرها كلّ الوجود الجزائريّ، فقد تألّم منه الإنسان، والحيوان، والنبات، والجهد، وهذا الكلام ليس مزايدة، بل لأن المستعمر لم تستثن سياسته أي شيء فوق الأرض أو تحتها لكن الفرق يكمن في ردّة الفعل، وفي الاستجابة لهذه المؤثرات.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03 / ص: 67) .

(2): د/ الطاهر أحمد مكي، مجلة دعوة الحق، (المغرب - الرباط: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، ع:

10 / 9، السنة: 12، 1389 هـ - 1969 م)، (ص: 125).

والإمام ابن باديس تأثر بها لكن " الفرق بين تأثر ابن باديس وتأثر غيره، أن ابن باديس حوّل التأثير إلى خطوات عمليّة جسّدت أهداف الحركة الإصلاحية واقعا ملموسا من خلال نهضة علميّة تربويّة تعليميّة إعلاميّة شاملة "(1).

- تأثر الإمام ابن باديس بأحوال الجزائر بأسرها، لكن يمكن أن يكون لمدينة قسنطينة أثرها الخاص والمميّز في الإمام بحكم كونها البقعة الأولى التي نشأ فيها، وترعرع بين أحضانها، وعاش كلّ أحداثها، حلّوها ومثّرها، فبحكم " الزخم الهائل من الأحداث، والقدر الهائل من الانتماء الحضاري الأصيل - لا شك - أنها تركت بصمات واضحة في تكوين شخصيّة عبد الحميد بن باديس، فقد غادرها مرّات لكن الحنين يرده إليها في كلّ مرّة "(2).

- إنّ الأزمات تميّز بين الصادقين والكاذبين، وتمحصّ الأمة بأسرها، فأما الصّالح فيثبت ويقرّ، وأما الفاسد فيظهر على حقيقته، ويكشف عن زيفه وفساده.

ولهذا كان ابن باديس أمام كل هذه الحملات: رجلاً بآتم معنى الكلمة فـ " ليس الرجل هو الذّكر البالغ من بني آدم، كما يعرفه الأقدمون، فالذّكور قديما وحديثا كثرة كاثرة، أما الرجال الحقيقيون فهم ندرة غالبة، ولقد يمرّ جيل أو تمرّ أجيال بشعوب عدّة، لا تعرف فيها رجلا، تعيش خلالها عيش السائمة وتموت خلالها موت الحشرات، حتّى إذا ما قيضت لها العناية الإلهيّة رجلا حقّا، أخرجها الله به من الظلمات إلى النور وبوّأها به مقاما محمودا بين الأمم "(3)، فابن باديس إذا كان الرّجل المسلم الذي قيّضه الله تعالى ليحيي به أمة بعد موتها.

- لقد كانت تلك الأوضاع والأزمات التي عصفت بالأمة الجزائرية من كل جوانبها وجناباتها، تذكرنا بقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 216)، ولهذا فقد كانت كل تلك الملمات " بمثابة

(1): بن مزوز، عمار، المصدر السابق، (ص: 60).

(2): المصدر نفسه، (ص: 50).

(3): توفيق المدني، أحمد، عبد الحميد بن باديس الرّجل العظيم / عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء، جمع: د/ الدراجي محمد، تقديم وتنسيق: عبد العزيز فيلاي، (الجزائر - عين مليلة: دار الهدى، د/ ط، 2014م)، (ص: 142).

شروط نفسية واجتماعية وقرها الله وهيأها لظهور الإمام وبداية حركته، حتى يجد المجتمع في حالة من الضيق والضنك واليأس، ينتظر معها منقذا ينقذها وينتشلها منها، ويغير من وضعيتها وطابع حياتها، ويؤهلها لأن تنطلق بقوة نحو استرجاع ما سلب منها، أيام تخلفها وضعفها"⁽¹⁾.

- إن هذه الأوضاع مكنت الإمام عبد الحميد ابن باديس من وضع يده على الجرح، ومركز الورم، وبالتالي وفق آيما توفيق في وصف الدواء الشافي، والطريقة المثلى التي يمكن من خلالها علاج الداء، والحقيقة أن هذا العمل قد سبق إليه من قبل، فالثورات التي اجتاحت الجزائر مباشرة بعد الغزو، كانت كلها ترمي إلى اجتثاث هذا المحتل.

لكن الفرق بين جهاد ابن باديس، وجهاد سابقه، هو في كون تلك الثورات والانتفاضات "لم تكن تبحث عن علاج لأسباب السقوط الحضاري إلا قليلا في أثناء حكم الأمير عبد القادر"⁽²⁾، بل كانت في الغالب تدافع عن حقها في الحياة"⁽³⁾، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الجمعة: 04).

(1): زروقة، عبد الرشيد، المصدر السابق، (ص: 110). وانظر: نفس المصدر، (ص: 75).

(2): الأمير عبد القادر الجزائري (1222 - 1300 هـ): "بن محيي الدين الحسني، ولد بقرية القيطنة بمعسكر، تربى في حجر والده حيث حفظ القرآن الكريم، وفي سنة 1241 هـ سافر مع والده برا لأداء الحج، حيث زار مصر والحجاز ودمشق وبغداد، في سنة 1248 هـ بايعه أهل الجزائر وولّوه عليهم أميرا، فعرف بحسن السياسة والتدبير، كما قاد جيوش الجهاد ضدّ المستعمر الفرنسي بكلّ شجاعة، إلى أن استسلم ونُفي إلى دمشق حيث كانت له هناك مواقف مشهودة، ومنها أحداث 1277 هـ بين النصاري والمسلمين، توفي في دمشق ودفن بها، وله تصانيف في التصوّف؛ منها: (المواقف في التصوّف)، (ذكرى العاقل وتنبية الغافل)".
أنظر: الحفناوي، أبي القاسم محمد، كتاب تعريف الخلف برجال السلف، (الجزائر-الجزائر: مطبعة بيبير فونتانة الشرقية، د/ط، 1324 هـ-1906 م)، (ج 02/ ص: 308-314).

(3): مطبقاني، مازن صلاح، المصدر السابق، (ص: 178).

المبحث الثاني: ترجمة موجزة للإمام عبد الحميد ابن باديس.

سأتناول في هذا المبحث أهم القضايا والملاسات في الحياة الشخصية للإمام ابن باديس، انطلاقاً من نسبه الباديسي، إلى أسرته ومولده، ثم أهم المحطات في حياته الشخصية الأولى، وكل ذلك باختصار مركّز حفاظاً على المقصد العام للرسالة، وللغنى الذي تتميز به حياته في كل مراحلها:

المطلب الأول: الإمام عبد الحميد ابن باديس، نسبه، أسرته ومولده.

الفرع الأول / نسب الإمام ابن باديس⁽¹⁾ وأسرته:

إنّ النسب الباديسي نسب ضارب في القدم، مرتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الشمال الإفريقي ككل، وليس القسنطيني أو الجزائري فقط، وهو نسب أمازيغي ينتهي إلى قبيلة صنهاجة⁽²⁾، وقد أشار إليه ابن باديس نفسه في كتاباته⁽³⁾، وإشارته إليه ليس من قبيل الافتخار بالأنساب أو الإشارة للعرق، بل هو تذكير بالأصل، وتشبّث بالشخصية والأرض في عصر المسخ الاستعماري، وتذكير لإخوانه من الأمازيغ الذين ركّز الاستعمار حملته عليهم ليسلخهم عن انتمائهم العربي الإسلامي، وبأنه " ليس البربر هم الذين أسلموا بل هو الإسلام الذي تمزّغ"⁽⁴⁾.

الملاحظ في نسب الإمام ابن باديس وامتداده التاريخي، سيجد فيه علامات وإشارات تدلّ على أنّ كلّ ذلك التواصل والتفاعل كان يُمهّد لخاتمة تكون خلاصة للتاريخ، ومولود لذلك المخاض العسير، وفيما يأتي بعض الإشارات المهمة في نسبه وأجداده:

1/ النسب الباديسي كان أهله على مرّ التاريخ وتعاقب الزمن -القريب منه والبعيد-؛ مقاومين ومناهضين لكل أشكال الظلم والعدوان، وبعيدين كل البعد عن الخضوع والخنوع للظالم مهما كان.

(1): أنظر: بن نبي، مالك، مذكرات شاهد للقرن، (سورية- دمشق: دار الفكر، ط/ 02، 1404هـ - 1984م)، (ص: 131).

والجيلاني ضيف، بناء المجد عبد الحميد بن باديس، (الجزائر- الجلفة: دار الخليل العلمية، ط/ خاصة، 2013م)، (ص: 15).

(2): قبيلة صنهاجة: " - بضم الصاد وكسر ها- وهي قبيلة بربرية (أمازيغية)، ذات بطون وأفخاذ كثيرة منشرة في الشمال الإفريقي. "

لحسن بن علجية، الدرّ النفيس في إجازات ومرويات الإمام عبد الحميد بن باديس، (لبنان- بيروت: دار ابن حزم، ط/ 01،

1435هـ - 2014م)، (ص: 23).

(3): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03 / ص: 484).

(4): أندري ديرليك، المصدر السابق، (ص: 39).

2/ أجداد ابن باديس من أعيان الأئمة ووجهائها⁽¹⁾، سواء في قسنطينة، أو الجزائر، أو الشمال الإفريقي ككل، كما كانوا أصحاب عمام وتيجان، فاجتمع في أيديهم السيف والقلم، وتصدروا مجالس العلم والسياسة والاجتهاد والقضاء، وكانوا في كل منها من المشهود لهم بالسبق والريادة.

3/ أجداد ابن باديس كانوا أصحاب اتجاه صحيح، واستقامة في التدين، ناصرين للسنة داعين إليها، بعيدين عن البدع والضلالات ومحاربين لها، فكانوا بعيدين بأنفسهم ومُبعدين لغيرهم.

4/ "لعل ما يلفت الانتباه... هو استمرار التدرج السلالي لهذا البيت عبر عصور الوسيط والحديث والمعاصر والحاضر، إذ من النادر أن تستمر الظاهرة العلمية والدينية مصاحبة لهذا التدرج في بيت من البيوت، مثلما ترسخ في بيت ابن باديس"⁽²⁾، الذي ظلّ يُمَدُّ الأئمة برجال كانوا نعم الموجه والمعين لها في أطوار حياتها، عبر الأزمنة والعصور.

5/ إنَّ "منزلة بيت ابن باديس بين البيوتات القسنطينية قد حدّدها شرف العلم الذي حازه شيوخها"⁽³⁾، وليس شرف النسب الذي يُفتخر به مجرداً في كثير من الأحيان من الإثبات.

إذا أردنا ربط هذه الجزئية بالإمام، وتبين أثرها وتوجيهه وتكوينه، فيمكن أن نقول بأن الإمام لم يجعل هذا النسب جوازاً لمصالح ومآرب شخصية، أو سبباً يبتعد به عن عامة الأمة بآلامها وهمومها، بل "من خلال الاسم الذي يحمله (باديس) يُعدُّ وصياً على موثق تاريخي وحضاري ينحدر إليه، أو - على الأصحّ - ينحدر هو منه، لا يزال يحدوه لصنع المآثر من أجل تأصيل النسب الذي يربطه بالسُّلالة"⁽⁴⁾.

أمّا أسرته؛ فسأكتفي هنا بالكلام عن بيته الأسري الصغير، وأهمّ أقطابه؛ وهما الأب والأم، هذه الأسرة قطنت "في منزل من طابقين على الطراز الأندلسي المشرف على مركز المدينة من الشرق"⁽⁵⁾.

(1): أنظر: د/ عمار طالبي، المصدر السابق، (مج 01/ ص: 72).

(2): د/ طاهر بونابي، البيت الباديسي مسيرة علم ودين وسياسة، د: عبد العزيز فيلاي، د: أحمد صاري، د: طاهر بونابي، (الجزائر - عين مليلة: دار الهدى، د/ ط، 2012م)، (ص: 14). وأنظر: (ص: 17/ 18/ 24/ 27).

(3): المصدر نفسه، (ص: 32).

(4): أ/ د عشراقي سليمان، المصدر السابق، (ج 01/ ص: 158).

(5): أندري ديرليك، المصدر السابق، (ص: 143).

- 1 / والده⁽¹⁾: هو "محمد المصطفى بن المكي بن محمد كحول بن علي سليل الجد الأعلى مناد بن منقوش، كبير قبيلة تَلْكَاتَه (أو تُلْكَاتَه أو تَلْكَاتَه) وهي فرع من أمجاد صنهاجة"⁽²⁾، وقد كان الإمام ابن باديس يوقّره ويُجلّه، ويذكره بالأبوة والتّسيّد معاً⁽³⁾، ومن خلال ما كُتب عنه نلاحظ:
- كان مُتّبعا لطريق أجداده في حفظ الشّرف وعلو المنزلة، وبلوغ الوجاهة بين قومه بما كان يُسديه من خدمة لهم، وبحثه عن مصالحهم وما ينفعهم.
 - كان مُحافظا على دينه والتقاليد الإسلامية في المظهر والمخبر، فقد كان من أهل الطاعة والاستقامة، حريصا على الفرائض، قارئا للقرآن، خاصّة في رمضان.
 - كان موظّفا لدى السّلطات الفرنسيّة، حيث كان نائبا مُنتخبا في عدّة مجالس، لكنّه كان يجعل وظيفته وسيلة لخدمة أمّته، لا سببا في شقائها.
 - توجيهه لابنه الوجهة الإسلامية، رغم قُدرته على إرساله إلى المدرسة الفرنسيّة كغيره من أبناء الأعيان، وقال له موصيّا: "يا عبد الحميد أنا أكفيك أمور الدّنيا... فاكفني أمر الآخرة، كن الولد الصالح العالم العامل الذي ألقى به وجه الله"⁽⁴⁾، ولولا صدقه لما تحقّق له مراده.
- 1 / والدته: هي زهيرة بنت محمد بن عبد الجليل بن جلّول، تنتمي "إلى بيت من البيوتات العريقة المشهورة في مدينة قسنطينة، تمتدّ عراقتها وأصولها إلى أربعة قرون من الزّمن، تنحدر من قبيلة بني معافى الأوراسية، انتقل أحد أفرادها إلى مدينة قسنطينة واستقر بها في العهد العثماني، وتزوّج من أميرة تركية هي جدّة أسرة ابن جلّول"⁽⁵⁾، وبهذا حاز الإمام رفعة النسب من الجهتين.

(1): أنظر: توفيق المدني، أحمد، حياة كفاح، (مج 02 / ص: 26). و د/ عبد القادر فضيل، أ/ محمد الصالح رمضان، إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، (الجزائر - برج الكيفان: دار الأئمة، ط/ 01، 2007م)، (ص: 32). ومحمد بن محفوظ ابن المختار فال الشنقيطي، جواهر الدرر في نظم مبادئ أصول ابن باديس الأبرّ، (لبنان - بيروت: دار ابن حزم، ط/ 01، 1426هـ - 2005م)، (ص: 09). و د/ أحمد محمود الجزار، الإمام المجدّد ابن باديس والتصوف، (مصر - الإسكندرية: منشأة المعارف، ط/ 01، 1999م)، (ص: 18).

(2): الجيلاني ضيف، المصدر السابق، (ص: 15).

(3): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04 / ص: 37).

(4): توفيق المدني، أحمد، المصدر السابق.

(5): عبد العزيز فيلاي، د: أحمد صاري، د: طاهر بوناوي، المصدر السابق، (ص: 113).

لم يتحدث الإمام ابن باديس عن أمه، ولا نجد لها ذكرا في تراثه؛ عكس والده، اللهم إلا ما ذكره عن "أغنيتها التي تغني فيها آمالها في أن تراه عالما، وزغرودتها لحظة أوبته من تونس"⁽¹⁾، وهذا ليس عقوقا ولا جحودا لفضلها، ولا نكرانا لشأنها، بل يمكن إرجاعه "إلى الطبيعة الأخلاقية للفرد الجزائري، إذ ظل يستتر مشاعره حيال أمه (وحيال الأثني بصورة عامة)، لأن التربية التي مضت عليها الأجيال منذ عهود الفروسية الهلالية كانت تربية رجولية"⁽²⁾ تعتبر الموضوع شخصياً بحثاً.

لقد أدرك الإمام ابن باديس انتماءات أسرته، ومكائنها، خاصة مع الثقل الذي كان يتمتع به والده لدئ السلطات الاستعمارية، هذه العلاقة التي "يمكن أن تكون في خدمته بدل أن يكون هو في خدمتها، وفعلا فقد استغل هذا الوضع الامتيازي واستخدمه بذكاء إلى أن توفاه الله"⁽³⁾، ولم يكن هذا الاستغلال لمصالح شخصية، بل لمصلحة الأمة والدعوة.

الفرع الثاني / مولده وأسرته:

ولد عبد الحميد ابن باديس⁽⁴⁾ بمدينة قسنطينة، عاصمة الشرق الجزائري، يوم الأربعاء 11 ربيع الثاني 1307 هـ، الموافق لـ: 04 ديسمبر 1889 م، على الساعة الرابعة بعد الظهر، وسجل يوم الخميس 12 ربيع الثاني 1307 هـ، الموافق لـ: 05 ديسمبر 1889 م في سجلات الحالة المدنية⁽⁵⁾.

وأغلب من كتب عن الإمام ابن باديس أشار إلى هذا التاريخ، إلا البعض فقط، فمنهم من خالف خلافا يسيرا، كمن ذهب إلى أنه ولد ليلة الجمعة⁽⁶⁾، وليس ليلة الأربعاء كما ذكرنا، وهناك من

(1): د/ نبيل أحمد بلاسي، الاتجاه العربي والإسلامي ودوره في تحرير الجزائر، (مصر-القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د/ ط، 1990 م)، (ص: 92).

(2): أ/ د عشراي سليمان، المصدر السابق، (ج 02 / ص: 62).

(3): الملي، محمد، المصدر السابق، (ص: 15).

(4): تنبيه: "يخطئ الكثير في كتابة (ابن) باديس بلا ألف، والصواب كتابته بالألف، لأن ما بعده ليس أبا لما قبله كالطاهر بن عاشور، فعاشور ليس أبا للطاهر، وكذلك باديس، ولذا وجبت كتابته بالألف فيهما"، محمد الصالح الصديق، نماذج للاقتداء، (الجزائر-بوزريعة: دار هومه، د/ ط، 2013 م)، (هـ ص: 07)، مجلة الوعي، (الجزائر-روبية: دار الوعي، ع 01، رجب/ شعبان 1431 هـ-جويلية 2010 م)، (هـ ص: 13).

(5): أنظر: د/ عمار طالبي، المصدر السابق، (مج 01 / ص: 72). ومحمد بالقاضي، معجم علماء الدين والإصلاح في الوطن العربي (الجزائر)، (الجزائر: منشورات بن سنان، ط/ 01، 2011 م)، (ص: 126)، وبن مزوز، عمار، المصدر السابق، (ص: 11).

(6): د/ تركي، رابح عامرة، المصدر السابق، (ص: 153).

أبعد النجعة، وأغرب في اتجاهه، وهذا لا يُستغرب، فهو كثير جدًا خاصة إذا تعلّق بالعلماء المغاربة، وذلك مثل ما ذهب إليه الزركلي⁽¹⁾ من أنّه قد ولد بتاريخ: 1305 هـ / 1887 م، وقد تابعه على هذا رضا كحالة⁽²⁾، ولا يخفى أنّه لا حظّ له من الصّواب.

والإمام ابن باديس كان أكبر إخوته السبعة⁽³⁾، وعبد الحق أصغرهم، وهناك من قال بأنّه كان أول ستة⁽⁴⁾ لا سبعة، وهم متفقون في كون اثنتين من إناث، والخلاف في الذكور هل هم أربعة، أم خمسة؟، وكلهم درس وتعلّم اللغة الفرنسية، باستثناء البنّتين.

وبما أنّ ابن باديس كان الابن البكر لوالديه، فلا شكّ أنّهما قد فرحا به فرحا كبيرا بمقدمه و" قد أعلنت ولادته في منزلهم في سيدي قموش لأعضاء العائلة القرييين، وبعد قليل عرفت المدينة الخبر السعيد ثم انتشر الخبر في الأرياف"⁽⁵⁾، وحقّ للجميع أن يفرح فقد جاء الخير من الله تعالى.

عندما بلغ الإمام عبد الحميد ابن باديس الخامسة عشرة من عمره، زوّجه أبوه من ابنة عمّه يامنة بنت أبوبكر بن باديس، وهذا على عادة أهل ذلك الزّمن في تزويج أبنائهم بعد البلوغ مباشرة، زد عليه أنّ ابن باديس كان من عائلة كبيرة تستعجل النّسل والذّريّة، كما أنّه كان الابن البكر لوالديه.

وقد رُزق ابن باديس بولد سمّاه (عبد إسماعيل)، لكن هذا الزّواج لم يستمرّ فقد وقع الطّلاق، " فأما الزّوجة فقد أعادت الزّواج وارتحلت مع زوجها الجديد وهو مزايي إلى تونس، أمّا ابن باديس فقد كان متزوّجا ومرتبطا بقضية أكبر من أي امرأة وأنفس من أي عرس، قضية الإصلاح"⁽⁶⁾.

(1): الزركلي، خير الدين، المصدر السّابق، (مج 03 / ص: 289).

(2): كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربيّة، (لبنان-بيروت: مؤسسة الرسالة، ط/ 01، 1414 هـ- 1993 م)، (مج 02 / ص: 66).

(3): عبد العزيز فيلاي، د: أحمد صاري، د: طاهر بونابي، المصدر السابق، (ص: 113). ود/ عبد العزيز فيلاي، عبد الحميد بن باديس مرحلة التّحصيل والتّكوين، (الجزائر-عين مليلة: دار الهدى، د/ ط، 2014 م)، (ص: 36). ووثائق جديدة عن جوانب خفيّة في حياة ابن باديس الدّراسية، (الجزائر-عين مليلة: دار الهدى، د/ ط، 2012 م)، (ص: 14).

(4): الجيلاني ضيف، المصدر السابق، (ص: 19).

(5): أندري ديرليك، المصدر السابق، (ص: 143).

(6): أ/ د عشراي سليمان، المصدر السابق، (ج 02 / ص: 68).

ومن الغريب أن الأستاذ توفيق المدني رحمه الله ذهب إلى أن الطلاق كان مبكراً ، وأنه "لم يرزق منها بولد" ⁽¹⁾، فخالف بذلك الكثيرين ممن تكلموا عن الحياة الشخصية للإمام ابن باديس.

لقد تضاربت الأقوال في سبب تطليقه لزوجته، وحاصل ما اطلعت عليه أربعة أقوال هي:

- 1/ لكون ابن باديس لم يتزوج بل زوّج ⁽²⁾، فكان زيجة غير موفقة سرعان ما انفصمت عراها، وانفكّ قيدها، كون هذه القضايا لا تقوم على الفرض والإجبار، بقدر ما تتطلبه من المودة والاختيار.
- 2/ لاهتمام الإمام ابن باديس بنشاطه الدعوي الإصلاح ⁽³⁾، وتفرّغه التّام للتربية والتعليم.
- 3/ وقيل لأن زوجته رفضت ⁽⁴⁾ الإقامة عند أهله، وأرادت أن تستقلّ، وهذا ما كان يرفضه الإمام.
- 4/ وقيل بسبب حادثة ⁽⁵⁾، وذلك حين ذهبت زوجته مع أمها إلى الحمام، فسقطت في الطريق وكسرت ساقها، وماج الخبر بين الناس، واستطلع الإمام الخبر، فعلم ما علم، فركبه من الاستياء ما ركب، فطلقها، وكان ذلك بتأثير من بعض رجال الجمعية.

في 15 رمضان 1337 هـ الموافق لـ: 14 جوان 1919 م، توفي ابن الإمام ابن باديس، في حادث مفاجئ ⁽⁶⁾ ومفجع، وله من العمر 17 عاماً، فقد كان عند "أخواله يقضي وقتاً في الاستجمام بالضّيقة وذات يوم فيما هو يتسلّى ببندقية أحد القائمين على أمر الضّيقة، أصاب نفسه فهوى أرضاً ولفظ أنفاسه" ⁽⁷⁾، لما جاء إلى الإمام من يخبره "وهو في المسجد، تخطى إليه الصفوف على غير العادة... همس المخبر في أذن الإمام شيئاً وعاد أدراجه، حذج الإمام الحضور بعينين طراً عليهما الكمد ثم واصل الدّرس ولم يتغيّر منه شيء حتى إذا أنهى الدّرس، سارع إلى الخروج ليلحق بالبيت" ⁽⁸⁾.

(1): أنظر: توفيق المدني، أحمد، حياة كفاح، (مج 02 / ص: 27).

(2): أنظر: المصدر نفسه.

(3): زروقة، عبد الرّشيد، المصدر السابق، (ص: 81).

(4): د/ عبد العزيز فيلاي، عبد الحميد بن باديس مرحلة التحصيل والتكوين، (ص: 41). ووثائق جديدة عن جوانب خفية في حياة ابن باديس الدراسية، (ص: 18).

(5): أ/ د عشراي سليمان، المصدر السابق، (ج 02 / ص: 67).

(6): د/ عبد القادر فضيل، أ/ محمد الصالح رمضان، المصدر السابق، (ص: 33).

(7): أ/ د عشراي سليمان، المصدر السابق، (ج 02 / ص: 75).

(8): المصدر نفسه، (ج 02 / ص: 76).

الفرع الثالث / أثر البيت الباديسي في شخصية الإمام ابن باديس:

لا شك أن الإمام قد تأثر بالمحيط الذي ترعرع فيه، وبالأصل السلالي الذي انحدر منه، كما كان للأسرة التي نشأ فيها نصيبها من التأثير المباشر، وسنكشف هنا بعض مظاهر هذا التأثير والتأثر:

1/ أثر مدينة قسنطينة: لكن كانت مدينة قسنطينة هي مدينة آل باديس منذ غابر الأزمان، ولا شك أن بينهما هوى وعلاقة مميزة، وهذا واضح، فحتى اليوم لا يمكن للواحد أن يذكر آل باديس ولا يذكر قسنطينة، كما لا يمكن ذكر قسنطينة دون ذكر أشرف أهلها من بني باديس.

لقد كانت قسنطينة تتفاعل مع كل الأحداث والأوضاع التي كانت تعيشها الأمة الجزائرية، بل يمكن القول بأن الإمام ابن باديس كان يجس نبض الأمة الجزائري كلها من خلال مدينة قسنطينة، وذلك لأنها كانت "تمثل لابن باديس الوطن الجزائري كله"⁽¹⁾.

- لقد كانت قسنطينة عمالة من العمالات الثلاثة التي كانت تتكوّن منها الخارطة السياسية للجزائر، وبالتالي فكل السياسات الفرنسية كانت حاضرة فيها بقوة، وفي بعض الأحيان أشد من العمالات الأخرى؛ بحكم خصوصيتها وممانعتها للسياسات الاستعمارية.

- احتواء قسنطينة على المكونات البشرية المتنوعة التي كانت تتركب منها التركيبة البشرية للجزائر كلها، فنجد المسلمين مالكية وإباضية وطرقية، ونجد اليهود، والنصارى المعمّرين.

"ومن ثمّ ليس من المبالغة في شيء القول بأنه استشعر كل هذه المشاكل والقضايا منذ صغره، وأنه أحس بها حتى قبل أن يفهمها، وأنها اختمرت بحسّه، ودمه، وعاطفته، قبل أن تتضح في عقله وتبلور في وعيه"⁽²⁾.

2/ أثر البيت الباديسي: لقد أدرك الإمام ابن باديس عظم المسؤولية التاريخية التي كانت تلاحقه، فقد كان من العيب، بل لم يكن ليقبل لذلك المجد، وذاك المشعل الذي ظلّ يضيء للأمة طريقها في أحلك الأيام وأعتى اللحظات، هذا المشعل الهادي الذي حملته الحكّام تارة والعلماء تارة أخرى، لم يكن ليرضى الإمام لهذا المشعل أن تخبو شعلته، ويخفت نوره، بل تجشّم العناء وأخذته نافخا فيه من

(1): أ/ د عشاري سليمان، المصدر السابق، (ج 01/ ص: 154).

(2): الملي، محمّد، المصدر السابق، (ص: 43).

روحه، وسار به ليكمل به الطريق، ويعيده سيرته الأولى، فكان بذلك "امتدادا لجده المعز بن باديس⁽¹⁾"⁽²⁾، وكل القامات الباديسية الشاخنة.

إنّ ظهور ابن باديس في هذه الأسرة الآمنة من مكر الاستعمار الفرنسي، جعل المستعمر المترصد لا يخطر على باله "أنّ هذا الطفل الوديع الذي تربّى وسط أسرة مهادنة محافظة راضية بقدرها سيتحوّل إلى شخصية ثائرة، صلبة في مواقفها، رافضة للأوضاع التي فرضها الاستعمار"⁽³⁾.

من خلال هذا العرض المختصر، نجد الإمام ابن باديس قد تزوّد لحربه الإصلاحية التي كان يُعد لها العدة من كلّ المحطّات المكانية والزمانية التي مرّ بها، كونه كان يُدرك حجم العمل المنتظر، والذي يتطلب تنوّعا وتعدّدا في الوسائل المطلوبة للمواجهة.

إنّ ظهور ابن باديس في هذا البيت الشريف، يعطيه شرعية ووزنا تاريخيا، كما أنه سيقطع الطريق على الأعداء والمشككين ممن سيبحثون عن أيّ ثغرة ينفذون منها، ويُنفذون بها مخططات الإفساد.

الأثر البالغ والمباشر كان للوالدين، في حياة ابن باديس الأولى، فالأم كانت ترعاه وترضعه الأجداد والفضائل، والأب يوجّهه توجيهها إسلاميا، ويوصيه بأن يسلك طريق العلماء العاملين.

من خلال كلّ ما سبق، نجد بأن الإمام ابن باديس قد ظهر في ظروف صعبة تدعوا للقلق والأسى، وتبدوا لأول وهلة بأنها ضدّ كل شكل من أشكال اليقظة، لكن من خلالها "نجد أن عظماء الإنسانية... يظهرون في عصور الاضطراب الفكري، عندما تختلط السبل وتتضارب المفاهيم، ويتكاثر دعاة الهداية أو غربان الضلال"⁽⁴⁾.

(1): المعز بن باديس (398-454هـ): "بن منصور الصنهاجي، من ملوك الدولة الصنهاجية بإفريقية، كانت خطبته للفاطميّين، ثم قطعها سنة 440هـ وجعلها للعبّاسيين، فوجّه إليه المستنصر الفاطمي أعراب بني هلال وبني سليم من قبائل الحجاز، وهو أول من حمل النّاس بإفريقية على مذهب مالك وكان الأغلب عليهم مذهب أبي حنيفة، كما كان كارها ومحاربا للبدع ثائرا عليها".

أنظر: الزركلي، خير الدين، المصدر السابق، (مج 07 / ص: 269). وابن خلدون، عبد الرحمن، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، (بيروت-لبنان: دار الفكر، د/ ط، 1431هـ-2000م)، (مج 06 / ص: 18).

(2): د/ عبد الحميد درويش السّاج، عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية بين النظرية والتطبيق، (مصر-القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ط/ 01، 1431هـ-2010م)، (ج 01، ص: 32).

(3): د/ عبد القادر فضيل، أ/ محمد الصالح رمضان، المصدر السابق، (ص: 31).

(4): الملي، محمّد، المصدر السابق، (ص: 36).

المطلب الثاني: موجز الحياة العلمية للإمام ابن باديس قبل الرحلة.

سأتناول في هذا المطلب والذي يليه موجزا عن الحياة العلمية والعملية للإمام ابن باديس، وهذا التقسيم باديسي بحث⁽¹⁾، فيه إشارة إلى وجوب الجمع بين العلم والعمل، وإرداف العلم بالعمل.

الفرع الأول / حفظ القرآن الكريم:

لقد بدأ الإمام ابن باديس حياته العلمية الأولى في قسنطينة، وسار على طريقة المغاربة في طلب العلم، حيث بدأ بحفظ القرآن الكريم⁽²⁾ على يد شيخه محمد المداسي، والذي ختمه وأتمه في سن الثالثة عشرة من عمره، أي سنة 1902م تقريبا، ومن شدة إعجاب شيخه به، قدّمه ليصلي بالناس التراويح في رمضان بالجامع الكبير، وذلك لستين متتاليتين، أو ثلاث.

لكن حتى الإمام ابن باديس وبعد ختمه القرآن الكريم، وعلى عادة ذاك الزمن، احتفى به والده احتفاء عظيمًا، "وكرّم شيخه محمد المداسي تكريما يليق بالحدث، وجعل ابنه المحتفى به يغرف بيده في إناء يحتوي على قطع من الذهب غرفة، وناولها لمؤدّبه"⁽³⁾، فنشأ الإمام مجلًا لشيخه منذ الصغر. إن في تقديمه لإمامة الناس في ذاك السنّ، والمكان والزمان، دلالات كثيرة لها آثارها، ومنها:

- دليل على النباهة التي كان يتميز بها منذ الصغر، والنّجاة التي كان يتحلّى بها.
- تقديمه للإمامة الصّغرى تهيئة وتمهيدا وتحضيرا له للإمامة الكبرى، إمامة الجزائر كلها.
- فيه إشارة لوالده المنتخب العمالي إلى أنّ هذا الابن يبدو أنّ طريقه غير طريق والده، "فخيره والده بين أن يسلك طريق أجداده أو طريقا آخر، فاختار طريق سلفه، وهو طريق العلم والجهاد"⁽⁴⁾.
- في هذا دلالة واضحة على الهمة العالية، و"روح الاستزادة التي كان يتعهد بها نفسه في مجال المعرفة دون أن يصرفه ما كان له من حظ ذهنيّ وعقلي عن تسقط المعرفة وتكثيف حجم ما يناله منها"⁽⁵⁾.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 02 / ص: 142).

(2): أنظر: د/ عمار طالبي، المصدر السابق، (مج 01 / ص: 72). و د/ عبد القادر فضيل، أ/ محمد الصالح رمضان، المصدر السابق،

(ص: 31). و أ/ د عشراقي سليمان، المصدر السابق، (ج 01 / ص: 164).

(3): د/ عبد العزيز فيلاي، عبد الحميد بن باديس مرحلة التحصيل والتكوين، (ص: 39).

(4): د/ عمار طالبي، المصدر السابق، (مج 01 / ص: 74).

(5): أ/ د عشراقي سليمان، المصدر السابق، (ج 01 / ص: 165).

الفرع الثاني/ زيارة محمد عبده للجزائر:

أثناء انتظام ابن باديس في الحلقات القرآنية، وفي سنة 1903م وقع حدث عظيم، وهو زيارة محمد عبده للجزائر، وذلك سنتين فقط قبل وفاته، وقد استقبل في قسنطينة من أعيان الأمة ووجهائها، وكان حدثا عظيما ترك أثره، أو بذرته في الأمة.

لكن يتساءل الكثير من الباحثين عن موقع ابن باديس من هذه الزيارة، هل شهدا أم لا على أقوال: أ/ التوقف في الموضوع⁽¹⁾: هناك من الباحثين من ذهب إلى حدّ التوقف في الموضوع، والقول باستواء طرفي المسألة، بحيث لا يُعلم إن كان الإمام قد التقى بزعيم الإصلاح أم لا.

ب/ إمكان اللقاء⁽²⁾: فيه من ذهب إلى إمكانية اللقاء بينهما دون نفي أو تأكيد، لعدم توفر الأدلة والملابسات التي تؤكد أو تنفي الموضوع، لكن إمكانيته تبقى قائمة.

ج/ تحقق اللقاء وكونه احتفاليا فقط: ذهب الدكتور سليمان عشراقي إلى التفصيل في القضية، طارحا كلّ الاحتمالات في الموضوع، ليصل إلى نتيجة مفادها، أنّ الإمام وإن التقى بمحمد عبده شخصيا، فإن هذا اللقاء إنما " كان لقاء احتفاليا لم يحفر في وجدان الفتى ما كان حريّا أن يحفره فيه حدث مثل ذلك، ولا ضرب بجذوره في مشاعره بحيث يوقظ فيه رغبة الانتساب إلى فكره والانحياز إليه"⁽³⁾.

د/ تحقق اللقاء وثبوت السماع⁽⁴⁾: ذهب بعض تلاميذ الإمام ابن باديس؛ إلى أنّه قد التقى وسمع من الشيخ محمد عبده حينما زار الجزائر وقسنطينة، وحضر دروسه التي كان قد ألقاها في قسنطينة عند رجوعه من منفاه في باريس، بمعنى أنه قد استفاد وأخذ -ولو القليل- من أفكاره وعلمه.

والحقيقة أنّ هذه الأقوال متقاربة، وحتى ترتيبها في العرض يجعلها متسلسلة وغير متناقضة، ولا تعارض بينها، بل كلّ منها يؤدي إلى الآخر، وذلك أنّ الأوّل توقّف؛ فلم ينفي ولم يُثبت، والثاني ذهب إلى إمكانية اللقاء، ونحن نعرف أنّ الإمكان محتمل الاثنان (اللقاء/ عدمه)، أمّا القول الثالث

(1): د/ أبو عمران الشيخ، وفريق من الأساتذة، معجم مشاهير المغاربة، (الجزائر: منشورات دحلب، د/ ط، 2007م)، (ص: 52).

(2): د/ عمار طالبي، المصدر السابق، (مج 01/ ص: 75).

(3): أ/ د عشراقي سليمان، المصدر السابق، (ج 01/ ص: 211 إلى 216).

(4): د/ محمد بهي الدين سائر، ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير، (مصر-القاهرة: دار الشروق، ط/ 01، 1420هـ-1999م)،

(ص: 35).

والرابع فقد اتَّفقا على تحقق اللقاء وثبوت السماع، فانحصر لنا الخلاف فقط في نوع السماع. أجدني -مع قلة باعي واطلاعي- أميل إلى القول الرابع، في كون الإمام قد تأثر بما سمعه من الإمام محمد عبده، تأثراً يناسب سنّه واستعداداته في ذلك الوقت، وعمره 14 سنة، وهذا الاختيار نابع من عدّة اعتبارات، أهمها:

- النّباهة التي كان الإمام ابن باديس يتميز بها منذ الصّغر، أضف إليها الفطنة وتحيّن الفرص لإشباع رغباته العلمية غير المحدودة، فلا يمكن له أن يقف أمام هذه القامة العلميّة وقوف غيره من الغلمان والعوام للتفرّج والاحتفال فقط.
- الجامع الكبير الذي درّس فيه محمد عبده في قسنطينة، هو نفس الجامع الذي أمّ فيه ابن باديس النّاس في صلاة التراويح في رمضان لسنوات متتالية، وهذا فيه إشارة توحى بأن محمد عبده كأنّه جاء -قُبيل وفاته- خصيصاً ليسلم مشعل الإصلاح لشخص ما في قسنطينة.
- تسمية الإمام ابن باديس لابنه البكر والوحيد بـ: (عبده)، سنة واحدة بعد زيارته لقسنطينة فيه دلالة واضحة على تأثر الإمام به، فالأبناء يُسمّون بأسماء من نُحِبُّ، أو من تأثّرنا به.
- يبقى أنّ التأثير الذي جزمتم به هنا " لا يعبر عن متابعة وتبعية، وإنّما يعبر عن استجابة فطنة من الرجلين للظّروف القائمة المتشابهة في بلديهما، ولمؤثرات العصر المحيطة بهما، ولا بأس على كل حال بالتأثر الطبيعي المحمود من اللاحق بتجربة السّابقين بإحسان"⁽¹⁾.

الفرع الثالث / التحاق الإمام ابن باديس بشيخه حمدان الونيسي، وأثره فيه:

بعد ختمه للقرآن الكريم، واختياره طريق العلم والتّحصيل، التحق عام 1903م، بالحلقات العلميّة لتلقي العلوم العربيّة والإسلاميّة، والمعارف الشرعيّة والمتون العلميّة، على طريقة المغاربة. لكنّ هنا يُطرح إشكال علمي أو تاريخي لا بدّ من الإجابة عنه، ورفع اللبس عن وقائعه، أو على الأقل الإشارة إليه، ولفت انتباه أهل الاختصاص من المؤرخين والباحثين في سير العلماء والمصلحين، والإشكال: أنّ هناك إجماع على أنّ ابن باديس قد انتقل من مرحلة حفظ القرآن الكريم،

(1): د/ محمد بهي الدين سالم، المصدر السابق، (ص: 87).

إلى التوسع في العلوم الشرعية سنة 1903م⁽¹⁾، وبأن شيخه هو: الشيخ حمدان الويسي، أما المكان فهو جامع سيدي محمد النجار، لكن يذكر المؤرخ أبو القاسم سعد الله أن الشيخ حمدان الويسي لكونه كان موظفا لدى الاستعمار الفرنسي، فمن المنطقي أن يزوره مفتش التعليم الفرنسي، ويتفقد كل صغيرة وكبيرة في عمله التعليمي، ابتداء من البرامج المقررة، وطريقة التدريس، انتهاء بعدد التلاميذ، وبلدانهم، وأعمارهم، وتاريخ التحاقهم.

المهم هنا أنه لما " حضر المفتش موتيلانسكي درسا في النحو في ربيع 1905م فأخبر أن تلاميذه كانوا 17 فردا... ولا نجد اسم عبد الحميد بن باديس من تلاميذ حمدان هذه السنة "⁽²⁾، إذا أين كان ابن باديس في هذه السنة؟، هل كان لم يلتحق بعد بدروس الشيخ حمدان، فتكون عندنا فجوة زمنية قليلة؟، أم كان قد تخرج منها، وأكمل نصيبه من تلك الحلقات، فتكون عندنا فجوة زمنية بعيدة؟، وكلا الاحتمالين لا يزيدان الأمر إلا تعقيدا.

لكن بالاستعانة بمعطيات تاريخية أخرى يمكن أن نطرح بعض الاحتمالات القوية والمقبولة، فبعد سنتين من التقرير الأول " كان تقرير شارل سان كالبر سنة 1907 أكثر دقة وشمولا، وبعد أن ذكر عدد دروس الشيخ الأسبوعية وعناوينها، سواء منها الإجبارية أو الاختيارية، ذكر أن تلاميذ الشيخ تتراوح أعمارهم بين 18 و32 وأن أصغرهم (18 سنة) هو عبد الحميد ابن باديس، وهو أحد اثنين من عائلات قسنطينة... وفي السنة الموالية (1908) كان عدد تلاميذ الشيخ حمدان 32 من بينهم عبد الحميد بن باديس أيضا، وأخبر المفتش أن سن ابن باديس 25 سنة "⁽³⁾.

فمن خلال هذه الوثيقة التاريخية والمتمثلة في النص الثاني، يمكن القول بأن الدكتور أبو القاسم سعد الله قد أجاب، أو حاول الإجابة -ضمنيا- عن الإشكال الوارد في النص الأول بما يلي:

1/ اتهمه للتقرير الأول بقلّة الدقة وعدم الشمول، بدليل قوله عن التقرير الثاني بأنه كان أكثر دقة وشمولا، فلم يشمل هذا التقرير ابن باديس لعدم دقته، ويؤيد غياب الدقة في هذه التقارير ما ورد في

(1): د/ عمار طالبي، المصدر السابق، (مج 01/ ص: 74). و د/ عبد القادر فضيل، أ/ محمد الصالح رمضان، المصدر السابق،

(ص: 31). و د/ عبد العزيز فيلاي، عبد الحميد بن باديس مرحلة التحصيل والتكوين، (ص: 39).

(2): أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (الجزائر - حسين داي: ط/ خاصة، 2007م)، (مج 03/ ص: 135).

(3): المصدر نفسه، (ج 03/ ص: 136 - 137).

تقرير 1908 من أن سنّ ابن باديس كان (25 سنة)، وهذا غير مقبول كونه في التقرير الذي قبله فقط كان سنّه (18 سنة)، وبينهما سنة واحدة.

2/ إشارته في التقرير الثاني إلى أن دروس الشيخ الونيسي كانت على نوعين: دروس إجباريّة، وأخرى اختياريّة، ما يُرجّح فرضيّة أن التقرير الأوّل شمل فقط أحد النوعين، والذي لم يشملها منهما هو الذي كان قد انتظم فيه ابن باديس، فاستثناه التقرير.

3/ هناك احتمال كون المفتش في التقرير الأوّل قد أخذ أسماء الحاضرين فقط، وابن باديس كان غائبا يوم الزيارة التفتيشيّة، فلم يُكتب اسمه.

4/ قد يكون المفتش في التقرير الأوّل كتب أسماء الطلبة الوافدين من خارج قسنطينة فقط، أمّا من كانوا من المدينة فلم يكتبهم لشهرة أسرهم ومعرفتها لدى سلطات العمالة.

5/ يمكن أن يكون ابن باديس لم يلتحق سنة 1903م بحلقات الونيسي بجامع سيدي محمد النّجار مباشرة، كونها كانت تُمثّل الطّور الثّانوي بمفهوم عصرنا، بل " تلقّى مبادئ العلوم العربيّة والإسلامية بجامع سيدي عبد المؤمن"⁽¹⁾، ثمّ انتقل إلى حلقة الشيخ الونيسي بعد سنة 1905م.

لا شكّ أن الإمام ابن باديس قد تأثر بأوّل أساتذته في العلوم الشرعية، ومظاهر هذا التأثير كثيرة سأقتصر فيها على مظهر واحد، انتخبته منها لسبب واحد، وهو أنّه انطبع في الإمام ابن باديس طيلة حياته فانبرى له امثالاً وتوصية به.

1/ وصيّة الشيخ الونيسي لابن باديس: أوصل الشيخ الونيسي تلميذه ابن باديس وأخذ عليه " عهدا كعهد شيوخ الطّرق الصّوفيّة، إلّا أنّ هذا العهد لم يكن في التزام نوع من الذّكر، وإنّما ألاّ يقرب الوظيف الحكومي أبدا"⁽²⁾، ووصية من هذا النّوع، في هذا المكان والزّمان، ومن موظّف إلى سليل

(1): د/ عبد القادر فضيل، أ/ محمد الصالح رمضان، المصدر السابق، (ص: 33).

(2): عامر، علي عرابي، الإمام عبد الحميد ابن باديس ومنهجه في الدّعوة من خلال آثاره في التّفسير والحديث، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، (السعودية-مكة: كلية الدّعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، د/ ط/ ت، 1408هـ-1409هـ)، (ص: 23).

أنظر: د/ عويمر مولود، فكر الحرّية عند الشيخ ابن باديس، أعمال الملتقى الدّولي حول الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس 18-19 ماي 2012م قسنطينة، تقديم وتنسيق: د/ عبد العزيز فيلاي، (الجزائر-عين مليلة: دار الهدى، د/ ط،

2013م) (ص: 135).

جماعة من الموظّفين لدى الإدارة الفرنسيّة، يجعلنا "نتصوّر الدّهش الذي يلحق الفتى... فالطفّل - لا سيما إذا كان من أهل الوجاهة - شأن ابن باديس - لا يؤمّ مجالس العلم إلّا طموحا لحيازة وظيف أو منصب يكون في مستوى منزلته"⁽¹⁾، ومكانته، خاصّة وأنّ الأسرة قد رسمت لها هذا الطّريق.

إنّ هذه الوصيّة لتدلّ بحقّ على عبقرية وتميّز في الأستاذ والتّلميذ، ومن مظاهر هذه الأملية:

- أمّا من ناحية الأستاذ: فقد مقت الوظيفة والانخراط فيه لأنّه أدرك بحكم التجربة والمعاينة، أنّ "الانخراط في وظائف (الإدارة) هو سلب لـ (الإرادة) وتجنّد في سياق مشيئتها"⁽²⁾، ولا يستطيع الموظّف أن يفعل ما يجب فعله، بل هو دائما مقيّد من الإدارة التي عينته، ولا أدلّ على ذلك ما أورده من الزيارات التفتيشية للمفتّشين الفرنسيين.

2/ أمّا من ناحية التّلميذ: فإنّ تخصيصه لابن باديس بهذه الوصيّة يرجع إلى ما كان يلمسه فيه من نباهة وفطنة، ولما كان يتوسّم فيه من تجشّم لعناء حمل الأمانة، وهذا كلّه ستصادمه وتعارضه الوظيفة "إذ الوظيفة حجر على القابليّات، وقمع للاستعداد وكفّ للعنفوان، فهي - في الغالب - لا تناسب إلّا من كان على خمول باطني ووجدان لئّن لم يكن بلادة طبع..⁽³⁾، وابن باديس لم يكن من هذا النوع ليرضى لنفسه هذا الوضع الذي لا يصلح إلّا للأموّات.

2/ موقف الشّيخ ابن باديس من وصيّة شيخه: لقد امتثل الإمام ابن باديس لوصيّة شيخه طول حياته، فلم يقرب الوظيفة، ولم يتقلّد المنصب الإداري، هذا على المستوى العمليّ التّطبيقيّ، أمّا على المستوى العلميّ النظري فقد أوصل الإمام ابن باديس بوجوب الابتعاد عن الوظيفة، بصراحة تامّة، فقال: "ونحن نرى حتما لزاما على كل من كان يُعدّ نفسه لخدمة الإسلام بنشره والدعوة إليه وبيان حقائقه لأبنائه وغير أبنائه، أن يبتعد عن الوظيفة"⁽⁴⁾، وذلك لعدّة أسباب بيّنها، منها:

- الوظيفة مانع من موانع نفع النّاس، ولجام بيد الموظّف يكبح به جماح مؤظّفه متى رأى منه

(1): أ/ د عشراي سليمان، المصدر السابق، (ج 01/ ص: 170).

(2): المصدر نفسه، (ج 01/ ص: 173).

(3): المصدر نفسه، (ج 01/ ص: 175).

(4): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04/ ص: 205).

حركة ونشاطا يُهدّدانه، ف"صار الوظيف قيّداً في اليد وغِلاً في العنق"⁽¹⁾.

- الوظيفة من أسباب تأخر الإصلاح، ف"الإصلاح الديني ما تأخر في القطر المصري والقطر

التونسي إلا لأن جميع المتسمين بالعلم متوظّفون أو مرشحون للوظيف أو طامعون فيه"⁽²⁾.

- الوظيفة تُنسي صاحبها واجباته، وتُضيّع حقوق الناس، ف"يفنى بعض المتوظفين في

وظائفهم حتى ينسوا ما عليهم من واجبات غيرها لأنفسهم وغيرهم... فيضيعون في ذلك

حقوقاً.. وحقوقاً.. من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون"⁽³⁾.

لم يتوقّف الإمام ابن باديس عند هذا الحدّ، بل ذكر أمثلة بالأسماء عن أولئك الذين شغلهم

الوظيفة عن أعمالهم، كما ذكر صنفاً آخر -على قلّتهم- لأفاضل لم تمنعهم الوظيفة من النشاط في

المجال الإصلاحية، ثمّ ثلث بأولئك الذين ابتعدوا عن الوظيفة ولم يقربوها:

1/ أمّا من الصّنف الأوّل فقد ذكر الشاعر حافظ⁽⁴⁾، فقال: "وأما حافظ فقد سكت، سكت إلا عن

قليل كان أكثره رثاء، ولعمر الحق ما أسكته إلا الوظيف الذي ينسى به المشرقي -حتى مثل حافظ

ويالأسف - نفسه، وأمّته وملّته، إلا ما شاء الله"⁽⁵⁾.

2/ أمّا من الصّنف الثّاني فقد ذكر مثاليّن اثنين من شيوخه، أمّا الأوّل فهو: محمد عبده الذي قال

عنه: "نعم كان الشيخ عبده موظفاً في الحكومة المصرية ولكنه قال هو عن نفسه (لولا ما أرجوه من

إصلاح الأزهر والمحاكم الشرعيّة ما قبلت الوظيف) ومن أين لنا أن نجد مثل هذا القصد أو أن

نستطيع أن ننفع بالوظيف أو أن نتغلب عليه؟"⁽⁶⁾.

(1): المصدر نفسه، (مج 04 / ص: 205).

(2): المصدر نفسه، (مج 04 / ص: 205).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05 / ص: 257).

(4): محمد حافظ إبراهيم (1287-1351هـ): "شاعر مصر القومي، ومدون أحداثها نيّفاً وربع قرن، ولد في ذهبية بالنيل، نشأ يتيماً،

وقد نظم الشعر أثناء الدّراسة، كما تقلّد عدّة مناصب؛ منها المحاماة والحريّة برتبة ملازم ثان، لُقّب بشاعر النيل، فكان شاعر

الوطنيّة والاجتماع والمناسبات الخطيرة، توفّي بالقاهرة، له من الآثار: (ديوان حافظ)، (ليالي سطّيح)، (كتيّب في الاقتصاد) "

أنظر: الزركلي، خير الدين، المصدر السّابق، (مج 06 / ص: 76).

(5): المصدر نفسه، (مج 05 / ص: 535).

(6): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04 / ص: 205).

والثاني: هو الذي وصفه الإمام بالسيد العظيم: بشير صفر، فهو لم يقبل الوظيفة في البداية لما رجع من فرنسا إلى تونس، ثم قبله، لكن "جعله آلة لنفع أمته لا آلة لإشباع معدته... فلم يكن الوظيفة له سجنًا"⁽¹⁾.

3/ أما الصنف الثالث، وهم الذين ابتعدوا عن الوظيفة بالكلية، فقد وجدت في تراثه مثالين اثنين: أمّا الأول فهو: الشيخ طاهر الجزائري⁽²⁾، الذي كان مشغولاً بالتعليم، يعيش على ما يكسبه من بيع الكتب التي اقتناها في الصغر، فبقيت حتى تضاعف ثمنها، وعاش عيشة الكفاف والعفاف، وهو الذي "عرضت عليه وظائف كبرى في غير السلك العلمي، فأبى لأنه كان يعرف أنه لا بدّ له من مشايعة الظلمة والجهال على أعمالهم"⁽³⁾.

أمّا الثاني فهو: الشيخ رشيد رضا⁽⁴⁾ الذي قال عنه الإمام ابن باديس: "حجة الإسلام السيد محمد رشيد رضا، لقد بلغ السيد رشيد من الفقه الديني والتمكّن من علوم الكتاب والسنة والخبرة بأحوال الزمان منزلة ما نخال أنّها تتاح لأحد من بعده"⁽⁵⁾، وبعد هذا الإجلال والاحتراف من الإمام

(1): المصدر نفسه، (مج 04 / ص: 327).

(2): الشيخ طاهر الجزائري (1268 - 1338 هـ): "ابن أحمد ابن موهوب السمعوني الجزائري، ثم الدمشقي، بحّاث من أكابر العلماء باللغة والأدب في عصره، كان شغوفاً باقتناء المخطوطات ونوادير الكتب، فساعد على إنشاء دار الكتب الظاهرية، كان يحسن أكثر اللغات الشرقية، كما كان من أعضاء المجمع العلمي العربي، انتقل إلى القاهرة ثم عاد إلى دمشق حيث توفي بها، له نحو عشرين مصنفاً منها: (البيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن)، (توجيه النظر إلى علم الأثر)، (تفسير القرآن الكريم)".
أنظر: الزركلي، خير الدين، المصدر السابق، (مج 03 / ص: 221).

(3): المصدر نفسه، (مج 04 / ص: 160).

(4): محمد رشيد رضا (1282 - 1354 هـ): "بغدادى الأصل، حسيني النسب، ولد ونشأ في قلمون الطرابلسية، حيث فيها تعلّم وتنسك ونظم الشعر في صباه، ثم رحل إلى مصر حيث لازم الشيخ محمد عبده وتلمذ عليه، أصدر مجلة المنار ليثّ آراءه في الإصلاح الديني والاجتماعي، زار الهند والحجاز وأوروبا، ثم عاد واستقرّ في مصر، إلى أن توفي بها، ودفن في القاهرة، أشهر آثاره؛ مجلة (المنار) التي أصدر منها 34 مجلداً، و(تفسير القرآن الكريم) ولم يكمله، و (تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده)، قال عنه الإمام ابن باديس: « حجة الإسلام السيد محمد رشيد رضا، لقد بلغ السيد رشيد من الفقه الديني والتمكّن من علوم الكتاب والسنة، والخبرة بأحوال الزمان منزلة ما نخال أن تتاح لأحد بعده إلا في دهر طويل... »".

أنظر: الزركلي، خير الدين، المصدر السابق، (مج 06 / ص: 126). وابن باديس، المصدر السابق، (مج 04 / ص: 201).

(5): المصدر نفسه، (مج 04 / ص: 201).

بالشيخ رضا، يخبرنا بسرّ بلوغه هذه المنزلة والمكانة، فقال: "وكان مما مكنّ للسيد رشيد رضا في قيامه بما قام به، بعده عن الوظيف"⁽¹⁾.

نستنتج من خلال هذا المطلب أنّ الإمام ابن باديس قد مرّ لحد الآن بمراحله العلميّة الأولى، والمهمّة، هذه المرحلة التي يتجاوزها الكثير من الباحثين، ربّما استخفافا بها كون أطوارها كانت في مدينة من المدن الجزائرية المحتلّة، لكنّ الأمر عكس ذلك؛ فطلبه للعلم في قسنطينة كانت هي المرحلة التي تحدّدت فيها اتّجاهاته، وظهر فيها طريقه.

كما أنّه حصّل رأس المال في قسنطينة والذي سينمّيّه بعد ذلك في هجراته، وذلك لما حفظ القرآن الكريم، وأتقنه على يد شيخه محمد المداسي.

في قسنطينة أدرك الإمام ابن باديس واقع الأمة، وآمالها وآلامها، وهناك اطلّع بشكل مباشر وعاین مواطن الداء في الأمّة، وهذا ضروري حتّى يصف الدواء الشافي والمناسب للعلاج، وقد وجد الإمام أنّ الدواء الشافي مركّب، وبعض مركّباته حصّلها في قسنطينة، وبعضها الآخر في أقطار من العالم الإسلامي، لا بد له من الرحلة لتحصيلها واستجلابها.

(1): المصدر نفسه، (مج 04 / ص: 205).

المطلب الثالث: موجز الحياة العلمية للإمام ابن باديس أثناء الرحلة وبعدها .

بعد أن أخذ الإمام ابن باديس نصيبه من قسنطينة، عقد العزم على الرحلة إلى تونس لاستكمال عدته العلمية هناك، وبالضبط إلى الزيتونة حيث العلم والعلماء، هذه القلعة التاريخية التي تخرج منها الكثيرون، والتي تلقى قبولا كبيرا لدى الجزائريين.

أمّا تاريخ رحلته، فهو الآخر مازال فيه الكثير من الغموض والإشكالات، فبعد أن استقر الرأي على أن هجرته كانت سنة 1908 م⁽¹⁾، ذهب الدكتور عبد العزيز فيلاي، وبعد اطلاعه على وثائق جديدة وخفية عن حياة الإمام ابن باديس، خاصة دفتر شهادات الإمام، الذي سلّم له في الزيتونة لما التحق به، ذهب إلى مجانبة هذا الرأي، ورجّح كون "الإمام عبد الحميد ابن باديس قد سافر إلى جامع الزيتونة بتونس وعمره 21 سنة وليس 19 سنة، كما ذهب إليه الكثير من الدارسين وكان ذلك - حسب دفتره- في أواسط محرم من سنة 1328 هـ الموافق لـ 27 من شهر جانفي سنة 1910 م وليس من سنة 1908 كما هو عند من كتبوا عن حياته، وهي السنة التي أبعدها فيها حمدان من التدريس بالجامع الكبير، والتي هاجر فيها أستاذه حمدان الويسي إلى المدينة المنورة"⁽²⁾.

وقد درس في الزيتونة على مرحلتين اثنتين: أمّا الأولى: فهي مرحلة التطويع: هذه المرحلة التي كانت قد حدّدت فترة الحصول فيها على شهادة التطويع بـ: 07 سنوات، لكن الإمام ابن باديس لما امتحن في الزيتونة لتوجيهه إلى الصف الذي يتناسب مع مستواه العلمي، ولما ظهر منه من النبوغ والزاد العلمي المحترم الشيء الذي أقنع ممتحنه، سُمح له بالالتحاق بجامع الزيتونة والانتظام في الصف ما قبل الأخير للحصول على شهادة التطويع.

أمّا المرحلة الثانية: فهي مرحلة الكمالات العلمية، فمن عادة المتفوقين ممن حازوا شهادة التطويع، أن يُدرّس ويُدرّس لسنة أخرى في الزيتونة، والإمام ابن باديس زاد سنة أخرى للانتفاع والاستزادة.

(1): د/ عمار طالبي، المصدر السابق، (مج 01/ ص: 75). ود/ خير الدين شترة، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة 1900-1956 م، (الجزائر- حسين داي: دار البصائر، ط/ خاصة، 2009 م)، (مج 03/ ص: 11). و أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (مج 04/ ص: 491). ود/ عبد القادر فضيل، أ/ محمد الصالح رمضان، المصدر السابق، (ص: 33).

(2): د/ عبد العزيز فيلاي، عبد الحميد بن باديس مرحلة التحصيل والتكوين، (ص: 45). ووثائق جديدة عن جوانب خفية في حياة ابن باديس الدراسية، (ص: 21).

"وبالتالي يكون قد أنجز مقرره الدراسي لهذه الفترة في مدة لا تزيد عن سنة ونصف فقط... وانتقل إلى الاستزادة من مرحلة أخرى سماها النص الوزاري (بالكمالات العلمية)... وبذلك يصبح مجموع السنوات التي قضاها الإمام في الزيتونة في تونس المحروسة نحو ثلاث سنوات ونصف، أي من جانفي 1910 إلى شهر جويلية 1913م"⁽¹⁾.

ويؤيد المدة المذكورة بالتقريب في هذا النص ما ذكره الإمام ابن باديس عن نفسه حين قال: "ما كنت لأنسى أربع سنوات قضيتها بالزيتونة، شطرها متعلما وشطرها متعلما" ⁽²⁾، فمن خلال هذا النص المختصر يبين لنا الإمام أنه قد قضى الشطر الأول من السنوات الأربع متعلما، أي سنتي التطوع، أما الشطر الثاني فقد قضى السنة الأولى منه في استكمال الكمالات الوزاريّة (معلما)، أما السنة الثانية فقد قضاها في الاستزادة من العلوم (متعلما).

لكن يبقى على هذا الطرح الذي يرجّح رحلة الإمام إلى تونس في جانفي 1910م، أن يجيب على إشكال مهم، هو: أين كان الإمام ابن باديس بين سنتي 1908 و1910م، إذا اعتبرنا أنه "ابتداء من سنة 1909 لا نجد اسم عبد الحميد بن باديس في قائمة تلاميذ الشيخ حمدان" ⁽³⁾.

والحقيقة أنّ لحلّ هذا الإشكال لا بد من بحث تاريخي، لكن لا بأس من الإشارة إلى ما يأتي:

- القول برحلته في جانفي 1910م يربطه بالزيتونة مباشرة، كأنه ذهب إليها دون الالتفات يمينا أو شمالا، فنقول ما المانع من أن يكون قد رحل قبل هذا التاريخ، ثم التحق بالزيتونة.
- ألا يمكن أن نفرّق بين تاريخ رحلته إلى تونس، وتاريخ التحاقه بالزيتونة، فيكون بين الأوّل والثاني منهما فاصل زمني يردم الفجوة الزمنية الموجودة.
- الإمام ابن باديس أشار إلى أربع سنوات قضاها في الزيتونة، وليس في تونس، فنقول بأن هناك فترة قضاها في تونس لا في الزيتونة، وذلك بمفهوم المخالفة، خاصّة وأنّ الإمام يفرّق في حديثه بين تونس والزيتونة، كما سنورد في العناصر الآتية.
- في كلا الاحتمالين سيكون لدينا فجوة زمنية غير مدروسة، إمّا في قسنطينة، وإمّا في تونس.

(1): د/ عبد العزيز فيلاي، المصدرين السابقين، (ص: 62)، (ص: 33).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03 / ص: 125).

(3): أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (مج 03 / ص: 139).

- كما أنّ هناك نصًّا في آثار الإمام ابن باديس، لا بدّ من دراسته وتأويله، وهو قوله: "ولا أكتممكم أنّي أخذت شهادتي من جامع الزيتونة في العشرين من عمري"⁽¹⁾، فهل هنا قصّد الإمام سنة عشرين، فيكون هناك إشكال تاريخي وعلمي؟، أم أنه قصد العشرية الثانية من عمره، فنقول بأنّ ما ذكره تقريبي عن العشرينات، فبالتّالي هو نصّ عام يحدّده ما سبق؟.
- هناك من الباحثين من اختار كون الإمام قد بقي خمس سنوات⁽²⁾، أربع منها كطالب، والخامسة قضاها في التّعليم، فيكون هذا القول أغربها وأبعدها عن الدّقة.

الفرع الأوّل / الإمام ابن باديس في الزيتونة:

بعد أن وصل الإمام ابن باديس إلى تونس، "استقر هو وخادمه المرافق له في نهج الشّماعين غرب مسجد الزيتونة"⁽³⁾، وحتّى مُستقر الإمام ومسكنه خارج الزيتونة، لم يكن مكانا للراحة والسكنية، بل سكن في عدّة مدارس وأماكن علميّة، مثل المدرسة اليوسفيّة ومدرسة النّخلة، فكان بيت الإمام عبد الحميد ابن باديس، منتدى فكريًا وعلميًا يؤمّه زملاؤه ورفاقه في الدّراسة، يعقد فيه الندوات العلمية والجلسات الفكرية، والمطارحات الأدبيّة"⁽⁴⁾.

وقد كان الإمام ابن باديس مثالا للطالب المجتهد، والتلميذ المثابر، "يذكر شيخه العلامة الطاهر بن عاشور أنّ تلميذه ابن باديس لم يقع منه في كامل سنة التدريس تخلف إلا لعذر في مرات لا تتجاوز عدد أصابع اليد"⁽⁵⁾، وهذه المواظبة منه لم تكن فقط بالحضور الشّخصي في الدروس والحلقات بالإنصات، بل كان "يناقش ويجادل، ولا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا تصدّى لها بحثًا عميقًا، وكان الشيخ محمد النخلي كما كان كبار الطلبة يعجبون بتلك المناقشات الباهرة، والمجادلات العميقة التي تفتح أمامهم آفاقا فسيحة من الفهم والإدراك والغوص العميق"⁽⁶⁾.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05 / ص: 378).

(2): بن مزوز، عمار، المصدر السابق، (ص: 15).

(3): أندري ديرليك، المصدر السابق، (ص: 151).

(4): د/ عبد العزيز فيلاي، المصدرين السابقين، (ص: 51)، (ص: 26).

(5): لحسن بن علجية، المصدر السابق، (ص: 35).

(6): توفيق المدني، أحمد، عبد الحميد بن باديس الرّجل العظيم، المصدر السابق، (ص: 144).

لقد كان الإمام ابن باديس في الزيتونة تلميذا نشيطا ذا همة عالية، بل كان "تلميذا لا كالتلاميذ يتلقى علم ما في الكتب والمجلدات لينال شهادة، بل تلقى عنهم زيادة على ما في الكتب ما عرفوه من أحوال العالم الإسلامي وما يموج من تيارات فكرية وحركات إسلامية تحاول النهوض به وإقالته من عثاره"⁽¹⁾.

1/ الشيخ ابن باديس وشيوخه في الزيتونة وخارجها⁽²⁾: لا شك أن الإمام ابن باديس قد تأثر بالشيوخ الذين لقيهم ودرس عندهم، أو الذين درس لهم ولم يحصل له اللقاء بهم، وذلك لعدة اعتبارات منها:

- اعتراف الشيخ نفسه بهذا التأثير، وحديثه عنه في كثير من المواضع في آثاره، بكثير من الإعجاب والإجلال الكبيرين الذين إن دلا على شيء فإنما يدلان على حجم هذا التأثير ونوعيته.

- دخول الإمام إلى تونس في عهد حوت فيه تلك البلاد خيرة الرجال وأعظمهم، من العلماء والمصلحين والمجددين، بحيث اجتمع منهم في ذلك الزمان والمكان، ما لم يجتمع في غيرهما.

- كانت تونس تعيش في تلك الفترة صراعا محتدما بين المجددين والمقلدين، ما ساهم في إيجاد حركة علمية استطاعت تحريك البلاد والعباد، وقد اختار الإمام تيار الإصلاحيين بزعامة النخلي وابن عاشور.

- افتخار الإمام ابن باديس بالزيتونة واعتباره إياها اسما إسلاميا تاريخيا عظيما، وتوقيعه في بعض مقالاته بـ: المتخرج من جامع الزيتونة، وتصريحه بالهوى والشوق الذي يربطه بتونس واللدان لا يضاهيهما إلا هوى تلمسان، وتذكره بأنه تلميذ من تلامذة الزيتونة⁽³⁾.

ذكر الأستاذ علي الشابي في مقال بعنوان: أي تأثير لتونس في شخصية المصلح الجزائري الكبير الإمام

(1): مطبقاني، مازن صلاح، المصدر السابق، (ص: 123).

(2): أنظر: د/ عمار طالبي، المصدر السابق، (مج 01/ ص: 76). و محمد بن محفوظ ابن المختار الشنقيطي، المصدر السابق، (ص: 10).

و علي الشابي، أي تأثير لتونس في شخصية المصلح الجزائري الكبير الإمام عبد الحميد ابن باديس؟، عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء، جمع: د/ الدراجي محمد، (ص: 93).

(3): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03/ ص: 117-125-129). (مج 04/ ص: 325).

عبد الحميد بن باديس؟، قال فيه بأن الإمام قد تأثر بالشيخ البشير صفر تأثراً عظيماً، وهذا لا إشكال فيه، بل حتّى الإمام ابن باديس نفسه يذكر هذا، لكن الأستاذ علي الشّابي ردّ هذا التأثير إلى تتلمذ الإمام ابن باديس على الشيخ بشير صفر تتلمذا مباشراً، رغم "أنّ مدّة تتلمذه عليه لم تطل، إذ لم تتواصل أكثر من خمسة أشهر من سنة 1908، لأنّ البشير صفر نقل بخطة عامل (وال) إلى سوسة في 29 جوان 1908م"⁽¹⁾.

لكنّ هذا غير صحيح، وقد وهم الأستاذ هنا، لأنّ الإمام وحسب تاريخ التحاقه بالزيتونة سنة 1910م، لا يمكنه أن يتلمذ عليه، كما يؤيّد هذا الطّرح؛ التعبير الدّقيق للإمام ابن باديس عند حديثه عن البشير صفر، فقد فصل النزاع بقوله: "وأنا شخصياً أصرّح بأنّ كراريس البشير صفر الصغيرة الحجم الغزيرة العلم، هي التي كان لها الفضل في اطلاعي على تاريخ أمّتي وقومي.." ⁽²⁾، فالإمام قد أخذ عن كراريس الشيخ البشير صفر، ولم يأخذ عنه مباشرة بالسّماع والمجالسة.

2/ الآثار الحضارية لدراسة الشّيخ ابن باديس في تونس: لقد كان لدراسة ابن باديس في تونس عدة آثار ليس عليه هو فقط، بل يمكن اعتبارها آثاراً حضارية لما يأتي:

- كانت هجرته إلى تونس إحياء لأواصر الأخوة الإيمانية التي تربط بين البلدان الإسلامية، وكأنه يقول للجزائريين إنّ انتماء الجزائر مشرقي وليس غربياً.
- لقد كان الإمام برحلته تلك "أحد واضعي أسس التواصل الثقافي والعلمي بين تونس والجزائر"⁽³⁾، والذي استمر بعد إكماله لدراسته، بتلك البعثات التي ترسل إلى تونس، وبالمدرسة التي أسسها في قسنطينة والتي اعتمدت كفرع للزيتونة في الجزائر.
- كان يسعى لتوحيد الشمال الإفريقي الإسلامي ككل بدءاً من تونس، والدليل هو سعيه الحثيث لزيارة المغرب الأقصى استكمالاً للبناء، لكن لم "تسمح له السلطات الفرنسية"⁽⁴⁾،

(1): علي الشّابي، المصدر السابق، (ص: 100).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04 / ص: 327).

(3): د/ خير الدين شترة، إسهامات النخبة الجزائرية في الحياة السياسية والفكرية التونسية 1900-1939م، (الجزائر-حسين داي:

دار البصائر، ط/ خاصة، 2009م)، (ص: 199).

(4): لحسن بن علجية، المصدر السابق، (ص: 52).

وتركيزه على تونس والمغرب نابع من كون عدوّ هذه البلدان مشترك، فكان يريد توحيد الجهود ضدّه لتشتيت قوته.

- " للشيخ عبد الحميد بن باديس أثر كبير في تحطيم الأسوار التي بنتها فرنسا حول الجزائر، فكانت أول ضربة معول في هذا السور رحلة الشيخ عبد الحميد تلميذا إلى تونس"⁽¹⁾.
3/ انتهاء الإمام ابن باديس من الزيتونة: بعد أن أنهى الإمام ابن باديس المقرّر العلمي الذي كُلف به وتمّ امتحانه من الهيئة العلميّة للزيتونة، أعلنت النتائج الرسميّة لقائمة النّاجحين المتحصّلين على شهادة التّطويع، ولم ينجح في تلك السنة من 60 طالبا إلّا 12 طالبا، وقد تقدّمهم الإمام ابن باديس فكان على رأس القائمة، وذلك حسبما نشرته جريدة (المشير)⁽²⁾ التونسية في عددها الصّادر في 06 أوت 1911م، ومما يدلّ على المستوى العالي للزيتونة في ذاك الوقت، أنّ كثيرا ممن لم ينجحوا في تلك السنة، قد تقلدوا مناصب سامية في الدّولة التّونسيّة.

فإذا كان الرّاسبون بحكم المستوى العالي هم في الحقيقة أصحاب كفاءة ومنزلة، يستحقّون بها نيل الرتب والوظائف في الدّولة، يجعلنا إذا نتساءل عن مستوى النّاجحين، بل كيف بمن تصدر القائمة منهم، والذي أوردت الجريدة اسمه كالآتي: 1/ عبد الحميد بن محمد المصطفى بن باديس من قسنطينة⁽³⁾.

لقد استطاع الإمام ابن باديس أن ينتزع المرتبة الأولى من النّاجحين، " وتلك ميزة لم يحصل عليها سوى أبناء مشايخ الزيتونة ومن أبناء العاصمة الزيتونية، ربما لتوفّر الظروف النفسيّة والاقتصاديّة لهم أكثر من غيرهم"⁽⁴⁾، ولكن هذه المرّة كلّ الظروف كانت متوفرة للإمام ابن باديس، فوراء أمّة مريضة تنتظر طبيبها، وهو ذو نفس وهمة عاليتين لا تقف أمامهما عقبة، أو حاجز.

(1): مطبقاني، مازن صلاح، المصدر السابق، (ص: 123).

(2): المشير: نشرة إسلامية تونسية، إصلاحية، عمومية، أسبوعية، صدر أوّل عدد منها يوم 1 جانفي 1911، وآخر عدد في 22 مارس 1920، مديرها وصاحبها، ورئيس التحرير: الطيب بن عيسى (1891 / 8 أفريل 1965). أنظر: أنس الشابي، زملاء ابن باديس، عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء، جمع: د/ الدراجي محمد. (هـ/ ص: 106).

(3): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 06/ ص: 441). و د/ عبد العزيز فيلاي، عبد الحميد بن باديس مرحلة التّحصيل والتّكوين، (ص: 62).

(4): مطبقاني، مازن صلاح، المصدر السابق، (ص: 33).

أمّا زملاؤه النّاجحون من بعده في القائمة، فقد كتب عنهم الأستاذ أنس الشّابي مقالا تطرّق فيه لمختصر حياتهم، وأعمالهم، والخطط التي تقلدوها في تونس، عدا واحدا منهم لم يصل إلى ترجمته⁽¹⁾.

رجع الإمام إلى الجزائر في بداية السّداسي الثاني من سنة 1913م، كما ذهب إليه الدكتور عبد العزيز فيلاي، لكن هناك من اختار رجوعه في سنة 1912م، ولعلّ أبعد الأقوال عن التّحقيق والتّحقيق فيما يتعلق بتاريخ إيباه، ما ذكر من أنّه أتمّ دراسته سنة 1908م⁽²⁾.

وقد ابتدأ حركته التعليمية في قسنطينة، في نفس السنة التي توفي فيها الشيخ المجاوي، "فاتصلت حركات الإصلاح متطورة إلى مرحلة القوّة والنّضج"⁽³⁾، المهمّ أنّ الإمام رجّع إلى بلده من هجرته الأولى، وقد كانت له مواقف في بيته الباديسي، لعلّ أهمّها ما رواه عن الإمام ابن باديس، الأستاذ محمد الصّالح رمضان، أحد تلاميذ الشيخ، وهو قوله: "إنّ الزّغرودة التي قابلتني بها أمي يوم عدت من تونس ما تزال ترن في أذني ولن أنساها ما حييت"⁽⁴⁾.

بعد رجوعه إلى الجزائر لم يخلد إلى الرّاحة، بل شرع في مهمّته وعمله الذي نذر له نفسه، وجهده فقد اتّجه إلى التّعليم، وكان الشّروع من الجامع الكبير، حيث بدأ بتدريس كتاب (الشفاء) للقاضي عياض⁽⁵⁾، لكن الأمور لم تسر على الوجه المطلوب، فقد تعرّض الإمام لمضايقات ممن كانوا يأبون الشّفاء للأئمّة، وهم من داخل الأئمّة نفسها، فلم يستمر عمله، فقد منعه مفتي المدينة: الشيخ المولود بن الموهوب "فكلف المفتي من يشوش عليه ويطفئ المصابيح وقت الدرس، ولكن الشاب

(1): أنظر: أنس الشّابي، زملاء ابن باديس، المصدر السابق، جمع: د/ الدراجي محمد. (ص: 106 / 119).

(2): د/ فؤاد صالح السيد، موسوعة أعلام القرن العشرين في العالمين العربي والإسلامي، (لبنان-بيروت: مكتبة حسن العصرية، ط/ 01، 1434هـ-2013م)، (مج 01/ ص: 458).

(3): د/ عمار طالبي، المصدر السابق، (مج 01/ ص: 24 / 81).

(4): د/ عبد القادر فضيل، أ/ محمد الصّالح رمضان، المصدر السابق، (ص: 35).

(5) القاضي عياض (446-544هـ): "بن موسى بن عياض اليحصبي، السبتي الأصل، الأندلسي الميلاد، كان إمام وقته في الحديث وعلومه، فقيها أصوليا، عالما بالنحو واللغة، حافظا لمذهب الإمام مالك، وقد أخذ عن أكابر علماء زمانه في حواضر الأندلس، كما تولّى القضاء وهو ابن خمس وثلاثين سنة، توفي في مراكش، وقد ترك الكثير من التّصانيف القيّمة؛ ومنها: (إكمال المعلم في شرح صحيح مسلم)، و(ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك)، و(الإعلام بحدود قواعد الإسلام)".

أنظر: ابن فرحون المالكي، القاضي إبراهيم بن نور الدين، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق: مأمون بن محيي الدين الجنّان، (لبنان-بيروت: دار الكتب العلمية، ط/ 01، 1417هـ-1996م)، (ص: 270-273).

عبد الحميد لم يستسلم، وكلف طلابه أن يحضروا الشموع ليدرسوا تحت ضوءها، وقابل المفتي عناد هذا الشاب المدرس بتصرّف آخر، فأمر أحد أتباعه (الحاج القرشي) بالتصدي له ومنعه فجاء وأطبق دفتي الكتاب أمام المدرس عبد الحميد، وأطفأ الشموع، وكادت تقع فتنة بينه وبين الطلاب في بيت الله ولكن المعلم المؤدب أحمد الفتنة.. تأثر الفتى عبد الحميد لهذه المعاملة السيئة..⁽¹⁾.

- إنّ هذا الفعل ليس مجرد قصة، بل هي حادثة هامة لها دلالات كبيرة، يمكن أن نشير إلى بعضها:
- إنّ هذا المنع والإزعاج، قد جعل الإمام ابن باديس يدرك بأنّ التصدي لدعوته الإصلاحية، سيكون من داخل الصفّ الإسلامي قبل خارجه، ولعل هذا ما جعله يبدأ في جهاده بالجبهة الداخلية، المتمثلة في الطرقية وأهل الجمود، قبل الجبهة الخارجية المتمثلة في الاستعمار.
- قد كانت هذه الحادثة سببا في ذهاب الإمام في رحلته الثانية إلى المشرق، وبالتالي الاستزادة من المعارف والعلوم، وتأجيل عمله التربوي إلى حين استكمال قوته العقلية والعلمية.
- أمّا عن دوافع⁽²⁾ هذا الفعل من المفتي ابن الموهوب، فقد أشار الباحثون للكثير منها، لعلّ أهمّها:
- الإقبال الشديد على دروس ابن باديس، مما حزّ في نفس المفتي فلم يتحمّله، أو أنّه اعتبر هذا العمل تجاوزا لسلطته كمفت لمدينة قسنطينة.
- قد يكون المفتي استشعر أنّ مكانته في خطر، وبأنّ هذا الفتى الباديسيّ يحنّ إلى أمجاد أجداده الذين كانوا أهل القضاء والفتوى في قسنطينة، وبالتالي فهو ينازعه ويصارعه على مركزه.
- قد يكون السبب هو نوع الخطاب الذي تبناه الإمام ابن باديس في دروسه، ذاك الخطاب الذي خرج عن المعهود من التحجر والجمود، إلى الخطاب الحيّ الموقظ لموات النفوس.
- قد يكون المفتي تحرّك ضد الإمام ليس عن طوع واختيار، بل بإيعاز وأمر من السلطات الفرنسية، بعدما استشعر هذا الأخير خطر خطابه وأثره على الوعي المخدّر للأمة.

(1): د/ عبد القادر فضيل، أ/ الصالح رمضان، المصدر السابق، (ص: 38). ود/ عمار طالبي، المصدر السابق، (مج 01/ ص: 80).

(2): أنظر: د/ عبد القادر فضيل، أ/ محمد الصالح رمضان، المصدر السابق، (ص: 37). و بن مزوز، عمار، المصدر السابق،

(ص: 19). ومطبقاني، مازن صلاح، المصدر السابق، (ص: 34).

الفرع الثاني / الرحلة الثانية إلى المشرق⁽¹⁾ :

شدّ الإمام ابن باديس الرّحال إلى المشرق الإسلامي تحت غطاء الحج وذلك في منتصف شهر أكتوبر من سنة 1913م، فسلّك طريق البحر إلى بيت الله الحرام، وقد دامت هذه الرحلة سنتين لم تخلُ من الأثر؛ كما ذكر الإمام ابن باديس⁽²⁾، ويمكن أن نذكر بعض مقاصد ونتائج هذه الرحلة المباركة:

- الحج إلى بيت الله الحرام لأداء الركن الخامس من أركان الإسلام، وذلك بأداء مناسك الحج، وكأنّ الإمام قضى حجّه في سنّ مبكّرة ليتفرّغ لعمله الجهادي الإصلاحي بلا فاصل.
- الالتقاء بشيوخ وعلماء الحرمين، ومن قدموا للمجاورة من بقاع الأرض المختلفة، فيحصل له من الاستفادة والاحتكاك بهم ما لا يحصل له في بقعة أخرى من بقاع الأرض.
- الاطلاع على أوضاع العالم الإسلامي، الدينية والاجتماعية والسياسية، ومعرفة أمراض الأمة ووصف الأدوية الشافية لها، خاصة وأنّه في طريق العودة عرّج على عواصم الشّام كدمشق وبيروت، وكذا كبرى حواضر مصر، كالقاهرة والإسكندرية.
- الالتقاء بشيخه الأول؛ حمدان الونيسي واستشارته واستنصاحه إياه، وبثّه همّه وحزنه لما وقع له من ابن الموهوب، ولعل هذا ما دفع الشيخ بأن يشير عليه بالبقاء في المدينة، لكن ابن باديس لم يرتح للفكرة، خاصة بعد أن أشار عليه أحد علماء المدينة بالعودة إلى بلده.
- التقاؤه بالشيخ البشير الإبراهيمي⁽³⁾ واتفاقه على وضع مشروع عملي إصلاحي جماعي في الجزائر، وسينفذ في الوقت والطريقة المناسبين.
- تحصيله لعدّة إجازات وشهادات من كبار علماء العصر في ذاك الوقت، لعل أبرزها شهادة

(1): أنظر: عامر، علي عرابي، المصدر السابق، (ص: 31). و د/ عبد القادر فضيل، أ/ محمد الصالح رمضان، المصدر السابق، (ص:

38 / 40). و د/ محمد بهي الدين سالم، المصدر السابق، (ص: 34).

(2): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04 / ص: 230).

(3): محمد البشير الإبراهيمي (1306 - 1358هـ): " رفيق الإمام ابن باديس، ورئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعده، ولد

بقرية أولاد إبراهيم، بولاية سطيف، رحل إلى المشرق، ثم عاد إلى الجزائر لمجاهدة المستعمر الفرنسي بالتربية والتعليم، حيث

كان يسجن وينفى، كما انتقل بين بلدان العالم لحشد التأييد والمال للثورة، وأدرك الاستقلال، لكنّه أودع في الإقامة الجبريّة في

عهد الرّئيس بن بلّة، له عدّة آثار، أهمّها: (عيون البصائر) مجموع مقالات، وكتب أخرى مخطوطة لم تترى النور بعد "

أنظر: عادل نويّض، المصدر السابق، (ص: 13). والزركلي، خير الدين، المصدر السابق، (مج 06 / ص: 54).

العالمية⁽¹⁾ الأزهرية من مصر، وإجازات العلماء الحجازيين والمصريين.

- دعاؤه الله تعالى في مسجد رسول الله ﷺ " أن يجعله من أنصار سنته ودينه، وكأنه بهذا يعاهد الله ورسوله ﷺ على الجهاد في الجزائر لإعلاء كلمة الله "⁽²⁾.

بعد كل هذه الرحلات العلمية، " تكون قد انتهت المرحلة الأولى لتكوين فكر ابن باديس، ليبدأ بعدها أهم مرحلة وأصعبها، وهي مرحلة الإصلاح والنهوض بالأمة "⁽³⁾.

الفرع الثالث / بداية المشروع الباديسي التربوي الإصلاحي⁽⁴⁾ :

بعد أن عاد الإمام ابن باديس إلى الجزائر شرع في العمل التربوي، وذلك عبر المراحل الآتية:

- بدأ الإمام باستصدار رخصة رسمية من والي قسنطينة، وذلك بواسطة أبيه، وذلك حتى يتمكن من التدريس مجانا في (الجامع الأخضر)، أحد المساجد الثلاثة التي كانت تشرف عليها السلطة.

- بدأ عمله التربوي بتعليم أطفال الكتاتيب القرآنية، بعد فترتي الدوام الصباحية والمسائية في كُتَّاب (سيدي فتح الله)، وفي كُتَّاب الزاوية القادرية (جامع سيدي عبد المؤمن)، في المدينة القديمة.

- لقد كان الجامع الأخضر بفضل مجهودات الإمام ابن باديس جامعة لتخريج الطلبة المتمكنين، وتكوين الأساتذة الذين سيتشرون في بقاع القطر الجزائري، لرفع الجهل والأمية عن الناس.

- لقد بدأ الإمام ابن باديس عمله التعليمي الإصلاحي فردياً، لكن كان يهيئ الأوضاع المثلى والمناسبة للانطلاق في العمل الجماعي، بتكوين النواة الأولى التي ستكون المنطلق لهذا المشروع.

- تبني الإمام للمسجد كأفضل مكان للإصلاح والعمل والتعليمي، وقد درّس في المساجد الآتية: المسجد الكبير، مسجد سيدي قموش، سيدي عبد المؤمن، مسجد سيدي بومعزة، الجامع الأخضر، مسجد سيدي فتح الله.

(1): د/ فؤاد صالح السيد، المصدر السابق، (مج 01 / ص: 458).

(2): عامر، علي عرابي، المصدر السابق، (ص: 34).

(3): د/ محمد بهي الدين سالم، المصدر السابق، (ص: 34).

(4): أنظر: د/ عمار طالبي، المصدر السابق، (مج 01 / ص: 99). و د/ عبد القادر فضيل، أ/ محمد الصالح رمضان، المصدر السابق،

(ص: 35/ 41 / 42 / 98). و زروقة، عبد الرشيد، المصدر السابق، (ص: 119 / 167). و مطبقاني، مازن صلاح، المصدر

السابق، (ص: 34).

- لقد كان جهد ابن باديس تكملة للجهود الفردية والمحدودة التي سبقته، ولم ينطلق من (الصفر)⁽¹⁾ كما ذهب إليه البعض، لما في هذا الرأي من المبالغة والإلغاء المناهضين للعلمية والموضوعية.

- موازاة مع التعليم المسجدي، أسّس الإمام ابن باديس سنة 1926م مدرسة للتعليم الابتدائي، بمسجد سيدي بومعزة أطلق عليها اسم (المكتب العربي)، ثم حوّلت إلى مقر الجمعية الخيرية لتساعدها، وعيّن هيئة للإشراف عليها، سماها: (جمعية التربية والتعليم الإسلامية).

- إنّ الإمام ابن باديس لم يتحدث عن جهده التعليمي التربوي، بل أشار في كثير من المواضع إليه بصيغة الجمع لا الأفراد، لكن يمكن أن نذكر بعض المواضع التي اطلعنا عليها في الموضوع، مثل:

أ/ إشارته سنة 1933م إلى مضي 20 سنة في نشر العلم، حين قال: "عشرون سنة مضت ونحن ننشر العلم بالجامع الأخضر وفي مسجد سيدي قموش ومسجد سيدي عبد المؤمن"⁽²⁾.

ب/ لقد كان الإمام "مدرسا يقضي سحابة نهاره وشطرا من ليله في خدمة العلم الديني واللساني ونشره.."⁽³⁾.

ج/ حديثه عن تاريخ انطلاق تعليمه في الجامع الأخضر: "أمّا بداية تعليمي فيه فقد كانت أوائل جمادى الأولى عام 1232هـ وكان ذلك بسعي من سيدي أبي..."⁽⁴⁾، وهذا النص كذلك فيه خطأ، وهو أنّ هذا التاريخ غير صحيح، لأن المقصود هو 1323هـ.

رأى الإمام أنه قد حان الوقت لجهوده الفردية أن تتحد مع عصبة من المؤمنين، ليأخذوا من مشعله ويضيئوا باقي بقاع القطر الجزائري المظلم، حتى لا تذهب جهوده سدى كما ذهبت جهود من سبقوه، وقد تمّ هذا الاتحاد العلمي الإصلاحي في شكل جمعية إصلاحية باسم: (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين)، وسنذكر باختصار أهمّ مراحلها:

- لما كان الإمام ابن باديس في الحجاز والتقى هناك بالشيخ البشير الإبراهيمي، عقدا العزم على القيام بنهضة علمية تربوية في الجزائر، وسيكون من مظاهرها جمعية إسلامية تتوحد تحتها الجهود.

(1): د/ تركي، رابح عامرة، المصدر السابق، (ص: 392).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03/ ص: 190).

(3): المصدر نفسه، (مج 03/ ص: 191).

(4): المصدر نفسه، (مج 04/ ص: 37).

- في 05 ماي 1931م تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والتي اتخذت نادي التّرقى بالعاصمة مقراً لها، وقد حضر الاجتماع التّأسيسي أكثر من سبعين عالماً من علماء الجزائر قدموا من مختلف جهات الوطن، وينتمون لمختلف الاتجاهات المذهبية، فقد وُجد منهم: المالكيون، الإباضيون، المصلحون، الطرقيون، الموظفون، غير موظفين، وقد انتخب الإمام عبد الحميد ابن باديس رئيساً لها غيابياً في اليوم الأخير للاجتماع، كما كان لها مجلس إداري للتسيير من 13 عضواً.
- كان من أسس الجمعية الاشتغال بالعمل التربوي التعليمي، والابتعاد عن أي شكل من أشكال العمل السياسي مهما كانت دوافعه أو مراميها، وهذا حتّى لا تسخط السلطات عليها.
- لقد عمل الإمام في هذه الجمعية بكل راحة وانسجام، مع زملائه من العلماء، الذين قال عنهم: "أستمدّ القوة والحياة فإنما أستمدّهما ممن أولوني شرف الثقة... وهم إخواني الأقوياء من رجال العلم... وجدتهم معي كالأسود"⁽¹⁾.
- رغم كل المحاولات لإفساد هذا الجهد العظيم، سواء من المستعمر أو من أذناؤه من بعض الطرقيين، إلّا أنّ الشيطان لم يجد منفذا يدخل منه لتعويقهم، فما جمعته يد الله لا تفرقه يد الشيطان.
- لقد كان الإمام ابن باديس يتفقد أحوال الجمعية أيام الراحة الأسبوعية، وكان له اشتراك ليلي في القطار ينتقل من خلاله إلى العاصمة وتلمسان، للوقوف على كل صغيرة وكبيرة، كما طاف باسم الجمعية مختلف أقطار البلاد الجزائرية مما لا يُحصى عدداً، "وتلك والله الدعوة التي لا تقف في مكانها تنتظر المدعويين أن يأتوها بل تنتقل هي إليهم"⁽²⁾.
- فتح المدارس التربوية، ووضع المناهج التعليمية، وتكوين المعلّمين وإلزامهم بتقديم التّقارير التي تتعرض لكل تفاصيل العملية التعليميّة لتذليل الصعوبات واستدراك النقائص.
- لقد بذلت فرنسا قصارى جهدها لإيقاف هذا العمل الجماعي⁽³⁾، حيث ساومت وهدّدت الإمام ابن باديس، لكنه أبى أن تُقتل الجمعية على يديه، وقد وقعت له في ذلك مواقف مؤثرة.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 02 / ص: 144).

(2): مطبّقاني، مازن صلاح، المصدر السابق، (ص: 68).

(3): أنظر: د/ عبد القادر فضيل، أ/ محمد الصالح رمضان، المصدر السابق، (ص: 145). و زروقة، عبد الرّشيد، المصدر السابق،

(ص: 213). و أندري ديرليك، المصدر السابق، (ص: 197).

- لقد أثمرت جمعية العلماء أعظم الثمار وأنفعها، فيكفي أنها وُحِّدَت الجزائريين تحت هيئة علمية واحدة، ما صيّر الجزائريين في قابلية للاتحاد تحت هيئة جهادية واحدة هي جبهة التحرير الوطني.
- أراد الإمام أن يجعل عمله تحت ظل جمعية جزائرية جماعية، حتى لا يموت جهده بموته ولا ينقطع بانقطاعه عن الحياة، وهذا ما وقع؛ فبعد وفاته استمر إخوانه على نهجه وما بدّلوا تبديلاً.
- الاستعانة بالصحافة والإعلام في الدعوة وبعث اليقظة الإسلامية، والمشاركة في الأحداث السياسية الكبرى، كقضية الإدماج والتجنيس، ومنع التعليم الإسلامي والعربي، والدعوة إلى عقد المؤتمر الإسلامي الجزائري في 07 جوان 1936م، والمساهمة في النهضة العلمية الجزائرية.
- إنّ هذه أهمّ الإشارات لمراحل الجمعية في عهد الإمام ابن باديس، وإلاّ فالتفصيل ليس مقصوداً⁽¹⁾.
- لقد كان الإمام ابن باديس صلباً أمام أيّ عمل عدائيّ، ليس تُجاهه شخصياً، بل تُجاه إحياء الأمة الجزائرية، فمن المواقف الدالة على ثباته، قوله: "لست لنفسي وإنما أنا للأمة، أعلم أبناءها وأجاهد في سبيل دينها ولغتها، وأنّ كل ما يقطع علي هذا الطريق أو يعوقني عن أداء واجبي في هذا السبيل فإنّي لا أَرْضَى به ولو كان ذلك من مصلحة الأمة"⁽²⁾، كما كان يواجه أيّ مساومة أو تهديد للمساس بعمله التربوي بقوله: "فوالله لو بذلت لنا الدنيا بحذافيرها في تركه، ما ساوت عندنا حبة رغاما، توفيقا منه تعالى وبقينا صادقا منّا وبصرا بصيرا"⁽³⁾.
- من خلال هذا العرض الموجز المختصر، نجد أن الإمام عبد الحميد ابن باديس قد خاض حرب البقاء والوجود، حرباً ذابت فيها ذاته الشخصية، في سبيل إثبات ذات الأمة الجزائرية الإسلامية العربية، وتوجيهها إلى طريق النصر والاستقلال.

(1): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 01/ ص: 60) و(مج 01/ ص: 71) و(مج 03/ ص: 18).

و د/ عبد القادر فضيل، أ/ محمد الصالح رمضان، المصدر السابق، (ص: 46/ 52). و محمد بن محفوظ ابن المختار الشنقيطي، المصدر السابق، (ص: 13). وأندري ديرليك، المصدر السابق، (ص: 179). وأ/ د عشراقي سليمان، المصدر السابق، (ج 01/ ص: 71). و د/ محمد دراجي، مواقف الإمام الإبراهيمي عبد الحميد ابن باديس، (الجزائر-المحمدية: عالم الأفكار، ط 01، 2007م)، (ج 05/ ص: 08). والبصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، (لبنان- بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط 01، 1427هـ-2006م)، (مج 01/ ص: 342).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 06/ ص: 83).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 01/ ص: 161). أنظر: نفس المصدر، (مج 01/ ص: 219).

المطلب الرابع: وفاته، وآثاره، وثناء العلماء عليه.

يمكن أن نشير في هذا المطلب الأخير لأهمّ لحظاته التاريخية الأخيرة، ثم ذكر أهم آثاره العلمية والعملية، لنختم بثناء العلماء عليه، كما سنشير لأظهر مكوّنات الشخصية الباديسية.

الفرع الأول/ أخلاق الإمام ابن باديس، وشخصيته:

ما استطاع الإمام ابن باديس أن يبلغ ما بلغه من القبول والمباركة من الأمة الجزائرية، إلا بعدّة عوامل، هي أخلاقه الإسلامية، وشخصيته الأبية.

1/ أخلاق الإمام ابن باديس: لقد تميّز بأخلاقه الطيبة وسيرته الحسنة، وهنا سأشير إلى بعضها فقط، كون الحصر ينافي مقاصد البحث، وهذه الأخلاق لمسناها بكثرة في كتاباته، وأشار إليها تلاميذه، ولعل أهمّها:

خلق التواضع: لقد كان الإمام يعفّ نفسه عن مواطن المدح والثناء، والشكر والامتنان، تواضعا منه واستصغارا لنفسه، وتواضعه لم يكن مصطنعا أو كاذبا، فهو نفسه قال: "وأنا في قرارة نفسي أبغض التواضع المصنوع كما أبغض الادّعاء الكاذب"⁽¹⁾، كما يلفت انتباه القارئ أنّه لا يفتخر بنفسه، ولا ينسب عظيم الأفعال لرأيه، ومن أكثر الجمل التي وجدتها في آثاره ممّا يدلّ على هضم الإمام لنفسه أقواله⁽²⁾: "وأنا ذو النفس الملائى بالذنوب والعيوب"، "نعرف في حياتنا مواطن ما نجونا فيها إلّا بدفع الله...وقد كنّا فيها -فيما نرى- على شيء من العمل لله، فكيف بمن كانت أعمالهم كلّها لله...ولا نشك أنّ من غيرنا من شاهد مثلنا أو أكثر منا"، "فكنّا -إن كنّا مؤمنين- مع من فرّ إلى الله"، "شاء الإخوان أن يجدّدا لهذا العاجز حمل مسؤولية الرئاسة رغم امتناعه"، "خديم الأمة ابن الجزائر"، "فاذكرونا كما نحن لا تزيدون...ولا تنقصون".

خلق العفو: من الأخلاق التي ظهرت منه عملا وتطبيقا؛ خلق العفو والمسامحة، فبعد أن كرّر على أعداء الأمة وما فرّ، وبعد أن أثخنهم بالحجّة والبيان، لم يجد الاستعمار وأذيله من الطرقيين من سبيل لشيء عن جهاده وعمله، إلّا أنتن الطرق وخسيسها، فقد مكروا ودبروا مكيدة للتخلص منه وقتله،

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03/ ص: 335).

(2): المصدر السابق، (مج 01/ ص: 148). و(مج 01/ ص: 361). و(مج 02/ ص: 98). و(مج 03/ ص: 23). و ابن باديس،

عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05/ ص: 183/ 105).

لكن قال الله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ (الأنفال: 30).

في ليلة الأربعاء 09 جمادى الثانية 1345 هـ، الموافق لـ: 14 ديسمبر 1926 م، على الساعة السابعة مساءً، امتدت أيدي الإثم والبغي للنيل من الإمام، "لقد حاول أحد المجرمين المدفوعين من قبل الاستعمار، وكان ذا غلظة وفضاظة وضخامة جسم، أن يغتال بخنجر فضيلة الشيخ عبد الحميد ابن باديس المصلح الاجتماعي في ذلك الحين فأمسك هذا الشيخ بيده -النحيلة التي هي أضعف من أصبعي- الخنجر حتى أته النجدة ومنعت المجرم من تنفيذ خطته الإجرامية، فهذا عمل من أعمال اليد في الحالة النفسية التي تكمن وراءها قوة الفعالية"⁽¹⁾، وقد أراد أهل المدينة أن يفتكوا به لكن الإمام تجاوز وعفا عنه، فكسب ودّ القلوب واحترامها، "حقاً إنّ الاحترام الحقيقي هو احترام القلوب التي لا تملك إلا بالإحسان"⁽²⁾.

2/ شخصية الإمام ابن باديس: لقد تكلم الإمام نفسه عن أهمّ عوامل تكوينه، كما أشار إليها الكثير من الباحثين بالبيان والتفصيل⁽³⁾، والتي يمكن أن نذكر باختصار أهمّها:

أ/ عوامل نفسية ذاتية: تتمثل فيما أودعه الله تعالى بفضله ورحمته في الإمام ابن باديس من همة عالية، ونبوغ واستعداد للتّحصيل، وذكاء وفطنة وسرعة بديهة، وصبر على النّوائب والملمات، والتحلي بروح الشباب رغم سمته وورعه الإسلامي في زيّه وهياّته.

ب/ عوامل أسرية: تتمثل في انتماؤه الأسري الحافل بالأعجاد والمشاهير من أهل سلطان الحكم، وسلطان العلم، ممّن يُعزّزُ بهم ويُتمنّى اتّباع طريقهم، كما تأثّر بوالديه اللذين وجهاه توجيهاً إسلامياً وزرعا فيه حبّ العلم والسّعي في تحصيله، وكفاية والده له من حاجات الدنيا، وكيد المستعمر.

ج/ عوامل زمنية: تتمثل في الوقت الذي عاش فيه الإمام وما كان يبعثه فيه من الألم؛ من جهة

(1): بن نبي، مالك، تأملات، (سورية-دمشق: دار الفكر، ط/ 09، 1430 هـ-2009 م)، (ص: 39)، أنظر: أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة أو القصة الكاملة للسطو بالإمام الرئيس عبد الحميد بن باديس، (الجزائر-قسنطينة: دار البعث، د/ ط/ ت)، (مج 01/ ص: 89 إلى 110). و ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05/ ص: 296). و د/ عبد القادر فضيل، أ/ محمد الصالح رمضان، المصدر السابق، (ص: 47).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 01/ ص: 300).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 02/ ص: 138) / (مج 03/ ص: 554) / (مج 03/ ص: 554). ود/ عمار طالبي، المصدر السابق، (مج 01/ ص: 77-80). ومحمد هشام بالقاضي، المصدر السابق، (ص: 151).

أوضاع الجزائر والعالم الإسلامي، وما كان متسلطاً عليهما من الاستعمار والجهل، كما كان من جهة أخرى يبعث فيه الأمل؛ لما كان يهبّ من نسائم النهضة والحركة والاستيقاظ سواء من الجزائر أو تونس، أو باقي بقاع العالم الإسلامي التي زارها الإمام ابن باديس في هجراته العلمية.

د/عوامل معرفية: تتمثل في الشيوخ والمدرّسين والمرشدين والعلماء والزّملاء، من الذين أخذوا استفاد منهم، سواء بمجالستهم، أو مجالسة كتبهم، وسواء بشدّ الرحال، أو بالنّظر في الأسفار، فما كان منه إلّا أن تأثّر وافتخر بهم، وبأفكارهم، فكان الإمام بحقّ خريج العالم الإسلامي⁽¹⁾.

الفرع الثاني / مرض الإمام ابن باديس، ووفاته :

بعد أن أفنى الإمام ابن باديس عمره "مدرسا يقضي سحابة نهاره وشطرا من ليله خدمة للعلم الديني واللساني ونشره"⁽²⁾، شعر الإمام بالمرض الفتاك ينخر جسمه النّحيل، ولهذا قال في شهر ماي 1939م: "وفّقنا الله لشكر ما منّ به من سابق النّعمة، وللقيام فيما بقي من العمر بواجب الخدمة وختم لنا باللحوق بعباده الصّالحين"⁽³⁾.

1/ مرض الإمام ابن باديس: لم يلتفت الإمام إلى المرض الفتاك الذي كان يأتي على جسمه، لقد كان نظره على الأمة لا على نفسه، فأنسته المصلحة العامة مصلحته الشخصية، وشغلته أمراض المجتمع عن مرضه، ولهذا "يُروى أن أحد الأطباء سأله عن مرضه فأجابه الإمام: مادامت الجزائر مريضة فأنا مريض، وإن شفيت فسوف أُشفى"⁽⁴⁾، فكان منكراً لذاته في سبيل ذات الأمة الجزائرية. وحتىّ المرض لم يفقده صلابته ورباطة جأشه، وذلك "أنّ الوالي الفرنسي لقطاع قسنطينة زار ابن باديس في مرضه، فلما دخل بيته غطّى ابن باديس رأسه كأنه نائم، ولم يتمكن الوالي من رؤيته

(1): أنظر: د/ عبد القادر فضيل، أ/ محمد الصالح رمضان، المصدر السابق، (ص: 57). وزروقة، عبد الرّشيد، المصدر السابق، (ص: 87-92). وعلي الشابي، المصدر السابق، (ص: 88). و أ/ د عشراقي سليمان، المصدر السابق، (ج 02 / ص: 74).
و أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (مج 05 / ص: 595). ود/ محمد رجب البيومي، النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، (سورية-دمشق: دار القلم، ط/ 01، 1415هـ-1995م)، (مج 01 / ص: 84). ومطبقاني، مازن صلاح، المصدر السابق، (ص: 32).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03 / ص: 191).

(3): المصدر نفسه، (مج 02 / ص: 32).

(4): لحسن بن علجية، المصدر السابق، (هـ/ 03، ص: 55).

- والتحدث معه، فلما خرج الوالي سأله والده عن سبب امتناعه عن رؤية الوالي، فأجاب الإمام: إني ملاق ربّي ولا أريد رؤية عدوّ الإسلام"⁽¹⁾، فقد أكمل آخر أيامه مع الأمة وللأمة لا لنفسه.
- لقد كان هذا المرض الذي أودى بالإمام، وقد كثرت الأقاويل والاستنتاجات واختلفت من ناحيتين، من ناحية نوعه من جهة، ومن ناحية أسبابه من جهة أخرى، ولعلّ أهمّها ما يأتي⁽²⁾:
- كانت وفاة الإمام طبيعّية نتيجة الإرهاق والعمل الشاق والمتواصل الذي كان يبذله، خاصّة وأنّه قد أهمل نفسه من ناحية الغذاء والراحة.
 - كان تحت الإقامة الجبريّة في قسنطينة، وتوفّي نتيجة سمّ مدسوس له سرّع من وتيرة المرض وفتكه، خاصّة وأنّ الأعداء كثيرون ومتربصّون، ولجأوا لهذه الطّريقة خوفا من أتباعه.
 - كان الإمام مصابا بمرض السرطان، ولكنّ انشغاله بالأمة صرفه عن التماس العلاج، إلى أن استفحل الداء في جسمه الضعيف فنال منه، وهناك من شخّص نوعه بأنه (سرطان الأمعاء).
 - ولعلّ أقوى هذه الاتجاهات هو الرّأي الثّاني الذي يدعم فرضية الاغتيال، واخترته لعدّة اعتبارات:
 - دناءة المستعمر الفرنسي وخسّته، واستعداده للقيام بأي عمل مهما بلغت وضاعته، في سبيل تحقيق أهدافه والحفاظ على سياساته ومصالحه، والقضاء على معارضيّه مهما بلغت منزلتهم.
 - سبق لهذا المستدمر أن فتك بمئات العلماء الجزائريّين ممن عارضوا سياسته الصليبيّة، ولعلّ أشهرهم ممّن قتل مسموما من معاصريه؛ الشيخ أرزقي الشرفاوي الزواوي الأزهري.
 - اختيار المستعمر لهذه الطّريقة إبعادا للشبهة، وخوفا من ردّة فعل شعبيّة غير محمودّة العواقب خاصّة بعد محاولة اغتياله الفاشلة، والتي أظهرت تماسك الأمة حول إمامها وقائدها، فكان عليه التّخلّص منه بطريقة تُبعد عنه الشبهة والنقمة في وقت هو في غنى عنها.

(1): لحسن بن علجية، المصدر السابق. أنظر: توفيق المدني، أحمد، عبد الحميد بن باديس الرّجل العظيم، المصدر السابق، (ص: 145).

(2): د/ سعد الله، أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، (مج 04 / ص: 146). والحركة الوطنية الجزائرية، (الجزائر-حسين داي: دار البصائر، ط/ خاصة، 2007م)، (مج 03 / ص: 186). ود/ توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، تع وتخ: أحمد شمس الدين، (لبنان-بيروت: دار الكتب العلميّة، ط/ 02، 1424هـ-2003م)، (ص: 14). وعامر، علي عرابي، المصدر السابق، (ص: 39).

- قرب دخول فرنسا في حرب كونية ستشغلها عن مراقبة الإمام، وقد تكون أجهزتها الأمنية قد رصدت نية ابن باديس في الشروع في عمل مسلح ضدها موازاة مع الحرب، خاصة وأن الإمام قد عارض بشدة أي نوع من أنواع المساندة لفرنسا في حربها العالمية.
- 2/ وفاة الإمام ابن باديس: في يوم 16 أفريل 1940م "انطفأ السراج الوهاج الذي أشرق نوره على الجزائر، فتغلغل في كل أرجائها، وسار في شرايينها مسرى الروح في الجسد... مات العملاق الفحل، العبقري الخالد، عبد الحميد ابن باديس، وكان ملء السمع وملء البصر، وملء الفؤاد... رحم الله ابن باديس... إنه الشمس المشرقة التي لا تغيب أبدا، مهما قال شائئوه، ومهما همز ولز حاسدوه"⁽¹⁾، وقد كانت وفاته لوعة ومصيبة ألمت بالبلاد كلها، تناقل شدتها وهولها كل الجزائريين باختلاف أعمارهم وأجناسهم، ومستوياتهم، ومن أهم ما صاحب مراسيم الجنازة المهولة⁽²⁾:
- تكفل الشيخ الحاج أحمد البوعوني بتغسيل الإمام وتكفينه، وقد كان أحد تلاميذه.
- حضر جنازته وشيعها في اليوم الموالي، جموع غفيرة من الجزائريين الذين جاؤوا من مختلف أنحاء القطر، رغم قلة ذات اليد، وقد كان عددهم -حسب التقديرات- يفوق الخمسين ألفا وقيل بل قارب عددهم مئة ألف مشيع، وأهل الحق يُعرفون يوم الجناز.
- دفن الإمام ابن باديس في مقبرة (آل باديس) العائلية، رغم أن الإمام كان قد أوصى قبل وفاته بأن يُدفن في مقبرة شعبية، أو في مقبرة الغرباء الذين لا أهل لهم إلا الله تعالى، لأنه أراد أن يبقى مع الشعب والعامة حتى بعد موته.
- بعد وفاة الإمام ابن باديس أدرك أصحابه البررة عظم المسؤولية، وضخامة التركة، وبأن الإمام قد أتعب من بعده من أهل الإصلاح والتربية والتعليم، فكانوا نعم خلف لنعم سلف، كما أدركت الأمة جميعا إلى يوم الناس هذا أن الكبار "يموتون فلا يندثر منهم إلا العنصر الترابي الذي يرجع إلى أصله وتبقى معانيهم الحية في الأرض قوة تحرك، ورابطة تجمع ونورا يهدي وعطرا ينعش وهذا هو معنى

(1): توفيق المدني، أحمد، حياة كفاح مذكرات، (مج 2 / ص: 396).

(2): أنظر: لحسن بن علجية، المصدر السابق، (هـ/ 3/ 2/ 1، ص: 55). ود/ تركي، رابح عمامرة، المصدر السابق، (ص: 230/ 188).

العظمة"⁽¹⁾، قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا بَدِيلًا﴾ (٢٣) ﴿(الأحزاب: 23)﴾.

الفرع الثالث / أهم آثار الإمام ابن باديس، وأقوال العلماء فيه :

لم يمت الإمام ابن باديس إلّا وقد ترك آثارا جلية، ورسوما عظيمة، إن دلت على شيء فإنما تدلّ على عبقرية صاحبها، وغنى تاركها، ومن خلال النظر يمكن تقسيم هذه الآثار إلى قسمين، هما: آثار عمليّة (ميدانيّة)، وآثار علميّة (نظريّة).

1/ أهم آثار الإمام ابن باديس العملية: إنّ كون الإمام ممن وفّقهم الله تعالى للجمع بين القول والعمل، جعل جهوده تثمر في صورة "آثار عمليّة قبل أن تكون نظريّة في كتاب أو مؤلّف... وقليل من المصلحين في العصر الحديث من أتاحت لهم فرص التطبيق العملي لمبادئهم كما أتاحت لابن باديس"⁽²⁾، وسأذكر هنا باختصار أهمّ النتائج العمليّة لجهاده الإصلاحية⁽³⁾:

- تركه لعصابة من إخوانه المؤمنين ممن اعتزّوا به بعد مماته، وبنهجه الذي رسمه لهم، كما كان يعتزّ بهم في حياته، فأخذوا المشعل وأكملوا الطريق، واستمرّوا في مسيرة الإحياء والنّهوض بالأمة ليوم تنكسر فيه القيود والأغلال.

- إحياء أمة تحتضر، وتجديد دين لم يبق منه إلّا رسمه، وإحياء لغة كادت تأتي عليها نوائب الزمن بما لا يترك لها وجودا، وبعث حضارة أريد لها أن تدرس، بما لحقها من تشويه وتزييف للحقائق.

(1): د/ محمد بهي الدين سائر، المصدر السابق، (ص: 199).

(2): محمد بن محفوظ ابن المختار الشنقيطي، المصدر السابق، (ص: 15).

(3): أنظر: د/ محمد دراجي، المصدر السابق. وزروقة، عبد الرّشيد، المصدر السابق، (ص: 159 / 258). و/ عبد الكريم التواتي، الحركة السلفية في مواجهة الاستعمار والاحتلال الأجنبي، الحركة السلفية في المغرب العربي، أيام دراسية بمشاركة أساتذة ومفكرين من المغرب العربي، (المغرب- الرباط: منشورات دار الأمان، ط/ 02، 1431 هـ- 2010 م)، (ص: 278). و بن مزوز، عمار، المصدر السابق، (ص: 128). و الجيلاني ضيف، المصدر السابق، (ص: 181). و مطبّقاني، مازن صلاح، العلماء والسياسة ابن باديس رحمه الله نموذجا، الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس، (ص: 110). د/ عبد الله مقلاتي، إسهام شيوخ معهد عبد الحميد بن باديس وطلابه في الثورة التحريرية، (الجزائر- عين مليلة: دار الهدى، د/ ط، 2014 م)، (ص: 13 / 18). ود/ تركي، رابح عامرة، المصدر السابق، (ص: 334). و د/ بوشتي الريني، السلفية بين الأمس واليوم، الحركة السلفية في المغرب العربي، (ص: 326).

- ترك أكثر من 170 مدرسة من مدراس التربية والتعليم الإسلامي العربي، هذه المدارس التي كانت -رغم بساطتها وفقرها- قلاعاً وحصوناً للدفاع عن ثوابت الأمة، فكانت تُخرّج رجالاً ونساء كانوا في وجه الطّغيان سدوداً، وللهنضة الجزائرية وقوداً.

- رسمه لطريق الاستقلال والتحرّر من المستعمر الفرنسي، وقد كان يرى بأنّ هذا الاستعمار كان على جانبيين، استعمار مادّي واستعمار معنويّ، وقد بدأ بالتحرير المعنوي والثقافي والحضاريّ، على أن يكمل الجانب الثاني، لكن الأجل وافاه قبل ذلك، فأكمل مسيرته وجهاده من خلفه من زملائه وطلابه، فكانوا نعم القادة والجنود لثورة الفاتح من نوفمبر 1954م.

2/ أهم آثار الإمام ابن باديس العلميّة: رغم أنّ جهد الإمام ابن باديس كان جهداً عملياً، إلّا أنّ ذلك لم يمنعه من ترك بعض الآثار العلميّة المتنوّعة، التي تُعدّ إضافة علميّة للتراث الجزائري، وهي تتنوّع بين التّأليف، والتّقرير، والتّحقيق، وللأسف مازال الكثير من تراث الإمام لم يُخدم الخدمة اللائقة به، خاصّة من ناحية إعادة طبع بعض كتبه التي نفذت طبعاتها القديمة، ولم تعد في المتناول، لكن الله تعالى فتح على مجموعة من الغيورين من أبناء الجزائر بالنشاط تحت مؤسسة الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس، التي تسعى لإخراج تراثه وتحقيقه ودراسته.

لقد حاول الدكتور عمار طالبي جمع آثار الإمام كلّها، لكن ذلك لم يتمّ كما يجب لعدّة أسباب منها:

- ضياع البعض من آثاره بسبب الحرب التّحريريّة، خاصّة وأنّ كتاباته كانت محظورة من طرف السّلطات الفرنسيّة، وكان كل من يمتلكها تعتبره عدوّاً لها، وحاملها كحامل السلاح سيان.

- تفرّق الكثير من آثاره خاصّة الرّسائل منها، بالإضافة إلى هذا تعنّت ورفض الكثيرين من أصحابها أن يسلموها، أو يطلعوا عليها أهل الاختصاص لتحقيقها، لغياب الوعي الثقافي.

لكن تبقى جهود الدّكتور أهمّ هذه الجهود وأعظمها، خاصّة مع الإصدار الأخير لآثار الإمام ابن باديس، الذي طبع في 06 مجلّدات، عن دار عالم المعرفة الجزائرية، سنة 2014م، والذي أضاف إليه الكثير من الآثار التي لم تتضمنها الطّباعات السّابقة، ومن أهمّ المؤلفات التي سأذكرها هنا⁽¹⁾:

(1): أنظر: ابن باديس، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 06/ ص: 371/ 374/ 376/ 378). و أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، (مج 02/ هـ/ ص: 148). ومحمد هشام بالقاضي، المصدر السّابق، (ص: 136). و د/ بهي الدين سائر، المصدر السابق، (ص: 38). و د/ مسعود فلوسي، عبد الحميد ابن باديس في الفكر الجزائري والعربي، مجلة الوعي، (ص: 87/ 88).

- تقديم: المنظومة الرّحمانية، ذات الأسرار الربّانية، الجامعة لأصول طريقة الخلوتية، وآداب التربية الشرعية، للشيخ مصطفى باش تارزي المتوفى سنة 1221هـ، توجد النسخة التي نشرها الإمام ابن باديس سنة 1341هـ في المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم: 2217 في ورقتين.
- تقرّظ رسالة: تحفة الخليل في حلّ مشكلة من مختصر خليل، للشيخ عبد السلام السلطاني، ذلك بقسنطينة في: 05 ربيع الأول 1344هـ.
- تقرّظ كتاب: فتح المالك في شرح شواهد منهج السالك على ألفية ابن مالك، للشيخ عبد السلام سلطاني، وذلك في قسنطينة بتاريخ: 29 ربيع الثاني 1349هـ.
- تقرّظ كتاب: نظم قطر الندى وبلّ الصدى، للشيخ الطاهر بن العبيدي، وذلك بتاريخ: 07 رجب 1337هـ.
- مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، وهي عبارة عن تفاسير لآيات من القرآن الكريم، فرغم أنّ الإمام ابن باديس قد فسّر القرآن كاملاً، لكن لم يدوّن منه إلّا ما كتب في الجرائد، ولن أبالغ إذا قلت بأنّ أكبر كارثة علمية ثقافية أصابت الجزائر في القرن العشرين، هي تضييع تفسير القرآن الكريم للإمام ابن باديس.
- مجالس التذكير من كلام البشير النذير، وهي عبارة عن شروح لأحاديث نبوية مختارة من طرف الإمام ابن باديس، ولم يبق منها إلّا ما كُتب في الصحافة، أو بقي من حفظ من عاصروه، وقد شرح الإمام موطأ الإمام مالك، لكن لم يكتب هذا الشرح ولم يسجّل.
- خلاصة في علم الأصول، يليه: إملاء في مصطلح الحديث: وقد حقق هذا الإملاء المهم، الدكتور عمار طالبي، وصدر عن منشورات ثالثة، في الجزائر سنة 2006م، في: 70 صفحة.
- العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية: صدر هذا السفر الصغير في حجمه، والعظيم في أمره، بروايتين، الأولى رواية وتعليق: محمد الصالح رمضان، وتقديم: الشيخ البشير الإبراهيمي، أمّا الرواية الثانية، فقد كانت لمحمد الحسن فضلاء.
- أمره بنشر كتابين هما: كتاب تعريف الخلف برجال السلف، للشيخ أبو القاسم الحفناوي، وطبعه سنة 1907م، والثاني؛ كتاب البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، لابن مريم الشريف التلمساني، الذي تولّى إعداده للنشر الأستاذ: محمد ابن أبي شنب، سنة 1908م.

بقي في الأخير أن نقول: "إننا نرى العبقرية ونرى النبوغ ملازمان لهذا الرجل العظيم في كل أطوار حياته، منذ أن كان صبياً يجلس في الكتّاب لحفظ القرآن الكريم، إلى أن توفاه الله بعد أداء رسالته راضياً، وما بين تلك الجلسة المباركة، وهذه الميتة المبكرة، وهو لا يزال في سن العمل والجهاد، آيات بينات من جهاد، وتضحية، وثبات، ونفع وإرشاد، وكتابة وخطابة، ونصر للحق..."⁽¹⁾.

3/ أقوال العلماء في الإمام ابن باديس: لا يدرك لأهل الفضل فضلهم إلا أهل الفضل، ولهذا فإن الإمام ابن باديس رغم تواضعه، وهضمه لنفسه، وابتعاده عن المدح، إلا أن عمله قد جذب إليه من الأنظار، من مختلف البقاع والأقطار، ما يبعث على الانبهار، والتفكير والاعتبار، فمنهم من عاصروه وناصروه، ومنهم من بارزوه ونازلوه، لكن الجميع بالخير أجمعوا، وبالثناء عليه أشبعوا.

ولهذا فقد اجتمع للإمام ابن باديس من أفاضل العلماء المعجبين، ما يقل اجتماعه لغيره، خاصة في زمان مثل زمانه، وبلاذ مثل بلاده، وهنا سأذكر فقط أهم ما قيل فيه باختصار، من كبار من أثنوا عليه من شيوخه، وزملائه العلماء، وسأشير لغيرهم في مواضعه من الهامش:

3-أ/ أقوال في الإمام ابن باديس من شيوخه: وهنا سأذكر أشهرهم فقط، وإلا فما قيل كثير جداً.

- الشيخ حمدان الونيسي (الجزائري): قال فيه: "قرأ علينا واستفاد وامتاز بصفة العلم والإدراك بين الأنداد، ابننا الفقيه الأجل سيدي عبد الحميد بن الشيخ بن باديس"⁽²⁾.

- العلامة محمد الطاهر بن عاشور (التونسي): قال فيه: "العالم الفاضل نبعة العلم والمجادة، وقريع التحرير والإجادة، ابننا الذي افتخر ببنوته إلينا... الشيخ سيدي عبد الحميد بن باديس... أكثر الله أمثاله في المسلمين"⁽³⁾.

- الشيخ حسين أحمد الفيض آبادي (الهندي): وقد لقيه أثناء أدائه لفريضة الحج، وقد قدم من الهند إلى المدينة، وهو الذي أشار على الإمام ابن باديس بالرجوع للجهاد في بلده، قال فيه: "الفتى اللبيب والفاضل الأريب، الأجل الأحضى والفقيه الأرضى، العلامة سيدي الشيخ عبد الحميد بن محمد

(1): توفيق المدني، أحمد، عبد الحميد بن باديس الرجل العظيم، المصدر السابق، (ص: 143).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 06/ ص: 426).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03/ ص: 165).

المصطفى بن باديس المغربي القسنطيني⁽¹⁾.

- العلامة محمد أبي الفضل الجيزاوي (المصري): قال فيه: "حضرة العلامة الفاضل والفهامة الكامل الشيخ عبد الحميد بن باديس المغربي من علماء الغرب بالجزائر"⁽²⁾.
هذا بعض ما قيل في الإمام ابن باديس من كبار العلماء في عصره، وإلا فما أثنى به عليه شيوخه الزيتونيون فقط مما يصعب علينا حصره، وتُسوّد الأوراق لأجله بما يخرجنا عن الموضوع، ولكن تكفي الإشارة والمثال مما سبق⁽³⁾.

3- ب/ أقوال في الإمام ابن باديس من معاصريه: هنا نموذجان من عاصروا الإمام وخبروه.

- الأستاذ مالك بن نبي⁽⁴⁾: ومن المعروف عنه أنه من الصعب جداً أن يمدح أحداً، خاصة من معاصريه، لكنه قال فيه: "إنه المصلح الذي استعاد موهبة العالم المسلم... كان كذلك المعلم الذي يُدرّس في معهد تكوّن فيه كل قادة تعليمنا الحرّ، وحتى شعراؤنا... الذابّ عن الدين والناقد الاجتماعي والعالم المحقق والمصلح... ابن باديس مثقف يعيش مأساة مجتمع وحضارته"⁽⁵⁾.

- الأستاذ توفيق المدني⁽⁶⁾: أعتبر هذا الثناء والوصف من الأستاذ للإمام ابن باديس، أقرب نصّ يمكنه أن يُلخّص لنا جهد وجهاد الإمام في حياته كلّها، وذلك حين قال عنه: ".. ذلك الذي اتخذ العلم سلاحاً، وتسربل العقيدة وشاحاً، فنفخ في الأمانة روح العمل، وتقدّم عملاقاً في ميادين الكفاح

(1): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 06 / ص: 428).

(2): المصدر نفسه، (مج 06 / ص: 432).

(3): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03 / ص: 164-173).

(4): مالك بن نبي (1323-1393 هـ): "كاتب ومفكر إسلامي، ولد بقسنطينة، درس القضاء والهندسة الميكانيكية، زار الكثير من الأقطار الغربية والإسلامية، أقام في القاهرة سبع سنوات حيث تولى عضوية مجمع البحوث الإسلامية، وهناك ظهرت أغلب آثاره؛ ومنها: (الظاهرة القرآنية)، (شروط النهضة)، (وجهة العالم الإسلامي)، كما تولى إدارة التعليم العالي في الجزائر المستقلة".
أنظر: عادل نويّض، المصدر السابق، (ص: 282). والزركلي، خير الدين، المصدر السابق، (مج 05 / ص: 266).

(5): المصدر نفسه، (مج 01 / ص: 10-14).

(6): توفيق المدني (1809-1983 م): "ولد في تونس، نشأ نشأة إسلامية، التحق بالزيتونة والخلدونية، في سنة 1915م أدخل السجن بتهمة التحريض ضد المستعمر الفرنسي، كان من أبرز أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التحق بجهة التحرير الوطني أثناء الثورة، وبعد الاستقلال عيّن وزيراً للأوقاف الجزائرية، من آثاره: (مذكرات حياة كفاح)، (هذه هي الجزائر)".
أنظر: محمد الطاهر فضلاء، من أعلام الإصلاح في الجزائر، (الجزائر: دون دار النشر، د/ ط، 2009م)، (ج 01، ص: 96-101).

دون وهنٍ أو وجل... هو الرجل العظيم الذي غرس فأكلنا، والذي بنى فسكننا، والذي عبد الطريق فسلكنا، والذي فجر نور الهدى فاستضئنا، أي وربّ، ذلك هو عبد الحميد بن باديس⁽¹⁾.

لقد شهد للإمام ابن باديس الكثير من الطبقات العلمية في العالم، سواء بكتب ودراسات، أو في الدوريات والمجلات والصحف، والرسائل في الجامعات العالمية، ولهذا يبقى ما أشرنا إليه في هذه الجزئية والعجالة؛ بمثابة عجالة، وعُرفه بكفٍّ من بحر التقدير الذي يحظى به الإمام ابن باديس⁽²⁾.

مما يمكن أن يلاحظ على ما قيل في الإمام ابن باديس، من شيوخه وأقرانه وتلاميذه، ما يأتي:

- الكثير من أصحابها هم من أهل العلم والفضل والمكانة في العالم الإسلامي أجمع، كشيخ الزيتونة، وشيخ الأزهر ومفتي مصر، وكبار العلماء من المجاورين في بيت الله الحرام، ممن يُحتفى بمجرّد الإشارة من أمثالهم، فكيف ببناء وإجلال يكاد يساوي به المقول عنه القائل.
- الطابع العالمي، والإجماع الإسلامي على إمامة ابن باديس، فلم يحتف به قطر من الأقطار أو طائفة من الطوائف، بل كان له ذكر محمود في حواضر الإسلام كلّها، من شرقها إلى غربها.
- فخامة الألقاب التي أُطلقت عليه، وثقلها العلمي، ومنزلتها الأدبية، مثل: (العلامة / المربي / المصلح / المحدث...)، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على تعدّد جوانب النبوغ والتّميّز.
- والحقيقة أنّه لا يمكن أن نعدّ "هذه الألقاب ولا هذا التكريم شيئاً كثيراً على شخصيّة فذة كشخصية الإمام ابن باديس، فالأمة التي لا تقدّر عطاء المفكرين العظام... هي أمة جاحدة، ومحال أن تأخذ مكانها اللائق بين الأمم المتحضرة الراقية"⁽³⁾.

(1): توفيق المدني، أحمد، ردّ أديب على حملة أكاذيب، (الجزائر-حسين داي: دار البصائر، د/ ط، 2009 م)، (ص: 182-183).

(2): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04/ ص: 301-330). و محمد هشام بالقاضي، المصدر السابق، (ص:

153). و أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (مج 08 ص: 266). وعادل نويّض، المصدر السابق، (ص: 28).

و د/ الطاهر أحمد مكي، المصدر السابق، (127). و د/ توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، المصدر السابق، (07 -

13). و محمد الصالح الصديق، المصدر السابق، (10). و الجيلاني ضيف، المصدر السابق، (ص: 188). و محمد الصالح

المهيدي، عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء، (ص: 124). و مجلة الوعي، (ص: 09). والحركة السلفية في

المغرب العربي، (ص: 318/315/282).

(3): د/ أحمد محمود الجزار، المصدر السابق، (ص: 09).

المبحث الثالث: الجانب الحديثي في الحياة الدراسية للإمام عبد الحميد ابن باديس.

في هذا المبحث سأتناول أهم الجوانب العلمية الحديثية في الحياة الدراسية للإمام ابن باديس، أو بمعنى آخر سأحاول الإجابة عن إشكالية فرعية فحواها: ما هي مكانة الحديث في الرحلات والهجرات العلمية التي قام بها الإمام؟، وما هو حجم ونصيب الحديث من الزاد العلمي الذي تزود به الإمام للقيام بحركته التجديدية الإصلاحية؟.

للإجابة عن هذه الإشكالية، سأتناولها بالدراسة والتحليل في ثلاثة مطالب، المطلب الأول سيتناول أشهر شيوخ الإمام ابن باديس، الذين درس عنهم، وتأثر بهم، وسأركز على الشيوخ الذين أخذ وتحمل عنهم الحديث والسنة النبوية، أمّا المطلب الثاني فسيتحدث عن الكتب والمتون الحديثية التي درّسها الإمام ابن باديس، لأختتم المبحث بمطلب ثالث أتناول فيه الإجازات التي أُجيز بها الإمام ابن باديس، خاصة ما تعلق منها بالإجازات الحديثية.

المطلب الأول: أشهر شيوخ الإمام عبد الحميد ابن باديس في الحديث.

لقد كان الإمام عبد الحميد ابن باديس شديد الإعجاب بشيوخه، كثير الثناء عليهم، بل وينسب إليهم الكثير من الخير والفضل الذي هو فيه، وكم من مجلس حافل لو كان غيره هو المتحدث فيه؛ لجعله لنفسه يبين مآثرها، ومظاهر النبوغ والتميز فيها، لكن الإمام ابن باديس أنكر نفسه وحفل بشيوخه في أعظم المجالس والمحافل.

ولعل من مظاهر احتفاله واحتفائه بشيوخه ما يأتي:

1/ الاعتراف لهم بالفضل: فالإمام وهو يُعَدُّ أصحاب الفضل عليه من الناس، بدأ بالوالدين، ثم ثنى مباشرة بشيوخه الذين درّسوه، ليس هذا فقط، بل وأشبعوا نهمته وأعطوه حقه، فقد قال: "إنَّ الفضل يرجع أولاً إلى والدي... ثم لمشائخي الذي علموني العلم وخطوا لي مناهج العمل في الحياة ولم يبخسوا استعدادي حقه.." (1).

2/ وصفهم بأحسن الصفات: فعندما تكلم الإمام مثلاً، عن الزهد في الدنيا وعدم الاغترار بهاها وزينتها، لم يُمثّل بنفسه، بل قال: "وقد كان أشياخي من ارتقى إلى هذه المنزلة فما ادّخر قط شيئاً لغد

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 02/ ص: 138).

ولا نظر بمؤخر عينه إلى أحد، ولا ربط على الدنيا بيد"⁽¹⁾.

3/ اعتباره إياهم قدوة حسنة للآتساء : بعد أن تحدّث الإمام عن العلماء المصلحين، الذين دافعوا عن نقاء الدين وصفاءه، سواء القدماء منهم أو المعاصرين، وأتى بأمثلة عنهم، حتّى نفسه والأمة على وجوب الاقتداء بهم، فقال: "وهم قدوتنا أنعم بهم من قدوة"⁽²⁾.

وهنا سأترجم باختصار لأظهر وأشهر شيوخ الإمام ابن باديس، ممن درّسوه الحديث والسنة النبوية، وحتّى أتقيّد بالعنوان فإنّي هنا سأذكر فقط تراجمهم، أمّا المادّة الحديثيّة التي درسها الإمام عنهم فإنّي سأتركها للمطلعين الثّاني والثّالث:

1/ **الشيخ محمد حمدان الونيسي القسنطيني الجزائري (ت: 1920م)⁽³⁾**؛ هو الإمام، العلامة، الفقيه، المحدث، المصلح؛ محمد حمدان بن أحمد الونيسي (أو: ابن الونيسي)، القسنطيني، الجزائري، ثمّ المدني، ولد سنة: 1272هـ، الموافق لـ: 1856م في قسنطينة، من عائلة ترجع أصولها إلى قرية (سيدي ونيس)، الواقعة بإقليم ولاية أم البواقي حاليّاً، وتعدّ أسرته من بيوتات العلم والمعرفة، ومن العائلات التي أنجبت علماء شرّقت بهم شهرتهم وغرّبت، كما ذكر الشيخ لحسن بن علجيّة، ومن هؤلاء: العلامة أبو الحسن علي الونيسي (ت: 1418هـ / 1904م)، الذي ترك عدّة مصنّفات، منها شرح صحيح البخاري في 12 مجلداً.

درس الونيسي على شيوخ قسنطينة وعلمائها، ونهل منهم شتى المعارف والعلوم، ومن أبرز هؤلاء الذين استفاد منهم؛ الشيخ العلامة عبد القادر بن عبد الله المجاوي، وغيره كثيرون من علماء المشرق والمغرب أشار إليهم في إجازته للشيخ ابن باديس، حين قال: "وعن جميع مشيخة قسنطينة الذين أدركتهم وعن غيرهم من جلة المشايخ بالمغرب والمشرق"⁽⁴⁾.

(1): المصدر نفسه، (مج 01 / ص: 249).

(2): المصدر نفسه، (مج 03 / ص: 50).

(3): أنظر: أ.د/ عمار طالبي، المصدر السابق، (مج 01 / ص: 74). وأبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (مج 03 / ص:

129 / 131 / 132 / 139 / 140). ود/ عبد العزيز فيلاي، عبد الحميد بن باديس مرحلة التحصيل والتكوين، (ص: 82).

ووثائق جديدة عن جوانب خفيّة في حياة ابن باديس الدراسية، (ص: 49). و لحسن بن علجيّة، المصدر السابق، (ص:

114 / 120). و محمد هشام بالقاضي، المصدر السابق، (ص: 108 / 111).

(4): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 06 / ص: 426).

عُيِّن مدرّسا بالجامع الكبير بقسنطينة في يناير 1881م، وقد درّس علوم الشريعة، وكذا النحو والحساب لمدة 30 عاما، لغاية سنة 1910م، ومن مميزات وملامح التدريس والتعليم لدى الشيخ الونيسي ما يأتي:

- قدرته على الجمع بين الوظيفة التي تتطلب الخضوع والخنوع لأوامر المستعمر وتوجيهاته، وبين واجب الإصلاح وقول الحقيقة، والسعي لتوعية الأمة وإرشادها، ونفض الغبار عنها.
- لفت أنظار الإدارة والسلطات الفرنسية الممثّلة في المفتشين الذين كانت تُوفدهم لمراقبة وتفتيش المدرّسين المسلمين، الذين لاحظوا بأن الشيخ الونيسي ليس كغيره من الموظّفين الذين يخدمون اتّجاه فرنسا، بل وجدوا في خطابه خطرا وتهديدا للسياسة الاستعمارية، لهذا فقد كانت تقاريرهم التفتيشية تصفه للسلطات بأوصاف المصلحين المناهضين.
- بثّه لروح الوعي، وإحيائه لما اندرس من علوم الشريعة، واعتزازه بالوطنية، وتوصيته لطلّابه بالابتعاد عن الوظيفة، ومجانبة المستعمر، ولهذا فلا عجب أن يكون أستاذ الطيب العقبي⁽¹⁾، والبشير الإبراهيمي، وابن باديس، هذا الأخير الذي لو لم يكن له من التلاميذ إلا إياه لكفاه.
- في سنة 1910م عُزل الشيخ الونيسي من وظيفة التدريس في قسنطينة، وبدوا أنّه تعرّض لعدّة مضايقات جعلته يهاجر مع أسرته إلى الحجاز، أمّا أسرته فقد عادت بعد مدّة وجيزة، أمّا هو فقد آثر البقاء في المدينة النبوية، حيث عُيِّن مدرّسا في المسجد النبوي لما عُرفت مكانته ومنزلته العلمية، وقد كانت حلقاته هناك عامرة ومشهودة من طلاب العلم.

رغم أن الشيخ كان مشغولا بتأليف الرجال إلا أن هذا لم يمنعه من ترك بعض الآثار، منها⁽²⁾:

- القول العنيف في الرد على من أجاز الفتوى بالقول الضعيف، وسماه: البرهان الواضح في الرد على

(1): الطيب العقبي (1307-1379هـ): "خطيب، كاتب، صحفي، من رجال الحركة الإصلاحية في الجزائر، ولد في بلدة سيدي عقبة ببسكرة، هاجر مع أسرته إلى المدينة، حيث نشأ بها، وأخذ عن علمائها، ثم درّس في المسجد النبوي، كما تقلّد عدّة مناصب، ليرجع سنة 1338هـ إلى الجزائر، حيث انبرى خطيبا وواعظا، يحارب البدع والضلالات، يساند زملاءه العلماء، اختير نائبا عاما في جمعية العلماء المسلمين، ثم انفصل عنها في أوائل الحرب العالمية الثانية لخلاف وقع بينه وبين زملائه من العلماء، قال عنه الإمام ابن باديس وعن الإبراهيمي: «هذين العالمين الأديبين العظيمين فلن يحفظ الإسلام والعربية في الجزائر إلا بأمثالهما».

أنظر: عادل نويض، المصدر السابق، (ص: 238). وابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 3/ ص: 336).

(2): لحسن بن علجية، المصدر السابق، (ص: 119/ 120).

من أجاز الفتوى بغير المشهور والراجح.

- فتح اللطيف الخبير في جواز التعزير بالمال وفيه الحكرة والتسعير.

- تقرّظ كتاب: إضاءة الحالك من ألفاظ دليل السالك إلى موطأ الإمام مالك، للعلامة محمد حبيب الله ماياي الجكني الشنقيطي. وغيرها من الرسائل، والتقارّظ، والقصائد.

بقي الإمام في المدينة النبوية إلى أن توفي هناك ليلة الجمعة 27 رمضان 1338هـ، الموافق لـ: 1920م، وقد وصفه الإمام ابن باديس بقوله: "شيخ وأستاذي العلامة الفقيه سيدي حمدان الونيسي دفين الطيبة عليه الرحمة والرضوان"⁽¹⁾.

2/ الشيخ أبو عبد الله محمد النخلي القيرواني التونسي (ت: 1924م)⁽²⁾: الشيخ من مواليد القيروان سنة 1868م، وقد ترقّى في درجات التلقي والتّحصيل على كبار علماء تونس، إلى أن انتظم للتدريس في جامع الزيتونة سنة 1304هـ، وصار من أشهر علمائها، ومن المساهمين في الحركة العلميّة والنّهضة الإصلاحية في تونس وقد قضى أكثر عمره في التعليم والتّدريس بين كل من جامع الزيتونة، والمدرسة الخلدونية، والجمعية الصادقية، والصحافة التونسية.

وهو من القلّة الذين أثّروا تأثيراً كبيراً في الشيخ ابن باديس، رغم أنّه لم يدركه مدرّساً بالزيتونة في مرحلة التطويع، بل درس عليه بعد مرحلة التطويع خارج جامع الزيتونة، وقد قال عنه: "وأذكر منهم رجلين كان لهما الأثر البالغ في تربيتي وفي حياتي العمليّة، وهما من مشائخي اللذان تجاوزا بي حد التعليم المعهود من أمثالهما لأمثالي... وثانيهما الشيخ محمد النخلي"⁽³⁾، وهنا تحدّث عن التأثير العام، لكن نوعه بالتّحديد قد بيّنه الإمام ابن باديس في نصّ آخر حين قال: "كنت متبرّماً بأساليب المفسرين وإدخالهم لتأويلاتهم الجدليّة واصطلاحاتهم المذهبيّة في كلام الله، ضيق الصدر من اختلافهم فيما لا اختلاف فيه من القرآن... فذاكرت يوماً الشيخ النخلي... فقال لي: اجعل ذهنك

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04/ ص: 304).

(2): أنظر: أ.د/ عمار طالبي، المصدر السابق، (مج 01/ ص: 76). ود/ عبد العزيز فيلاي، عبد الحميد بن باديس مرحلة التّحصيل والتّكوين، (ص: 83). ووثائق جديدة عن جوانب خفيّة في حياة ابن باديس الدراسية، (ص: 50). و الحسن بن علجية، المصدر

السابق، (هـ/ 03/ ص: 34). و علي الشابي، المصدر السابق، (ص: 93/ 98/ 99).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 02/ ص: 138). و (مج 04/ ص: 328).

مصفاة لهذه الأساليب المعقدة وهذه الأقوال المختلفة وهذه الآراء المضطربة يسقط الساقط ويبقى الصحيح وتستريح، فوالله لقد فتح بهذه الكلمة القليلة عن ذهني آفاقا واسعة لا عهد له بها"⁽¹⁾.
للشيخ النخلي عدة مؤلفات، أغلبها لم يطبع بعد، تتناول مواضيع: التفسير، المرأة، تراجم شيوخه، وقد ألف بعضها نثرا، وبعضها نظما.

توفي بمدينة تونس في شهر رجب 1342 هـ، الموافق لـ: 1924 م، ودفن بمسقط رأسه بالقيروان.
3 / **الشيخ حسين أحمد الفيض آبادي الهندي (ت: 1959 م)**⁽²⁾: هو الشيخ العلامة، الفقيه، المحدث، المصلح، المجاهد؛ حسين أحمد بن حبيب الله بن بير علي الهندي، ولد في الهند في 19 شوال 1296 هـ، الموافق لـ: 1878 م، ودرس هناك العلوم الشرعية على كبار علماء الهند من المحدثين والمحققين، ثم انتقل إلى المدينة النبوية حيث استقر بها ابتداء من 1320 هـ.

درس الإمام في المسجد النبوي متطوعا في سبيل الله، فكانت دروسه في علوم التفسير والحديث والفقه الحنفي، وقد كان واسع الإدراك في علوم الحديث وفقه السنة رواية ودراية، كما ذكر الشيخ البشير الإبراهيمي، الذي حضر مجالسه في شرح صحيح مسلم، حيث عبّر الشيخ البشير عن إعجابه بالشيخ الهندي واعتباره إياه من نواذر العلماء ممن لقيهم.

وأثناء وجوده بالمدينة النبوية وابتداء من سنة 1335 هـ، بدأ الإمام يتعرض للمضايقات والمساومات ممن أرادوه أن يفتي بوجوب الخروج على الحكم العثماني، فنفي إلى جزيرة مالطة التي كانت مستعمرة بريطانية وبقي هناك مع شيخه ثلاث سنين وشهرين، إلى غاية سنة 1338 هـ حيث أطلق سراحه، فشدّ الرحال إلى الهند لمواجهة الاحتلال الإنجليزي، وعملا بوصيته للشيخ عبد الحميد ابن باديس لما أشار عليه بالرجوع إلى الجزائر.

وفي الهند جاهد وصبر وصابر، فقد كانت له مواقف مع الاستعمار الإنجليزي، فقد سجن سنتين مع الأشغال الشاقة إلى غاية سنة 1342 هـ، وكان من رواد الحركة الوطنية الهندية بمساهمته في الثورة

(1): المصدر نفسه، (مج 02 / ص: 140).

(2): أنظر: لحسن بن علجية، المصدر السابق، (ص: 109 / 113). ود/ عبد العزيز فيلاي، عبد الحميد بن باديس مرحلة التحصيل والتكوين، (ص: 90). ووثائق جديدة عن جوانب خفية في حياة ابن باديس الدراسية، (ص: 53).

على المستعمر سنة 1351 هـ، وسجن لذلك مدّة ستة أشهر، ثم اعتقل كذلك سنة 1361 هـ لمدّة ثلاث سنوات إلى غاية عام 1363 هـ.

بعد الاستقلال، بقي الشيخ مدرّسا ومربّيا إلى أن وافاه الأجل في 13 جمادى الأولى 1377 هـ، الموافق لـ: 1957 م، وقد ترك مؤلّفات قليلة في الأسفار، وبعض دروس شرح سنن الترمذي.

4/ **الشيخ محمد بن يوسف التّونسي (ت: 1939 م)⁽¹⁾**: هو العلامة المفتي محمد بن إبراهيم التونسي، الحنفي، ولد بتونس العاصمة سنة 1274 هـ الموافق لـ: 1857 م، التحق بالزيتونة سنة 1289 هـ، ومنها تحصل على شهادة التطويع سنة 1297 هـ، بعد أن أخذ عن كبار شيوخها وعلمائها الرّاسخين، ومن أهمّ محطّاته العلميّة، ومساهماته المعرفيّة ما يأتي:

- الانتظام في سلك المدرّسين في الزيتونة ابتداء من سنة 1311 هـ/ 1893 م.
- تولّيه خطة الإفتاء الحنفي في الديار التونسية (1311 - 1316 هـ)، ولقب بشيخ الإسلام الحنفي.
- المشاركة في مؤتمر المستشرقين في باريس سنة 1906 م، ممثلا رفقة زميله محمود الحنفي لجامع الزيتونة، وكان موضوع المؤتمر: اللغات الشرقية، وقد ألقى هناك محاضرة قيّمة.
- رحلته إلى كل من مصر والقسطنطينية سنة 1317 هـ، ولقائه لكثير من العلماء والأفاضل فيهما.
- اشتغاله في التدريس لمدّة 54 عاما، درّس فيها الكثير من أمّهات الكتب مثل: شرح القسطلاني على البخاري، وشرح الشهاب الخفاجي على الشفا، وغيرها من المؤلّفات.
- توفي رحمه الله صباح يوم الخميس 25 شوال 1358 هـ، الموافق لـ: 1939 م.
- 5/ **الشيخ صالح المالقي (ت: 1947 م)⁽²⁾**: ولد الشيخ صالح المالقي سنة 1874 م، نال شهادة التطويع من جامع الزيتونة سنة 1893 م، كان فقيها محقّقا، وقد تولّى عدّة مسؤوليات لقاء تميّزه، ومنها:
- الالتحاق بسلك التدريس في جامعة الزيتونة، وذلك سنة 1909 م.
- تولّى مسؤولية قضاء الجماعة بتونس ابتداء من سنة 1929 م.
- تولّى مشيخة جامع الزيتونة سنة 1933 م.

(1): أنظر: لحسن بن علجية، المصدر السابق، (ص: 95/113). ود/ عبد العزيز فيلاي، عبد الحميد بن باديس مرحلة التحصيل

والتكوين، (ص: 87). ووثائق جديدة عن جوانب خفيّة في حياة ابن باديس الدراسية، (ص: 51).

(2): أنظر: لحسن بن علجية، المصدر السابق، (هـ/ 01 ص: 32).

وقد قدّمت هذا الشيخ على الآخرين، لأنه من الشيوخ الذين درس عليهم الإمام ابن باديس مؤلفات في مصطلح الحديث، وقد توفي رحمه الله سنة 1947م، بتونس الخضراء.

5/ الشيخ عبد الرحمن البناني (ت: 1946م)⁽¹⁾؛ ليس له ترجمة وافية ومفصلة، لكن المعروف عنه يمكن أن يدلّنا على منزلته وعلمه، ومما وصلنا عنه تولّيه لمسؤوليتين لا يتولاها إلا الكبار، وهما:

- تولّى منصب مفتي المالكية.

- التّكليف بالقضاء في منطقة زغوان التونسية.

وهذا كذلك من الشيوخ الذين درس عليهم الإمام ابن باديس علم مصطلح الحديث، وقد توفي سنة 1946م رحمه الله.

6/ الشيخ محمد العزيز الوزير التونسي ثمّ المدني (ت: 1337هـ)⁽²⁾؛ ولد الشيخ في تونس، وقد التحق بالزيتونة وتخرّج منها بشهادة التطويع سنة 1301هـ، انتقل إلى المدينة النبوية حوالي سنة 1315هـ، ونقل معه مكتبته النفيسة، وهو أحد الشيخين اللذين أثنى عليهما الشيخ البشير الإبراهيمي، ووصفه بالعلم والتحقيق، وسعة أفق الإدراك في علوم الحديث وفقه السنة، كما أخذ عنه كتاب الموطأ دراية، كما درس عليه نفس الكتاب؛ الشيخ محمد العربي التباني الجزائري.

وقد بقي مجاورا لمدة عشرين سنة، كانت فيه مكتبته العامرة نعم المؤنس والصّاحب، هذه المكتبة التي أوقفها على مكتبة الحرم النبوي فيما بعد، وذلك بعد وفاته سنة 1337هـ، الموافق لـ: 1919م، ودفن في المدينة.

والحقيقة أن هذه الترجمة قد أخذتها من عند الشيخ لحسن بن علجية، ويبدو أنّه قد بذل جهدا مضنيا للوصول إلى هذه المحطّات من حياته، وعلى العكس من ذلك فقد وجدت اضطرابا شديدا في ترجمته التي أوردها الدكتور عبد العزيز فيلاي⁽³⁾، فقد ذكر بأنّه قد ولد سنة 1841م وتحصل على شهادة التطويع سنة 1907م، ما يعني أنّه قد حصل عليها وله من العمر 66 سنة.

(1): أنظر: لحسن بن علجية، المصدر السابق، (هـ/ 04 ص: 33).

(2): أنظر: لحسن بن علجية، المصدر السابق، (ص: 103).

(3): أنظر: د/ عبد العزيز فيلاي، عبد الحميد بن باديس مرحلة التحصيل والتكوين، (ص: 87). ووثائق جديدة عن جوانب خفية في

حياة ابن باديس الدراسية، (ص: 51).

كما أنه أشار في العنوان الأول بأنه قد توفي سنة 1911م، ثم في أثناء الترجمة أو في آخرها ذكر بأنه قد توفي سنة 1970م، وبهذا التاريخ الأخير سيكون قد عاش 129 سنة.

ولهذه الأسباب، ولكون الدكتور لم يشر إلى المصادر والمراجع التي اعتمد عليها في ترجمته، فقد أثرت ترجمة الشيخ لحسن بن علجية، رغم أن هذا الأخير كذلك لم يشر لسبب تلقيه بالوزير.

7/ الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوي المصري (ت: 1927م)⁽¹⁾: هو العلامة محمد أبو الفضل الوراقي الجيزاوي المالكي، ولد بقرية وراق الحضر بمحافظة الجيزة سنة 1264هـ / 1847م، حفظ القرآن الكريم سنة 1271هـ، ثم التحق بالأزهر للتعليم على كبار أعمدته آنذاك وذلك سنة 1272هـ، وبقي طالبا فيه إلى غاية 1287هـ حيث انتقل إلى التدريس والتعليم، ثم تدرّج في الرتب والمنازل: - في سنة 1313هـ عين عضوا في إدارة الجامع الأزهر، ثم استقال منه، ليُعين من جديد في نفس الإدارة سنة 1324هـ.

- في سنة 1326هـ عين وكيلا للأزهر، ثم شيخا لمعهد الإسكندرية لمدة 08 سنوات.
- في 14 ذي الحجة 1323هـ الموافق لـ: 1917م عين شيخا للأزهر، وقد دامت مشيخته 10 سنوات نهض فيها بالأزهر، حيث قام بإصلاحات كبيرة في نظام التعليم، وكون لجنة للإصلاح سنة 1925م، وألزم وزارة المعارف المصرية بفتح مدارسها للمتخرجين من الأزهر.
له عدة مؤلفات منها: الطراز الحديث في فن مصطلح الحديث، وغيرها من المؤلفات الكثيرة.
توفي الإمام الجيزاوي سنة 1346هـ / 1927م رحمه الله.

8/ الشيخ محمد بخيت المطيعي الحنفي المصري (ت: 1935م)⁽²⁾: هو الشيخ العلامة محمد بخيت بن حسين المطيعي الحنفي، ولد ببلدة المطيعة التابعة لمحافظة أسيوط في 10 محرم سنة 1271هـ / 1856م، حفظ القرآن الكريم ومبادئ العلوم، ثم التحق بالأزهر سنة 1281هـ حيث نال شهادة العالمية منه سنة 1294هـ، ليتنقل من الدراسة إلى التدريس إلى غاية سنة 1297هـ.

(1): أنظر: لحسن بن علجية، المصدر السابق، (ص: 97). ود/ عبد العزيز فيلاي، عبد الحميد بن باديس مرحلة التحصيل والتكوين، (ص: 90). ووثائق جديدة عن جوانب خفية في حياة ابن باديس الدراسية، (ص: 53).

(2): أنظر: لحسن بن علجية، المصدر السابق، (ص: 99). ود/ عبد العزيز فيلاي، عبد الحميد بن باديس مرحلة التحصيل والتكوين، (ص: 91). ووثائق جديدة عن جوانب خفية في حياة ابن باديس الدراسية، (ص: 53).

- بعد هذه الحياة التعليمية والدّراسية، انتقل الإمام إلى المسؤوليات المختلفة في الأسلاك الشرعية:
- تولى قضاء القليوبية (1297هـ)، ثم قضاء المنيا (1298هـ)، ثم قضاء بور سعيد (1300هـ)، ثم السويس وغيرها من المناطق، ليرتقي في سلك القضاء الشرعي ويتولى رئاسة المجلس العلمي بمحكمة مصر الكبرى، ثم عضوا بالمحكمة العليا.
 - في 09 صفر 1334هـ / 1914م عين الشيخ المطيعي مفتيا للديار المصرية، واستمر في هذا المنصب إلى أن تقاعد في 16 شوال 1338هـ / 1920م.
 - للشيخ مؤلفات كثيرة تدل على علمه الجَمِّ، وقد ذكر الشيخ لحسن بن علجية 30 منها، وهي في علوم شتى، ولهذا فلا غرو أن يصفه الشيخ ابن باديس بقوله: "العلامة الأستاذ الشيخ محمد بخيت المطيعي رحمه الله...مفتي الإسلام"⁽¹⁾.
 - وقد توفي رحمه الله في مصر، يوم 21 رجب 1354هـ / 1935م.
 - 9 / الشيخ **محمد الطاهر ابن عاشور التونسي** (ت: 1973م)⁽²⁾: هو العلامة الحافظ الحجة المحدث الفقيه الأصولي الأديب الناقد، ولد سنة 1296هـ / 1879م في تونس وذلك في قصر جدّه لأُمّه الوزير محمد عبد العزيز، ينحدر من عائلة أندلسية انتقلت إلى المغرب الأقصى، ثم إلى تونس. حفظ القرآن الكريم، ثم انتقل إلى الزيتونة سنة 1892م ومنها تحصل على شهادة التطويع سنة 1896م، وبعد هذا التاريخ صار يتدرّج في المناصب تصاعدياً على النحو التالي:
 - عين مدرسا بجامع الزيتونة والمدرسة الصادقية.
 - تولى مسؤولية القضاء (قاضي قضاة المالكية) سنة 1913م، ثم مفتيا سنة 1923م.
 - في سنة 1932م تقلد منصب شيخ الإسلام المالكي، وهو أول من تقلد هذا المنصب.
 - في سنة 1944م عين شيخا لجامع الزيتونة، ثم استقال منه سنة 1951م، ليعاد تعيينه سنة 1956م عميدا للكلية الزيتونية.
 - قام بعدة رحلات إلى دول العالم، كما كان عضوا في كثير من الهيئات والجامع الإسلامية في العالم.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04/ ص: 210).

(2): أنظر: لحسن بن علجية، المصدر السابق، (هـ/ 06 ص: 33). ود/ عبد العزيز فيلاي، عبد الحميد بن باديس مرحلة التحصيل والتكوين، (ص: 85). ووثائق جديدة عن جوانب خفية في حياة ابن باديس الدراسية، (ص: 50).

- له مؤلفات كثيرة، أهمّها: التحرير والتنوير، وهو تفسير للقرآن الكريم، مقاصد الشريعة، أليس الصبح بقريب، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام.

لهذا كان يعتبره الشيخ ابن باديس من خواصّ شيوخه وذلك عند قوله: "إنني امرؤ جبلت على حب شيوخني وأساتذتي وعلى احترامهم إلى حدّ بعيد، وخصوصا بعضهم، وأستاذي هذا من ذلك الخصوص" ⁽¹⁾.

توفي الشيخ الطاهر ابن عاشور سنة 1973م، ودفن بمقبرة الزّلاج.

10 / الشيخ محمد الخضر حسين النفطي التونسي (ت: 1958م) ⁽²⁾: هو الشيخ محمد الخضر بن الحسين بن علي بن عمر، أصل عائلته من الجنوب الجزائري، من منطقة طولقة (بسكرة حالياً)، هربت من الاحتلال الفرنسي، وجده هو مؤسس الزاوية العثمانية سنة 1780م، ولد الإمام بمدينة نفطة جنوب تونس سنة 1873م، درس بجامع الزيتونة وتحصل فيه على شهادة التطويع سنة 1898م، ليصير مدرسا في ذات الجامع.

أسس أول مجلة عربية سنة 1904م وسماها (السعادة العظمى) وهي نصف شهرية، صدر منها 21 عددا فقط، ثم تولّى عدة مناصب في عدة بلدان منها:

- التدريس بجامع الزيتونة، وفي المدرسة الصادقية والخلدونية.

- تولّى القضاء الشرعي سنة 1905م، ثم استقال منه.

- القيام برحلتين إلى الجزائر، الأولى كانت سنة 1903م، والثانية كانت سنة 1904م التقى فيهما بعلماء الجزائر وفقهائها.

- في سنة 1952م عين شيخا للأزهر إلى غاية 1954م حيث استقال من المنصب .

- له الكثير من المؤلفات في اللغة، والشعر، والدفاع عن القرآن والسنة.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03/ ص: 74).

(2): أنظر: لحسن بن علبية، المصدر السابق، (هـ/ 02 ص: 33). وأبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (مج 05/ ص:

599). ود/ عبد العزيز فيلاي، عبد الحميد بن باديس مرحلة التحصيل والتكوين، (ص: 88). ووثائق جديدة عن جوانب

خفية في حياة ابن باديس الدراسية، (ص: 52). ود/ عمار طالبي، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، جمع

وضبط: المحامي علي الرضا الحسيني، (سورية: دار النوادر، ط/ 01، 1431هـ-2010م)، (مج 15/ ص: 206).

وصفه الشيخ ابن باديس فقال: "أستاذنا العلامة الجليل الشيخ الخضر بن الحسين الطولقي الجزائري التونسي ثم المصري"⁽¹⁾، وقال عنه: "عالم زيتوني وأزهري وتونسي جزائري"⁽²⁾.

توفي رحمه الله في شهر فيفري 1958م، ودفن في مقبرة تيمور تنفيذاً لوصيته.

11 / الشيخ محمد البشير بن مصطفى صفر (ت: 1917م)⁽³⁾؛ ولد المفكر والكاتب وأبو النهضة

التونسية الشيخ محمد البشير صفر في تونس سنة 1856م، حفظ نصيباً من القرآن الكريم، درس بالمدرسة الصادقية، وأخذ بعض العلوم من الزيتونة، ثم أرسل على رأس بعثة دراسية إلى فرنسا لدراسة الهندسة والرياضيات، وقد كُلف بعدة مسؤوليات في تونس، منها:

- المساهمة في تأسيس جريدة الحاضرة.

- أسس سنة 1897م جمعية الصادقية وألقى بها دروساً متميزة.

- تعيينه رئيساً لجمعية الأوقاف سنة 1900م، ثم والياً على مدينة سوسة سنة 1908م.

توفي سنة 1917م رحمه الله تعالى، وقد كان الإمام ابن باديس كثير الاحتفاء بعلمه، رغم أنه يمكن أن يكون لم يلتقي به، بل أخذ فقط من مؤلفاته، وهذا لم يمنعه من أن يصفه بالرجل "العظيم السيد البشير صفر رحمه الله"⁽⁴⁾، كما قال عنه وعن الشيخ النخلي: "هذان الرجلان العظيمان نقدمهما لأبنائنا لينحوا نحوهم ويقتفوا أثرهم لنصل إلى سعادة البشرية كلها لا سعادة الشمال الإفريقي أو تونس فقط"⁽⁵⁾.

في آخر هذا المطلب المتعلق بأهم شيوخ الإمام ابن باديس، ممن أخذ عنهم واستفاد منهم، خاصة في علم الحديث، يمكن تدوين الملاحظات الآتية:

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03/ص: 420).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05/ص: 229).

(3): أنظر: لحسن بن علي، المصدر السابق، (هـ/04/ص: 34). ود/ عبد العزيز فيلاي، عبد الحميد بن باديس مرحلة التحصيل والتكوين، (ص: 87). ووثائق جديدة عن جوانب خفية في حياة ابن باديس الدراسية، (ص: 51). و علي الشابي، المصدر السابق، (ص: 100).

(4): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04/ص: 325).

(5): المصدر نفسه، (مج 04/ص: 328).

- استطاع الإمام ابن باديس أن يدرس ويحصل عن علماء من مختلف الأقطار الإسلامية، بدءاً بعلماء قسنطينة، إلى أفاضل تونس والزيوتنة، ثم كبار العلماء المجاورين في الحجاز، ليجمع خاتمة العقد علماء مصر من شيوخ الأزهر ومفتي مصر.
- من خلال ألقاب شيوخ ابن باديس نجد منهم من كبار علماء وقته، كالمفتي وشيخ الأزهر والزيوتنة، وشيخ الإسلام، والقضاة، والمؤلفين والمحققين والمحدثين والمفسرين.
- أغلبهم كانوا من العلماء المصلحين، والمساهمين في الحركات العلمية والنهضات الفكرية في بلادهم، فنجد منهم المؤسسين للنوادي، والجمعيات والمؤسسات، والجرائد والمجلات، والمدارس، ومختلف مظاهر النضال والجهاد الفكري والعلمي.
- سلوك هؤلاء الشيوخ لطريق التعليم والتدريس، وإفناء الكثير منهم لأعمارهم وجهودهم في التربية والتعليم، والحرص منهم على المناهج والمقررات التعليمية، بجعلها ملائمة لحاجات الأمة، وإدخال الإصلاحات عليها بين الفترة والأخرى.
- يمكن أن نشير لبعض جوانب التأثير لدى الشيخ ابن باديس من شيوخه، "فالونيسي فكّه من القيد المادي وحرّره من الغلّ الوظيفي، والنخلي حلّ عنه القيد الفكري، وابن عاشور والبشير صفر أعطياه قوة الدفع، بالاعتزاز بالماضي المجيد والافتخار بالأصل العريق"⁽¹⁾.
- كان الإمام ابن باديس كثير الإشادة بهم، والافتخار بعلمهم ومكانتهم وجهادهم، ولعل النصيب الأكبر والأوفر من هذا الشاء كان يوجّهه للشيوخ المعروفين بنزعتهم الإصلاحية وآرائهم العلميّة التي كانت دائماً التمرّد على التحجّر والجمود.

(1): عامر، علي عرابي، المصدر السابق، (ص: 63).

المطلب الثاني: الزاد الحديثي للإمام ابن باديس أثناء مرحلة التحمل والتلقي.

في هذا المطلب سألقي الضوء على الكتب والمتون والمؤلفات الحديثية التي درّسها وتلقّاها الإمام ابن باديس أثناء حياته الدراسية، أو -بعبارة أدق- ما أمكن الوصول إليه منها، بسبب طبيعة الفترة التي عاشها، وقلة المراجع التي يمكنها أن تشير إلى زوايا المسألة. وهذا الزاد الحديثي الذي تلقّاه الإمام أثناء مرحلة التحمل، أخذته من منبعين اثنين هما: أولاً: البرنامج الدراسي المقرّر على تلاميذ جامع الزيتونة، وثانياً: الإجازات العلمية التي تحصّل عليها الإمام ابن باديس، والمثبتة في دفتر الشهادات الخاص به.

الفرع الأول/الزاد الحديثي المتحمّل من الزيتونة:

إنّ معرفة عناوين المتون والكتب الحديثية التي يدرسها الطالب الملتحق بالزيتونة، والاطّلاع على الشّروح المقرّرة عليها، لا يمكن إلّا بالرجوع إلى البرنامج الدراسي المقرر على تلاميذ جامع الزيتونة⁽¹⁾، بمختلف درجاتهم وفصولهم، والعلوم والكتب المدرّسة في جميع الأقسام، والذي وجدنا فيه المقرّرات الحديثية مرتبة حسب التدرج العلمي والفصول الدراسية، وسأوردها مراعيًا لهذا الترتيب، كما أنّي سأشير للشيوخ الذين درّسوه المتون المذكورة في حال وجود ما يشير إليهم مما استطعت التوصل إليه.

يمكن الإشارة إلى أنّ عدد الفنون المدرّسة في جامع الزيتونة حسب المقرّر الدراسي هي: 23 فنّاً، والملفت للنظر هي جعل علم الحديث في المرتبة الثانية، وعلم المصطلح جعل في المرتبة الخامسة، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أهميّة هذين العلمين ومنزلتهما لدى علماء الزيتونة.

1/ المقرّر الدراسي في علم الحديث: وقد أوردته متسلسلاً كما هو في البرنامج، وذلك بذكر المتن والشرح المقرّر عليه، وهي كالآتي:

1-1/ الموطأ متنا وبشرح الزرقاني: فالمتن هو كتاب الموطأ للإمام أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك الحِميري، ثم الأصبحي، المدني (ت: 179هـ)، والشرح المقرّر عليه هو شرح محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني (ت: 122هـ) المسمّى بـ: أبهج المسالك بشرح موطأ الإمام مالك، الذي

(1): أنظر: د/ عبد العزيز فيلاي، عبد الحميد بن باديس مرحلة التحصيل والتكوين، (ص: 157-165)

قال في بداية شرحه: "فإن العاجز الضعيف الفاني محمد ابن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني لما منّ الله عليه بقراءة كتاب الموطأ بالساحات الأزهرية وكان الابتداء في عاشر جمادى الأولى سنة تسع بعد مائة وألف من الهجرة النبوية... وإن لم أكن لذلك ولا لأقل منه بأهل لأن شروحه وإن كثرت عزّت بحيث لا يوجد منها في بلادنا إلا ما قلّ وجعلته وسطاً لا بالقصير ولا بالطويل.."⁽¹⁾، وقد فرغ من شرحه يوم الاثنين 11 ذي الحجة 1112 هـ، وطبع عدّة مرّات، منها طبعة قديمة في أربع مجلّدات. وقد ذكر الدكتور عبد العزيز فيلاي بأن الإمام ابن باديس قد درس كتاب الموطأ مع مؤلفات أخرى على الشيخ محمد النّخلي⁽²⁾، وأجازه فيهم يوم 25 رجب 1331 هـ، الموافق لـ: 30 جوان 1913 م، وهذا رغم أنّي لم أجد ذكر الموطأ مع الكتب التي درسها الإمام على الشيخ النّخلي.

1-2 / صحيح البخاري متنا وبشرح القسطلاني: المتن هنا هو كتاب صحيح البخاري، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت: 256 هـ)، والشرح المقرّر عليه هو شرح الإمام العلامة شهاب الدّين أحمد بن محمد الخطيب القسطلاني (ت: 923 هـ)، والمسمّى بـ: إرشاد السّاري إلى شرح صحيح البخاري، الذي قال في بدايته: "ولطالما خطر في الخاطر المخاطر أن أعلّق عليه شرحا... كاشفا بعض أسرار لطالبيه، رافع النقاب عن وجوه معانيه، موضحا مشكله، فاتحا مقفله، مقيّدا مهمله، وافيّا بتعليق تعليقه، كافيا في إرشاد السّاري لطريق تحقيقه، محرّرا لرواياته، معربا عن غرائب وخفّياته"⁽³⁾، وقد طبع في عشر مجلّدات.

وقد درس الإمام ابن باديس كتاب صحيح البخاري على الشيخ محمد بن يوسف⁽⁴⁾، وقد أجازه فيه شيخه في شعبان 1331 هـ، الموافق لشهر جويلية 1913 م، والملاحظ أنّ صحيح البخاري مع كلّ من شرح الجلال، والمحلى على الجمع؛ هي آخر الكتب التي امتحن فيها الإمام في جامع الزيتونة.

(1): الزّرقاني، محمد بن عبد الباقي بن يوسف، شرح الموطأ، (مصر-القاهرة: المطبعة الخيريّة، د/ ط، 1310 هـ)، (مج 1/ ص: 02).

(2): أنظر: د/ عبد العزيز فيلاي، عبد الحميد بن باديس مرحلة التحصيل والتكوين، (ص: 60).

(3): القسطلاني، شهاب الدّين أحمد بن محمد الخطيب، إرشاد السّاري إلى شرح صحيح البخاري، (مصر-القاهرة: المطبعة الكبرى الأميريّة، د/ 07، 1323 هـ)، (مج 01/ ص: 02).

(4): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 06/ ص: 423). ود/ عبد العزيز فيلاي، عبد الحميد بن باديس مرحلة التحصيل والتكوين، (ص: 64). ووثائق جديدة عن جوانب خفيّة في حياة ابن باديس الدراسية، (ص: 31).

1-3 / صحيح مسلم متنا وبشرح الأبي: المتن المقرّر هنا هو الجامع الصحيح، المعروف بـ: صحيح مسلم للإمام الحافظ أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت: 261هـ)، والشرح المقرّر عليه هو إكمال إكمال المعلم، للإمام أبي عبد الله محمد بن خلفه الوشتاني الأبي (ت: 828هـ)، وهو عبارة عن تعليق على صحيح مسلم بدليل قول مؤلفه: "وبعد فإنّ هذا تعليق أُمليته على كتاب مسلم... وسمّيته بإكمال الإكمال وأرجوا أن المنصف لا ينكر أن الكتاب جاء عالي الكعب سهل المأخذ ولم يكن القصد بوضعه إلّا وجه الله تعالى"⁽¹⁾.

1-4 / الشفا متنا وبشرح الشهاب: المتن هنا هو كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (ت: 544هـ)، مع شرحه المقرّر عليه وهو شرح الشهاب الخفّاجي أحمد بن محمّد بن عمر المصري (ت: 1069هـ)، واسم هذا الشرح: نسيم الرياض في شرح الشفا للقاضي عياض، وهو في أربع مجلدات، ومن طبعاته القديمة الطبعة العثمانية سنة 1314هـ.

وقد درس الإمام ابن باديس هذا الكتاب -حسب دفتره الزيتوني- على الشيخ محمّد الصادق بن القاضي⁽²⁾، الذي شهد له بذلك في تاريخ جمادى الثانية 1329هـ، الموافق لـ: ماي 1911م⁽³⁾.

1-5 / المواهب اللدنية متنا وبشرحها الزرقاني: المتن هو كتاب المواهب اللدنية في المنح المحمّدية، للإمام العلامة شهاب الدّين أحمد بن محمد الخطيب القسطلاني (ت: 923هـ)، وهو مصنّف حديثي في السيرة النبوية، والشرح المقرّر عليه هو شرح الإمام محمّد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني (ت: 1122هـ) المسمّى بـ: إشراق مصابيح السّير المحمّدية بمزج أسرار المواهب اللدنية.

1-6 / شرح اللّقاني على الأربعين النووية: المتن هنا هو كتاب الأربعين في مباني الإسلام وقواعد

(1): الأبي، أبي عبد الله محمّد بن خلفه، إكمال إكمال المعلم، (لبنان-بيروت: دار الكتب العلمية، د/ ط/ ت)، (مج 01/ ص: 47).

(2): الشيخ محمّد الصادق بالقاضي (1850/ 1911): مدرّس في جامع الزيتونة والمدرسة الصادقية، عيّن إماماً خطيباً مساعداً بجامع حمودة باشا بتونس العاصمة، كان من اتباع الطريقة التيجانية، درس عليه الإمام ابن باديس في مرحلة التطويع. أنظر: د/ عبد العزيز فيلاي، عبد الحميد بن باديس مرحلة التحصيل والتكوين، (ص: 88).

(3): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (مج 06/ ص: 408). ود/ عبد العزيز فيلاي، عبد الحميد بن باديس مرحلة التحصيل والتكوين، (ص: 120).

الأحكام، المشهور بالأربعين النووية، مؤلفه الإمام الفقيه محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي (ت: 676هـ)، والشرح المعتمد على هذا المتن لعلّه شرح الإمام إبراهيم بن إبراهيم بن الحسن اللقاني، العارف بالله أبو الأمداد المصري المالكي (ت: 1041هـ).

1-7 / الشّماثل بشرح المناوي: المتن المقرّر هو كتاب شمائل النّبي ﷺ للإمام الحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى التّرمذي (ت: 279هـ)، واعتمد في الزيتونة على شرح العلامة محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين ابن علي بن زين العابدين الحدّادي، ثم المناوي القاهري (1031هـ)، وهو شرح متوسط ممزوج في مجلد واحد، وقد فرغ من تعليقه سنة 999هـ في آخر أيام التّروية، طبع بالمطبعة الأدبية بمصر 1318هـ، ثم صّور في دار الأقصى بالقاهرة.

2/ المقرّر الدّراسي في علم مصطلح الحديث: أمّا المقرّر في علم مصطلح الحديث على طلبة الزيتونة، فهو باختصار:-

1-2 / مقدمة القسطلاني: وهي مقدّمة الإمام العلامة شهاب الدّين أحمد بن محمد الخطيب القسطلاني (ت: 923هـ) في كتابه: إرشاد السّاري إلى شرح صحيح البخاري، وقد جعلها في علم مصطلح الحديث، ذكر فيها القواعد والمنهج الحديثي الذي سيسير عليه في شرحه على صحيح البخاري، ممّا جعلها مرجعا من مراجع هذا العلم، وتظهر أهميتها في كونها في علم الحديث النّظري، ثم يعقبه تطبيق هذه القواعد والحدود في الشّرح الذي يلي هذه المقدّمة، فاجتمع بذلك التّقرير العلمي والعمل في كتاب واحد، فحصل المقصود والمطلوب، ومُنّ شرحها الإمام عبد الهادي نجا الأبياري الشافعي (ت: 1305هـ) في كتابه: نيل الأمان في توضيح مقدّمة القسطلاني في مصطلح الحديث، والذي طبع طبعة حجرية في القاهرة 1295هـ.

2-2 / ألفية العراقي متنا وبشرح القاضي: المتن هنا هو منظومة ألفية في علم مصطلح الحديث، للإمام عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن، أبو الفضل، زين الدين، المعروف بالحافظ العراقي (ت: 806هـ)، وقد سمى منظومته هذه بـ: نظم الدّرر في علم الأثر، وقد أعتني بها أيّما اعتناء من حفاظ الحديث وعلماء الإسلام، فوقع لها من الشّروح والتّعليقات الشّيء الكثير، لكن المقرّر على طّلاب الزيتونة من هذه الشّروح، هو الشرح الموسوم بـ: فتح الباقي على ألفية العراقي، لقاضي القضاة زين الدين أبي يحيى زكريا بن محمد ابن أحمد بن زكريا الأنصاري ثم القاهري

(ت: 926 هـ)، وقد طبع هذا الشرح عدّة مرات، منها الطّبعة الصّادرة بتحقيق حافظ ثناء الله الزاهدي، نشر دار ابن حزم بيروت سنة 1420 هـ في مجلّد.

2-3 / البيقونيّة بالشرح: من المتون المختصرة التي درسها الإمام في مصطلح الحديث، المنظومة البيقونية لمؤلفها الإمام طه بن محمد بن فتوح البيقوني (كان حيّاً قبل 1080 هـ)، وقد تمكّنّا من خلال دفتره الدّراسي⁽¹⁾ من معرفة شيوخه الذين درس عليهم هذه المنظومة في مرحلة التّطويع، وهما:

2-3-أ / صالح المالقي: الذي بدأ الإمام هذا النّظم معه في شهر المحرم سنة 1329 هـ الموافق لـ: شهر جانفي 1911 م، وختمه بتاريخ جمادى الأولى 1329 هـ، الموافق لـ: أفريل 1911 م، وقد كان الشّرح المقرّر عليه هو شرح الإمام محمد بن عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن علوان الزرقاني المصري الأزهري المالكي، أبو عبد الله، خاتمة المحدثين بالديار المصريّة (ت: 1122 هـ).

2-3-ب / عبد الرحمن البناني: لقد درس الإمام ابن باديس نظم البيقونية وكتبها أخرى على شيخه البناني، وقد ختمه معه بتاريخ جمادى الثانية 1329 هـ، الموافق لـ: ماي 1911 م.

2-4 / غرامي صحيح بالشرح: هنا قرّر المتن فقط دون الشرح، وهو قصيدة غزلية في ألقاب الحديث، لمؤلفها الإمام شهاب الدين أحمد بن فرّح بن أحمد بن محمد بن فرح اللخمي الإشيلي (ت: 699 هـ)، وهي منظومة مختصرة في عشرين بيتاً فقط، لكنّها حوت أغلب وأكثر ألقاب الحديث، وهذا ما يجعل شارحها مخيراً بين الاختصار، أو التوسط، أو التطويل، ولعلّ هذا ما جعل إدارة الزيتونة لا تعتمد عليه شرحاً معيّناً مع كثرتها وتنوعها.

و لعلّ أول من نشر هذه المنظومة هو المستشرق الهولندي (ريش) بمدينة ليدن، وذلك مع شرحها لعزّ الدين بن جماعة، ومع ترجمة وتعليق بالألمانية سنة 1885 م، ثم طبعتها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كما توجد منها نسخة مخطوطة بخط محمد بن المنور بن عيسى التلمساني بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم: 2849-2970.

(1): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (مج 06 / ص: 405 / 410). ود/ عبد العزيز فيلاي، عبد الحميد بن باديس مرحلة التّحصيل والتكوين، (ص: 117 / 122).

الفرع الثاني/ الرّاد الحديثي المتحمّل خارج الرّيتونة:

أقصد هنا ما أمكنني الاطلاع عليه من الكتب والمتون التي درسها الإمام ابن باديس أثناء مرحلة التحمّل والتلقّي، وذلك في الأغلب من خلال الإجازات المثبتة في دفتره الزيتونيّ، والتي سنتناولها في المطلب الثالث.

لقد ظهر الجانب الحديثي جليّاً في كلّ الإجازات التي كُتبت للإمام ابن باديس، ومن غير المقبول هنا أن أتبع كل الأسانيد والفهارس والأثبات لاستخراج الكتب والمتون الحديثية التي تتصل بها هذه الإجازات، خاصة وأنها إجازات عامّة في أكثرها، وهذا العمل يمكن أن يكون في جهد مستقلّ. كما يمكن القول بأنّ نظرة سريعة على هذه الأسانيد والأثبات والفهارس والمرويات التي تتصل بها، تجعلنا نجزم بأنّ هذه الأخيرة "لو تتبعنا طرقها مجمعة ومتفرقة، فهي تتصل بالصّحاح والسّنن والمسانيد والمعاجم، ودواوين العلوم النّقلية والآلية"⁽¹⁾، لكن لا بأس بالإشارة إلى أهمّ الكتب الحديثيّة التي اتصل بها الإمام ابن باديس بواسطة الإسناد.

1/ الموطأ: للإمام دار الهجرة، أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك الحِميري، ثم الأصبحيّ، المدنيّ (ت: 179هـ)، ويروي الإمام ابن باديس هذا الكتاب من طريق الشّيخ محمد بن خيثم المطيعي، عن الشّيخ عبد الرحمن الشّريني الشافعي شيخ الأزهر، عن الشّيخ إبراهيم السقا الشافعي، عن الشّيخ محمد الأمير الصغير، عن والده الشّيخ محمد الأمير الكبير⁽²⁾، "فبين الشّيخ ابن باديس والإمام مالك 23 واسطة، وبينه وبين رسول الله ﷺ 26 واسطة باعتبار ثنائيات الموطأ"⁽³⁾.

2/ صحيح البخاري: للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت: 256هـ)، ولأهميّة هذا الكتاب سأورد أهمّ الأسانيد التي يتصل من خلالها الإمام ابن باديس بصحيح البخاري، فمن خلال إجازاته نجد بأنّه يرويه من عدّة جهات، أهمّها:

2- أ/ يرويه بإجازة الشّيخ حسين أحمد الهندي، عن الشّيخ أبو ميمون محمود الحسين الحنفي العثماني الجشتي النقشبندي، والشّيخ أبو إبراهيم خليل أحمد الحنفي الأنصاري الجشتي النقشبندي، عن

(1): لحسن بن علجية، المصدر السابق، (ص: 176).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (مج 06 / ص: 425).

(3): لحسن بن علجية، المصدر السابق، (ص: 178).

الشيخ أبو أحمد محمد قاسم العلوم والحكم الحنفي الصديقي الجشتي النقشبندي، والشيخ أبو مسعود رشيد أحمد الحنفي الأنصاري النقشبندي، عن الشيخ أبو يعقوب مملوك العلي الحنفي الصديقي، عن الشيخ رشيد الله والدين الحنفي الدهلوي⁽¹⁾، عن الشيخ عبد الغني الحنفي الدهلوي ثم المدني، عن الشيخ عبد العزيز الحنفي العمري النقشبندي الدهلوي، عن والده الإمام الشاه ولي الله الدهلوي⁽²⁾، ... ومن الإمام الشاه ولي الله الدهلوي إلى الإمام محمد بن إسماعيل البخاري⁽³⁾.

2-ب/ كما يرويه بسند العلامة محمد بخيت المطيعي، عن الشيخ عبد الرحمن الشربيني الشافعي شيخ الأزهر، والشيخ أحمد الرفاعي المالكي، كلاهما عن الشيخ إبراهيم السقا الشافعي، والشيخ أحمد عبد الله المالكي، عن الشيخ محمد الأمير الصغير، عن والده الشيخ محمد الأمير الكبير⁽⁴⁾، ... إلى غاية الشيخ محمد بن يوسف الفربري عن جامعه الإمام محمد بن إسماعيل البخاري⁽⁵⁾.

2-ج/ كما يروي الإمام ابن باديس صحيح البخاري من طريق العلامة محمد أبي الفضل الجيزاوي، عن العلامة إبراهيم السقا، عن العلامة محمد بن محمد الشهير بابن العنابي الجزائري، عن الشيخ أبي الحسن علي بن عبد القادر الجزائري، ... إلى الإمام البخاري.

" فبين الشيخ ابن باديس والإمام البخاري بهذا الإسناد 13 رجلا، فتقع له ثلاثياته ب: 17 واسطة"⁽⁶⁾.

2-د/ كما يروي الإمام ابن باديس صحيح البخاري بإجازة شيخه محمد حمدان الونيسي، الذي وصله بالإمام البخاري من خلال أسانيد الكتب الست، وغيرها من كتب الحديث، التي في ثبوت العلامة حافظ الحجاز الشيخ فالح بن محمد الظاهري الحجازي.

لقد اتصل الإمام ابن باديس بصحيح الإمام البخاري من خلال إجازات وأسانيد وأثبات متنوعة.

(1): أسقط د/ عبد العزيز فيلاي هذا الراوي من الإسناد الذي أورده خطأ، أنظر: د/ عبد العزيز فيلاي، المصدر السابق، (ص: 144).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (مج 06 / ص: 429).

(3): أنظر: لحسن بن علجية، المصدر السابق، (ص: 176).

(4): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (مج 06 / ص: 425).

(5): أنظر: لحسن بن علجية، المصدر السابق، (ص: 177).

(6): أنظر: المصدر السابق، (ص: 178).

3/ صحيح مسلم: للإمام الحافظ أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت: 261هـ).

4/ سنن الترمذي: وهو الجامع المختصر من السنن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل، المعروف بجامع الترمذي، وهو من تصنيف الإمام أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت: 279هـ).

5/ سنن أبي داود: من تصنيف الإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت: 275هـ).

6/ سنن النسائي: تصنيف الإمام العلامة أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الشهير بالنسائي (ت: 303هـ).

7/ سنن ابن ماجه: تصنيف الإمام أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، الشهير بـ: ابن ماجه (ت: 273هـ).

يمكن القول بأن هذه الكتب المتمثلة في الموطأ والكتب الستة، هي أهم الكتب الحديثية التي درسها الإمام ابن باديس، واتصل بأسانيد مؤلفيها، وأسانيد الكتب الستة ثابتة -على الأقل- من خلال اجازتين، هما:

أ/ روايته للكتب الستة من خلال إجازة شيخه محمد حمدان الويسي القسنطيني الجزائري، ثم المدني، وذلك عند قول الشيخ حمدان في إجازته: "وإني أروي التفسير والحديث والفقه والأصول وسائر العلوم الآلية... عن جميع مشيخة قسنطينة الذين أدركتهم، وعن غيرهم من جلة المشايخ بالمغرب والمشرق، أخص منهم العلامة حافظ الحجاز الشيخ سيدي فالح بن محمد الظاهري الحجازي رحمه الله، فإنه أجازني بجميع ما في ثبته المحتوي على أسانيد الكتب الستة وغيرها من كتب الحديث" (1).

ب/ كما يروي الإمام ابن باديس الكتب الست من خلال إجازة الشيخ حسين أحمد الفيض آبادي الهندي، هذا الأخير الذي أشار في إجازته إلى أمر مهم، وهو اعتناء الإمام ابن باديس بالكتب الستة، وطلبه من الإمام الهندي أن يميزه فيها، وذلك عند قوله: "فاستجازني بالصّحاح الست وغيرها" (2).

(1): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (مج 06/ ص: 426).

(2): المصدر نفسه، (مج 06/ ص: 428).

الفرع الثالث / من خصائص الزّاد الحديثي للإمام عبد الحميد ابن باديس :

- من خلال هذا العرض المركز لأهمّ الكتب الحديثية، وما أمكن الوصول إليه من المتون والمصنّفات في علم الحديث ومصطلحه، ممّا قد درسه واطّلع عليه، وأجيز أو امتحن فيه الإمام ابن باديس، سواء أثناء طلبه للعلم في تونس، أو أثناء جولته في العالم الإسلامي، يمكن الخروج بالملاحظات التالية:
- كلّ ما تمّ الإشارة إليه؛ من المتون والمنظومات، والكتب والمصنّفات، والشّروح والتعليقات، في الحقيقة لا تمثّل سوى مبلغ الجهد، وإلاّ فما خفي أكبر ممّا تجلّى، ويبقى مجالاً للبحث والتّحري والتّفصيل لمن أراد كشف النقاب عن هذا الجانب.
 - ما أشرت إليه في هذا المطلب، هو ما دوّن وكُتب عن الزّاد الحديثي للإمام ابن باديس أثناء مرحلة التّحمّل، خاصة في دفتره الزّيتوني، أو البرامج الدّراسية لجامع الزيتونة، أو ما ثبت تحصيل الإمام له، لكن يبقى ما حضره الإمام من المجالس والشّروح، وما درسه من الكتب والمؤلّفات على شيوخ تونس والأقطار التي زارها ممّا لم يكتب ولم يدوّن؛ أكثر ممّا قد عرف.
 - لقد تمكّن الإمام ابن باديس من دراسة أمّهات كتب الحديث ومصطلحه، ففي الحديث مثلاً؛ دراسته للكتب الستّة، واتّصاله بأسانيدھا من عدّة جهات، ولا يخفى ما لهذه الكتب من وزن علمي عند علماء الحديث، هذه الكتب " التي هي أصول الإسلام وعليها مدار الأحكام "(1)، كما "أنّ كتب الحديث الستة تعتبر أهمّ الينابيع التي تستقي منها السنة، وأنّ أصحاب هذه الكتب قد بذلوا أقصى ما يستطيعه الجهد الإنساني في البحث عن الحقيقة والتّحري عن الصدق "(2)، وكذلك في مصطلح الحديث، فيكفيه أنّه قد درس ألفية العراقي في مصطلح الحديث، بشرح الحافظ زكريا الأنصاري، ولا يخفى ما تميّز به هذه الألفية من الاستيعاب والشمول، والحصر لأكثر مباحث علم الحديث ومصطلحه، " وهي جيدة غزيرة الفوائد،

(1): القنوجي، أبي الطيب السيد صديق حسن خان، الحطة في ذكر الصحاح الستة " البخاري-مسلم-الترمذي-أبو داود-النسائي-ابن ماجه " بالإضافة إلى مسند أحمد وموطأ مالك ودراسات شاملة للعلوم الحديثية، دراسة وتحقيق: علي حسن الحلبي، (لبنان-بيروت: دار الجيل، د/ ط/ ت)، (ص: 409).

(2): د/ محمد محمد أبو شهبه، في رحاب السنة الكتب الصحاح الستة، سلسلة البحوث الإسلامية، السنة السادسة والعشرون، الكتاب الثالث، (مصر-القاهرة: مجمع البحوث الإسلامية، د/ ط، 1415 هـ-1995 م)، (ص: 183).

وعليها شروح متعددة، منها شرحان للمؤلف نفسه⁽¹⁾.

- طبيعة الكتب والمتون والشروح التي درسها وتلقاها الإمام ابن باديس، تدلّ بوضوح على طول النفس والهمة العالية التي يتمتع بها الإمام، خاصة إذا وجدنا أنّ بعضها يقع في عدة مجلدات، بل وأكثر من هذا؛ درس بعضها لعدة مرّات ولم يكتف بمرة واحدة فقط.
- سلوك الإمام ابن باديس لجادة العلماء، والتزامه طريقة السلف في التلقّي، وذلك بسماعه من الشّراح، ومجالسته لكبار العلماء في عصره مع اختلاف مذاهبهم واتّجاهاتهم، والرحلة لتحصيل العلم، والاتّصال بأصحاب المصنّفات بأعلى الأسانيد.
- كما نلاحظ بأنّ أغلب الشّروح المقرّرة على الكتب والمتون؛ خاصة في جامع الزيتونة هم من علماء المالكيّة، كما هو الحال -مثلاً- مع الزرقاني شارح الموطّأ والمواهب اللدنية، والمنظومة البيقونية، أو شرح اللقاني، أبو الأمداد المصري المالكي، أو شرح الإمام ابن خلفه الأبي المالكي على صحيح مسلم.
- يمكن القول - باختصار - بأن الإمام عبد الحميد ابن باديس قد تزوّد من المعين الصّافي، وأخذ الحديث وعلومه كما أخذه السابقون، فلم يتجاوز المراحل ولم يخترقها، بل أعطى كلّ ذي حقّ حقّه، وبالتّالي فهو "دارس متعمّق للكتاب والسنة"⁽²⁾.

(1): د/ الطحان، محمود، تيسير مصطلح الحديث، (مصر-الإسكندرية: مركز الهدى للدراسات، ط/ 07، 1415 هـ)، (ص: 14).

(2): د/ محمد بهي الدين سالم، المصدر السابق، (ص: 84).

المطلب الثالث: الإجازات الحديثية للإمام عبد الحميد ابن باديس

في هذا المطلب الأخير سأشير إلى جانب مهم من الجوانب الدراسية للإمام ابن باديس، والذي لم يتم الكشف عنه إلا مؤخراً، وذلك بفضل النشاط والحركة العلمية المشهودة لمؤسسة الإمام الشيخ عبد الحميد ابن باديس، ويتمثل هذا الجانب في الإجازات⁽¹⁾ العلمية المكتوبة، التي تحصل عليها الإمام أثناء حياته الدراسية، وجولاته العلمية.

واجتناباً للتطويل المخل سأكتفي بإيراد أهم الإجازات التي تتعلق بالجانب الحديثي؛ سواء من حيث الرواية أو الدراية، لأختتم هذا المطلب بخلاصة وملاحظات، والتطرق لإشكاليات علمية حول إجازات الإمام ابن باديس.

(1): الإجازة: هي نوع من أنواع تحمل وتلقي طالب العلم للحديث أو غيره من العلوم من حامله، فهي بالنسبة للطالب نوع تحمل، لكن بالنسبة للشيخ أو المحدث فهي نوع من أنواع الأداء، وذلك بأن يسمح ويأذن المحدث أو الشيخ لغيره بأن يروي عنه بعض أو كل ما سمعه عنه، أو عرضه عليه؛ سواء من الحفظ أو من الأصل، وقد يكون هذا الإذن سماعياً فقط، أو كتابياً فقط، أو سماعياً وكتابياً معاً.

وتتنوع الإجازة بحسب اعتبار تناولها، فباعتبار المجاز فيه؛ ينقسم إلى معين وغير معين، أو عام وخاص، وباعتبار المجاز؛ ينقسم إلى معين وغير معين، أو إلى مجاز ومُجيز، أو مجاز فقط لصغر سنّه أو عدم استيفاء شرط مطلوب، كما تختلف الإجازة باعتبار المناولة من حيث الاقتران وعدمه، وغيرها من الأنواع التي تختلف اسماً وحكماً، مما هو مفصل في كتب الحديث وعلومه. ولعلّ الخلاصة ما ذهب إليه العلامة أحمد شاكر عندما قال: "ولو قلنا بصحة الإجازة إذا كانت بشيء معين من الكتب لشخص أو أشخاص معينين مع إبهام الشيء المجاز، كأن يقول له: (أجزت لك رواية مسموعاتي)... وإذا صحّت الرواية بالإجازة، فإنه يصح للراوي بها أن يميز غيره". أحمد محمد شاكر، الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، (لبنان-بيروت: دار الكتب العلمية، د/ ط/ ت)، (هـ/ ص: 117)، كما إنّها تحافظ على خصيصة الإسناد الذي هو من خصائص الأمة الإسلامية.

للتفصيل: أنظر: الرامهرمزي، الحسن بن عبد الرحمن (ت: 360هـ)، المحدث الفاضل بين الراوي والواعي، تحقيق: د/ محمد عجاج الخطيب، (لبنان-بيروت: دار الفكر، ط/ 01، 1391هـ، 1771م)، (ص: 435). والزركشي، بدر الدين أبي عبد الله (ت: 794هـ)، النكت على مقدمة ابن الصلاح، تحقيق: د/ زين العابدين بن محمد بلا فريج، (السعودية-الرياض: مكتبة أضواء السلف، ط/ 01، 1419هـ-1998م)، (مج 03 / ص: 502). والسخاوي، أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن (ت: 902هـ)، فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقي، تحقيق: علي حسن الحلبي، (دار الإمام الطبري، ط/ 02، 1412هـ، 1992م)، (مج 02 / ص: 214). والصنعاني، أبي إبراهيم محمد بن إسماعيل (ت: 1182هـ)، توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار، (لبنان-بيروت: دار الكتب العلمية، ط/ 01، 1417هـ-1997م)، (مج 02 / ص: 186). وأحمد محمد شاكر، المصدر السابق، (ص: 114).

الفرع الأول / إجازات الإمام عبد الحميد ابن باديس الحديثية:

وسأورد هنا أهم إجازاته المكتوبة في دفتر شهادات التلامذة بالجامع الأعظم، الخاص بالإمام ابن باديس، والذي كتب على غلافه: "اتصل به صاحبه في أوائل المحرم الحرام فاتح شهور عام 1328، ثمانية وعشرين وثلاثمائة وألف، عدد 7245 سبعة آلاف ومائتين وخمسة وأربعين، سنة 1333" (1)، كما أنني سأحذف بعض الأسانيد تجنباً للإطالة والإكثار، وسأشير إلى مواضعها ومضاتها.

1/ إجازة العلامة محمد بخيت المطيعي المصري: "الحمد لله الذي استجاز من أجازته إلى مجاز الحقيقة، واستخار من استخاره فهداه إلى أحسن طريقة، والصلاة والسلام على سيد المؤمنين ومعتمدتهم وعمدتهم، الذين استمدوا مددهم من مدده في جميع مددهم وعلى آله وأصحابه الذين حملوا سنته ورعوها حق رعايتها وحفظوها عنه ورووها، فرووا منها من رواها عنهم حق روايتها، صلاة وسلاماً دائمين بدوام ملك الله الأبدي.

وبعد؛ فإني قد استخرت الله، وأجزت حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الحميد بن باديس القسطنطيني من أعمال الجزائر الغربية، بكل مروياتي من معقول ومنقول ومؤلفات، كما أجازني بذلك شيخنا المرحوم الشيخ عبد الرحمن الشربيني... وأوصيه بتقوى الله تعالى في السر والعلن، واجتناب المعاصي ما ظهر منها وما بطن، إنه سبحانه ولي التوفيق، وبالإجابة جدير وحقيق.

كتبه الفقير إلى الله تعالى محمد بخيت المطيعي الحنفي بالأزهر، غفر الله له ولوالديه ولمشاخه وإخوانه وجميه المسلمين آمين" (2). وقد كانت كتابة هذه الإجازة بتاريخ 01 ربيع الثاني 1332 هـ، الموافق لـ: مارس 1914 م.

2/ إجازة العلامة محمد حمدان الونيسي القسطنطيني الجزائري: "نحمدك اللهم على نعمك ونشكرك على عميم كرمك، ونصلي ونسلم على منبع الكمالات سيدنا محمد المرسل بالآيات البينات، وعلى آله سفائين النجاة المرسلات وأصحابه ذوي الفضائل المسلسلات.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (مج 06/ ص: 389). ود/ عبد العزيز فيلاي، عبد الحميد بن باديس مرحلة التحصيل والتكوين، (ص: 98). ووثائق جديدة عن جوانب خفية في حياة ابن باديس الدراسية، (ص: 70).

(2): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (مج 06/ ص: 425). ود/ عبد العزيز فيلاي، عبد الحميد بن باديس مرحلة التحصيل والتكوين، (ص: 152). ووثائق جديدة عن جوانب خفية في حياة ابن باديس الدراسية، (ص: 110).

وبعد؛ فإنه لما كان العلم محط الرحال ومنتهى الآمال، ومشرق السعادة وأفق السيادة، وكان من جملة من قرأ علينا واستفاد، وامتاز بصفة العلم والإدراك بين الأنداد، ابننا الفقيه الأجل سيدي عبد الحميد ابن الشيخ بن باديس، وكنت أجزته مشافهة إذ كنت بالأقطار الجزائرية أعادها الله دار إسلام، ولما أردت مبارحتها أوصيت أباه الأجل سيدي محمد المصطفى بأن يرسله إلى تونس يكمل قراءته، ويشفي علته، ويطفئ حرارته، فتم مراده والله الحمد، وحصل ورجع إلى بلده قسنطينة لإفادة طلاب العلم ومريدي صحيح الإدراك والفهم.

ثم في هذه السنة جاء حاجاً إلى بيت الله الحرام، وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام، ومكث عندنا بالمدينة المنورة إلى مولده ﷺ، ولما عزم على السفر إلى مسقط الرأس حيث المستقر، طلب من الفقير أن يسطر له ما كان شفاهاً، ليتم له المقصود من الإجازة ويكمل بهاها، فقلت بعد الاستخارة وأنا الفقير الذي لا حول لي ولا قوة، متطفلاً على موائد الكرام، ذوي المفاخر العظام، عسى أن ينفعني بهم وإياه فإنهم أهل القرب والجاء.

قد أجزت ابننا المذكور في كل ما عندي من المعقول والمنقول والفروع والأصول؛ إجازة عامة مطلقة، بشرط أن يعطي من التأمل والبحث كل مسألة حقها، ومن بيانها وتوضيحها واجبها ومستحقها، وأن يفوض العلم لله في كل ما لم يصل إليه علمه، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٣٦) (١).

وإني أروي التفسير والحديث والفقه والأصول وسائر العلوم الآلية عن شيخنا العلامة سيدي أبي المواهب عبد القادر القسنطيني... وعن جميع مشيخة قسنطينة الذين أدركتهم، وعن غيرهم من جلة المشايخ بالمغرب والمشرق، وأخص منهم العلامة حافظ الحجاز الشيخ سيدي فالح بن محمد الظاهري الحجازي رحمه الله، فإنه أجازني بجميع ما في ثبته المحتوي على أسانيد الكتب الست وغيرها من كتب الحديث... فرحم الله مؤلفه وجزاه خيراً آمين.

فليصل ابننا المجاز نفسه برجال الثبت، وليقل: أنبأنا فلان؛ أعني الفقير المجيز عن صاحب الثبت إلى آخره، وإني أوصي الفقيه المجاز بتقوى الله وطاعته، وأحذره وإياي من معصيته ومخالفته ﴿إِنَّ

(1): سورة الإسراء، الآية: 36.

اللَّهُ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾⁽¹⁾ وأن لا ينساني من دعواته في خلواته وجلواته، ... تحريراً في الثالث عشر من ربيع الأنور عام 1322 هـ...⁽²⁾، الموافق لـ: فيفري 1914 م.

3/ إجازة العلامة أحمد الفيض آبادي الهندي: "...أما بعد: فإن أخانا في الله، الفتى اللبيب والفاضل الأريب، الأجل الأحضى والفقيه الأرضي، العلامة سيدي الشيخ عبد الحميد بن محمد المصطفى بن باديس المغربي القسنطيني، قد اجتمعت به عام اثنين وثلاثين بعد الألف والثلاثمائة بالمدينة المنورة حين قدومه من الحج لزيارة سيد الرسل عليه الصلاة والسلام، فاستجازني بالصّحاح الستّ وغيرها مما تجوز لي روايته من كتب المعقول والمنقول، وأصرّ على ذلك مع تعللي فيه، بناء على أني لست ممن في هذه الميادين يجول، ولما لم أجد بُدّاً من إسعاف مقاصده، ولم يعن لي طرفي إلى الإقالة عن معاقده، توكلت على الرّبّ الودود، وأجزته بجميع ذلك حسبما أجازني مشايخي الكرام، بالشّروط المعتمدة المعروفة بين العلماء العظام.

وإني أروي العلوم والكتب عن مشايخ كثيرين من رؤوس علماء الهند، وفضلاء دار الهجرة والبلد الأمين... هذا وأوصيه ونفسي بتقوى الله تعالى في السر والعلن، وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وأن يعصّ بالنواجذ على طريقة الأسلاف الكرام من أئمة أهل السنة أتباع طرق الصحابة، مجتنباً عما أحدثه المبتدعة اللئام... وصلى الله تعالى على خير خلقه سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً كثيراً، خادم العلم بالمسجد النبوي 13 ربيع الأول 1322⁽³⁾، الموافق لـ: فيفري 1914 م.

4/ إجازة العلامة محمد العزيز التونسي: "...وبعد؛ فقد منّ ربي عليّ بما هو أحلى من المن لدي، وهو الاجتماع بذي الفضل الجليل الجلي، والفخر الراسخ العلي، عمدة الأفاضل وقدوة أهل

(1): سورة النحل، الآية: 128.

(2): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (مج 06/ص: 426). ود/ عبد العزيز فيلاي، عبد الحميد بن باديس مرحلة التحصيل والتكوين، (ص: 140). ووثائق جديدة عن جوانب خفية في حياة ابن باديس الدراسية، (ص: 112). ولحسن بن علجية، المصدر السابق، (ص: 140).

(3): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (مج 06/ص: 428). ود/ عبد العزيز فيلاي، عبد الحميد بن باديس مرحلة التحصيل والتكوين، (ص: 143). ووثائق جديدة عن جوانب خفية في حياة ابن باديس الدراسية، (ص: 116). ولحسن بن علجية، المصدر السابق، (ص: 154).

المكارم والفواضل، جامع أشتات المزايا الفاخرة والخصال الحميدة الباهرة، الشيخ سيدي عبد الحميد بن محمد المصطفى بن باديس القسنطيني، فكان من صالح نياته الحسنة، وطويّات سرائره المستحسنة، أن رغب الإجازة على العادة المألوفة المستجازة، من لدن العبد الحقير، حليف العجز والقصور والتقصير، فلم تسعني إلا إجابته، وامثال ما تحصل به رغبته... قد أجزت أخانا الفاضل المذكور بكل ما وصل إلي، واتصلت روايته لدي من معقول ومنقول، في فروع وأصول، مما أجازني به مشايخي الأعلام، جهابذة الأنام.

...إجازة تامة مطلقة عامة حاوية لأثبتات المشاهير، وأسانيد العلماء النحارير... تحريراً من فقير ربه التقرير عبده محمد العزيز الوزير في 14 أشرف ربيعي سنة 1332⁽¹⁾، الموافق لـ: فيفري 1914 م.

5/ إجازة العلامة محمد أبي الفضل الجيزاوي المصري، شيخ الأزهر: "...وبعد؛ فقد حضر لدينا بالثغر الإسكندري حضرة العلامة الفاضل، والفهامة الكامل، الشيخ عبد الحميد بن باديس المغربي، من علماء الغرب بالجزائر، وطلب منّا أن نجيزه بما تلقيناه من المعقول والمنقول، عملاً باتصال السند الذي هو من خصائص هذه الأمة المحمدية، فأجبناه لذلك وأجزناه بما تصح لنا روايته، وتنقل عنا درايته من العلوم العقلية والنقلية، والله المسؤول أن يوفقنا وإياه للتقوى، فإنها السبب الأقوى، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تحريراً في 8 ربيع الأول من سنة ألف وثلاثمائة واثنين وثلاثين من الهجرة النبوية⁽²⁾، الموافق لـ: شهر فيفري 1914 م.

6/ إجازة العلامة محمد بن يوسف الحنفي، مفتي تونس: "تبارك الذي خص بسند الرواية هذه الأمة، وجعل الإجازة وصلاً بين علمائها وذمة، فتواترت طرائقها الجمّة، واشتهرت عوالي أسانيدها

(1): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (مج 06/ ص: 430). ود/ عبد العزيز فيلاي، عبد الحميد بن باديس مرحلة التحصيل والتكوين، (ص: 147). ووثائق جديدة عن جوانب خفية في حياة ابن باديس الدراسية، (ص: 119). ولحسن بن علجية، المصدر السابق، (ص: 147).

(2): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (مج 06/ ص: 432). ود/ عبد العزيز فيلاي، عبد الحميد بن باديس مرحلة التحصيل والتكوين، (ص: 150). ووثائق جديدة عن جوانب خفية في حياة ابن باديس الدراسية، (ص: 122). ولحسن بن علجية، المصدر السابق، (ص: 138).

المهمة... فإن العالم الفاضل الكامل النحرير، الشيخ عبد الحميد بن باديس؛ ممن عني بالعلم في زهرة شبابه، ودعته الأريحية الفاضلة إلى أسبابه، فأتى البيت من بابه، ووقف على أربابه، وهجر في طلبه الأهل والوطن، ونبى عن الجفن الوسن، بشحد القريحة بفنونه، وورد ماء مدين من عيونه، متضلعا من حقائقها، متطلعا لدقائقها، وساقته المقادير أثناء ذلك لملازمة العبد في فنون عديدة، وكتب عالية مفيدة، يباكرها بهمة صادقة، وألمعية فائقة، وذكاء يتوقّد، ومحاوره جميلة يتأرجح منها نفس التحصيل ويتصعّد، ولم يزل بين علم وعمل، حتى بلغ الأمل، فعاد إلى مطلعه كالبدور في الكمال، ولا غرو أن يكون عبد الحميد حميد الخصال.

ثم رغب مني أن أجيزه، وأرصد بالسند العلمي إبريزه، ولتنام أهليته، وحسن نيته، رأيت بعد الاستخارة أن أبادر إلى أمنيته، فأقول: أجزت الشيخ المذكور أن يروي عني... من الكتب والفنون والمسلسلات المذكورة في الثبتين والمجموع بطرقها المتصلة بأصحابها...

حرره الفقير إلى ربّه محمد بن يوسف المفتي الحنفي بالديار التونسية في 15 شوال المبارك سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة وألف⁽¹⁾، الموافق لـ: شهر جوان 1920 م.

الفرع الثاني / خصائص إجازات الإمام عبد الحميد ابن باديس الحديثية:

فيما يلي سأورد أهمّ الملاحظات والخصائص، والإشكاليات العلميّة التي أثارها هذه الإجازات، كما يمكن أن يظهر هذا العنصر عبارة عن تحليل مركّز للإجازات السابقة يفيدنا في موضوع البحث، ويشير إلى زوايا علميّة مازالت في الظلّ ولم يتمّ التّطرق إليها في دراسات أخرى.

1/ إجازة العلامة محمد حمدان الونيسي: لقد تساءل الشيخ لحسن بن علجيّة عن السبب في عدم كتابة الشيخ الونيسي إجازته للشيخ ابن باديس في قسنطينة، واكتفائه بالإجازة الشفويّة، أمّا الكتابة فقد أجّلها إلى سنة 1914 م، لما زاره تلميذه في المدينة النبوية، وللإجابة عدّة احتمالات أهمّها:

- يمكن أن يكون الشيخ الونيسي من الشيوخ الذين يجيزون شفاهًا وسهًا، لا كتابةً وتقييدًا، وأمّا الكتابة فلا يلجأ إليها إلّا لمن طلبها منه، أو أراد أن يخصّه بها لمزيد إكرام، أو لإظهار تميّز.

(1): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (مج 06/ ص: 433). ود/ عبد العزيز فيلاي، عبد الحميد بن باديس مرحلة التحصيل والتكوين، (ص: 155). ووثائق جديدة عن جوانب خفية في حياة ابن باديس الدراسية، (ص: 124). ولحسن بن علجية، المصدر السابق، (ص: 166).

لكنّ هذا الاحتمال يضعف إذا استحضرنّا بأن الشيخ الونيسي قد عثر له " على بعض إجازاته كتبها لبعض علماء الجزائر" ⁽¹⁾.

- قد يكون الشيخ الونيسي اكتفى بالإجازة الشفوية، ولم يقيدها كتابة؛ لصغر سنّ الإمام ابن باديس أثناء تلمذه عليه في قسنطينة، ويرجح هذا الاحتمال أمران اثنان هما:

1-1 / القيد العلمي المهمّ الوارد في الدليل الذي ضعّفنا به الاحتمال الأوّل، وهو أنّ الإجازات التي كتبها الشيخ الونيسي كانت لـ: (علماء)، ما يعني أنّه لا يكتبها إلّا لمن كملت قريحته، واستوت منزلته، وهذا يُشعرنا بأنّه كان من الذين لا يتساهلون في منح الإجازات العلميّة.

1-2 / كما يؤيّد هذا الرأى ما اشترطه الشيخ الونيسي على تلميذه في إجازته التي كتبها له، وذلك عندما قال له: " بشرط أن يعطي من التأمّل والبحث كلّ مسألة حقّها، ومن بيانها وتوضيحها واجبها ومستحقها، وأن يفوّض العلم لله في كل ما لم يصل إليه علمه" ⁽²⁾، والحقيقة أن هذا الشرط لا يمكن أن يُطلب، أو يفهم إلّا من بلغ من العلم منزلة عالية، واغترف من المعارف غرّة كافية.

2 / إجازة العلامة محمد بخيت المطيعي المصري: لعلّ من الإشكالات التي أثّرت في قضية إجازة الشيخ بخيت المطيعي لابن باديس، ما تساءل عنه بعض الباحثين؛ هل الشيخ المطيعي أجاز ابن باديس بمحض إرادته، ولما ظهر له من فطنة ونبوغ تستحقّان الإجازة والإكرام؟، أم أنّ الشيخ الونيسي هو الذي طلب منه أن يجيزه في الرسالة التي حمّلها الإمام ابن باديس؟، أم أنّ الإمام ابن باديس هو الذي طلب شخصيا من الشيخ المطيعي أن يجيزه؟.

إذا ففي هذه الإشكاليّة ثلاث احتمالات، سأعرض لها بشيء من الاختصار ثم الخروج منه بتوجيه: 1-2 / الاحتمال الأوّل: قد يكون الشيخ بخيت المطيعي هو الذي أجاز الإمام ابن باديس، بمحض اختياره ورأيه، وذلك لما رأى منه النباهة والسّمت، وتفرّس فيه همّة العلماء المصلحين، فعرض عليه أن يجيزه إكراما له وتزكية، ووصلا له برجال الإسلام، وقد حصل بإذن الله ما تفرّسه فيه، فكان له يدٌ وذكرٌ في إحياء أمة بأكملها.

(1): لحسن بن علجية، المصدر السابق، (هـ/ 02 / ص: 140).

(2): أنظر: (ص: 98).

بل وذهب البعض إلى أنه قد أجاز به شهادة العالمية الأزهرية، شهادة العالمية الأزهرية وإجازة من مفتي مصر لا يمكن أن تمنح لمن هبّ ودبّ، فلا تجتمعان إلا عند من جمع أسباب العلم والتفوق⁽¹⁾.

2-2/ الاحتمال الثاني: وهو أنّ الشيخ حمدان الونيسي هو الذي طلب من الشيخ بخيت أن يُجيز تلميذه ابن باديس⁽²⁾، وهذا الطلب لم يحمله ابن باديس ويطرحة مشافهة، بل ضمّنه الشيخ الونيسي في الكتاب الذي حمله تلميذه لشيخه، وقد فعل الشيخ الونيسي هذا إمّا تزكية لتلميذه ورفعاً من شأنه، أو رفعاً لإسناده؛ خاصة إذا عرفنا بأن الشيخ بخيت من شيوخ الشيخ الونيسي، أو توسّطاً لابن باديس لدى الشيخ بخيت المطيعي.

2-3/ الاحتمال الثالث: ومفاده -بكلّ بساطة- أنّ الشيخ عبد الحميد ابن باديس هو الذي طلب من الشيخ بخيت المطيعي أن يجيزه ويصله بسنده، بل و طلب ذلك من كلّ الشيوخ الذين أجازوه، والغريب أنّ هذا الاحتمال رغم قوّته، وظهوره، واحتوائه للاحتتمالات السابقة؛ لكن لم أجد من أشار إليه، أو اعتمد عليه، لهذا سأورد الأدلّة التي ساقنتني إليه، وذلك لتعلّقه بكلّ إجازاته التي ذكرناها:

- إنّ الشيخ ابن باديس كان بحاجة لهذه الإجازات، خاصّة بعد ما حدث له مع الشيخ ابن الموهوب في قسنطينة، فأراد أن يرجع إليها من جولته ومعه شهادات وتزكيات من كبار علماء الأئمة، تُسكت الخصوم والمشكّكين والمعاندين.

- إجماع شيوخه الذين أجازوه على أنّه هو الذي طلب منهم أن يجيزوه، بل أشاروا إلى أكثر من هذا؛ بأنّه كان يلحّ في طلبه ويصرّ، ومن أمثله:

قال الشيخ حمدان الونيسي: "...طلب من الفقير أن يسطر له ما كان شفاها..."⁽³⁾.

قال الشيخ الفيض آبادي الهندي: "...فاستجازني بالصّحاح الستّ وغيرها مما تجوز لي روايته من كتب المعقول والمنقول، وأصرّ على ذلك مع تعللي فيه..."⁽⁴⁾.

(1): أنظر: د/ عبد القادر فضيل، أ/ محمد الصالح رمضان، المصدر السابق، (ص: 40). و د/ عبد الحميد درويش النّساج، المصدر

السابق، (ج 01، ص: 14). و الجيلاني ضيف، المصدر السابق، (ص: 34).

(2): أنظر: لحسن بن علجية، المصدر السابق، (ص: 38).

(3): أنظر: (ص: 100).

(4): أنظر: (ص: 101).

قال الشيخ العزيز الوزير التونسي: "... أن رَغِبَ الإجازة على العادة المألوفة المستجازة..."⁽¹⁾.

قال الشيخ محمد أبي الفضل الجيزاوي: "... وطلب منا أن نجيزه بما تلقيناه..."⁽²⁾.

قال الشيخ محمد بن يوسف الحنفي: "... ثم رغب مني أن أجيزه،..."⁽³⁾.

من خلال هذا العرض نجد استعمال شيوخه المجيزين لعدة كلمات (طلب، رغب، استجاز، أصّر) والتي تدل كلها بما لا يدع مجالا للشك؛ بأن الإمام ابن باديس هو الذي كان يطلب من شيوخه أن يجيزوه، وليس العكس هو الذي كان يحصل.

إنّ هذا الاحتمال الأخير يمكنه أن يحتوي الاحتمالين السابقين، وذلك بأنّ الإمام ابن باديس طلب من الشيخ بخيت أن يجيزه، لكن الشيخ تريث إلى أن ظهر له من الإمام ابن باديس ما طابت به نفسه واطمأنت إليه حاله؛ فأجازه، أو أنّ الإمام ابن باديس طلب وساطة شيخه الونيسي لدى الشيخ بخيت ليحيزه، فكتب له الكتاب الذي كان بمثابة توسط وتركبة حفّزت الشيخ بخيت على إجازته.

كما يمكن أن نشير إلى عدة ملاحظات أخرى باختصار، وهي:

- تمكنا من الاطلاع على الإجازات المكتوبة فقط، ما يُرجح إمكانية حصول الإمام ابن باديس على إجازات سماعية لم يمكننا الوصول إليها، فمثلا: إجازة الشيخ الونيسي لو بقيت شفوية فقط ولم تكتب، لما وصلنا إليها.
- شيوخ ابن باديس المجيزين من كبار علماء الإسلام في عصره، بحيث نجد منهم المفتي، والقاضي، والشيخ الأزهر، وشيخ الزيتونة، ما يعني أنّ همة الإمام لم تكن لتقاصر عن هم أدنى من هؤلاء.
- جمّع الإمام ابن باديس لشهادات يندر أن تجتمع في شخص واحد، بحيث نجد شهادة التطويع الزيتونية، والعالمية الأزهرية، كما نجد إجازات تتصل بعلماء الحرمين وبلاد الهند، ما يجعل تكوين الإمام ليس تكوينا قطريا، بل هو تكوين إسلامي تضافرت في بناءه مشارق الأرض ومغاربها، وهذا ما جعل الإمام يستحضر البعد الإسلامي في عمله الإصلاحية.

(1): أنظر: (ص: 102).

(2): أنظر: (ص: 102).

(3): أنظر: (ص: 103).

- اتّصال الإمام ابن باديس بأشهر الأسانيد والأثبات، ومؤلفي أعظم دواوين الإسلام، وسلوكه لطريق السلف في التّحصيل، خاصّة في الحديث وعلومه.
- من خلال الإجازات السابقة نجد بأنّ شيوخه وبحكم مكانتهم ومنزلتهم، لم يكونوا من المتساهلين في منح الإجازات، أو المسارعين إلى إجابة من استجازهم، خاصّة لما نجدهم لا يجيبون من سألهم ذلك إلّا بعد الإصرار والطلب، وإظهار النباهة والتمكّن والاستحقاق، بل وبعد الاستخارة، ما يعني أنّ الإمام ابن باديس كان من المتمكّنين حتى ينال ما هو صعب المنال.
- إجماع هؤلاء السادات والقامات العلميّة، وأساطين العلم في وقته على وصفه " بالعلامة الفاضل والفهامة الكامل... وغيرها من النّعوت الحسنة، وهو شاب لا يزيد عمره عن 24 سنة، فهي أوصاف تدل على نضج الإمام...أمام جهابذة وأساتذة مشهود لهم في الديار المصرية والحجازية والتونسية تجعله يتبوأ المشيخة والأستاذية عن جدارة واستحقاق"⁽¹⁾.
- " يتصل ابن باديس -بالإجازة العامة- بأسانيد المغاربة والمصريين والحجازيين وأئمة الهند، تنوعت أسانيده واتصلت بفهارس وأثبات شهيرة لأعلام الرواية والإسناد من المتأخرين... ويتصل ابن باديس ببعض هذه الأثبات والفهارس بواسطة واحدة وبعضها بواسطة واسطتين والبعض الآخر بوسائط عديدة"⁽²⁾.

(1): د/ عبد العزيز فيلاي، عبد الحميد بن باديس مرحلة التّحصيل والتكوين، (ص: 80). ووثائق جديدة عن جوانب خفيّة في حياة

ابن باديس الدراسية، (ص: 47).

(2): لحسن بن علجية، المصدر السابق، (ص: 172 / 173).

لعلّه من نافلة القول، ومحمود الذكر، وجميل الكلام أن أختتم هذا الفصل ذي المباحث الثلاث؛ بخاتمة فصلية أو أولية، أشير فيها لأهم الملاحظات أو النتائج التي لاحت من خلال ما تمّ تناوله والتعرّض إليه، والتي سأعرضها باختصار وتركيز مؤدّيين للمراد:

-01- إنّ الملابس الزمانية والمكانية التي نشأ فيها الإمام ابن باديس وترعرع، والتي أحاطت بكلّ جوانب حياته، كانت لا تُنذر بخير، بل كانت كلها انحطاط ومرض فتك بكل مقومات الحياة؛ الدينية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، وقد كان الإمام ابن باديس يصف واقعه القريب والبعيد بدقّة وتحليل عزيزين، وهذا ما حدا به لمداواة الأمة من كلّ أمراضها، ومن كلّ الجهات التي أُصيب فيها، وبهذا فقد تنوع الدّواء بتنوع الدّاء.

-02- إنّ حياة الإمام ابن باديس -بدون مبالغة- كانت كلّها للأمة، وقد بحثت عمّا يمكن أن نسمّيه حياة شخصية أو خاصّة فما وجدت لها رسماً، ولا سمعت لها ذكراً، فمنذ طفولته وصغره كانت أمارات وعلامات المصلح الأممي ماثلة للدارسين، ولا تجد فيها إلّا الجدّ في التحصيل، والسّعي للتّغيير.

-03- إنّ الإمام ابن باديس لم يتصدّ للإصلاح بحزب أو شعار، ولا داهن الخونة ولا الاستعمار، ولكن سلك طريق العلم من بابه، والتمسه من أهله وأربابه، فدرس على أفاضل علماء قسنطينة، واستحضر فيها شرف العنصر والطّينة، ثم سلك مسلك علماء الحديث في الهجرة إلى الأقطار، وتحصيل علوم وأسانيد علماء الأمصار، فتنوّعت هجراته، واستحكمت خبراته، وقوي عوده واشتدّ، واستحكم رأيه واستدّ، فأخذ من كلّ حقل زهرة، ومن كلّ ما خبره تجربة وعبرة.

-04- بعد أن عاد الإمام إلى البلاد، تصدّى لإيقاظ العباد، فاشتغل بالتعليم والتدريس، وتصدّى للجهل والتدليس، فنازل المستعمر ومن ناصبوه العداوة، وكشف عن المخدوعين الغشاوة، وكلّ ذلك بعلم صحيح، ولسان فصيح، يوقظ الغافل، ويعلم الجاهل، ويستنهض العاقل، ويصرع الباطل، كلّ ذلك بعون من الله العظيم، وبمدد من إخوانه عميم، فصارت قوافل الناهضين تسير أمواجاً، و صفوف طلاب العلم تتلاحق أفواجا، فصار للعلم مساجد وجمعيات ومدارس، فإذا بالجهل خافت دارس.

-05- لقد تمثل جهد الإمام ابن باديس في صورة علمية وعملية، كما أنّ رحلاته العلمية إلى تونس ومصر، والحجاز والشام سمح له بالاطّلاع على وسائل الإصلاح والتّغيير المختلفة، والتي وظّف الكثير منها في جهاده ضد الاستعمار الفرنسي.

-06- لقد أخذ الجانب الحديثي جانبا مهماً في الحياة الدراسية للإمام ابن باديس، والذي ظهر في صورة لم تكن متصورة، رغم أنّ ما أمكن الوصول إليه قد لا يمثل إلّا مظهرا من مظاهر كثيرة لها علاقة بهذا الجانب، وذلك سواء من حيث تنوّع الأقطار التي تزوّد وتحمل منها الإمام زاده الحديثي، أو تنوّع شيوخه ومجيزيه، أو تنوّع المصادر والمتون التي تلقّاها. كما أنّ هذا التميّز ليس فقط من ناحية التنوع، بل حتّى من ناحية الوزن العلمي والثقل المعرفي، الذي تجلّى في الشيوخ الذين تحمّل عنهم والذين ترجمنا لأهمّهم، أو المصنّفات التي اعتنى بها دراسة وتفقّها.

-07- إنّ ما تمّ التوصل إليه في الجانب الحديثي قليل بالنسبة للحقيقة، وذلك بحكم عدم الاطلاع على الإجازات الشفوية أو السماعية التي أُجيز بها الإمام، كما أنّنا لا يمكن أن نعرف الكتب والمتون والشروح التي أكبّ عليها الإمام بالبحث والتنقيب والدراسة، خاصّة إذا عرفنا أنّه كان ذا همّة وشغف كبيرين، لا يقفان عند حدّ التلقّي فقط، كما أنّ الحواضر التي هاجر إليها كان فيها من المكتبات والمخطوطات الشيء الكثير، والدليل على هذا ما سأشير إلى بعضه في ثانيا الفصل الثاني.

- 08- يمكن القول في الأخير -بدون مبالغة ولا مجازفة- بأنّ الإمام ابن باديس كان من كبار علماء الملة الإسلامية في عصره، وعبقرياً من عباقرتها، ولو كان في غير بلاد المغرب لنال من التّمجيد والذكر ما تطرب لسماعه النفوس، والدّليل عليه تكوينه، وثناء الكبار عليه، وعمله الذي تصدّى به لأعتى قوتين في الأرض؛ وهما:
- الجهل والخرافة والدّجل: الذي ينال من النفوس والعقول، وينوم الضمائر ويقتل الهمم.
 - الاستدمار والاستغلال: الذي ينال من كلّ مظاهر الحياة، ويطمس كل معالم البقاء والتميّز، ويقتل الأرواح والأبدان والنفوس،... خاصّة إذا كان فرنسيّاً !!.

الفصل الثاني

منهج الإمام ابن باديس في
تناول الحديث النبوي.

المبحث الأول:

مكانة الحديث النبوي عند الإمام ابن باديس.

المبحث الثاني:

مصادر الدرس الحديثي عند الإمام ابن باديس.

المبحث الثالث:

منهجية الإمام ابن باديس في شرح الحديث النبوي.

تمهيد:

من خلال عنوان الرسالة، وإجابة على جانب من الإشكاليات المطروحة، سأتناول في هذا الفصل منهج الإمام عبد الحميد ابن باديس وطريقته في تناول الحديث النبوي، وهذا لن يكون إلا باستقراء دروسه الحديثية، واستنطاق مواقفه من السنة النبوية، وتحليل بعض النصوص المركزة والقريبة إلى الإشارة منها إلى التصريح، وهذا لما بلغه الإمام ابن باديس من تحكّم في اللغة، وعبقريّة في الصياغة، وتفرد في التعبير، وتجميع للمعاني الكثيرة في المباني القليلة، وهذا راجع إلى الطابع (الاستعجالي) لدروسه التي كان يلقيها في الأغلب، ويُمليها في الغالب، ويكتبها في القليل النادر.

والذي سأسعى إليه في هذا الفصل، وسيرا على درب سابقه؛ سأحاول الاستدلال على كلّ ما أدّعه بنصوص من تراث الإمام ابن باديس، ولن أنسب إليه رأياً أو قولاً أو اختياراً أو اتّجهاً إلا وأعضده بنصّ واحد على الأقلّ، وهذا التزاماً للموضوعيّة، وحذراً من تقويله ما لم يقل، ومجانبة للادّعاءات الجوفاء الخالية من البرهان والدليل.

سيندرج تحت هذا الفصل ثلاث مباحث مختلفة، الأوّل منها سيكون حول مكانة الحديث النبوي عند الإمام ابن باديس، ومنزلة السنة النبوية في خطابه الدعوي، أمّا المبحث الثاني فسأتناول فيه مصادر الدّرس الحديثي عند الإمام ابن باديس، بذكر أنواعها وخصائصها ودورها، وغيرها من المطالب، والأخير من هذه المباحث سيكون لطريقة الإمام ابن باديس في شرح الحديث النبوي، وأهمّ مميّزات ومظاهر هذه الطّريقة.

فمن خلال هذا العرض نجد بأنّ هذا الفصل بما يحتويه هو الفصل الجوهري والأساسي في هذه

الرسالة.

المبحث الأول : مكانة الحديث النبوي عند الإمام ابن باديس.

في هذا المبحث سأتناول قضية مهمة، وهي مكانة الحديث والسنة النبوية عند الإمام ابن باديس، والتي يمكن صياغتها في الإشكالية الفرعية الآتية: ماهي منزلة واعتبار الحديث النبوي عند الإمام ابن باديس؟، وما هو موضع السنة النبوية في الفكر الباديسي؟، هل هي من المصادر الأساسية الضرورية، ومظهر من مظاهر نبوغ الإمام ابن باديس، أم أنّ بضاعته من علم الحديث مزجاة؟. وللإجابة عن هذه الإشكاليات المشروعة، استعنت بثلاثة مطالب يكمل كلّ منها الآخر، أمّا الأول منها فسيكون في مفهوم السنة النبوية عند الإمام ابن باديس، أمّا الثاني فسيتناول علاقة السنة النبوية بالقرآن الكريم، ليختتم هذا المبحث بمطلب ثالث سيتعرّض لدور الحديث النبوي ومكانته في العمل الدعوي الإصلاحية، وذلك من الناحية النظرية العلمية من جهة، ومن الناحية التطبيقية العملية من جهة أخرى.

المطلب الأول: مفهوم السنة النبوية عند الإمام ابن باديس

لقد تعرّض الإمام ابن باديس في آثاره لكثير من المباحث الحديثية، ولم يكن هذا التعرّض سطحيًا أو عابريًا، بل كان يكتنفه التحقيق والتدقيق والاختيار أحيانًا، ما يدلّ على استحكام ملكة الحديث عنده، ووضوح المسائل لديه.

ومن أولى المسائل وأسبقها مما يمكن التطرّق إليه هو مفهوم الحديث والسنة النبوية عند الإمام ابن باديس، والذي أورده في كثير من المواضع، ويختلف في البسط والاختصار من موضع إلى آخر حسب ما تقتضيه المرحلة والموقف.

الفرع الأول / تعريف السنة النبوية:

السنة عند الإمام ابن باديس: "هي ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير"⁽¹⁾، وقد أضاف إلى هذا التعريف احترازا علمية في مواضع أخرى، ومن أهمّها عدم إغفاله لجانب الترك لما له من أثر سلبي كبير إذا أهمل ولم يُذكر، والذي لم يرد في التعريف السابق فاستدركه

(1): ابن باديس، عبد الحميد، مبادئ الأصول إملاء الإمام عبد الحميد بن باديس، تح: د/ عمار طالبي، (الجزائر: المؤسسة الوطنية

للكتاب، ط / 02، 1988م)، (ص: 27).

بقوله: "السنة هي الطريقة التي كان عليها صلى الله عليه وآله وسلم فيما يفعل ويترك"⁽¹⁾، ومن أسباب إشارته للتّرك النبوي هو إتيان البدع والمحدثات، وسير كثير من المنحرفين في هذا المسار، وذلك لخفائه على الناس، فقطع الإمام عليهم الطّريق وكشفهم بالبيان فقال: "...من السنة النبويّة يكون بالفعل دون التّرك وهذا باطل، والحقّ أنه كما يستدلّ بفعله صلى الله عليه وآله وسلم - يستدلّ بتركه، والتّقرب إلى الله بترك ما تركه كالتّقرب إليه بفعل ما فعله، ومن فعل ما تركه كمن ترك ما فعله، وكما لا يتّقرب إلى الله تعالى بترك ما فعله كذلك لا يتّقرب إليه بفعل ما تركه..."⁽²⁾، ثمّ شرع الإمام في نقل كلام علماء المالكيّة مما يؤيّد هذا المذهب، وليس من المبالغة القول بأنّه من العزيز أن نجد تقريراً مثل هذا، بهذا التّركيز والاختصار والوضوح والمتانة، فرحم الله الإمام.

1/ شرح التعريف: لم يكتف الإمام ابن باديس بإيراد التعريف فقط، بل شرّحه وبيّنه على قدر الطّاقة والحاجة، وهنا لا أقصد الطّاقة العلميّة للإمام، بل المقصود هو الطّاقة الاستيعابيّة للمستمعين، ولعلّ من تفصيلاته للتعريف إيراد القواعد والتّقييدات العلميّة، كما هو فيما يأتي:

قواعد في أفعال النبي ﷺ: وقد أوردتها بصورة متسلسلة ولولا خوف التّطويل لفكّناها، لكن سنوردها كما جاءت، وهي:

- "كل ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم على وجه القربة في العبادات والمعاملات فهو فيه أسوة حسنة للأمة، إلّا إذا قام الدليل على تخصيصه به، أي في العبادات والمعاملات.
- وكلّ فعله صلى الله عليه وسلم على وجه القربة فهو دائر بين الوجوب والاستحباب ويترجّح أحدهما بالدليل.
- وكلّ ما وازب عليه فهو أرجح مما فعله مرّة أو نحوها.
- وكلّ ما تركه من صور العبادات فليس بقربة.
- وكلّ فعله (للخلقة البشريّة) فليس في نفسه محلاً للتأسي ولكن هيئته التي أوقعه عليها هي أفضل هيئة، وهي محلّ الأسوة"⁽³⁾.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03 / ص: 101).

(2): المصدر نفسه، (مج 03 / ص: 103).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، مبادئ الأصول، (ص: 47 / 48).

قواعد في تقرير النبي ﷺ: ومن أهم هذه القواعد التي أوردها ما يأتي:

- "كل ما قيل أو فعل بين يديه أو بلغه وأقره فهو على ما أقره عليه.
- وكل ما قيل أو فعل في زمانه وكان مشتهرا شهرة يبعد أن تخفى عليه فهو مثل ما فعل بين يديه"⁽¹⁾.

2/ ملاحظات على التعريف: ونلاحظ على هذا التعريف والقواعد ما يلي:

- ورودها متسلسلة تسلسلا معرفياً يُمكن المستمع من الفهم والاستيعاب، فمثلاً: بدأ بفعل النبي ﷺ على وجه القربة لأنه هو المطلوب على الناس الاقتداء به، ثم بين بأن هذا الاقتداء يتراوح بين الوجوب والاستحباب وأن ترجيح أحدهما على الآخر يكون بالدليل، إلى غيره من الأمثلة.
- الدقة في التعبير والحذر الكبير في استعمال المصطلحات، وعدم ترك مجال للوهم أو تحميل الكلام ما لا يجب أن يحتمله، ومن أمثلته: عند كلامه على الترك، قال: وكل ما تركه من صور العبادات، فهنا عبّر عن العبادات التي لم يرقم بها النبي ﷺ بصور العبادات، فلم يستغ أن يطلق عليها لفظ العبادة المجردة ولو كان ذلك تنزلاً وتجاوزاً في اللفظ، بل أضاف ضابطاً يدل على الحكم من البداية.
- الاختصار في سؤق القواعد، وعدم ذكر ما يفهم ويُتوصل إليه دون عناء، ففي آخر قاعدة ذكرناها، قال: "وكل ما قيل أو فعل في زمانه وكان مشتهراً شهرة يبعد أن تخفى عليه فهو مثل ما فعل بين يديه"، فنفهم منه بأن ما لم يُفعل أو يقال في زمانه، أو فعل وقيل في زمانه ولم يشتهر، أو فعل وقيل واشتهر شهرة يقرب أن تخفى عليه، كل هذه القواعد لا تدخل في تقرير النبي ﷺ، ولا يمكن أن تكون مثل ما فعل بين يديه.
- إشارته في نصوص أخرى إلى مُقابل السنّة وضدّها، وتفصيل بعض ما أجمله في التعريف، وذلك حين قال: "ما فعله النبي ﷺ - صلى الله عليه وآله وسلم - من القربات ففعله سنّة، وما تركه ممّا يحسب قرابة مع وجود سببه فتركه هو السنّة وفعله قطعاً بدعة"⁽²⁾، وقد عبّر عن نفس المذهب لكن بشدّة وحزم أكبر، وذلك تقرّيعاً للمخالفين، ومواجهة للمشكّكين، وغيره على حرّمات الدّين، فقد قالها

(1): المصدر نفسه، (ص: 48).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03 / ص: 77).

مدوئية: " لا كلاً ! ما كان مقابلاً للسنة إلا البدعة، وما كانت البدعة إلا ضلالة" (1).

الفرع الثاني / حكم السنة النبوية ومجالاتها:

لقد أشار الإمام ابن باديس إلى حكم السنة النبوية والأخذ بالحديث النبوي، ثم بين مجالات العمل والأخذ بها، وذلك حتى يصحح واقعا عاشه ونعيشه اليوم، من اعتقاد أن السنة هي المستحب والمندوب فقط، هذا من حيث الحكم، أما من حيث مجالها؛ فقد أراد أن يعيدها سيرتها الأولى.

1 / حكم الأخذ بالسنة النبوية: بعد أن بين الإمام مفهوم السنة النبوية، عرج على حكمها فقال:

".. ونحن مأمورون باتّباعه في هذه الطريقة، بقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ (2) والتأسي به فيما فعل وفيما ترك يمن، ومخالفته شؤم، ولنا به أسوة حسنة" (3).

وقال في موضع آخر مبيناً حكمها: " وهي حجة في دين الله بالإجماع لقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُلٍ فَحِذُّوهُ وَمَا نَهَكُمُ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا ﴾ (الحشر: 07)، وقوله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (النساء: 59)، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ (الأحزاب: 36)، وقوله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النور: 63) الآية، وقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النور: 47) إلى قوله: ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ الْمُبِينِ ﴾ (النور: 54)، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتِ الْمُتَنَفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾ (النساء: 61)" (4).

(1): المصدر نفسه، (مج 03 / ص: 90).

(2): (سورة آل عمران: 31).

(3): المصدر نفسه، (مج 03 / ص: 101).

(4): ابن باديس، عبد الحميد، مبادئ الأصول، (ص: 27).

ونلاحظ على هذا الحكم الذي ذهب إليه الإمام ابن باديس عدّة ملاحظات، أهمّها ما يلي:

- إصرار الإمام ابن باديس على وجوب الأخذ بالسنة النبوية، واعتبار العمل بها يمناً وبركة، أمّا تركها فهو شؤم ووبال على الأمة في الدنيا والآخرة.

- استدلاله بالإجماع على حجّة السنة النبوية، ووجوب الأخذ بالحديث.

- إقامته للحجّة بإيراد الأدلّة القرآنيّة الكثيرة، هذه الآيات القرآنيّة التي كان يوردها متتابعة

دون تعليق عليها، أو فصل بينها بالشروح، ولعلّ هذا الصنيع اقتناعاً منه بوضوح هذه

الآيات في نفسها، وعدم الحاجة للتعليق عليها، وإلزاماً للمؤمن بالقرآن بما فيه من الأدلّة.

2/ مجالات السنة النبوية: لقد تكلم الإمام ابن باديس عن مجالات السنة النبوية، وتوسّع في ذلك

بأن ذهب إلى أن السنة لا بدّ من تطبيقها على " الحياة الخاصة والعامة، وهذه هي سنته التي كان عليها

وكان عليها أصحابه وأهل القرن الثاني من التابعين وأهل القرن الثالث من أتباع التابعين، تلك

القرون المشهود لها بالخيريّة على غيرها بلسان المعصوم... " (1).

نجد أنّ الإمام يحثّ على الالتزام بالسنة النبوية في كلّ مجالات الحياة الخاصّة والعامة، ويعتبر أنّ

تعميم السنة على هذه المجالات كفيّل وحده بتحقيق العديد من الأهداف، ومنها - كما في كلامه - :

- شمول السنة النبوية للحياة بجوانبها هو السبيل الذي كان عليه النبي ﷺ والصّحابة في

القرون الثلاثة الفاضلة.

- إحياء الحديث النبوي الذي ضمن الخيريّة للقرون الأولى، هو نفس الدّواء الذي يجب

الرجوع إليه إذا أرادت الأمة القيام من غفلتها، والعلاج من مرضها الذي أصابها في

عصورها المتقدّمة، وبخاصة الأمة الجزائرية التي هجرت السنة لوهلة من الزمن.

الدليل على هجر السنة والحديث، ما ذكره الإمام عن السنة، حين قال: " فهجرناها... حتى إنّّه ليقلّ

في المتصدّرين للتدريس من كبار العلماء في أكبر المعاهد من يكون قد ختم كتب الحديث المشهورة

كالموطأ والبخاري ومسلم ونحوه مطالعة، فضلاً عن غيرها من كتب السنة " (2).

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 01/ ص: 404).

(2): المصدر نفسه، (مج 01/ ص: 409).

ومن مجالات إعمالها والأخذ بها عند الإمام ابن باديس، ولعلّه أهمّها، هو: اعتبار السنة النبويّة مصدرًا من مصادر التشريع، وقد أشار إلى هذا الأصل بعدّة طرق وصيغ لعلّ أهمّ ما اطلّعت عليه ما يلي:

1/ قال الإمام ابن باديس: "الكتاب والسنة وهما مصدر التشريع"⁽¹⁾، وهنا لا ندري إن كان الإمام قد غفل، فعوض أن يقول: (مصدرًا) بالتثنية قال: (مصدر) بالإنفراد، وهذا بعيد عن رجل استحكمت مصطلحات العلم في لسانه، أم أنّ الإمام يعتبرهما مصدرًا متّحداً وواحداً، وجمع بينهما عن عمد؟.

2/ قوله في موضع آخر: "...الشرع - قرآناً وسنة - لم يخرج عن هذا..."⁽²⁾، فرغم أنّ الإمام ابن باديس في هذا النص لم يكن يقرّر ويفصّل في مصادر التشريع، أو يتحدّث عن أصول الشرع، بل كان يتناول معنى لفظ الصّالح عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: 105)، فرغم هذا نجده يذكر بين عارضتين بأنّ الشرع هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وكما استحضر هذين الأصلين عند تعرّضه للشرع، فكذلك على كلّ من أراد أن يستجلي مسألة من مسائل الشرع أن يرجع إليهما معاً، ولا يحقّ لأحد أن يهدر أحدهما.

المطلب الثاني: علاقة السنة النبويّة بالقرآن الكريم.

لقد تعرّض الإمام ابن باديس في كتاباته إلى العلاقة بين الحديث النبوي والقرآن الكريم، وذلك بأن بيّن أوجه الاتفاق والافتراق بينهما، وخصوصيّات كل منهما، وفي هذا المطلب سأعرّض لأوجه الاجتماع بين القرآن والسنة، ثم أذكر بعض ما تختصّ به السنة عن القرآن حسب الإمام ابن باديس.

الفرع الأوّل / مجالات اجتماع السنة النبويّة بالقرآن الكريم:

يرى الإمام ابن باديس أنّ السنة النبويّة تجتمع مع القرآن الكريم في عدّة قضايا، منها:

1/ القرآن والسنة هما الشرع: فهو يرى بأنّ الشريعة تؤخذ وتستنبط وتعرف بأدلة الكتاب والسنة، ولا اجتهاد في الشرع، ولا استدلال على مسأله إلاّ بالرجوع إليهما، ولهذا كان الإمام ابن باديس

(1): المصدر نفسه، (مج 01 / ص: 249).

(2): المصدر نفسه، (مج 01 / ص: 351).

"يرجع في الأحكام الشرعية إلى الكتاب والسنة، ويهدر ما سواهما"⁽¹⁾، وقد صرح الإمام بوجوب الرجوع إلى هذين الأصلين، "وكل دليل من أدلة الشريعة فإنه يرجع إلى هذين الأصلين ولا يقبل إلا إذا قبله ودلا عليه، وكل شيء ينسب للإسلام، ولا أصل له فيهما فهو مردود على قائله"⁽²⁾، وبهذا امتثل الإمام قولاً وعملاً لما ذهب إليه وقرّره.

2/ القرآن والسنة وحي: فالإمام عندما تحدّث عن الوحي ومظاهره، ذهب إلى أن "الوحي هو القرآن العظيم وسنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم - الذي أرسل ليبيّن للناس ما نزل إليهم"⁽³⁾، ثم زاد لهذا الوحي وصفاً زائداً يدلّ على وجوب العمل به بمظهره، وذلك عندما قال: "الوحي الصادق من الكتاب والسنة"⁽⁴⁾.

وزاد في البيان والتخصيص، حين ذهب إلى وجوب الرجوع "إلى السنة النبوية، وهي وحي أيضاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾"⁽⁵⁾، فلم يترك مجالاً للتأويل.

3/ تطابق الآيات القرآنية والأحاديث النبوية: وهذه من أهم القضايا في المسألة، وقد استدلل الإمام على هذا وجزم به، وذلك بعد أن خبر نصوص الكتاب والسنة، فنفي عنهما التضارب والتعارض، فـ"السنة النبوية والقرآن لا يتعارضان... (و) فقه القرآن يتوقف على فقه حياة النبي صلى الله عليه وسلم -، وسنته وفقه حياته صلى الله عليه وسلم - يتوقف على فقه القرآن، وفقه الإسلام يتوقف على فقههما"⁽⁶⁾، وبعد أن نفى الإمام التعارض؛ أثبت نقيضه وهو التطابق والارتباط: أمّا التطابق؛ فقد قال رحمه الله: "فقد تطابقت الآيات والأحاديث... وقد صدق الله وعده لعباده الصالحين، وصدق نبيه صلى الله عليه وسلم -..."⁽⁷⁾.

(1): ذ/ حمزة بوكوشة، من أقطاب السلفية في المغرب العربي، عبد الحميد ابن باديس في العصر الحديث، الحركة السلفية في المغرب العربي، (ص: 167).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 02 / ص: 68).

(3): المصدر نفسه، (مج 01 / ص: 280).

(4): المصدر نفسه، (مج 01 / ص: 305).

(5): المصدر نفسه، (مج 02 / ص: 68). (سورة النجم: 03-04).

(6): المصدر نفسه، (مج 01 / ص: 168).

(7): المصدر نفسه، (مج 01 / ص: 354).

أمّا الارتباط؛ فقد ظهر في كثير من مواضع جمعه بين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وقد أشار إلى هذا الارتباط والتوافق باللفظ والتصريح مرّة، وبالإشارة والمعنى مرّة أخرى، فمثال الأوّل قوله عند تفسيره لآية قرآنية بحديث نبويّ وجمعه بينهما: "فارتبط الحديث بالآية"⁽¹⁾.

أمّا مثال الثاني؛ فهو قوله: "أفادت الآية الكريمة والحديث الشريف..."⁽²⁾، فقد استعمل هذه الصيغة في دروسه، تنبيهاً منه على تلازمهما وترابطهما، وإفادتهما لنفس القضايا والأهداف.

4/ الكتاب والسنة هما فقه الإسلام: لقد جزم الإمام ابن باديس بأنّ الفقه الحقيقي والصحيح للإسلام؛ لا يكون إلّا بالرجوع إلى منابعه الصّافية "ولا والله ما فقه الإسلام من لم يفقه الكتاب والسنة، وما كان فقه الصّحابة والتّابعين وأئمّة الدّين إلّا بالفقه فيهما"⁽³⁾، وذلك تنبيهاً منه لمن جعل الفقه في كلام المتأخّرين ممن خلت كتبهم من الأدلّة والبراهين.

5/ الموعظة الحسنة في الكتاب والسنة: يرى الإمام ابن باديس بأنّ الموعظة الحسنة التي ترقّق القلوب، وتحثّ على فعل الخير النّافع في الدّنيا والآخرة، وتحمل المستمع على الخشوع والخضوع "كل هذا تجده في مواعظ القرآن وفيما صحّ من مواعظ النبي -صلى الله عليه وسلم-"⁽⁴⁾، وليس بالمواعظ المبتكرة، ولا بالقصص الواهية، ولا بسرد الكرامات وخوارق العادات مما لم يرقم دليل على صحّته وحدوثه.

كما أنّ التذكير النّافع والمطلوب هو التذكير "بآيات القرآن والأحاديث النبوية، هذا هو التذكير المشروع المتبوع والدّواء النّاجع المجرب، ولذلك تجد مواعظ السلف كلّها مبنية عليه راجعة إليه، والنّصح لله ولرسوله وللمسلمين في لزوم ذلك والسّير عليه"⁽⁵⁾، وفي هذا حثّ للخطباء والوعّاظ بلزوم الرجوع إلى التذكير القرآني والنبوي، والتمسك بهما وعدم استبدالهما بالذي هو أدنى.

6/ الحكمة هي القرآن الكريم والحديث النبوي: قال الإمام ابن باديس: "فآيات القرآن وأحاديثه

(1): المصدر نفسه، (مج 01/ ص: 343).

(2): المصدر نفسه، (مج 01/ ص: 345).

(3): المصدر نفسه، (مج 04/ ص: 80).

(4): المصدر نفسه، (مج 01/ ص: 188).

(5): المصدر نفسه، (مج 01/ ص: 489).

صلى الله عليه وسلم... هما الحكمة التي كان يدعو إلى سبيل ربّه بها.. وهي التي كان يعلمها.. فصلّى الله عليه وآله وسلم من داع إلى الحكمة بالحكمة ومعلم الحكمة بالحكمة"⁽¹⁾، فلا حكمة تعلوا حكمة الكتاب والسنة، وأما ما يتفوه به المنجمون، ويخبر به المخرفون من أدعياء الحكمة والسرّ، فليس سوى خرافات وخزعبلات يلبّس بها على الدّهاء، ويسحر بها العوام من الناس.

7 / الكتاب والسنة هما الإسلام الخالص: فقد رأى الإمام ابن باديس بأنّ الكتاب والسنة هما الحقّ الذي يجب الدّعوة إليه، والنّجاة التي يجب ربط الناس بها، وأنّه واجب "علينا أن نقوم بالدّعوة العامة إلى الإسلام الخالص والعلم الصحيح، إلى الكتاب والسنة وهدى صالح سلف الأمة، وطرح البدع والضّلالات ومفاسد العادات... وفتحوا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم - أعينا عميا واذنا صمّا وقلوبا غلّفا"⁽²⁾.

8 / الكتاب والسنة زاد المجتهد: إنّ الذي يستحقّ وصف الاجتهاد، ويتأهل للنّظر في مسائل الشّرع عند الإمام ابن باديس، ويمكن أن يدرج في أهل العلم والفتوى هو "المتبحّر في علوم الكتاب والسنة ذو الإدراك الواسع لمقاصد الشريعة"⁽³⁾، فلا يكون الاجتهاد بالوراثه، أو بالعهد من شيخ الطريقة، أو بعلوم مجرّدة عن الوحيين.

9 / الكتاب والسنة هما الإسلام: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (سورة آل عمران: 19)، والإسلام الذي يدين به العبد لربّه عند الإمام ابن باديس؛ هو "ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم - والقرآن العظيم هو دين الإسلام، فكل ما دلّ الله عليه الخلق بهما وما وفق إليه من العلم والعمل باتباعهما فهو الإسلام"⁽⁴⁾، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: 85).

10 / الكتاب والسنة هما المرجعية: لقد أجاب الإمام ابن باديس عن مسألة المرجعية التي يجب أن تتمسك بها الأمة، بعيدا عن التقليد والتّعصب والجهوية المقيّنة، فقال رحمه الله: "الرجوع إلى كتاب

(1): المصدر نفسه، (مج 01 / ص: 184).

(2): المصدر نفسه، (مج 03 / ص: 28).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، مبادئ الأصول، (ص: 51).

(4): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 01 / ص: 172).

الله وسنة رسول الله لازم دائم... فالعبد المحتاج دائما إلى الرجوع إلى كتاب الله وما ثبت من سنة نبيه صلى الله عليه وسلم - ليهتدي إلى ما يرضي الله مما شرعه له من أحواله وأفعاله، وإلى ما يدفع عنه شبهاته وينقذه من شهواته⁽¹⁾، فهذا هو الإمام يصف البلسم والدواء للأمة حتى بعد وفاته.

11 / الكتاب والسنة مصدر علوم الغيب: لقد حصر الإمام ابن باديس معرفة الأمور الغيبية في صحيح الخبر فقط، وذلك قطعاً للطريق على من امتهنوا ادعاء علم الغيب، أو من حدّثه قلبه عن ربّه، من المشعوذين والدجالين الذين راجت تجارتهم بين الجهّال والمغفلين من عمّة الأمّة، وجعل هذا الأمر من الاعتقاد الذي يجب الجزم به، فقال "اعتقاد أنّ العبد لا يعلم الغيب، وهو ما غاب عن الحواس، ولا يوصل إليه بصحيح النظر، فلا يعلم منه إلّا ما جاء في صحيح الخبر"⁽²⁾.

الفرع الثاني / مجالات خصوصية السنة النبوية:

تعرّضنا فيما سبق - باختصار - لبعض مجالات اجتماع السنة النبوية مع القرآن الكريم، وذكرهما كأنهما أمر واحد، وفي هذا العنصر سنورد بعض مجالات تفرّد السنة النبوية عن القرآن الكريم، وتميّزها عنه: 1 / تميّز السنة النبوية من ناحية الثبوت: "تختص السنة عن الكتاب بقواعد تتعلق بها من ناحية ثبوتها، لأنها من هذه الناحية ليست على درجة واحدة، بخلاف القرآن فكلّه متواتر"⁽³⁾، أي أنّ القرآن الكريم ثابت من طريق واحد هو طريق التواتر، أمّا السنة فتأتي من عدّة طرق بعضها مقبول والآخر مردود، ففيها المتواتر، والآحاد، والحسن، والضعيف، والموضوع... إلى غيره من الأنواع.

2 / بيان السنة النبوية للقرآن الكريم: لعلّ هذه الجزئية من المسائل التي تستحقّ أن نتوقّف عندها ونفصّل فيها قليلاً، وذلك من خلال ما أمكننا الاطلاع عليه من تراث الإمام ابن باديس. لعلّ من أهمّ مظاهر تبين السنة النبوية للقرآن الكريم، هو الرجوع إليها في تفسير القرآن وتجلية معانيه، واستنباط لآليه، "ولقد كان العلامة ابن باديس كثير الاحتفاء بهذا المصدر من مصادر التفسير، كثير الاعتناء به"⁽⁴⁾، والمسارة إليه والاحتفاء به.

(1): المصدر نفسه، (مج 01 / ص: 173).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، إملاء العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، (ص: 80).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، مبادئ الأصول، (ص: 48).

(4): د: محمد الدراجي، الشيخ عبد الحميد ابن باديس السلفية والتجديد، (الجزائر - عين مليلة: دار الهدى، د/ ط، 2012م)، (ص: 54).

- كما كان يستحسن كثيرا التفسير النبوي للآيات القرآنية، فعندما يفسر الآية ثم يأتي بحديث يخدم المعنى فإنه يقول: "ما أحسن التفسير تعضده الأحاديث الصّحاح"⁽¹⁾، فهذا هو التفسير المطلوب والمرغوب عند الإمام ابن باديس، كما أضاف قيّداً مهمّاً هنا، وهو أن يكون هذا الحديث الذي يعضد الآية من الصحيح الذي يعول عليه، لأنّ الضعيف لم يحتمل نفسه فكيف له بأن يعضد غيره.
- اعتبر الإمام ابن باديس عدم اللجوء إلى الحديث في تفسير القرآن؛ من الغفلة وإيثار الاحتمال على اليقين، وقال بكلّ حسرة: "ويا لله من الجري وراء الاحتمالات، والغفلة عن التفسير النبوي الصحيح الثابت المأثور"⁽²⁾، ومن حرص الإمام نجده يستعمل عديد المصطلحات التي تنبّه على وجوب الأخذ بالحديث (الصحيح) (الثابت) (المأثور) فقط.
- لقد فصل الإمام ابن باديس ما أجمله من المقصود بالسنة التي تفسر القرآن الكريم، فقال: "السنة القولية والفعليّة الصحيحة تفسير وبيان للقرآن"⁽³⁾، فبهذا نجد بأنّ السنة بجميع أنواعها تفسّر القرآن الكريم إن صحّت.
- جعل الإمام ابن باديس بيان السنة للقرآن من لوازم الإيمان بكتاب الله تعالى، الذي هو ركن من أركان الإيمان، فقال: "ومن الإيمان بكتاب الله: أن تؤمن بأنّ كلّ ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلّم فهو حق من عند الله، وبيان لكتاب الله، وإن أخذ به أخذ بالقرآن، وأن الترك له ترك للقرآن، لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر: 07)"⁽⁴⁾.
- كما استدللّ الإمام ابن باديس على كون السنة بيانا للقرآن بآيات بيّنات فقال: "وتجيء السنة لبيان الكتاب لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل: 44)،

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 01 / ص: 426).

(2): المصدر نفسه، (مج 04 / ص: 383)، و(مج 01 / ص: 379).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، إملأ العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، تعليق وتحقيق: محمد الحسن فضلاء،

(الجزائر-قسنطينة: دار البعث، ط / 01، 1406 هـ-1985 م)، (ص: 17).

(4): المصدر نفسه، (ص: 95).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ (النحل: 64) ⁽¹⁾.

بعد كل هذه النصوص تيقننا بأن السنة النبوية تأتي لبيان القرآن الكريم، وتجليه معانيه، وتفسير آيه، وقد جزم شيخنا الدكتور محمد الدراجي -الخبير بتراث الإمام ابن باديس- بأن "الشيخ ابن باديس رحمه الله كان من العلماء الذين يرون بأن السنة كلها شرح وبيان للقرآن الكريم" ⁽²⁾، والحقيقة أن هذا الحصر للسنة في كونها فقط بيان وشرح للقرآن الكريم فيه نظر، والفاصل هو نصوص الإمام ابن باديس الذي وجدنا له تفصيلاً آخر، وهو قوله عن السنة النبوية: "وتستقل بالتشريع لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر: 07)، وقد روى الشيخان ⁽³⁾ أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (لعن الله الواشحات والمستوشحات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله)، قال: فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب، وكانت تقرأ القرآن، فأتته فقالت: ما حديث بلغني عنك أنك لعنت الواشحات؟ فقال عبد الله: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي في كتاب الله، فقالت المرأة: لقد قرأت ما بين لوعي المصحف فما وجدته، فقال لها: إن كنت قرأته لقد وجدته، فقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ الآية، فقالت: إني أرى شيئاً من هذا على امرأتك الآن، فقال: اذهبي فانظري، قال: فدخلت على امرأة عبد الله فلم تر شيئاً، فجاءت إليه فقالت: ما رأيت شيئاً، فقال: أما لو كان

(1): ابن باديس، عبد الحميد، مبادئ الأصول، (ص: 28).

(2): د/ محمد الدراجي، الشيخ عبد الحميد ابن باديس السلفية والتجديد، (ص: 138).

(3): متفق عليه: أخرجه البخاري في: كتاب تفسير القرآن: باب ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ (4886/4887)، (مج 03/ص: 305)، وفي كتاب اللباس: باب المتفلجات للحسن (5931)، (مج 04/ص: 78)، وفي باب المتنمصات (5939)، (مج 04/ص: 79)، وفي باب الموصولة (5943)، وفي باب الواشمة (5944)، وفي باب المستوشمة (5948)، (مج 04/ص: 80). البخاري، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تحقيق: محب الدين الخطيب، (مصر-القاهرة: المكتبة السلفية، ط/ 01، 1400 هـ).

وأخرجه مسلم في: كتاب اللباس والزينة: باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة، والواشمة والمستوشمة، والنامصة والمتنمصة، والمتفلجات، والمغيرات خلق الله، في (2125/120)، (ص: 880). مسلم، أبي الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، (السعودية-الرياض: بيت الأفكار الدولية، د/ ط، 1419 هـ-1998 م).

ذلك لم أجامعها"⁽¹⁾.

فمن هذا النص نجد بأن الإمام ابن باديس يذهب إلى أن السنة النبوية يمكن أن تستقل بالتشريع عن القرآن، ولم تأت للبيان فقط، وقد استدلل على ما ذهب إليه من القرآن والسنة الصحيحة المتفق عليها، فيمكن حمل النصوص الأولى التي تشير إلى تبيين السنة للقرآن على أنها قد ذكرت من باب الغالب الأعم، أما ما ذكره من استقلال السنة بالتشريع فقد جاء في معرض التفصيل والبيان لمجالات السنة النبوية وعلاقتها بالقرآن.

3 / تخصيص السنة النبوية للقرآن الكريم⁽²⁾: بعد أن تناول الإمام ابن باديس قضية التخصيص في الكتاب والسنة، تناول تخصيص الكتاب للكتاب، وتخصيص الكتاب للسنة، وتخصيص السنة للسنة، ثم تعرض لتخصيص السنة للقرآن الكريم، وهو الذي يهتأ هنا؛ كون الأنواع الأولى واضحة جلية، وساق مثالا لهذا النوع الأخير، وهو تخصيص " قوله تعالى ﴿يُؤْصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَزْوَاجِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾⁽³⁾ الآية، بقوله عليه السلام: (لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم)⁽⁴⁾ تخصيصا للكتاب بالسنة⁽⁵⁾، فعموم الآية يفيد أن الأبناء يرثون من الآباء مطلقا، لكن الحديث خصص العام الوارد في الآية باعتبار اختلاف الدين في الميراث، فلا يرث المسلم من

(1): ابن باديس، عبد الحميد، مبادئ الأصول، (ص: 28).

(2): أنظر: الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: أبي الفضل الديماطي، (مصر - القاهرة: دار الحديث، د/ ط، 1427هـ - 2006م)، (ص: 340). والسيوطي، أبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر، الإتيان في علوم القرآن، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، (السعودية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، د/ ط، 1426هـ)، (مج 04/ ص: 1412 / 1419)، والتجوير في علم التفسير، تحقيق ودراسة: زهير عثمان علي نور، رسالة لنيل درجة الماجستير في الكتاب والسنة، (السعودية - مكة: جامعة أم القرى، د/ ط، 1404هـ - 1983م)، (ص: 314).

(3): (سورة النساء: 11).

(4): متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب المغازي: باب أين ركز النبي صلى الله عليه وسلم الرؤية يوم الفتح؟ (4283)، (مج 03/ ص: 149)، وفي كتاب الفرائض: باب لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم، وإذا أسلم المسلم أن يقسم الميراث فلا ميراث له (6764)، (مج 04/ ص: 243). وقد ورد في الموضعين عند البخاري بلفظ: "المؤمن".

وأخرجه مسلم في: كتاب الفرائض، (1614)، (ص: 658). أما عند مسلم فقد ورد بلفظ: "المسلم"، فيكون الإمام ابن باديس قد قدم هنا لفظ مسلم على البخاري، إن صحَّ النقل إليه في الإملاء.

(5): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (ص: 42).

الكافر، ولا الكافر من المسلم.

4 / نسخ السنة النبوية للقرآن الكريم⁽¹⁾: تعرّض الإمام ابن باديس لموضوع النسخ في القرآن والسنة، فأشار لأنواعه وصوره، ولعلّ النوع الذي يهّنا في هذا المطلب هو موقف الإمام من نسخ السنة النبوية للقرآن الكريم، وقد اختار نسخ الكتاب بالسنة كآية الوصية للوالدين والأقربين بحديث (لا وصية لوارث)⁽²⁾، الآية المقصودة هنا هي قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: 180)، والملاحظ هنا؛ أنّ الإمام اختار نسخ السنة للقرآن، ولم يفصل بين كون السنة النسخة متواترة أم آحاداً، فلعله على العموم وعدم التفريق، في اعتبار السنة النسخة يكفي أن تكون مما صحّ عن النبي ﷺ ثبوتها، وقد عزا الدكتور عمّار طالبي هذا الحديث إلى البخاري، ولا شك أنّ هذا خطأ مطبعي، أو سهو بشري.

5 / معارضة مفهوم القرآن الكريم⁽⁴⁾ لصحيح الحديث النبوي: ذهب الإمام ابن باديس إلى عدم الاحتجاج بمفهوم القرآن الكريم الذي خرج مخرج الغالب، "إذا عارضه نص، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾⁽⁵⁾ فقد ثبت في السنة القولية والفعلية قصر الصلاة مع عدم الخوف"⁽⁶⁾، فيقدّم ما ثبت في الحديث النبوي.

(1): أنظر: الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، المصدر السابق، (ص: 347). والسيوطي، أبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن

ابن أبي بكر، الإتيان في علوم القرآن، (مج 04 / ص: 1435)، والتجوير في علم التفسير، (ص: 325).

(2): أخرجه أبو داود في سننه (3/ 196) كتاب الوصايا، باب ما جاء في الوصية للوارث، (2870)، والترمذي في سننه (4/ 433)

كتاب الوصايا، باب ما جاء لا وصية لوارث، (2120) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه في سننه (295) كتاب

الوصايا، باب لا وصية لوارث، (2713)، والطبراني في المعجم الكبير (8/ 159-160)، (7615)، كلهم من حديث أبي

أمامة، وصححه الألباني في إرواء الغليل (6/ 87).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (ص: 47).

(4): أنظر: السيوطي، أبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر، الإتيان في علوم القرآن، (مج 04 / ص: 1489)، والتجوير في

علم التفسير، (ص: 320).

(5): (سورة النساء: 101).

(6): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (ص: 36).

المطلب الثالث: دور الحديث النبوي في العمل الإصلاحي.

لقد تعرّض الإمام ابن باديس لدور الحديث والسنة النبوية في الإصلاح، كما أشار إلى الكثير من الميادين والمجالات التي يجب أن تُفَعَّل فيها السنّة، ووصف الحديث النبوي كدواء شاف لكثير من الأزمات التي عصفت بالأمة الإسلامية عموماً، والجزائرية خصوصاً، وسيكون تناول هذا المطلب من ناحيتين؛ وهما: دور الحديث في الإصلاح على مستوى الأفراد والجماعات، ثمّ دوره ومكانته من البرامج الإصلاحية، أو من الناحية الأدبية العلمية، ومن الناحية التربوية العملية.

الفرع الأوّل / دور الحديث النبوي في الإصلاح:

للحديث النبوي -من خلال الإمام ابن باديس- دور مهمّ في إصلاح وعلاج الآفات، وذلك من خلال عدّة تطبيقات؛ أهمّها:

1 / مخالفة السنّة النبوية بلاء: لقد أشار الإمام إلى أنّ "مخالفة السنّة النبوية والهدي المحمدي وما كان عليه رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-... تلك المخالفة هي سبب كل بلاء لحق المسلمين حتى اليوم"⁽¹⁾، وبمفهوم المخالفة؛ نجد بأن موافقة السنّة والهدي المحمدي هي سبب كلّ هناء لحق بالمسلمين في أطوار تاريخهم.

2 / السنّة النبوية دواء عاصم: فالسنّة دواء للأمراض والآفات العلمية والعملية، وعاصمة من أسباب الافتراق والاختلاف، قال الإمام: "فأخذت صيحات الإصلاح... تدعوا الناس إلى معالجة أدوائهم بقطع سببها واجتثاث أصلها، وما ذلك إلا بالرجوع إلى ما كان عليه محمد -عليه الصلاة والسلام-"⁽²⁾، وقال في نص آخر أوضح وأفصح، بيّن فيه المانع من الافتراق والتدابير المنافية لوحدة الصفّ، والمعارضين لاجتماع الكلمة التي لا بد منها لمواجهة الملّات والأزمات: "الدواء الذي يقلل من الاختلاف ويعصم من الافتراق، وهو تحكيم الصريح من كتاب الله والصحيح من سنّة رسوله -صلى الله عليه وآله وسلم-"⁽³⁾.

3 / السنّة النبوية نور ونجاة: فهي نور للمستضيئين، ولمن أراد السير على نور من ربّه، ونجاة لمن

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 01/ ص: 374).

(2): المصدر نفسه، (مج 01/ ص: 376).

(3): المصدر نفسه، (مج 04/ ص: 311).

تمسك بها فلا يضل ولا يشقى، قال الإمام عن كونها نورا: "ففرعنا إلى الله... فاستغثنا واستجرتنا واستخرنا... فهدانا -وله المنّة- إلى النور الوهاج الأتم، والمنهاج الواضح الأقوم، هداًنا إلى سنة سيدنا الأكرم، وقدوتنا الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم"⁽¹⁾.

وقال أيضا بحثُ المخالفين والمعرضين ممن سلكوا طرق الغواية والهلكة، ممن قدسوا آراءهم، وقدّموا أهواءهم: "يا أيها المعرضون عن كتاب الله وسنة رسوله ارجعوا إلى دينكم من الكتاب والسنة، فإنه لا نجاة إلا بهما، ولا خير إلا فيهما، واجعلوهما حجة على غيرهما، ولا تجعلوا غيرهما حجة عليهما"⁽²⁾، ولا يخفى على ناظرٍ ما في هذا النداء الباديسي من الصواب، حتى إنه أقرب إلى الحكمة منه إلى الكلام المرسل.

4 / السنة النبوية شعار المصلحين: لقد جعل الإمام ابن باديس السنة النبوية مع القرآن الكريم شعاراً، يردّده ويجعله نصب عينيه في سيره على درب الإصلاح والبناء العلمي، فقد قال: "القرآن أماننا، والسنة سبيلنا... فلنسر موحدين متحدين على هذا الصراط المستقيم لخير الجميع، والله مع العاملين المخلصين، والحمد لله رب العالمين"⁽³⁾، ونلاحظ في هذا الشعار؛ روح الثقة واليقين في وعد الله تعالى، كما نجد فيه الإشارة إلى الوحدة المشروطة بالتوحيد، فلم يكن الإمام يسعى للتوحد المادي فقط، بل كان يسعى للتوحد المادي المسبوق بتوحيد علمي.

5 / السنة النبوية زاد الدعاة الربانيين: إذا كانت السنة النبوية نورا، فإن صاحبها المعتمي بها سيعلوه من نورها ما يميزه عن غيره من دعاة الباطل وأعدائه، وقد اعتبرها الإمام ابن باديس فيصلاً وفارقاً بين دعاة الحق وأدعياء الباطل، فقال: "عندما يختلف عليك الدعاة الذين يدّعي كل منهم أنه يدعوك إلى الله تعالى؛ فانظر من يدعوك بالقرآن إلى القرآن -ومثله ما صحّ من السنة لأنها تفسيره وبيانها- فاتّبعه لأنه هو المتّبع للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في دعوته وجهاده..."⁽⁴⁾.

وقد اتّبع الإمام في هذا الجانب شكلاً تصاعدياً، حيث ذهب إلى عدم الثقة فيمن لا يعرف له اعتناء

(1): المصدر نفسه، (مج 03/ص: 24).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05/ص: 327).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03/ص: 61).

(4): المصدر نفسه، (مج 01/ص: 429).

بالسنة النبوية، ولا يمكن اعتباره من أهل العلم والدراية، وذلك لأننا " نعرف عقلية الرجل من معرفتنا بالكتب التي يطالعها، فمن لا نرى له عناية بكتب السنة فإننا لا نثق بعلمه في الدين"⁽¹⁾، وقد قال الإمام ابن باديس هذا الكلام لما قام بجولة ميدانية إلى مدينة مليانة الجزائرية، والتقى بمفتي المدينة الذي درس بالأزهر، والذي وجده يطالع كتاب شرح تجريد أحاديث البخاري.

ثم جعل الدعوة إلى السنة النبوية الصحيحة هو الفارق والبيّنة بين دعاة الله تعالى، ودعاة الشيطان، " فمن دعا إلى ما دعا إليه النبي صلى الله عليه وسلم - فهم من دعاة الله، يدعو إلى الحق والهدى، ومن دعا إلى ما لم يدع إليه محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو من دعاة الشيطان، يدعو إلى الباطل والضلال"⁽²⁾، ولا شك أنّ الإمام بهذه الصيحات أراد أن ينبّه العوام على وجوب الحذر وعدم الأخذ عن كل من ادّعى الإمامة في الدين، كما أعطاهم الضابط الذي به سيفرقون بين دعاة الحق والفلاح، وبين دعاة الضلال والغيّ.

6 / السنة النبوية حجة وبرهان: يرى الإمام بأن السنة النبوية الصحيحة هي الدليل على صحة ما يدّعيه المدّعون، وهي التي تثبت أو تنفي ما يذهب ويتّجه إليه المتكلّمون في دين الله تعالى، " لأنّ مشروعية الشيء لا تثبت إلا بدليل صحيح صريح"⁽³⁾، ولهذا فإنّ الإمام قد ردّ الكثير من الدّعاوي الباطلة، وكرّر على الكثير من الادّعاءات التي ألصقت بالدين بغير ما حجة، وذلك لأنّ أصحابها " لم يقيموا عليها من نصّ صحيح صريح من سنة أو كتاب"⁽⁴⁾.

ولهذا حثّ الإمام العلماء والخطباء والمتصدّرين للتدريس والفتوى؛ حتّم على ذكر الدليل من الكتاب والسنة للنّاس، وعدم الاكتفاء بالأقوال والآراء والاجتهادات، وذلك ردّاً للنّاس إلى المنبع الصّافي الذي منه نهل السّابقون، وكذلك ربطاً للأمة بالوحيين عوض تقدّيس الرّجال والأشخاص، ويبيّن لنا الإمام ابن باديس باقي الحكم من ذكر الدليل في قوله: "ومما ينبغي لأهل العلم أيضاً -إذا أفتوا أو أرشدوا- أن يذكروا أدلة القرآن والسنة لفتاويهم ومواعظهم ليقربوا المسلمين إلى أصل

(1): المصدر نفسه، (مج 04 / ص: 309).

(2): المصدر نفسه، (مج 01 / ص: 182).

(3): المصدر نفسه، (مج 01 / ص: 464).

(4): المصدر نفسه، (مج 01 / ص: 147).

دينهم، ويذيقوهم حلاوته، ويعرفوهم منزلته، ويجعلوه منهم دائماً على ذكر، وينيلوهم العلم والحكمة من قريب، ويكون لفتاواهم ومواعظهم رسوخ في القلوب وأثر في النفوس، فيلى القرآن والسنة -أيها العلماء- إن كنتم للخير تريدون"⁽¹⁾.

وفي هذا النص ذكر الإمام عديد الحكم والفوائد من ذكر الدليل عند الإفتاء والإرشاد؛ ومنها:

- تقريب المسلمين من أصلي الدين وأساسيه، ونزع الحجب والحواجز التي تحول بين المسلم وأدلة القرآن والسنة.

- ذوق حلاوة الوحيين، فلا يخفى ما في القرآن والسنة من الحكمة، والبيانات والموعظة الحسنة، وما لهما من الوقع في نفس المستمع لهما، مما لا يوجد في أي كلام آخر.

- تعريف الناس بمنزلة الكتاب والسنة ومكانتهما، وإعادة القداسة المسلوبة منهما، كيف لا؟ وقد صار لكلام بعض الناس من الاعتبار عند العامة ما ليس لكلام الله والحديث النبوي.

- تقريب العلم والحكمة للناس، والتأثير في النفوس، وترسيخ العلم والمواعظ في قلوب المستمعين والمتلقين.

7/ الحذر والتّحذير من نسبة الأحاديث لصاحب الشريعة: وذلك بكون الدليل الحديثي المذكور

لابد من تمحيصه وتدقيقه والنظر في درجته، وتحري موضعه من كتب السنة، والحذر من نسبة حديث إلى مصنف من مصنفات الحديث دون التأكد من ذلك، ومن فعل العكس وظهر شططه؛ حرّم على المدققين إقراره ومجاملته، لأنّ صيانة جناب الحديث النبوي مقدّمة على كل جناب.

وقد وقع مثل هذا للإمام ابن باديس، بأن نسب أحدهم حديثاً إلى الصحيحين وهما منه براء، فكان ردّه الصّارم كالآتي: "والأمر المهم أكثر من هذا كله الذي يجب عليّ أن أنبّهك عليه ويحرم عليّ إقرارك عليه، هو كذبك وافترائك -والله يغفر لك إن تبت- في الحديث الشريف... وهذا المتن لا وجود له في البخاري ولا في مسلم البتّة، فبأيّ شيء نسمي صنعك هذا وجرأتك عليه ومن كان قدوتك فيه... ترتكب هذا الافتراء على السنة أهكذا كتّاب السنة يكونون؟ أهذا هو القدر الذي عندك من السنة التي أضفت نفسك إليها؟، هداك الله أيها الأخ وعرفك قدرك، ورزقك احترام السنة التي

(1): المصدر نفسه، (مج 01/ ص: 172).

ألصقت نفسك بها..."⁽¹⁾، كما أوصى الإمام طلاب علوم الشريعة بوجوب التحري في النقل والعزو من كتب الحديث النبوي فقال: "فعليك إذا نقلت أن تبين الكتاب وتعين المحل المنقول منه ليكون لقولك قيمة في مقام البحث والنظر"⁽²⁾.

وهذه من أشد المسائل التي أتت على الحديث، ولهذا لم يدخر الإمام جهدا في التحذير من هذا المنحى، والتشجيع على سالكيه، بالرفق والإرشاد تارة، وبالإنكار والتقريع تارة أخرى، خاصة في الوعظ والإرشاد، فقد انتقد الخطب والدروس التي كانت "كثيرا ما تختتم بالأحاديث المنكرات، أو الموضوعات، هذه حالة بدعية في شعيرة من أعظم الشعائر الإسلامية"⁽³⁾، ويقصد هنا خطبتي الجمعة، كما أعاب عليهم وهم المتصدرون للتدريس والتوجيه؛ أن يتفوهوا بأحاديث "تلقفوها من كل كتاب وتلقوها من كل هوبعة عن زوبعة، ونشروها في أتباعهم الجاهلين، وسدلوا بها حجابا بينهم وبين ما رواه الثقات الأثبات من أئمة الدين"⁽⁴⁾.

8 / اتباع السنة النبوية وملازماتها: يرى الإمام ابن باديس وجوب اتباع السنة النبوية، ودعوة الناس إليها، والإعراض عن المعاندين والمكابرين، والصبر على ما يصدر منهم من الأذى والاستهزاء، ويمكن أن نشير إلى كل هذه المعاني - باختصار - كالآتي:

* **وجوب الأخذ بالسنة النبوية**: والمقصود بالسنة عند الإمام "هو ما كان عليه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه - رضي الله عنهم - وقد بين ذلك أئمة السنة والأثر رحمهم الله"⁽⁵⁾، فهذه هي السنة التي يجب التمسك بها، وتعبد الله بامتثالها، وسؤال الله تعالى أن "يوفقنا إلى اتباع سنة رسوله عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام"⁽⁶⁾، فمن وفق لهذا فهو الموفق، ومن حرم منه فهو المحروم.

(1): المصدر نفسه، (مج 04/ ص: 349).

(2): المصدر نفسه، (مج 03/ ص: 38).

(3): المصدر نفسه، (مج 01/ ص: 188).

(4): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05/ ص: 367). وانظر: ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03/ ص: 153). و: ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 119).

(5): المصدر نفسه، (مج 01/ ص: 365).

(6): المصدر نفسه، (مج 01/ ص: 313).

* وجوب الاختصار على الثابت من السنّة النبويّة: وذلك لأنّ منهج الإسلام قائم على ذلك، فلا "ندين إلا بما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم" ⁽¹⁾، كما أوصى الإمام المسلمون بأن يقتصروا "في عبادتهم على ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم" ⁽²⁾، والحذر من الاتجاه إلى ما لم يشرّعه الإسلام، وإلا كان اتّهاما للسنّة بعدم الإحاطة والكفاية، ولا يخفى ما في هذا من الزيغ والانحراف، وذلك لأنه "أوتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصارا... ما فيه الكفاية وفوق الكفاية لمن أوتي العلم ومنح التوفيق" ⁽³⁾.

* دعوة الناس إلى السنّة النبويّة: لقد أهاب الإمام ابن باديس بالدعاة والمصلحين إلى وجوب التسليح بالوحيين، و"دعوة الناس إلى السنّة النبوية المحمّدية، وتخصيصها بالتّقدم والأحجية، فكانت دعوتنا - علم الله - من أول يوم إليها، والحثّ على التمسك والرجوع إليها، ونحن اليوم على ما كنا سائرون، وإلى الغاية التي سعينا إليها قاصدون... وفيها وحدها ما يرفع أخلاقنا من وهدة الانحطاط، ويظهر عقيدتنا من الزيغ والفساد، ويبعث عقولنا على النّظر والتفكير، ويدفعنا إلى كل عمل صالح، ويربط وحدتنا برباط الأخوة واليقين، ويسير بنا في طريق واحد مستقيم، ويوجهنا وجهة واحدة في الحق والخير، ويحيي منا النفوس والهمم والعزائم، ويثير كوامن الآمال، ويرفع عنا الإصر والأغلال، ويصيرنا - حقًا - خير أمة أخرجت للناس..." ⁽⁴⁾.

وهذا النص يعد وثيقة مهمّة في مكانة الحديث النبوي، ودوره في الإصلاح والبناء، ومن أدواره: - الدّعوة إلى السنّة النبويّة هي الواجب على كلّ الدعاة، وذلك من أوّل يوم إلى آخره، وعدم الاكتراث بمن يعيب عليهم مسلكهم هذا، لأنّ "الرجوع إلى السنّة والكتاب، صار مما يعاب عند بعض الكتّاب! بدعوى أن الأفهام قاصرة، والضمائر غير طاهرة!" ⁽⁵⁾، وغيره من الدّعوى التي تخدّل وتعوّق عن الأخذ بالحديث، ولكن يجب عدم الالتفات إليها مادام المرء على يقين، ولأنّ "قول

(1): المصدر نفسه، (مج 03/ص: 38).

(2): المصدر نفسه، (مج 01/ص: 208).

(3): المصدر نفسه، (مج 01/ص: 215).

(4): المصدر نفسه، (مج 03/ص: 24).

(5): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05/ص: 96).

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحق وأعظم، وأنف من لا يقول هذا ولا يقبله مُرغم" (1).

- السنة النبوية؛ هي الرافعة للأخلاق، والمطهرة للعقيدة، والباعثة للعقول، والدافعة للعمل الصالح، ولهذا كان الإمام يعطر مجالسه بأحاديث المصطفى ﷺ، ويحث الناس على الرجوع إلى السنة النبوية في كل صغيرة وكبيرة، والأمثلة على هذا في تراثه -بعد الاستقراء- وجدته كثيرا؛ تكفي الإشارة إليه (2).

- على السنة يكون الاتحاد والالتقاء بين المسلمين، وبها تحيا النفوس والضمائر لتتجه إلى نفسها وترفع الأغلال التي غلّت بها، وتحقق الخير التي كانت في الأمة قبل انحطاطها.

9 / كف العامة عن التقول على النبي ﷺ: اعتبر الإمام ابن باديس تجرؤ الناس على القول في الحديث، ومسارعتهم إلى القول (قال رسول الله ﷺ)؛ من قلة الاحتياط في الدين، وعدم معرفة منزلة السنة النبوية، وسبحان الله!؛ ما أشبه البارحة باليوم، ولهذا قال رحمه الله: "ومن قلة الاحتياط في الدين، وعدم الاحترام للعلم، ما يجري على ألسنة كثير من الناس من قولهم (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، دون معرفة برتبة الحديث عند أهله" (3).

ولهذا دعا الإمام ابن باديس إلى نشر السنة النبوية، وتناول الحديث في المجالس والدروس بحذر واعتبار، وإسماع الناس الدليل مع تبين درجته، وتحذيرهم من القول فيه بغير علم، ما من شأنه تعظيمه في نفوسهم فلا يخوضون فيه إلا بعد النظر والتأميم.

10 / مواجهة البدع بنشر السنة: يرى الإمام ابن باديس بأن البدع والمنكرات والخرافات ما ظهرت قرونها، ولا قويت شوكتها إلا باندراس السنة، وتغيب الحديث النبوي الصحيح، ولهذا فقد اعتبر بأنه "لا دواء للبدع الشيطانية إلا نشر السنة النبوية" (4) العملية والقولية الثابتة بين الناس.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (الجزائر-قسنطينة: مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، ط/ 01، 1403 هـ-1983 م)، (ص: 87)، وانظر: ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 01/ ص: 454).

(2): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 01/ ص: 131/ 136/ 234/ 241/ 332/ 446). وأ/ د عشراي سليمان، المصدر السابق، (ج 02/ ص: 54/ 57).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 119).

(4): المصدر نفسه، (ص: 152). وانظر: المصدر نفسه، (ص: 190).

الفرع الثاني / دور الحديث النبوي في البرامج الإصلاحية:

لم يكتف الإمام ابن باديس بالدعوة إلى تحكيم السنة النبوية، وتفعيل دورها في الحياة العلمية والنظرية للأمة، بل سعى لإعطائها مكانتها الشرعية في البرامج التعليمية.

1 / مكانة الحديث النبوي في البرامج التعليمية: يمكن الاستدلال على هذا الاتجاه كالاتي:

- سيكون من العبث أن يطالب الدعاة والمدرسون بنشر السنة وبثها بين الناس، وهم أنفسهم لم يتزودوا منها، أي كمن يريد جني العنب من الشوك، أو كمن يطلب شيئاً من فاقده.
- إيماناً من الإمام ابن باديس بوجوب تكوين الملكة العلمية والفقهية لدى طلابه، وإبعادهم عن الطريقة المعهودة في الاعتناء بالفروع الفقهية، وإنزالها منزلة القطعي اللازم، لذلك أثر " توجيه عنايتهم إلى وجوب التفقه في الكتاب والسنة... لأن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، هما المصدران الأساسيان للتشريع"⁽¹⁾، وتعويدا لهم على الاحتكاك بالوحيين لمعينة الأصل، وعدم الاكتفاء بالفرع والاستنباط.
- يرى الإمام ابن باديس "بأن الطالب الذي يُعده للتغيير الإسلامي المنشود لابد وأن يكون قد أخذ حظّه من الثقافة الحديثية... وطالب العلم الشرعي ما لم يأخذ حظه الكبير من السنة، وما لم يتضلّع في علوم الحديث، فإن فهمه للإسلام سيكون فهماً قاصراً أو منحرفاً"⁽²⁾، فهي الضمان للاستقامة في التوجه، والاعتدال في الطرح، والإصابة في تناول.
- وحتى مكان السنة في البرامج التعليمية لم يكن في الهامش، أو كمادة ثانوية، بل "جعلها مادة رئيسية وأساسية في البرنامج الدراسي والمقرر التعليمي لتلاميذه وطلابه"⁽³⁾، وهذا سيراً على مقرر الزيتونة؛ الذي جعل السنة والحديث في المرتبة الثانية من المقررات الدراسية على طلابها.
- كلّ ما سبق ذكره قبل هذا العنصر (دور الحديث النبوي في الإصلاح) كان أكثره متّجهاً إلى طلاب الإمام ومحبي طريقه الإصلاحي، فكان بذلك يسلك سبيل العلم والعمل، أو

(1): د/ محمد الدراجي، الشيخ عبد الحميد ابن باديس السلفية والتجديد، (ص: 118).

(2): المصدر نفسه، (ص: 103).

(3): المصدر نفسه.

القول والفعل، وبهذا قد خدم هذا الاتجاه من جانيه.

- يمكن القول باختصار؛ بأن الإمام ابن باديس كان كثير الاحتفاء بالسنة النبوية، ويحث الأمة عموماً وطلبته خصوصاً "على الرجوع إليها علماً وعملاً، والتمسك بالصحيح الثابت منها فعلاً وتركاً، والاهتداء بهدي السلف الذين هم نقلتها وتراجمتها والمؤمنون على فهمها"⁽¹⁾.
- لقد كان الإمام ابن باديس يسعى لتحرير ثنائية الحياة، وهما الضمائر والأبدان، أو لنقل: تحرير المعاني والمباني من مستعمر مدّ معوله إلى كل مقوم من مقومات الحياة، ولهذا فإن "القرآن الكريم والسنة النبوية بالنسبة للشيخ الإمام، كفيلا بتحقيق هذه الغاية"⁽²⁾.

2/ من المقررات الحديثية في البرامح التربوية : لقد قرّر الإمام ابن باديس الحديث على طلابه تقريراً علمياً، ويظهر التّمييز الباديسي في هذا الجانب من ناحية جمعه بين الرواية والدراية، وعدم اكتفائه بأحدهما عن الآخر، وسنحاول هنا الإشارة إلى أهم المقررات التي توصّلنا إليها⁽³⁾:

- شرح الحديث النبوي، من كتاب الموطأ للإمام دار الهجرة، أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك الحميري، ثم الأصبحي، المدني (ت: 179 هـ)، وكتاب صحيح البخاري، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت: 256 هـ)، هذا من ناحية الرواية، أو متون الحديث.
- من ناحية الدراية أو مصطلح الحديث، نجد المنظومة البيقونية لمؤلفها الإمام طه بن محمد بن فتوح البيقوني (كان حياً قبل 1080 هـ).

الحقيقة أنّي لم أجد كلاماً كثيراً عن المقررات الحديثية على طلبة الإمام عبد الحميد ابن باديس، لكن يكفي الإشارة إلى أنّ أهمّ مجال استفاد منه الطلبة والعامة في مجال الحديث؛ هي دروس وشروح الإمام ابن باديس الحديثية، وذلك لما تميّزت به هذه الدروس من الحيوية والدّفق العلمي، وغيرها من المميّزات التي ستتجلى في المباحث المقبلة -إن شاء الله-.

(1): زروقة، عبد الرشيد، المصدر السابق، (ص: 253). وانظر: د/ محمد الدراجي، الشيخ عبد الحميد ابن باديس السلفية والتجديد، (ص: 102). و د/ محمد الدراجي، الإمام عبد الحميد بن باديس وجهوده في تجديد العقيدة الإسلامية، (الجزائر-عين مليلة: دار الهدى، د/ ط، 2012م)، (ص: 15).

(2): د/ طاهر بوناني، المصدر السابق، (ص: 121).

(3): أنظر: د/ عبد القادر فضيل، أ/ محمد الصالح رمضان، المصدر السابق، (ص: 260).

حتى لو كان المقرّر الحديثي هو ما ذكرناه، فإنّ الإمام ابن باديس لم يكن يسعى للكثرة المجردة، بل كان يسعى لتكوين ملكة قويّة وصحيحة يمكنها الاستمرار والتوسع، ولو بعد مغادرة قسنطينة، كما كان يرمي لتربية الناس على الفكرة الصحيحة، وليس لحشو الأذهان بالمعلومات والمعارف، أو لنقل بأنّه كان يستثمر في القليل، ويكثره بحكمته وعبقريته في التناول.

ومن المسائل التي كان يربّي الإمام ابن باديس أتباعه عليها، ويدندن حولها، وينبّههم إليها، مسائل حديثيّة كثيرة يقبّح عليّ إغفالها، ولهذا سأشير إلى أهمّها فيما يأتي:

- إحياءه للسنة النبوية العلميّة والعملية، " واهتمامه بإحياء أقوال وأفعال محمد ﷺ، وحالما يتوفّر مصدرا الإسلام كاملين، فالمسلمون يستطيعون حينئذ أن يفسّروا معانيه للعالم"⁽¹⁾، إذا لقد كانت الجهود الحديثية الباديسية جهودا قطريّة ذات هدف عالميّ أممي.
- التحذير من الآثار والأحاديث المختلقة المصنوعة، والمنسوبة زورا وبهتاناً لصاحب الشريعة، والتي يمكن أن تضيف للشرع ما ليس منه، أو تستل منه ما هو من صلبه، وقد بيّنها بقوله: "الآثار الواهية التي فيها أعظم الجزاء على أقل الأعمال"⁽²⁾، ولا يخفى أثر هذه الأحاديث الواهية على النفوس، فتراها تخدّل وتعوّق وتطيل الأمل، وتثبّط عن العمل، وما ذكره ضابط من الضوابط التي تبعث على البحث في ثبوت الحديث.
- تقوية الإيمان وشحن العزائم، بالإشارة إلى تأييد الواقع للسنة النبويّة، وموافقة الحديث لملايسات الميدان، وعدم انفكاكه عن الزمان والمكان، وإعداد الدعاة لما سيلاقونه من الكيد والأذى من دعاة الشيطان، وذلك لأنّه " قد ثبت في السنة ما يكون من كثرة الجهل، وموت السنة، وانتشار البدعة، وقد أيّد ذلك الواقع والمشاهدة، فإذا كان دعاة العلم والسنة، وخصوم الجهل والبدعة، فلا بد أن يكونوا قليلا في العدد الكثير، خصوصا في مبدأ أمرهم وأول دعوتهم، ولا بد أن يلقوا ما يلقون ويقاسوا ما يقاسون، ومما يثبت قلوبهم في عظيم مواقفهم تأسيهم بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم... "⁽³⁾.

(1): أندري ديرليك، المصدر السابق، (ص: 227).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 01/ ص: 188).

(3): المصدر نفسه، (مج 01/ ص: 427).

- تفسير الزّمن لبعض الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة، "فكثير من متون الكتاب والسنة الواردة في معضلات الكون ومشكلات الاجتماع، لم تفهم أسرارها ومغزاها إلا بتعاقب الأزمنة وظهور ما يصدّقها من سنن الله في الكون، وكم فسّرت لنا حوادث الزّمن واكتشافات العلم من غرائب آيات القرآن ومتون الحديث، وأظهرت منها للمتأخّرين ما لم يظهر للمتقدّمين."⁽¹⁾، ولا يخفى ما لهذا النصّ من استنهاض للهمم والنّفوس، وشحذ للقرائح حتّى تنكبّ على الحديث النبوي تكتشف خباياه، وتستخرج مكنوناته التي تظهر مع مرور الزمن.

- التّنبية على أنّ دفاع الدّعاة والعلماء والمصلحين عن السّنة النبويّة، والذّبّ عن الأحاديث المحمديّة، "يفرضه عليهم الدّين من نصّح المسلمين، وإرشاد الضّالّين، والذّبّ عن سنة خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وعليهم وسلّم"⁽²⁾.

- الحثّ على حفظ الحديث النبويّ، واستعمال الثّابت منه، حتّى في الأذكار النبوية التي ثبت فيها عدّة صيغ، فإن الإمام ابن باديس دعا إلى استعمال كلّ هذه الصيغ، والتنويع فيها، واعتباره ذلك من الأحسن والأكمل، قال رحمه الله: "الأكمل أن يحفظ الصّيغة النبويّة بروايتها، ويستعملها مرّة برواية ومرّة بغيرها، حتّى يكون قد استعملها كلّها، ولو اقتصر على بعضها لكان كافيا... بلا زيادة ولا تنقيص ولا تبديل"⁽³⁾.

(1): المصدر نفسه، (مج 02 / ص: 117).

(2): المصدر نفسه، (مج 03 / ص: 42).

(3): المصدر نفسه، (مج 04 / ص: 406).

المبحث الثاني: مصادر الدرس الحديثي عند الإمام ابن باديس.

إنّ دراسة هذا الجانب لازمة وضرورية في هذا البحث، لأنّ معرفة المصادر التي وظّفها الإمام ابن باديس في درسه الحديثي واستعان بها، له دور كبير في تجلية الكثير من القضايا التي تعني الدرس من جهة، والدارس والمدرّس من جهة أخرى، ومن المحفّزات العلميّة التي تبعث على خوض هذا الجانب، ما يأتي:

- الاطّلاع على المادّة العلميّة، والمعارف الإسلاميّة التي كانت وقودًا للدرس الحديثي عند ابن باديس، أو لنقل معرفة المكوّنات العلميّة لهذا الدرس، ولا شك أنّ قيمة الإبداع ووزنه؛ من قيمة مكوّناته ووزنها.
- معرفة المكوّنات العلميّة للدرس الذي أيقظ الهمم، وأحيا الضمائر والنفوس، وبعث أمة من سباتها، لمحاولة جمع هذه المكوّنات مرّة أخرى -إن كانت في المتناول- لاستعمالها في نهضة أخرى، لعلّ وعسى أن تحقّق ما حقّقته في السابق.
- النّظر في القيمة المعرفيّة للمدرّس، ومنزلته العلميّة، وحجم مساهمته في إيجاد التميّز وإضفاء الثّقل البرهاني للمستعين به، ومدى حجّيته، والشرعية والقبول اللّتان يحظى بهما لدى النّاطق أو المستمع، ممّا يحقّق الغايات والمقاصد المستهدفة.
- "إنّ أيّ عالم من العلماء لا بدّ له من مصادر يستقي منها علمه ومعارفه، وبقدر ما تجلّ وتعظم هذه المصادر بقدر ما يعلو شأن الآخذ عنها"⁽¹⁾، لأنّ المصادر الجليلة والعظيمة، لا يستطيع التّعامل معها، واستنباط معانيها إلّا من استحكمت خبراته، وكان ذا فكر صحيح ورأي رجيح.
- لقد أشار الإمام ابن باديس في كثير من المواضع إلى التزامه الرّجوع إلى الكتاب والسنة على فهم سلف الأئمة، ولهذا وجب علينا التّقيب عن مواضع هذه الفهوم، والنّظر في مدى التزام الإمام ابن باديس بشرطه في الدرس الحديثي.

(1): علي بن عبد الله الصيّاح، يعقوب بن شيبه السّدوسي، آثاره، ومنهجه في الجرح والتّعديل، تحقيق ودراسة، رسالة لنيل درجة الماجستير، (السعودية: جامعة الملك سعود، د/ط، 1417هـ)، (ص: 107).

- تتجلى أيضا أهمية دراسة هذه الزاوية في كون الوقوف " على المرجعية العلمية لابن باديس من أين استقاه؟، وكيف تفاعل معها؟، يعطينا صورة واضحة عن معالم هذه الشخصية الإصلاحية"⁽¹⁾، ليس هذا فقط، بل بالوقوف أيضا على أدوات ووسائل عمله الإصلاحي، لأنه من المعلوم عند كل ذي لب " أن الإصلاح نتاج تصوّر، والتصوّر أساسه فكرة، والفكرة قد تُقرأ في كتاب أو تُلقى في درس فُسمع، أو تُستنبط من تأمل واستقراء، ونصيب العلم والمعارف في بلورة أفكارنا وتشكيل تصوّراتنا، ورسم مناهجنا في الحياة لا سبيل إلى إنكاره"⁽²⁾، ولا طريق إلى جحده وعدم اعتباره.

الحقيقة أن تقسيم هذا المبحث سيكون اجتهاديا، كون الخيارات المتاحة والمتوفرة عديدة ومتنوعة، لكن آثرت أن أجعله في ثلاثة مطالب، تُشكّل بمجموعها وحدة متكاملة يمكنها أن تؤدي المطلوب، وتوصل إلى المرغوب، وسيكون المطلب الأول حول الحديث الذي ارتضاه الإمام ابن باديس عنواناً لدرسه، أمّا المطلب الثاني؛ فسيتناول الموطأ كمصدر مستقلّ بالدراسة والتحليل، لأختتم بالمطلب الثالث؛ والذي سأجمع فيه باقي المصادر الأخرى التي أيّده وآزرته واستعان بها في عمله.

المطلب الأول: مصدريّة الحديث النبوي في الدرس الحديثي.

إنّ أول ما نتلفظ بعنوان الرسالة: " الدرس الحديثي... "، يتبادر إلى أذهاننا، ويتسارع إلى عقولنا أمران اثنان، الأول تقرير، والثاني سؤال، فأما التقرير فهو: أنّ الحديث النبوي هو أول مصدر من مصادر الدرس الحديثي للإمام ابن باديس، كيف لا؟ وهو عنوان الدرس والعنوان لا يكون إلّا رأس الأمر، وأُسسه وأساسه.

أمّا السؤال؛ فهو: ما نوع الحديث النبوي الذي عنون به الإمام لشقّ من جهاده الإصلاحي؟، وما هي الشروط التي اشترطها، والخطوط التي خطّها للحديث الذي يعتبره صالحاً لتناوله في درسه؟. ولن أدعي هنا الإجابة والإحاطة عن هذه الإشكالية الفرعية المركّبة، ولكن سأتجرأ وأدعي محاولة الإشارة إلى بعض الإجابات، أو الاقتراحات على هذه الإشكالية، ملتزماً في نفس الوقت ما قطعه

(1): عمار بن مزوز، المصدر السابق، (ص: 56).

(2): المصدر نفسه.

على نفسي؛ بالاستدلال في كل ما أنسبه إلى الإمام ابن باديس بآثاره وأقواله، التي تصلح أن تكون دليلا على ما أذهب إليه.

الفرع الأول / اعتماد الإمام ابن باديس على الحديث النبوي:

لقد اعتمد الإمام ابن باديس على الحديث النبوي كمصدر أصلي ورئيسي في درسه، وذلك لعدة اعتبارات علمية وموضوعية كثيرة، لعل أهمها ما يأتي:

- المكانة الشرعية التي وضع فيها الإمام ابن باديس الحديث النبوي؛ من اعتباره مصدرا من مصادر التشريع، ووحيا من الله تعالى إلى نبيه ﷺ، ومرجعا لكل ملتمس للنهوض والتمكين، ولهذا " فهو يتناول الحديث ليستنتج منه نتائج وعبر حول الحاضر والظروف السياسية والثقافية التي يعيشها العالم الإسلامي والجزائر"⁽¹⁾، ثم استخلاص الدواء الشافي من تلك العبر ومعالجة الأمة بترياقها النبوي.
- اندراس الميراث النبوي، وغياب دروس الحديث، " هذا العلم الذي تضاءلت معارفه منذ 1830، وقلّ رواته والمؤلفون فيه، حتى كدنا لا نجد فيه مؤلفا واحدا له قيمة خلال أكثر من مائة سنة... ولم تستأنف إلّا على يد الشيخ عبد الحميد بن باديس"⁽²⁾، الذي أحيا بدروسه موات العلوم، وأعاد الحديث موجّها ومرشدا كما كان، وكما يجب أن يكون.
- إدراك الإمام ابن باديس للدور العلمي الذي يمكن للحديث النبوي أن يؤديه، والأثر النفسي الذي سيتركه في المستمعين من المسلمين الذين يُجَلّون سنة النبي ﷺ، حيث أنّ الإمام ابن باديس كان يستعين بالسنة النبوية ويتسلّح بها " إذا أراد أن يحارب فكرة خاطئة، أو يصحّح وضعًا شاذًا، أو يدعو المسلمين إلى أمر جديد نافع، لأنه بهذا العمل كان يقوم بدور التأسيس والتأصيل لما يدعو إليه، وأنّه من الدّين، ولأنّه كان يعلم علم اليقين بأنّ عموم المسلمين لما يؤصّل لهم ما يدعوهم إليه، فإنّه يكون أدعى للقبول عندهم"⁽³⁾، وبذلك يكسب درسه الشرعية المطلوبة، والدافعية للعمل والانطلاق.

(1): أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (مج 07 / ص: 46).

(2): المصدر نفسه، (مج 07 / ص: 39-40).

(3): د/ محمد الدراجي، الشيخ عبد الحميد ابن باديس السلفية والتجديد، (ص: 111).

- استشعار الإمام ابن باديس لخطورة ترك هذا العلم الشرعي، والميراث النبوي بأيدي الجهال والعاثين، وإدراكه لوجوب أن يقوم العلماء المدركون بواجب حفظ الحديث، ونشره، وتنقيته، وإشعار الناس -سواء كانوا من العامة أو من المتصدّرين للوعظ والإرشاد- بخطورة القول على النبي ﷺ بغير تثبّت أو دراية، وبذلك يرجع العلم إلى أهله، وترجع القوس إلى باريها.
- وجوب " الاعتماد على الحديث النبوي سواء في الوصف أو التحليل أو التذكير عند تفسير آيات القرآن وبالأخصّ فيما يختص بالإنسان وسلوكه وما يعود عليه بالفائدة في حياته ومستقبله"⁽¹⁾، ووصف الحلول النبوية الناجعة والكفيلة بإصلاح الإنسان، وإصلاح محيطه الذي يعيش فيه.
- سير الإمام ابن باديس على طريق أجداده من علماء البيت الباديي، الذين كان لهم اعتناء بهذا العلم وتمكّنوا فيه، حتّى ألفوا فيه ودرّسوا، وشرحوا متونه وحقّقوا بعض مسائله ممّا وصل إلينا، كما كان فيهم من وصف بال محدّث، وذلك لحرصهم " على مراعاة متن الأسانيد وأصحابها، في شروط النقل والضبط والتّجاني عن قبول المجهول الحال من الحديث..."⁽²⁾، حتّى نبغ في هذا البيت علماء أشاد بفضلهم من كتب في التّراجم والسير -على قلّتها-.
- تصريح الإمام ابن باديس نفسه بأنّ الحديث النبوي مصدر من مصادر درسه، فبعد أن ذكر كتب التفسير ثنّى بالحديث النبوي، ثم قال: " نقول هذا ليعرف الطلبة مصادِرَ دَرَسِنَا، وماخذ ما يسمعون منه...سائلين منه تعالى لنا ولكم أن يوفّقنا إلى حسن القصد، وصحّة الفهم، وصواب القول، وسداد العمل"⁽³⁾، وفي هذا النصّ يضيف الإمام جانباً من التّزكية على عمله، وهو الإشارة إلى أنّ التّنال المجرد للحديث لا يمكن أن يؤتي أكله، إلّا إذا التزم صاحبه قصداً حسناً يهديه، وصحّة في الفهم تُعينه، وصواباً في القول يُرشد إلى الحقّ، وسداداً في العمل ينجيّه، ويجعل منه قدوة وأسوة.

(1): د/ عبد الحميد درويش النّساج، المصدر السابق، (ج 01، ص: 109).

(2): د/ طاهر بونابي، البيت الباديي مسيرة علم ودين وسياسة، (ص: 29).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 01 / ص: 163).

الفرع الثاني / مفهوم الحديث النبوي عند الإمام ابن باديس:

لقد سبق الإشارة إلى أن الإمام ابن باديس يرى بأن من الفروق بين القرآن الكريم والسنة النبوية؛ الاختلاف من حيث الثبوت، فالقرآن كله ثابت بالتواتر، أما السنة ففيها المتواتر، وفيها ما دون ذلك من المقبول والمردود، وهنا سيبيّن لنا الإمام نوع الحديث الذي يرتضيه في درسه وشرحه، ثم ننظر في مدى التزامه العملي بما اشترطه نظرياً، لأنّه كثيراً ما يكون بين الاشتراط والالتزام فرق وبون.

1/ مفهوم الحديث المقبول عند الإمام ابن باديس : وهنا عبّرت بالحديث المقبول ولم أقل الصحيح وذلك حتّى لا أجزم باعتماده الصحيح فقط، وترك النتيجة إلى مكانها، وحتّى المقبول هنا لا أقصد به المقبول اصطلاحاً؛ وهو الصّالح للاحتجاج، بل المقصود؛ هو المقبول عنده للاستعانة به في درسه. لقد أبان الإمام عن نوع الحديث النبوي الذي يرى اعتماده كمصدر في درسه، فقال: " لا نعتد في إثبات العقائد والأحكام على ما ينسب للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من الحديث الضعيف لأنّه ليس لنا به علم، فإذا كان الحكم ثابتاً بالحديث الصحيح مثل قيام الليل بذكر ثواب عليه مما يرغب فيه، جاز عند الأكثر أن نذكره مع التنبية على ضعفه الذي لم يكن شديداً على وجه التّغيب، ولو لم يكن الحكم قد ثبت لما جاز الالتفات إليه، وهذا هو معنى قولهم: ((الحديث الضعيف يعمل به في فضائل الأعمال)) أي في ذكر فضائلها المرغوبة فيها في أصل ثبوتها.

فما لم يثبت بالدليل الصحيح في نفسه لا يثبت بما جاء من الحديث الضعيف في ذكر فضائله باتفاق من أهل العلم أجمعين" (1).

إنّ هذا النصّ -رغم طوله التّسبي- وجب عليّ نقله، وذلك لما فيه من البيان والإفصاح عمّا نبحت عنه، فقد أبان الإمام هنا عن منهجه في قبول الحديث، ونوع هذا الحديث المقبول ودرجته، وبعض الضوابط والاحترازاات والاستثناءات العلميّة المهمّة، التي يجب استحضارها عند الحكم على الأحاديث التي ضمّنها درسه الحديثي.

في هذا النص المهمّ ملاحظات علميّة يمكن تسجيلها، وضوابط معرفيّة يحسن استنباطها، والتي سأعرّزها بنصوص أخرى من تراث الإمام، لتزداد قوّة ووزناً، وأظهرها ما يأتي:

(1): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (مج 01 / ص: 273).

1/ نفور الإمام ابن باديس من الاعتماد في إثبات الأحكام والعقائد على الحديث الضعيف، وبمفهوم المخالفة، فهو يعتمد على الحديث الصحيح والحسن فقط، وذلك لثقته وجزمه بأنّ لنا " فيما صحّ غنية عما لم يصحّ"⁽¹⁾، والحقيقة أنّ هذا الالتزام فيه إشارات كثيرة، ودلائل على تمكّن الإمام من هذا العلم النبوي، ومن بينها:

- الثقة والتأكد من كفاية السنّة الصحيحة، واستغراقها لكلّ ما تحتاجه الأُمّة من الأحكام والعقائد التي تتعبّد بها ربّها تعالى، دون الحاجة إلى الاستعانة بالضعيف في إثباتها، فضلا عما انحدر عن مرتبة الضّعف.

- سعة الاطلاع والتّمكّن الحديثي لدى الإمام ابن باديس، وإلّا لما استطاع أن يجزم بهذا أو يلتزمه، وذلك لصعوبته ومتانة ما يتطلبه من التّحرّي والتّمكّن من الحديث ومصطلحه، والنّظر في أسانيد الأحاديث ومتونها.

2/ تجويز الإمام ابن باديس الاستدلال بالحديث الضّعيف⁽²⁾، وذلك بشروط ذكرها وهي:

- أن يكون هذا الحديث في فضائل الأعمال وعلى وجه التّرجيب، وليس في الأحكام أو العقائد.
- أن يكون أصله ثابتاً بالحديث الصحيح، وإلّا فلا يُلتفت إليه.
- أن يكون ضعيفا ضعفاً غير شديد.
- لا بدّ أن يُرفق ذكره بالتّنبية على ضعفه، وذلك حتّى لا يَغْتَرّ العامّة والمستمعون به فيحسبونه من الصحيح.

وحتّى هذه الشّروط والاحترازات التي قيّد بها الإمام جواز الاستدلال بالحديث الضّعيف، نلاحظ من خلالها ملامح العالم المدقّق وذلك فيما يأتي:

- كثرة الاحترازات والقيود التي أرفقها بالحديث الضّعيف الذي يُستدلّ به، وذلك حرصاً منه على نقاء السنّة النبوية وصفائها، وقطعاً منه للطّريق على كلّ من يريد ركوب هذه القاعدة لإدخال الضّعيف والموضوع في الوعظ والتّذكير، والذي راجت سوقه في وقته.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (مج 02 / ص: 107).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، مبادئ الأصول، (ص: 49).

- دقة الإمام وأمانته في نسبة هذا الاختيار إلى أكثر العلماء، ما يدل على أنه ليس مذهباً لكلهم⁽¹⁾، ولم يتفق عليه الجميع، وبالمقابل جزم باتفاق جميع العلماء المعبرين، في عدم ثبوت ما جاء من الحديث الضعيف، إذا لم يثبت أصله بالدليل الصحيح.

والحقيقة أن هذه المسألة قديمة عريقة، وقد وقع فيها الأخذ والرد، كون الحديث الضعيف لما كان متردداً بين أن يكون راويه قد حفظه وأداه على وجهه، وبين أن يكون قد أخل فيه لضعف ضبطه وسوء حفظه، كان مثار اختلاف كبير بين العلماء في قبوله ورده، وهذا الاختلاف وإن تناول الأحكام والفضائل والتفسير والمغازي والسير وغيرها، فإنه لا يتناول العقائد⁽²⁾، وهذا صحيح؛ فقد نبّه الإمام ابن باديس بأن مسائل العقائد والغيب لا "نقول فيها إلا ما كان لنا به علم بما جاء في القرآن العظيم أو ثبت في الحديث الصحيح، وقد كثرت في تفاصيلها الأخبار من الروايات مما ليس بثابت، فلا يجوز الالتفات إلى شيء من ذلك، وكل هذا كل ما كان من عالم الغيب... وما لم يصل إليه علم البشر"⁽³⁾، وفي هذا النصّ يشير الإمام من خلال كلامه إلى ضوابط علمية مهمة، سأشير إليها باختصار حتى لا أطيل، وهي:

- قوله: (وقد كثرت في تفاصيلها...)؛ فيه إشارة إلى أن المهم من العقائد، وأصول المعارف الغيبية ثابتة في السنة الصحيحة، أما التفاصيل والتفريعات والدقائق غير الثابتة هي التي تنضح بها الآثار الضعيفة، ونحن في غنى عنها، وفي الصحيح ما يُغني عن الضعيف، وفي الثابت العبرة والفائدة، وما أغفله ولم يذكره فلا خير فيه ولا زيادة.
- عدم جواز الالتفات إلى شيء من تلك الروايات الضعيفة غير الثابتة، لأن في الالتفات إليها إعراضاً عن الصحيح، وشكاً في كفاية المقبول من الحديث وإغناؤه، واستبدالاً للذي هو أدنى بالذي هو خير.

(1): أنظر: عبد الكريم بن عبد الله بن عبد الرحمن الخضير، الحديث الضعيف وحكم الاحتجاج به، رسالة مقدّمة لنيل درجة الماجستير، (السعودية: جامعة محمد بن سعود الإسلامية، د/ ط، 1401هـ-1402هـ)، (ص: 215-255). ود/ نور الدين عتر، منهج النقد في علوم الحديث، (سورية- دمشق: دار الفكر، ط/ 03، 1408هـ-1988م)، (ص: 291-296).

(2): عبد الكريم بن عبد الله بن عبد الرحمن الخضير، المصدر السابق، (ص: 213).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (مج 01 / ص: 273).

2 / تعريف الحديث الصحيح عند الإمام ابن باديس : يرى الإمام ابن باديس بأن الحديث الصحيح، هو: " ما رواه العدل الضابط عن مثله إلى آخر سنده سالما من العلة والشذوذ، فإن خفّ الضبط في بعض رواياته فهو الحسن"⁽¹⁾، ونلاحظ في هذا التعريف الذي اختاره الإمام ابن باديس عدة ملاحظات منها:

- الدقة والاختصار، وجمع التعريف في شكل مركز ودقيق، وهي المعايير العلمية للتعريف الذي يسهل استحضاره وتذكره، بعيدا عن الحشو والتعطيط وإكثار الألفاظ والمترادفات، التي يمكن أن يُغني بعضها عن بعض.
- استعماله للمصطلحات العلمية القديمة، وهذا ما يدل على تشبّعه من إطلاقات المتقدمين من أرباب هذا الفن وروّاده، ويشير أيضا إلى تمكّنه من هذا العلم واستحكام ملكته لديه.
- إلحاقه للحسن في تعريف الصحيح، واغتنامه لفرصة تعريف الحديث الصحيح ليُردفه بضابط الحديث الحسن، وذلك تنبيها وإشارة منه إلى أنّ هذا الأخير أيضا من حيث الاحتجاج هو في مرتبة الصحيح، وإن خفّ عنه من حيث الثبوت، وحتى يستدرك على قيد الضبط بأنّ ما خفّ منه في بعض الرواة يخرج عن دائرة الصحيح، لكن لا يخرج من دائرة المقبول والصالح للاحتجاج به.
- انتصاره لتعريف الأكثر من أهل العلم بمصطلح الحديث، واختياره لأتجاههم، وسيره على منوالهم، وهذا ما يؤكّد رجوع الإمام إلى أهل الخبرة في هذا الفن، وعودته في كلّ مسألة إلى أهل العلم الموثوقين والمتمكنين؛ المشهود لهم بالسبق والريادة.
- من خلال ما سبق يمكن القول بأنّ " السنة التي يعتمد عليها الشيخ عبد الحميد بن باديس، وينطلق منها هي النصوص الصحيحة الثابتة بالأسانيد الصحيحة... التي حكم لها العلماء العدول الأثبات بأنها مستوفية لشروط القبول"⁽²⁾، وهذا على المستوى العلمي والنظري، وستعرض للجانب العملي في موضعه من المبحث، وذلك بمحاكمته إلى منهجه التي ارتضاه سبيلا وطريقا.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 39).

(2): د/ محمد الدراجي، الإمام عبد الحميد بن باديس وجهوده في تجديد العقيدة الإسلامية، (ص: 16).

الحقيقة أنّ الوصول إلى الحديث وحده لا يكفي، حتى ولو كان صحيحاً، بل لابدّ من إيراد بعض القيود التي أضافها الإمام ابن باديس، والمتمثلة في بعض المسائل الحديثية، وموقفه من الروايات الضعيفة، ممّا لم أذكره من قبل:

1/ حرص الإمام على تحريّ الفهم الصحيح لحديث رسول الله ﷺ، واستنباط المعنى المطلوب، والحذر من كَيْه، أو تحميله ما لا يتحمّله من الفُهوم، واعتباره " فهم أئمة السلف الصالح أصدق الفهوم لحقائق الإسلام ونصوص الكتاب والسنة"⁽¹⁾، وسنجد في المطلب الثاني والثالث ما يؤيد هذا الالتزام عملياً.

2/ حرصه على إبراز التّطابق بين الأثر المتناول، والنّظر المتصوّر والمطروح، وذلك تصديقاً للحديث، وتنزيهاً لصاحب الشريعة ﷺ، والتمكّن من إيجاد التّطابق بين " الأثر والنّظر"⁽²⁾ خدمةً للسنة النبوية، رغم أنّ التّمكن منه لا يكون إلّا لأهل العلم ممن اطّلعوا على الأثر، وأتقنوا التّنقيب والنّظر.

3/ حثّه الدّارسين على عدم الالتفات إلى الروايات الضعيفة، فضلاً عن العمل بها أو اعتقاد ما جاء فيها، والاكتفاء بالسنة الصحيحة، كما دعا لمحاولة الجمع بين السنة القولية والعملية إن أمكن ذلك ووُجد، ولهذا قال الإمام عند تناوله لمسألة فقهية مؤيِّداً لهاتين المسألتين: " وأيّدتُ هذا النصّ الصحيح السنة العملية فأخذ به جمهور أئمة الإسلام، وجاءت روايات عليّة عن بعضهم لم يُلتفت إليها ولم يُعمل بها"⁽³⁾، ويقصد بالنّص الصحيح هنا حديثاً نبوياً⁽⁴⁾.

4/ بيّن الإمام ابن باديس بعض الأنواع الحديثية التي سيعتمد عليها كمصادر في درسه، وسيأخذ بها، كونه يرى ثبوتها وقوّتها، وصلاحيّتها للاحتجاج، ومن هذه الأنواع ما يأتي:

* ما قال فيه الترمذي: " حسن صحيح " قال الإمام ابن باديس: " ما يقول فيه أبو عيسى الترمذي

(1): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (مج 03 / ص: 133).

(2): المصدر نفسه، (مج 01 / ص: 470).

(3): المصدر نفسه، (مج 02 / ص: 43).

(4): وهو قول النبي ﷺ: " لن يُفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة"، وهذا الحديث، أخرجه البخاري في كتاب المغازي: باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كِسْرَى وقِصْر (4425)، (مج 03 / ص: 181)، وفي كتاب الفتن: (7099)، (مج 04 / ص: 321).

حسن صحيح أقوى مما يقول فيه حسن فقط، لأن وصفه بالصحة مع وصفه بالحسن يفيدان خفة الضبط في بعض رجاله تكاد لا تؤثر عليه حتى كأنها لم تحطه عن رتبة الصحيح التام⁽¹⁾، والحقيقة أن هذا الاتجاه في شرح عبارة الترمذي هو اختيار حديثي من الإمام ابن باديس، فهو لم يلجأ إلى حل الإسنادين، بكون أحدهما حسناً والآخر صحيحاً، بل وجه اختياره مع الاحتفاظ بوحدة الإسناد، وحصر السبب في ضبط الرواة، فقوة الضبط لدى بعضهم أكسب الحديث وصف الصحة، وخفة الضبط لدى بعضهم الآخر ينزع به إلى وصف الحسن، وبالتالي صار الحديث حسناً صحيحاً، كما لم يلجأ إلى حل التفريق بين الإسناد والمتن، بكون أحدهما حسناً والآخر ضعيفاً، أو اعتبار لفظ الحسن هنا يراد به المعنى اللغوي لا الاصطلاحي، أو غيره من الأقوال التي سجل عليه الحفاظ مؤاخذاتهم التي ضعفوا بها تلك الأقوال، وهي مفصلة في مضامها⁽²⁾.

* الحديث الغريب: استقر الإمام ابن باديس في تعريف الحديث الغريب⁽³⁾ الذي يرى صحته واعتباره بقوله: "وأما الغريب فهو ما انفرد بروايته راو فقط، وإذا كان ذلك المنفرد ثقة فذلك الانفراد لا يضر، فالغربة لا تنافي الصحة والحسن"⁽⁴⁾، بل قد يكون الحديث الغريب صحيحاً، أو حسناً، كما يمكن أن يكون ضعيفاً أو موضوعاً، إذا كان الراوي الذي تفرد بالرواية ممن لا يحتمل مثله التفرد.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 39).

(2): أنظر: ابن الصلاح، أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن، علوم الحديث، وشرحه التقييد والإيضاح لما أطلق وأغلق من مقدمة ابن الصلاح، للحافظ زين الدين عبد الرحيم بن حسين العراقي، (سورية- حلب: المطبعة العلمية، ط/ 01، 1350هـ- 1931م) (مج 01 / ص: 44). والسيوطي، جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، تحقيق: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، (السعودية- الرياض: دار العاصمة، ط/ 01، 1424هـ- 2003م)، (مج 01 / ص: 236 / 241). وأحمد محمد شاكر، المصدر السابق، (ص: 114). ود/ نور الدين عتر، المصدر السابق، (ص: 272).

(3): الحديث الغريب: "هو ما رواه الراوي منفرداً بروايته، فلم يروه ويشاركة فيه غيره، أو انفرد بزيادة في متنه أو إسناده، أما حكمه فقد يكون صحيحاً، أو حسناً، أو ضعيفاً، وهو الغالب في الغرائب حتى حذر الأئمة من روايتها". أنظر: العسقلاني، ابن حجر، النكت على كتاب ابن الصلاح، تحقيق: د/ ربيع بن هادي عمير، (السعودية- الرياض: دار الرؤية، ط/ 03، 1994م- 1415هـ)، (مج 02 / ص: 703). وعبد الكريم الخضير، المصدر السابق، (ص: 23-25). و أحمد محمد شاكر، المصدر السابق، (ص: 162).

(4): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (ص: 39).

5 / التحذير من الإسرائيليات⁽¹⁾، واعتباره لهذا الصنف من الأخبار أكثر الروايات الدخيلة التي زاحمت الصحيح في المؤلفات والدروس، ولهذا قال الإمام ابن باديس متفصلاً ورافضاً لهذه الروايات التي طفحت بها كتب التفسير والحديث: "روايات كثيرة ليست على شيء من الصحة، ومعظمها من الإسرائيليات الباطلة التي امتلأت بها كتب التفسير مما تلقى من غير تثبت ولا تمحيص"⁽²⁾، فالإسرائيليات إذا ليست من مصادر الدرس الحديثي عند الإمام ابن باديس، ولكن نفهم من خلال كلامه أيضاً أنه لا يرفضها كلياً، بل يعارض منهج تلقيها من غير تثبت ولا تمحيص، بفهمهم المخالفة؛ إذا درست هذه الروايات ومحصت فلا حرج في أخذها والعمل بها.

من خلال هذا المطلب نجد بأن الإمام ابن باديس قد جعل الحديث النبوي المصدر الأول والخام لدرسه الحديثي، وحتى الحديث احترز الإمام فيه، حيث لم يقبل لنفسه أن يكون حاطب ليل يأخذ منه ما صح وما لم يصح، بل أحاط نفسه بضوابط علمية، وشروط مصطلحية يحاكم إليها المرويات لتنقيتها ودراستها، ليُقبل الصحيح ويُحتفى به، ويُستعان بالضعيف في بعض الحالات المسيجة بسياج الاحتياط والقيود، ويهدر ما سوى هذا مما لم يثبت عن النبي ﷺ.

بل احتفى الإمام كثيراً بهذا المصدر المستقى من الوحي، وربطه بكل جوانب التفهيم والمرض والتخلف في المجتمع الجزائري خصوصاً، والإسلامي عموماً، كما اعتبر الأخذ به ليس اختياراً شخصياً، أو ميلاً نفسياً، وإنما من كونه واجبا شرعياً محتماً على من ءامن بالله ورسوله ﷺ.

(1): الإسرائيليات: "نسبة إلى إسرائيل، وهو يعقوب ﷺ، وبنو إسرائيل هم أبنائه وذريته، وقد عرفوا باليهود، والإسرائيليات هي مجموعة من الأخبار والمرويات التي تُلقيت عن أهل الكتاب عموماً واستعين بها في تفسير القرآن الكريم والحديث النبوي، وأُطلق لفظ الإسرائيليات من باب تغليب الجانب اليهودي على الجانب النصراني، لاشتهاره وكثرة النقل عنه". أنظر: د/ محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، (مصر-القاهرة: مكتبة وهبة، د/ ط/ ت)، (مج 01 / ص: 121). ود/ رمزي نعناعة، الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير، (لبنان- بيروت: دار الضياء، سورية- دمشق: دار القلم، ط/ 01، 1390 هـ، 1970 م)، (ص: 71)، ود/ عبد الرحمن بن صالح بن سليمان الدهش، الأقوال الشاذة في التفسير نشأتها وأسبابها وآثارها، (مانشستر- بريطانيا: إصدارات الحكمة، ط/ 01، 1425 هـ-2004 م)، (ص: 325).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (مج 02 / ص: 40).

المطلب الثاني: موطأ الإمام مالك في الدرر الحديثي.

بعد أن أشرت إلى أن الحديث النبوي هو أول مصدر من مصادر الدرس الحديثي عند الإمام ابن باديس ، اقتضى الأمر وجوب الإشارة إلى دواوين السنّة ومضآن الحديث التي اعتمد عليها الإمام، وذلك كونه لم يكن في عصر الرواية، أي إنه أخذ زاده الحديثي والنصوص المشروحة من كتب السنّة التي خبرها بطرق عديدة، ولهذا سأشير في هذا المطلب إلى أهم كتاب حديثي في مصادره، وهو كتاب الموطأ للإمام مالك، وسأفرده بمطلب مستقل.

في هذا المطلب سأطرق لجانبين اثنين، الأول سأجعله للمكانة العلمية للموطأ وخصائصه، وذلك من خلال ما تفضّل به أهل الاختصاص، وما بيّنه السابقون، كلّ ذلك باختصار وتركيز يكونان مؤديين للمطلوب، دون الإطالة والخروج عن مقاصد الموضوع.

أمّا الجانب الثاني فسيكون عن علاقة الإمام ابن باديس بالموطأ، ومكانة هذا الأخير في درسه، والحيثيات التي أحاطت به، وأسباب اختياره، إلى غيرها من القضايا والمسائل التي يمكن أن تضيف بعض الجديد لهذا الجانب الظلّ من الحياة العلمية للإمام ابن باديس.

الفرع الأوّل / المكانة العلمية للموطأ وخصائصه المعرفية:

إنّ كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس رحمه الله من الكتب التي اعتنى بها العلماء، رواية ودراية، دراسة وتدريسا، شرحا وتعليقا، وذلك في بقاع مختلفة وأزمنة متتابعة، فحاز السبق والتّقديم، وعُكف عليه بالحفظ والتّعليم، فسارت أمم على هديه ورسومه، وكثرت المصنّفات في علومه؛ بين الشّرح المطوّل المستفيض، و التّعليق المختصر الموجز، وتُتَوَلّ في أسانيده ومتونه، وفي رجاله وشيوخه، واستنبطت منه علوم الآلة والغاية، وكاد يكون للأمة مرجعا حديثيا وحيدا تعود إليه.

وحَتّى لا يبقى هذا الكلام ادّعاء خاليا من أسباب اعتباره وقبوله، سأشير إلى أهمّ القضايا والمسائل التي تعني الموطأ، بدءا بتعريفه وحديث السابقين عنه، انتهاء بأهمّ خصائصه العلميّة ومظاهر تميّزه عن باقي الكتب الحديثيّة الأخرى.

1/ تعريف صاحب كتاب الموطأ : إنّ الإمام مالك من القامات الحديثيّة التي كان الإمام ابن باديس كثير الاحتفاء بها، ولهذا لا بدّ من إفراده بترجمة مختصرة، ولعلّ أوّل ما أبدأ به هو ما ذكره الإمام ابن باديس عن هذا الإمام الهام، حيث عبّر عن عظيم إعجابه، وانبهاره بعلم الإمام مالك،

ودقة نظره واستنباطه، وشدة اتّباعه للأثر، ولهذا قال فيه: "فله مالك ما أوسع علمه، وما أدقّ نظره، وما أكثر اتّباعه، فرحمة الله تعالى عليه، وعلى أئمة الهدى أجمعين"⁽¹⁾.

ومما يمكن أن يقال باختصار عن الإمام مالك، ما ذكر عنه حيث قيل: "هو شيخ الإسلام، حجة الأئمة، إمام دار الهجرة، أبو عبد الله مالك ابن أنس بن مالك... الأصمحي المدني، حليف بني تميم من قريش... مولد مالك على الأصح في سنة ثلاث وتسعين عام موت أنس خادم رسول الله ﷺ، ونشأ في صون ورفاهية وتجمّل.

وطلب العلم وهو حدث بُعيد موت القاسم، وسالم، فأخذ عن نافع، وسعيد المقبري، وعامر بن عبد الله بن الزبير، وابن المنكدر، والزّهري... وقد حجّ قديماً، ولحق عطاء بن أبي رباح... وطلب مالك العلم وهو ابن بضع وعشرون سنة، وتأهل للفتيا، وجلس للإفادة، وله إحدى وعشرون سنة، وحدث عنه جماعة وهو حيّ شابّ طريّ، وقصده طلبة العلم من الآفاق في آخر دولة أبي جعفر المنصور وما بعد ذلك، وازدحموا عليه في خلافة الرشيد، وإلى أن مات...

كان عالم المدينة في زمانه بعد رسول الله ﷺ، وصاحبيه زيد بن ثابت وعائشة، ثم ابن عمر، ثم سعيد بن مسيب، ثم الزّهريّ، ثم عبيد الله بن عمر، ثم مالك... ولم يكن بالمدينة عالم من بعد التّابعين يشبه مالكا في العلم والفقه، والجلالة والحفظ... وكان مجلسه مجلس وقار وحلم...

وقد كان مالك إماماً في نقد الرجال، حافظاً، مجوّداً، متقناً... لا يروي إلا عمّن هو عنده ثقة، ولا يلزم من ذلك أنّه يروي عن كلّ الثقات، ثم لا يلزم مما قال أن كل من روى عنه وهو عنده ثقة أن يكون ثقة عند باقي الحفاظ، فقد يخفى عليه من حال شيخه ما يظهر لغيره، إلا أنه بكل حال كثير التّحرّي في نقد الرجال رحمه الله..."⁽²⁾.

وقد ذكر عن الإمام مالك امثالاً لسنة النبي ﷺ، فلم يكن راوياً أو محدّثاً فقط، بل جمع بين القول والامثال على أحسن ما يكون الاتّباع، كما قيل أنّه كان "عظيم المحبة لرسول الله ﷺ مبالغاً في تعظيم حديثه، حتى كان لا يركب في المدينة مع ضعفه وكبر سنّه، ويقول: لا أركب في بلد فيها جسد رسول

(1): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 57).

(2): الذّهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، (بيروت - لبنان: مؤسسة الرسالة، ط/ 02، 1402 هـ -

1982 م)، (مج 08 / ص: 48-135).

الله ﷺ مدفون"⁽¹⁾، بل وكان رحمه الله " يكره أن يحدث على الطريق أو قائما أو مستعجلا، ويقول: أحب أن أتفهم ما أحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم"⁽²⁾، وكل هذا تعظيما للحديث النبوي، وإجلالا لصاحب الرسالة ﷺ.

وقد وقع للإمام مالك امتحان وابتلاء من حكام زمانه، بسبب وشاية الحساد، وسعي المغرضين، وقد اختلفت الروايات في سبب ابتلاءه وتنوّعت، لكنها أجمعت كلها على أمور أهمّها:

- وقوع الابتلاء وشدّته، وبلوغ الأذى منه مبلغا عظيما؛ خاصّة لرجل في مثل إمامته وفضله.
- الإجماع على أنّ هذا الابتلاء كان لسبب شرعيّ، حيث رفض التنازل فيه عن دينه وحقّه.
- صبر الإمام ورباطة جأشه، ومقابلته للأذى والنيل منه بعقل وروية، فلم يشطط ولم يزل، بل زاد رفعة ومنزلة وزكاء.

ومن الروايات المنقولة؛ أنّه "سُعي به إلى جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنهما وهو ابن عم أبي جعفر المنصور، وقالوا له: إنّ لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشيء، فغضب جعفر ودعا به وجردّه وضربه بالسياط، ومُدّت يده حتى انخلعت كتفه وارتكب منه أمرا عظيما، فلم يزل بعد ذلك الضرب في علوّ ورفعة وكأنّما كانت تلك السياط حلّا حُلّي به"⁽³⁾.

ولا يخفى أن الإمام مالكا كان من "تابعي التابعين... وأجمعت طوائف العلماء على إمامته وجلالته وعظم سيادته وتبجيله وتوقيره والإذعان له في الحفظ والتثبيت وتعظيم حديث رسول الله ﷺ"⁽⁴⁾.

توفي الإمام مالك رحمه الله "سنة تسع وسبعين ومئة...تواترت وفاته في سنة تسع، فلا اعتبار لقول من غلط، وجعلها في سنة ثمان وسبعين...ودفن بالبقيع اتفاقا... قد كان هذا الإمام من الكبراء السعداء، والسادة العلماء، ذا حشمة وتجمّل، وعبيد، ودار فاخرة، ونعمة ظاهرة، ورفعة في الدنيا

(1): ابن العماد، شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد الحنبلي الدمشقي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، (لبنان- بيروت: دار ابن كثير، ط/ 01، 1408هـ-1988م)، (مج 02 / ص: 350).

(2): بن خلّكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: د/ إحسان عباس، (لبنان- بيروت: دار صادر، د/ ط/ ت)، (مج 04 / ص: 135).

(3): المصدر نفسه، (مج 04 / ص: 137).

(4): النووي، أبو زكريا محيي الدين بن شرف، تهذيب الأسماء واللغات، (لبنان- بيروت: دار الكتب العلميّة، د/ ط/ ت)، (مج 02 / ص: 75).

والآخرة، كان يقبل الهدية، ويأكل طيباً، ويعمل صالحاً⁽¹⁾، وغيرها من أوصاف عباد الله الذين جمعوا بين القول الصحيح، والعمل المليح.

ومما يمكن الإشارة إليه في حياة الإمام مالك ما يلي:

- كثرة الشيوخ والعلماء الذين درس عليهم، وأخذ عنهم شتى العلوم والمعارف، حيث بلغ عددهم المئات، وقد أخذ عنهم علوم الوحيين خاصة، وعلم الرجال، بل لريمت كثير من شيوخه إلا وقد رجعوا إليه واستفتوه.

- كثرة التلاميذ والطلاب الذين أخذوا عنه وجالسوه، ونهلوا من علمه واستفادوا منه، وتنوع الأقطار والبقاع التي جاءوا منها، وكل ذلك بسبب القبول الذي جعله الله تعالى له، وللسمعة والذكر الطيبين الذين كان يحظى بهما لدى العامة والخاصة من المسلمين.

- اعتماد الإمام مالك في جهاده العلمي على التربية والتعليم، وسلوكه لطريق التدريس وتقرير الكتب وتربية الأجيال، وجعله المسجد لهذا الجهاد ميداناً، والحديث النبوي سلاحاً، ولعل الإمام ابن باديس قد تأثر بهذه التجربة الأثرية العتيقة.

- رغم أن الإمام مالك كان مشغولاً بالتعليم والتدريس، إلا أنه قد ترك بعض المؤلفات، ولعل أهمها وأعظمها هو الموطأ، الذي سنتناوله في العنصر التالي.

- توفر كثير من المزايا العلمية للإمام مالك، ومنها كونه من أقرب الأئمة الأربعة إلى العهد النبوي، كما أن لاستيطانه في المدينة النبوية أثر في اطلاعه على الحديث، ولقائه بحامليه من أهلها، أو ممن زارها من علماء الآفاق.

في الأخير؛ يمكن القول بأن مآثر الإمام مالك "ومناقبه وفضائله كثيرة جداً، وثناء الأئمة عليه أكثر من أن يحصر في هذا المكان"⁽²⁾، بل يُرجع إلى كتب الرجال والتراجم والسير.

(1): الذّهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، المصدر السابق، (مج 08 / ص: 130).

(2): ابن كثير، أبي الفداء إسماعيل ابن عمر القرشي الدمشقي، البداية والنهاية، تحقيق: د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، (مصر -

جيزة: هجر للطباعة والنشر، ط/ 01، 1418هـ - 1998م)، (مج 13 / ص: 601). وأنظر: المزي، جما الدين أبي الحجاج

يوسف، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق: د/ بشار عواد معروف، (لبنان - بيروت: مؤسسة الرسالة، ط/ 01،

1413هـ - 1992م)، (مج 27 / ص: 91).

- 2/ من خصائص الموطأ ومميزاته المعرفية: إن كتاب الموطأ للإمام مالك من أهم الكتب التي ألفت في فنّها، وتتجلّى هذه الأهمية وتظهر في كثير من الجوانب، أهمّها:
- المنزلة العلمية والمكانة المعرفية التي يحتلّها مؤلّف الكتاب، بكونه من أتباع التابعين، ومن العلماء المعروفين الذين شهد لهم القاصي والداني بسعة العلم، وعلوّ الكعب في علوم الإسلام، وبخاصّة في علم الحديث ونقد الرجال، ولا يخفى أنّه -في الغالب الأعم- أهميّة المؤلّف من أهميّة المؤلّف.
 - حصول السبق الزمني والمكاني للموطأ؛ فمن ناحية الزمن: بقرب المؤلّف من عهد النبوة، ووجوده في القرون المشهود لها بالخيرية، وتأليفه لهذا الكتاب في بدايات عصر الرواية، حيث يعدّ كتاب الموطأ من أهمّ المؤلفات الحديثية في القرن الثاني للهجرة.
 - أمّا من ناحية المكان؛ فقط كان الإمام مالك مستقرّاً في حاضرة الحديث النبوي، حيث كانت المدينة بقعة علمية عموماً، وحديثية على وجه الخصوص، وذلك بحكم كونها سكنى النبي ﷺ، وبقاء الكثير من الصحابة والتابعين من حاملي حديث النبي ﷺ فيها، أمّا من خرج منها من علماء الآفاق، فقد كان يأتيها في المواسم، فيؤخذ ما عنده من الحديث النبوي.
 - الورع والإخلاص الذّين تميّز بهما الإمام مالك، ممّا كتب القبول لكتابه، فقد كثرت الموطآت في زمانه "حتى قيل لمالك: شغلت نفسك بهذا الكتاب، وقد شاركك فيه الناس وعملوا أمثاله، فقال: اتّوني بها، فنظر فيها، ثم قال: لتعلمنّ ما أريد به وجه الله" (1).
 - فيه آراء تذهب إلى أنّ الموطأ قد ألفه الإمام مالك لتلبية طلب من جهة رسمية تتمثّل في الخلفاء العبّاسيين، الذين رأوا كثرة المذاهب والأقوال والاتجاهات التي تخوّفوا من تصارعها وتناحرها، وتهديدها لوحدة الأمة، "فضلاً عن رغبتهم في جعله دستوراً تسير الأحكام به في سائر الأمصار، ومن خلال هذه الروايات يقوى الظنّ أنّ ((الموطأ)) بدأ تصنيفه في عهد الخليفة المنصور العبّاسي، وأنّه كان تاماً في عهد الخليفة المهدي" (2)، المتوفي سنة 169 هـ.

(1): د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، موسوعة شروح الموطأ للإمام مالك بن أنس، (القاهرة - مصر: مركز هجر للبحوث

والدراسات العربية والإسلامية، ط/ 01، 1426 هـ - 2005 م)، (مج 01 / ص: 41).

(2): المصدر نفسه، (مج 01 / ص: 42).

أمّا من الناحية المعرفية والعلمية، فقد كثر كلام الأئمة والنقاد والشرح، وتنوّعت آراء علماء الجرح والتعديل في نقد رجاله، ودراسة أسانيده، كما اعتنى به أئمة الفقه وأصوله، المهمّ أنّ كلّاً منهم درسه من جهته وناحيته، لكنّي في هذه العجالة سأحاول ذكر أهمّ هذه المميزات فقط، كون الاستقصاء والإحاطة ليس من مقاصد البحث ومراميه، وهي كالتالي:

- الموطأ كتاب مؤلّف على نسق الأبواب، وقد قصد فيه الإمام مالك ما قوي من أحاديث أهل الحجاز، ولم يكتف فيه بالحديث النبوي المرفوع إلى النبي ﷺ، بل جعل فيه من أقوال وفتاوي الصحابة والتابعين، " وقد بناه على نحو عشرة آلاف حديث، من مائة ألف حديث كان يحفظها، فكان ينظر فيه وينقحه حتى أصبح على ما هو عليه الآن، وفيه خمسمائة وعشرون حديثاً مرفوعاً للنبي ﷺ، وثلاثة آلاف أثر عن الصحابة وأقوال التابعين، وبلاغات مالك وأقواله"⁽¹⁾، وبهذا فقد تنوّعت محتويات الموطأ وتعدّدت على عادة التصنيف في زمانه.
- السبق والتقديم الذّين يحظى بهما الموطأ لدى أئمة الحديث وأهله، خاصة قبل ظهور الصحيحين، ولهذا وجّه كثير من الحفاظ، ومنهم الإمام ابن كثير "قول الإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله: (لا أعلم كتاباً في العلم أكثر صواباً من كتاب مالك)، إنّما قاله قبل البخاري ومسلم، وقد كانت كتب كثيرة مصنّفة في ذلك الوقت في السنن... وكان كتاب مالك، وهو (الموطأ)، أجلّها وأعظمها نفعا، وإن كان بعضها أكبر حجماً منه وأكثر أحاديث"⁽²⁾، ورغم هذا تبقى مكانة الموطأ معتبرة وعالية.
- كثرة الأنواع الحديثية الواردة في الموطأ، وتنوّع مرتبتها من حيث القبول والردّ، ولهذا لم يستسغ المحدثون إطلاق نعت الصحيح على الموطأ، واعتبروا هذا الإطلاق عارياً عن الصّحة والقبول، ومبالغاً فيه، وبعيدا عن التّمحيص والتّدقيق، وذلك لأنّ فيه الصحيح والضعيف، "فهو مع جلالته لا يخلوا من كثير من الأحاديث المرسلة والمعضلة، وبعضها مما

(1): د/ المرعشي، يوسف بن عبد الرحمن، مصادر الدراسات الإسلامية ونظام المكتبات والمعلومات، (لبنان - بيروت: شركة دار

البشائر الإسلامية، ط/ 01، 1427هـ-2006م)، (مج 01 / ص: 114). وانظر: د/ أبو شهبه، محمد بن محمد، الوسيط في

علوم ومصطلح الحديث، (السعودية - جدة: عالم المعرفة، د/ ط/ ت)، (ص: 67).

(2): أحمد محمد شاكر، المصدر السابق، (ص: 28).

لم يوجد له أصل أصلاً⁽¹⁾، بل " وفيه نيّفٌ وسبعون حديثاً قد ترك مالك نفسه العمل بها، وفيه أحاديث ضعيفة وهماها جمهور العلماء"⁽²⁾، وفي هذا المقام يحسن بنا التنويه بما ذهب إليه الإمام أحمد شاكر رحمه الله؛ في الحكم على الموطأ حكماً وسطاً بين الغلوّ والإجحاف، " وقد يكون هذا القول هو الأرجح والأصوب"⁽³⁾، وذلك حين قال: " والحق أنّ ما في (الموطأ) من الأحاديث الموصولة المرفوعة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم صحاح كلّها، بل هي في الصّحّة كأحاديث الصّحيحين، وأنّ ما فيه من المراسيل والبلاغات وغيرها يعتبر فيها ما يعتبر في أمثالها مما تحويه الكتب الأخرى"⁽⁴⁾، ويبقى المجال مفتوحاً للبحث في مضائه وميادينه.

- كثرة الخصائص العلميّة البارزة التي يميّز بها الموطأ ممّا يمكن إفراده بالدراسة والبحث، وحتى لا أطيل، سأذكر أهمّها في شكل نقاط مختصرة، وأهمّها ما يلي:

1/ طول المدّة الزّمنية التي استغرقها الإمام مالك في تأليفه وجمعه، والتي قد تصل إلى أربعين سنة، وأكثر من هذا؛ تعهّده الدّائم لكتابه بالتّصحيح والتّنقيح والمراجعة.

2/ الطريقة الفريدة والمتميّزة في كتابة الموطأ، فقد كان الإمام مالك يذكر عنوان الباب، ثمّ يذكر الأحاديث المرفوعة التي تتجلّى مناسبتها للعنوان، ليثني ببلاغته إلى النبي ﷺ، أو صحابته، أو التّابعين، ثم غالباً ما يختم صنيعه هذا بذكر فقهه واجتهاده في موضوع الباب المطروق.

3/ كثرة روّاة الموطأ وتعدّدهم، حيث تنوّعت أقطارهم ومشاربهم، واختلفت أزمانهم وطبقاتهم.

4/ كثرة الشروح وتنوّعها؛ وجلالة العلماء الذين اعتنوا به، كلّ تناوله من الجانب الذي يتقنه.

هذا أقلّ ما يمكن ذكره عن هذا السّفر الجليل، ممّا يبيّن بعض أسباب اعتياده كمصدر حديثي⁽⁵⁾.

(1): الألباني، محمد ناصر الدين، علوم الحديث، جمع: عصام موسى هادي، (لبنان- بيروت: دار ابن حزم، ط/ 01، 1424هـ-

2003م)، (ص: 20).

(2): السيوطي، جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر، المصدر السابق، (مج 01 / ص: 150).

(3): د/ المرعشي، يوسف بن عبد الرحمن، المصدر السابق، (مج 01 / ص: 116).

(4): أحمد محمد شاكر، المصدر السابق، (ص: 28).

(5): أنظر: د/ عبد الله التّركي، المصدر السابق، (مج 01 / ص: 44-79). ود/ المرعشي، المصدر السابق، (مج 01 / ص: 119).

الفرع الثاني / مصدرية الموطأ في الدرس الحديثي للإمام ابن باديس:

لقد أخذ الموطأ مكانه المتقدم بين المصادر الحديثية التي اعتمد عليها الإمام ابن باديس في درسه الحديثي، حيث تصدّى الإمام لتدريسه وشرحه، وجعل منه مصدره الحديثي الذي كان بموازاة تفسيره للقرآن الكريم، كما اختاره من بين سائر الكتب والمصنّفات الحديثية الكثيرة، وفي هذه الجزئية سأشير إلى تدريس الإمام للموطأ، ثم أعرج إلى أهم الأسباب التي جعلته يختاره كمرجع له في الحديث النبوي.

1/ شرح الإمام ابن باديس للموطأ: لقد سبق الإشارة في غير ما موضع إلى إيمان الإمام ابن باديس بوجوب الرجوع إلى الوحيين لعلاج الآفات، ومداواة الأمراض والأسقام، وتنوير الفهوم، وتحرير الجسم، فانبرى لجهاده العلميّ باسطاً أحد جناحيه يفسّر كلام الله تعالى، وكان عليه أن يمدّ الثاني من الجناحين إن أراد الانطلاق، وحصل له ذلك لما شرع في شرح الموطأ للإمام مالك.

يمكن الإشارة إلى الإطار المكاني والزمني الذي شرح فيه الإمام ابن باديس الموطأ، فأما المكان؛ فهو قلب الجزائر في مدينة قسنطينة وبالضبط في الجامع الأخضر، ولا يخفى ما في إصلاح القلب من أثر على إصلاح الجسد، وأما الزمان فقد امتدّ شرحه لسنوات عديدة، حيث كان شروعه في تدريسه سنة 1916م تقريباً، ليختتمه سنة بعد ختمه لتفسير القرآن الكريم، وذلك في التاريخ الرّمز والمتمثل في 12 ربيع الثاني 1358هـ الموافق لفتح شهر جوان 1939م، أي أنّه دام في شرحه 23 سنة تقريباً⁽¹⁾.

ومن المهمّ أيضاً معرفة وقت تدريسه لهذا الكتاب، فقد كان وقت هذا الشرح من "بعد صلاة الفجر من كلّ يوم، ما عدا أيام العطلة الأسبوعية والعطل الموسميّة حتّى ختمه"⁽²⁾، ولكنّ الذي وقع أنّ الإمام ابن باديس لم يكتب هذا الشرح، ولم يقم أحد بتدوينه من تلامذته الذين كانوا يواظبون على حضور درسه، أو أنّه قد دُوّن بعضه وضاع، خاصّة أثناء الثورة التحريرية حين كان المستعمر الفرنسي يصادر كلّ ما هو باديسيّ، المهمّ أنّه "لم يبق منه إلّا بعض الأحاديث كان الإمام قد

(1): أنظر: د/ عبد القادر فضيل، أ/ محمد الصالح رمضان، المصدر السابق، (ص: 280). و د/ محمد الدراجي، الشيخ عبد الحميد

ابن باديس السلفية والتجديد، (ص: 23). و أ/ الجيلاني بن محمد، الاحتفال بختم الموطأ، مجالس التذكير من حديث البشير

التذير، (ص: 330).

(2): عامر، علي عرابي، المصدر السابق، (ص: 286).

شرحها بقلمه ونشرها على صفحات مجلّته (الشهاب) على شكل مقالات تحت عنوان (مجالس التذكير من حديث البشير النذير)⁽¹⁾، ثم جمعت هذه المقالات بعد الاستقلال والتحرّر في كتاب مستقلّ يحمل نفس العنوان، والذي تكفلت بطابعته وزارة الشؤون الدينية الجزائرية، وقد صدرت الطبعة الأولى منه سنة 1403 هـ، الموافق لـ: 1983 م، وكان التقديم بقلم الشيخ عبد الرحمن شيان رحمه الله تعالى.

وهنا يمكنني تسجيل بعض الملاحظات على هذه البطاقة التعريفية المختصرة لشرح الإمام للموطأ: 1-1 / طول المدة الزمنية التي استغرقها الإمام في شرحه للموطأ، وفي هذا دلالات كثيرة، وإشارات عظيمة، منها:

- طول النفس العلميّ لدئ الإمام، ففي ثلاث وعشرين سنة وهو مع هذا الكتاب، فلم يملّ ولم يستعجل، بل سار في ثبات المتقين من النصر، والواثقين من التوفيق والسداد.
- مراعاته لمراحل النهوض والعلاج، وعدم تجاوزه لها، فرغم الأوضاع البائسة، والجموع اليائسة، إلّا أنّ ابن باديس لم يستعجل الثمرة، ولم يتحمّس أو يندفع للتغيير، وليت الجماعات الإسلامية في عصرنا امتثلت هذه التجربة في عملها الدعوي، فمن أراد مشروعا يحصّده في سنة زرع قمحا، ومن أراد حصاده بعد عشرة أعوام غرس شجرة، ومن أراد حصادا بعد مئة عام علّم شعباً، فرحم الله الإمام، ورحم تجربته ونهجه.
- لا بدّ وأنّ شرح كتاب مثل الموطأ في هذه المدة الطويلة، دون انقطاع -إلّا في المناسبات والإجازات- لدليل قاطع على علم الإمام ابن باديس ورسوخه، ودليل على أنّ هذا الشرح كان درّة نفيسة، وجوهرة عزيزة تفلّتت من نحر الأمة وضاعت، ولهذا سأسمح لنفسي وأقول؛ بأنّ تفسير القرآن الكريم وشرح الموطأ للإمام ابن باديس الذين ضاعا ولم يكتبتا، يُعدّ ضياعهما نكبة علمية وكارثة ثقافية، ومجزرة معرفية ومأساة أمّة، بكلّ ما تعنيه هذه التعبيرات من ألم وكارثية.

1-2 / تدريسه للموطأ بعد الفجر؛ استغلالا من الإمام ابن باديس لهذا الوقت المهمّ، والذي يكون

(1): المصدر نفسه، (ص: 288).

فيه الطالب نشيط الذهن، ثاقب الفكر، نير البصيرة، فيفهم ويعي، خاصة إذا استحضرنّا ما يتطلّب الدرس الحديثي من كلام عن الأسانيد والرجال، ونقل أقوال الأئمة وتحرير المسائل، مما يتطلّب حضوراً ذهنياً لا أفضل منه بعد صلاة الفجر، كما يمكن أن يكون اختيار هذا الوقت ليجد الإمام مجالاً أوسع لبث أفكاره التنويرية التحريرية، حيث تكون أعين المتربّصين غافلة ساهية.

1-3/ ختم الإمام ابن باديس شرح الموطأ سنة واحدة بعد ختم تفسير القرآن العظيم، وسنة واحدة تقريباً قبل وفاته، وما صاحب هذا الختم من مظاهر الاحتفال والاحتفاء، ممّا هو مبين ومذكور مشهور في مضائه⁽¹⁾، ولكن لا بأس بالتطرّق إلى بعض الإشارات التي وردت في هذا الاحتفال الضخم، وهي باختصار:

- انتهاز فرصة ختم الموطأ لدعوة الأمة الجزائرية التي اعتاد الكثير من أبنائها الاحتفال بالبدعة والشرك، لكن هذه المرة اجتمعوا للاحتفال بسنة المصطفى ﷺ، والاحتفاء بأهل السنة والعلم والامثال الصحيح، وربطاً للأمة بالوحيين.
- استغرق درس ختم الموطأ لساعة ونصف من الزمن، وهنا لا ندرى إن كان هذا هو الزمن الذي كان يستغرقه الدرس الحديثي في الأيام العادية الأخرى، أم إنّ درس الختم كان أطول حتى تستفيد الجموع الحاضرة، أم إنّ كان أقلّ من المعتاد؛ وذلك مراعاة لعدم التّطويل وترك المجال لنشاطات أخرى كانت من ضمن فعاليات الاحتفال، المهم أنّ مدّة زمنيّة مثل هذه تعدّ فترة مهمّة، خاصة مع الاستمرار والتجدّد اليومي.
- بعد أن افتتح الإمام ابن باديس الكلام بخطبة الحاجة تأسيساً بالمصطفى ﷺ، شرع في شرح الحديث الأخير من الموطأ، وذلك بعد أن رواه وساقه "بالسند المتّصل إلى الإمام أبي عبد الله مالك بن أنس رضي الله عنه..."⁽²⁾، وهذا الكلام ذو قيمة علميّة مهمّة، كونه يشير إلى رواية الإمام لهذا الحديث بسنده المتّصل إلى الإمام مالك، ولهذا يمكن أن أذكر هنا نصّاً لأستاذتي المحترمة الدكتورة عقيلة حسين حفظها الله تعالى، والذي قالت فيه عن الإمام ابن باديس:

(1): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 315-337).

(2): المصدر نفسه، (ص: 315).

"لم يأخذ الشيخ علم الحديث -حسب علمي- على طريقة أهل هذا العلم الجليل، وهي الجلوس وملازمة شيخ والقراءة عليه ثم أخذ الإجازة، أو أخذ الإجازة من الشيخ على أماليه وكتبه، وليس في كتابات ابن باديس السند المتصل منه إلى النبي -ﷺ- عندما يستدل بحديث في خطبه أو مقالاته"⁽¹⁾، ويمكن تسجيل الملاحظات الآتية على هذا النص:

أ/ يطرح هذا النص إشكالين اثنين، قد أشرت إلى نصيهما بالتسطير المتنوع، الأول منهما يتعلق بتحمل وتلقي الإمام ابن باديس للحديث النبوي، فقد ذكرت أستاذتي بأنه لم يأخذ علم الحديث على طريقة أهل هذا العلم، وذكرت من أمثلة تحمل الحديث؛ وهي الجلوس للقراءة على الشيخ ثم أخذ الإجازة، أو أخذ الإجازة من الشيخ على أماليه وكتبه، ويُجاب عنه بما يأتي:

- لو لم يأخذ الإمام ابن باديس علم الحديث على طريقة أهل هذا العلم؛ لما كان من أهله، ولما صحّ نعته بالمحدث، ولما استطاع الخوض فيه، بل وكيف ننفي أمرا دون أن نثبت بديلا عنه، وكان الأفضل البقاء على الأصل مع الإشارة إلى عدم إمكان الاطلاع على تفاصيله، لكن الأستاذة معذورة فيما ذهبت إليه، كَوْن الدفتر الزيتوني الذي كُتبت فيه إجازات الإمام ابن باديس لم يظهر إلّا بعد أن طبعت الأستاذة كتابها، فلم يتوفر لها ما توفر لدينا.
- كلّ الطرق التي نفت الأستاذة أن يكون الإمام ابن باديس قد تحمل بها علم الحديث على طريقة الأوائل؛ الحقيقة أنّ الإمام قد تحمل وأجيز بها، عن غير واحد من المجيزين، وفي غير ما بلد، وقد تناولت طرفا من هذا الموضوع في المبحثين الثاني والثالث من الفصل الأول، كما أشرت في الهامش إلى مواضع الاستزادة والتفصيل.

ب/ أمّا الإشكال الثاني فهو؛ نفيها أن يكون الإمام ابن باديس قد ثبت له السند المتصل فيما يرويه من الأحاديث النبوية، في المجالس والخطب والمقالات التي يلقيها، والنص الذي نقلت طرفا منه، والذي تحدّث عن حفل ختم الموطأ يبيّن بما لا يدع مجالا للشكّ بأنّ الإمام ابن باديس قد روى أحاديث بسنده المتصل إلى أصحاب المؤلفات والمصنّفات التي يروي عنها.

(1): د/ عقيلة حسين، جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في خدمة الحديث الشريف، (الجزائر - روية: دار الوعي، ط/ 01،

2/ من أسباب اختيار الإمام ابن باديس للموطأ: لقد تنوّعت الأسباب التي جعلت من الإمام ابن باديس يختار الموطأ للإمام مالك، وكثرت المسوّغات التي دفعته لاختياره كمصدر لدرسه الحديثي، ووَجَدت بعضها منشورا في بعض الدّراسات والمؤلّفات التي اطلّعت عليها، وقد تنوّعت هذه الأسباب بين كونها نفسية، أو علمية، أو إصلاحية، إلى غيرها من الأسباب الكثيرة. أمّا هنا فسأبدأ بالأسباب التي أشار إليها الإمام نفسه، وذلك فيما أمكنني الوصول إليه من كلامه، ثمّ أثني بباقي الأسباب الأخرى التي يمكن أن تكون من الدوافع والحوافز لاختياره، وهذا زيادة على ما سبق ذكره في المطلب الثاني من هذا الفصل.

2-1/ الأسباب الأصلية : ويقصد بها الأسباب الرئيسية التي صرّح بها الإمام ابن باديس في كتاباته، وهي رغم قلّتها، تكتسي أهمية علمية وألوية في التّقديم، ومن النّصوص الذّهبيّة التي تبين أكثر الأسباب التي حملت الإمام ابن باديس على اختيار الموطأ، ما صرّح به عند قوله: "إنّ هذا الموطأ هو أقدم كتاب لنا ألّفه إمام عظيم من أتباع التابعين، وهو كتاب يعلمنا العلم والعمل، ويعرّفنا كيف نفهم وكيف نستنبط، وكيف نبني الفروع على الأصول، يعطينا هذا كلّه وأكثر منه بصريح بيانه، وبأسلوب ترتيبه للأحاديث والآثار والمسائل.

وإنّ شراح هذا الكتاب الجليل لم يوفّوه حقّه -في نظري القاصر- من هذه النّاحية وهي من أعظم نواحيه"⁽¹⁾.

فمن خلال هذا النّص يمكننا أن نستنتج الأسباب التالية:

- تقديم الموطأ لكونه من أقدم الكتب والمؤلّفات الحديثيّة التي صنّفت في بابها، ولا شك أنّ الرّجوع إلى العتيق أسلم وأحكم، ولما فيه من بركة التّمرّس في كتب المتقدّمين، وهذا مأخوذ من قوله: "إنّ هذا الموطأ هو أقدم كتاب لنا".
- كون مؤلّف الموطأ هو نجم السّنن و"إمام عظيم من أتباع التّابعين"، وهو الإمام مالك؛ الذي حاز شرف الزّمان، وسعة العلم ودقّة النّظر، وكونه من أئمة الهدى الذين وعد الإمام بالرجوع إليهم في دعوته، وهو من الأوائل من سلف الأمة الصّالح، ولهذا قال: "فلله مالك

(1): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (ص: 327).

ما أوسع علمه، وما أدق نظره، وما أكثر أتباعه، فرحمة الله تعالى عليه، وعلى أئمة الهدى أجمعين⁽¹⁾.

- النظر إلى الموطأ باعتباره كتاباً "يعلّمنا العلم والعمل"، فقد حوى من السنن القولية والفعلية والآثار، مما يبعث على العمل وعدم الاكتفاء بالتّظهير الأجوف، وثنائية العلم والعمل هي المحرّرة، فالعلم يحرّر الأذهان والعمل يحرّر الأبدان.

- الموطأ "كتاب يعرفنا كيف نفهم، وكيف نستنبط، وكيف نبني الفروع على الأصول"، والحقيقة أنّ هذه الوظائف المذكورة هي التي يمكنها أن تحرك العقل، وتنير الفكر، وما أشار إليه الإمام (الفهم / الاستنباط / بناء الفروع على الأصول)، هي أدوات الاجتهاد والنّظر، فبالفهم نستنبط، وبلاستنباط يمكننا أن نبني الفروع على الأصول، أو إذا عكسنا المسألة فنقول: لا يمكننا بناء الفروع على الأصول إلاّ بدقّة الاستنباط، هذا الأخير الذي لا يُدرك إلا بفهم صحيح، ومذهب في النّظر رجيح.

- تميّز الموطأ في جانب صناعته وتأليفه، وتفردّه "بصريح بيانه، وبأسلوب ترتيبه للأحاديث والآثار والمسائل"، فهو بهذا قد جمع بين عبقرية تأليفه، وبين تنوّع وغنى مضمونه، وإدراك الإمام وترتيبه لما ورد في الموطأ، فقد بدأ بذكر الأحاديث ثمّ ثنى بالآثار، ثمّ ثلث بالمسائل التي كان الإمام يختتم بها الباب الوارد، ولا شكّ أنّ هذا التّرتيب لم يأت عبثاً.

وقد نعت الإمام ابن باديس في مواضع أخرى صنيع الإمام مالك؛ بالابتكار، وبخاصّة في الباب الأخير من مصنّفه، والذي عقده تحت مسمّى: باب جامع، وذلك عند قوله: "وما هو مشهور من ابتكار مالك في كتابه هذا: الكتاب الجامع الذي ختم به الموطأ، فإنّه نظر إلى مسائل عديدة من أمّهات الشريعة... نظمها في هذا الباب بنى عليها من جاء بعده فروعاً وعقد عليها أبواباً كالبخاري وغيره"⁽²⁾.

- اعتقاد الإمام ابن باديس بعدم توفية الموطأ حقّه من الشّرح والدّراسة، وبأنّ هذا الكتاب

(1): المصدر نفسه، (ص: 57).

(2): المصدر نفسه، (ص: 327).

الجليل لم تكشف درره، ولم تستنبط لآليه، وبأن بعض جوانبه مازالت تحتاج للبحث والتّقيب، خاصة من ناحية إبراز أسرار ترتيبه وبيانه، كلّ هذا عبّر عنه الإمام ابن باديس بتواضع وهضم للنفس، كما يزيدنا يقينا بأنّ شرحه كان عظيما وجليلا، لأنّه ما انتقد الشروح السابقة إلّا وهو على يقين واستعدادٍ للإتيان بما يفوق سابقه.

2-ب/ الأسباب الفرعية: هناك من الباحثين من ذكر أسبابا أخرى يمكن اعتبار بعضها أسبابا ثانوية، وفيهم من ذكر أسبابا مهمّة وخفيّة جعلت الإمام يختار الموطأ، ومنها:

- اعتبار الإمام ابن باديس " أنّ كتاب الموطأ للإمام مالك هو خير مناهج الاستدلال ولذا قام بتدريسه بعد أن أتمّ حفظه"⁽¹⁾، وهنا نجد جديدا في كون الإمام قد حفظ الموطأ.

- قد يكون لقاء الإمام ابن باديس بالشيخ أحمد الفيض آبادي الهندي في المدينة النبوية " من بين الأسباب التي وطّدت صلته بالحديث وشرحه، وكان من بين الكتب التي كان يدرّسها هذا الشيخ في المسجد النبوي صحيح مسلم، فلا يستبعد أن يكون ابن باديس قد حضر هذه الدّروس وتأثر بها مما جعله هو أيضا يشرح الموطأ"⁽²⁾، والحقيقة أنّه التقى بالكثير من العلماء الذين كان لهم عناية بالحديث وكتبه.

- " نفي التّهمة التي كان أعداء الإصلاح، وخصوم ابن باديس -رحمه الله- يرفعونها في وجهه وهي أنّه صاحب فكر دخيل، لم يحترم فيه المرجعية التي كانت سائدة في هذه الديار"⁽³⁾، ولا يخفى موضع الموطأ من بين مصادر الفقه عند المالكية، وبإشهاره لهذا العنوان سيبعد عن نفسه التّهم، ويبعد نفسه عن كلّ شكّ وريب، خاصّة لدى من خاصمه بكون الأئمة الجزائريّة أمّة مالكية، فجاءهم بقول مالك ورأيه.

- تأثر الإمام ابن باديس الظّاهر بعالمين من علماء الأئمة الإسلامية، "وكلاهما له اعتناء بالموطأ واحتفاء به"⁽⁴⁾، وهما عالما المغرب؛ يوسف بن عبد الله ابن عبد البر (ت: 463هـ)، الذي

(1): د/ عبد الحميد درويش النّساج، المصدر السابق، (ج 1/ ص: 33).

(2): عامر، علي عرابي، المصدر السابق، (ص: 285).

(3): د/ محمد الدّراجي، المصدر السابق، (ص: 104).

(4): المصدر نفسه، (ص: 107).

شرح الموطأ في سفر جليل سمّاه: (التمهيد لما في الموطأ من الأسانيد)، والثاني هو: أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربي المالكي (ت: 543 هـ)، الذي شرّحه شرحاً مستفيضاً في كتاب عنوانه بـ: (القبس شرح موطأ مالك بن أنس).

- رغبة الإمام ابن باديس في العودة بالناس إلى القرون الأولى، حيث الخيرية والفضيلة، وما كان في كتبهم من طرائق في الاستدلال، وتحرّجاً للحقّ المبني على الدليل الصحيح، أو النظر الراجح، وفي المقابل إبعاد الناس عن جوّ التقليد والتعصّب والإغراق في الفروع والحواشي المبلدة للدّهن.

لعلّ ما ذكر هنا هو أهمّ الأسباب التي دفعت الإمام ابن باديس لاختيار الموطأ لشرحه⁽¹⁾.

3 / دفاع الإمام ابن باديس عن اختياره للموطأ: لقد دافع الإمام ابن باديس عن اختياره لتدريس الموطأ، وذلك في غير ما موضع من مؤلفاته، كما كان دفاعه متنوّعاً ومختلفاً باختلاف القضايا والمسائل التي ينطلق منه، وهنا سأذكر بعض أمثله باختصار وتركيز.

3-أ/ توجيهه لمراسيل الإمام مالك في الموطأ: لقد دافع الإمام ابن باديس عن مراسيل وبلاغات الموطأ والتمس لها مخرجاً علمياً، لكن حتّى هذا المخرج يحتاج إلى دراسة مستقلة واستقصاء لكلّ النصوص المعنيّة، للحكم على مدى صحّته، وهذا التوجيه في قوله: "وكثيراً ما يروي مالك الحديث مسنداً ومرسلاً، ولا يرسل مالك ولا يأتي ببلاغ في الغالب إلا وهو على علم بمن يترك من السند أنّه محلّ الثقة والقبول والاعتماد، فأما إذا شكّ فإنه يصرّح بشكّه، وتصريحه بالشكّ حين يشكّ يدلّنا على ما عنده من العلم واليقين عندما يسكت دون أن يصرّح بالراوي..."⁽²⁾، فنلاحظ هنا بأنّ الإمام ابن باديس بعد أن ذكر حالة تصريح الإمام مالك بالشكّ؛ سارع إلى دفع ما قد يخطر ببال القارئ، الذي قد ينتقص من الإمام مالك باعتبار الشكّ مرادفاً لقلّة اليقين، والبعد عن التّحرّي، بل جعله دليلاً على العلم واليقين الذين بلغهما.

3-ب/ توجيهه لغياب باب عن السيرة النبويّة في الموطأ: تعرّض الإمام ابن باديس لمسألة غياب

(1): أنظر: د/ محمد الدراجي، المصدر السّابق، (ص: 147). ود/ عقيلة حسين، المصدر السّابق، (ص: 224).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السّابق، (ص: 315).

باب في الموطأ يتناول السيرة النبوية، وجعل الحديث الذي ختم به كتابه، والذي كان في أسماء النبي ﷺ كافياً ومشيراً إلى السيرة النبوية ككل، وذلك عند قوله: "وأن مالكا لم يذكر في موطئه كتاباً خاصاً بالسيرة النبوية كما فصل ذلك غيره ممن جاء بعده، ولكنه ذكر أسماء الشريفة ﷺ فكفاه، وذكر أسمائه متضمن لسيرته ﷺ فكفاه في ذكر حياته ﷺ أن يذكر أسماءه"⁽¹⁾، ولا يخفى على الناظر بأن هذا الاتجاه من الإمام ابن باديس يمكن ألا يوافق عليه الكثير، خاصة وأنه من المحال أن يستغنى بأسمائه عن سيرته العطرة، إلا إذا شرحه أمثال الإمام ابن باديس ممن يمكنه أن يستنطق أفراد الكلمات ليستنبط منها سيرة وحياة كاملة.

المطلب الثالث: المصادر الواردة في الدرس الحديثي للإمام ابن باديس

بعد أن أشرت لأهم مصدرين من مصادر الدرس الحديثي، والمتمثلين في الحديث النبوي بصفة عامة، والموطأ بصفة خاصة، سأعرج في هذا المطلب على المصادر الأخرى التي برزت وظهرت في درس الإمام ابن باديس، ولن أتناول هذه المصادر بالتفصيل والدراسة، لاستحالة ذلك ومجانبتها لمقاصد البحث، لكن سأتناول هذا الجانب من خلال ما يأتي:

- الإشارة بشيء من التفصيل إلى بعض المصادر التي أكثر الإمام ابن باديس من الرجوع إليها، والاقتراس والأخذ منها، سواء من المؤلفات أو من المؤلفين.
- الاكتفاء بسرد المصادر الأخرى، وهذا ليس لعدم أهميتها، ولكن لكونها لم تحظ بما حظيت به المصادر الأخرى من العناية والتقديم لدى الإمام ابن باديس.
- الإشارة إلى المصادر التي أخذ منها الإمام ابن باديس بحیطة وحذر، أو أنه انتقدها، لأختتم هذا المطلب بأهم الملاحظات التي يمكن تسجيلها على هذه المصادر.

الفرع الأول / المصادر الأساسية في الدرس الحديثي:

استعان الإمام ابن باديس في درسه الحديثي ببعض المصادر، وجعلها أساسية فيه وجوهية، لا يكاد يخلو حديث شرحه من ذكر أكثرها، أو بعضها على الأقل، وهي على نوعين؛ فمنها ما هو مؤلف، ومنها من هو مؤلف، وقد يجتمع الاثنان أحياناً، وسأذكرها كما يأتي:

(1): المصدر نفسه، (ص: 327).

1/ أهم مصادر الدرس الحديثي من المؤلفات: والتي يمكن اعتبارها بمثابة الركائز والموارد الركن في درسه، حيث يستعين بها في الدراسة والترجيح، والوصول للمعنى الصحيح، واستنباط المراد، والذي توصلت إليه في هذا الجانب ما يلي:

1-1/ كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ: للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (ت: 544 هـ)، وقد كان هذا الكتاب من أهم المصادر التي اعتمد عليها الإمام ابن باديس، كما خصّه بالشرح والتدريس بأن جعله مقرراً في درس مستقل بعد عودته من تونس مباشرة، وقد اختار الإمام هذا الكتاب كمصدر لعدة أسباب؛ أهمّها:

- كون مؤلفه من المغاربة المتقدمين، المشهود لهم بالفضل والعلم والتحقيق في العلوم، كما أنّ كتابه قد تسابق الأجلّة من العلماء لشرحه ودراسته وتخريج أحاديثه، إلى غيره من الجوانب.
- نفي التهمة وإبعاد الشبهة عنه، فلم يُعرب في اختياره ليفتح باب النيل منه، خاصّة من طرف خصوم الإصلاح وأدعياء المرجعيّة، بل تناول كتاباً لطالما احتفى به المغاربة ودَرسوه.
- لكون هذا الكتاب "من خير الكتب التي عرّفت بحقوق المصطفى؛ فقد أحاط الكتاب بصفات الرسول عليه السلام، وما يجب له من حقوق... وسرده لكثير من الحوادث والأخبار، تنبئ بإحاطة المؤلف بكلّ الجوانب التي تتصل بصفات الرسول، وتجلّي لنا سيرة رسولنا النبي الكريم"⁽¹⁾.
- بما أنّ كتاب الشفا كان في السيرة النبويّة، وفي تعظيم قدر النبي ﷺ، فقد كان الإمام ابن باديس يريد أن "يستلهم الدروس والعبر والحلول من السيرة النبويّة المطهّرة التي هي سجل الحرية وكتاب مفتوح في الكفاح ضدّ الظلم والاستعباد"⁽²⁾.
- إنّ من الموافقات العجيبة والتّوظيف العبقريّ؛ اختيار هذا الكتاب بالذّات، وفي تلك

(1): علي محمد البجاوي، تحقيق: الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، (لبنان- بيروت: دار الكتاب العربي، د/ ط، 1404 هـ- 1984 م)، (مج 01 / ص: 03). وسمير القاضي، تحقيق: مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، تخريج: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، (لبنان- بيروت: دار الجنان ومؤسسة الكتب الثقافية، ط/ 01، 1408 هـ- 1988 م)، (ص: 08).

(2): د/ عويمر مولود، فكر الحرية عند الشيخ ابن باديس، المصدر السابق، (ص: 122).

الظروف والملابسات التي كانت تحيط بالأمة الجزائرية " ويا له من اختيار! ابن باديس ذو العشرين ربيعاً يعلم أن الأمة أصابها المرض وتحتاج إلى الشفاء في سيرة المصطفى ﷺ " (1).

1-2 / كتاب صحيح البخاري: لا يخفى تقدّم صحيح البخاري على ما قدّمته هنا، لكنّ الذي راعيته هنا هو التّرتيب حسب الاستعمال وكثرة الورد لدى الإمام ابن باديس، ومكانة المؤلّف بين مصادره وموارده، أمّا أسباب اختياره فأكثرها ممّا سبق ذكره في اختيار الموطأ والشفاء، ولكن يمكن الإشارة إلى النقاط الآتية:

- شَرّح الإمام ابن باديس لمتن صحيح البخاري، فقد كان يخصّص له درسا في شهر رمضان بالإضافة إلى دروسه المعتادة، وكان درسه عامّاً قبيل صلاة الظهر كلّ يوم، " حرصا على إفادة طلابه وجمهور المصلّين " (2)، وقد وصف أحد تلاميذ الإمام ومحبّوه ممّن حضروا هذا الشّرح بقوله: " هذا الدّرس في الحديث النبويّ، ما رأيت مثله في الإيجاز مع الإفادة والتّأثير " (3).

- اعتناء الإمام ابن باديس بتراجم البخاري وعناوين الأبواب التي يعقدها، كما كان يشير إلى هذه الأبواب إذا اقتضى الأمر ذلك، فكان يعبرّ بقوله: " وعلى هذا عقد البخاريّ رحمه الله في الجامع الصّحيح أبواباً... " (4).

عبرّ الدكتور شيخ المؤرّخين أبو القاسم سعد الله رحمه الله عن مبلغ عناية الأمة الجزائرية بصحيح البخاري بقوله: " وقد علّق أحدهم ذات يوم بأنّ صحيح البخاري كان لدى الجزائريين أكثر شهرة من القرآن الكريم " (5)، ولا يخفى ما في هذا الكلام من المجازفة، مع بقائه مجرد تعليق لمجهول مُبالغ،

1-3 / الكتب الستّة: وهنا أقصد الكتب الستّة عموماً (صحيح البخاري / صحيح مسلم / سنن الترمذي / سنن أبي داود / سنن النسائي / سنن ابن ماجة)، رغم إفراد صحيح البخاري بالذكر قبل هذا، ولا شكّ أنّ أيّ درس حديثي لا يحتفي بهذه المصادر؛ لا يصحّ نسبته للحديث أصلاً، وقد أكثر

(1): مطبقاني، مازن صلاح، المصدر السابق، (ص: 124). وانظر: د/ عويمر مولود، المصدر السابق، (ص: 111).

(2): د/ عبد القادر فضيل، أ/ محمد الصالح رمضان، المصدر السابق، (ص: 262).

(3): علي مرحوم، لمحات من حياة الشيخ ابن باديس، عبد الحميد ابن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء، (ص: 244).

(4): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 01 / ص: 360).

(5): أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (مج 07 / ص: 39).

الإمام ابن باديس من ذكرها واستعمالها في مختلف مؤلفاته التي تناول فيها الحديث النبوي، وهذا ليس بالشيء الغريب؛ نظرًا لوزنها العلمي والمرتبة الثبوتية التي تتميز بها الأحاديث التي احتوتها، كما "كانت الصحاح الستة موضوع عناية أجدادهم، ولا سيما الصحيحان البخاري ومسلم" (1).

كان الإمام ابن باديس حريصا على الجمع بين معاني الكتب الستة والموطأ، كما حرص على إظهار الترابط والتكامل والاتصال بين هذه الكتب، والتّهوين والتقليل من بعض النصوص التي قد يُتوهم فيها التناقض أو الاضطراب، وكلّ هذا دفاعا -علميًا- منه عن أمّهات كتب الحديث النبوي، ومن أمثلة هذه القضية تناوله لمسألة كيفية الصلاة على النبي ﷺ، وعند حديثه عن الصيغ المختلفة الواردة في الموطأ والصحيحين، قال: "ونقتصر من متونه على الصحيح الثابت المتفق عليه ممّا في الموطأ والصحيحين... وهذه المتون الصحيحة كلّها قد اتفقت واختلفت؛ اتفقت في عمود الكلام وصلب المعنى ومعظم الكلمات، واختلفت في كلمات قليلة..." (2).

وقد أشارت الدكتورة عقيلة حسين خصوصًا إلى مكانة صحيح البخاري في الجزائر، وأمّهات كتب الحديث عموماً (3)، كما أشار الأستاذ محمد بن عبد الله التليدي إلى تراث المغاربة في الحديث النبوي وعلومه (4)، في رسالته التي تقدّم بها لنيل درجة الماجستير، وقد ذكر ما يشفي الغليل، ويداوي العليل، ممّا يكفي في هذا الجانب الذي تناولناه.

2/ أهم مصادر الدرس الحديثي من المؤلفين: من المصادر التي اعتمد عليها الإمام ابن باديس في درسه الحديثي؛ بعض العلماء والقامات الإسلامية العظيمة، التي طغت أسماؤها لشهرتها ومنزلتها على أسماء مؤلفاتها، ومنهم من استعان به من خلال أكثر من مؤلف واحد، ولهذا جعلت هذا العنصر يواكب صنيع الإمام في تراثه، وقد ذكرت أكثر من أشاد بهم في درسه الحديثي، وهما اثنان ساشير إليهما باختصار:

(1): المصدر نفسه، (مج 07/ ص: 39).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (مج 04/ ص: 387-388).

(3): د/ عقيلة حسين، المصدر السابق، (ص: 226-247).

(4): أنظر: التليدي، محمد بن عبد الله، تراث المغاربة في الحديث النبوي وعلومه، (لبنان - بيروت: دار البشائر الإسلامية، ط/ 01،

1416 هـ - 1995 م)، (ص: 182-192).

- 2-1 / الإمام أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربي (ت: 543 هـ)⁽¹⁾: لقد كان الإمام ابن باديس في درسه الحديثي كثير الاحتفاء بالإمام ابن العربي، وينقل عنه من عديد مؤلفاته، مما يدل على أن الإمام ابن باديس كان متأثراً بمنهج ابن العربي وفكره وطريقته في التناول والعرض للمسائل، حتى خصّه بترجمة مهمّة، ولم يتأثر فقط بكتاب من كتبه، أو موضوع من المواضيع أبدع في التطرّق إليه.
- ومما وصف به الإمام ابن باديس الإمام ابن العربي، قوله: "الإمام الحافظ خزانة العلم وقطب المغرب أبو بكر بن العربي"⁽²⁾، وفي هذا الوصف البليغ والدقيق، يمكن الإشارة إلى ما يأتي:
- سعة علم الإمام ابن العربي وتمكّنه من شتى المعارف والعلوم، مما جعل الإمام ابن باديس يُقدّمه، ويجعل من اختياراته مصدراً من مصادر درسه.
 - الإشارة إلى مغربيّة الإمام، وأنّه من علماء هذا القطر، فلا مجال للاتّهام بخرق المرجعيّة.
 - الإشارة إلى أن القطبيّة في الأمّة تكون بحيازة العلم، وليس بالشعوذة والادّعاء الأجوف.
 - كما كان يحتفي بأسانيد الإمام ابن العربي، فيقول: "روى الإمام ابن العربي -رحمه الله- بسنده المتّصل..."⁽³⁾، وربّما كان يفعل هذا أيضاً لأُمور أخرى، منها:
 - الإشارة إلى تقدّم الإمام ابن العربي وسبقه، وأنّه من العلماء الأوائل، وذلك حتّى منه على الرجوع إليهم، في وقت كثر فيه تقديس المتأخّرين وتقديم آرائهم.
 - الإشارة إلى تمكّن الإمام ابن العربي من علم الحديث رواية ودراية، وبأنّه ممّن اتّصلت أسانيدُه بالنبي ﷺ.

(1): الإمام ابن العربي (468-543 هـ): "هو الإمام العلامة الحافظ القاضي، أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي الأندلسيّ الإشبيليّ المالكيّ، ولد في إشبيلية أكبر حواضر الأندلس، في بيت علم ودين، حفظ القرآن وهو ابن تسع سنين، أخذ عن كبار علماء عصره، ثم ارتحل مع أبيه إلى المشرق للأخذ عن علمائها، وُلّي قضاء إشبيلية فحوّدت سياسته، ثم تفرّغ للدّرس والتّأليف، فتعدّدت دروسه، وتنوّعت تآليفه، ومن أشهرها: (أحكام القرآن)، (عارضه الأحوذى بشرح سنن الترمذي)، (القبس في شرح موطأ مالك بن أنس)، كما ترك كثيراً من التلاميذ الذين صاروا من أجلة العلماء، توفّي بفاس في شهر ربيع الثاني سنة: 543 هـ. أنظر: بن خلّكان، المصدر السابق، (مج 04 / ص: 296). و الذّهبي، المصدر السابق، (مج 20 / ص: 197). وابن كثير، المصدر السابق، (مج 16 / ص: 361). وابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، (مج 06 / ص: 232).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (مج 03 / ص: 159).

(3): المصدر نفسه، (مج 01 / ص: 375). وانظر: ابن باديس، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05 / ص: 312).

ومن أهم مؤلفات الإمام ابن العربي التي كان الإمام ابن باديس يشير إليها، ويستنبط ويأخذ منها:

* كتاب القبس في شرح موطأ مالك بن أنس : وقد أشار الإمام ابن باديس حتّى إلى النسخة التي اعتمد عليها وأخذ منها، فقال: "كتاب القبس على موطأ مالك بن أنس، ومنه نسخة عتيقة أندلسية في خزانتنا - وسنشرها إن شاء الله-"⁽¹⁾، ولكن الله شاء ألا يصل الإمام إلى مرغوبه، فتوفي قبل أن يقوم بهذا العمل العلمي المهم.

* كتاب ترتيب المسالك في شرح موطأ مالك: وقد أشار الإمام إليه بقوله: "كتاب المسالك على موطأ مالك، ومنه نسخة خطية في المكتبة العمومية بالعاصمة"⁽²⁾، وقد اختصر الإمام عنوان هذا الكتاب، وإلا فإن العنوان الصحيح هو: ترتيب المسالك في شرح موطأ مالك⁽³⁾.

* كتاب عارضة الأحوزي بشرح سنن الترمذي⁽⁴⁾.

* كتاب العواصم من القواصم: وقد خصّ الإمام ابن باديس هذا الكتاب بالتعريف والإشادة، وذلك لعدّة غايات وأهداف علمية، منها: اعتباره لهذا الكتاب "من آخر ما ألف... وجمع فيه على صغر حجمه بين سائر كتبه العلمية فوائد جمّة وعلوم كثيرة، فتعرّض فيه لآراء في العلم باطلة... وأعقبها بالآراء الصحيحة والعقائد الحقّة... سالكا في سبيل الاحتجاج لعقائد الإسلام... سبيل الاستدلال بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي هي أدلة نقلية في نصوصها، عقلية برهانية في مدلولها"⁽⁵⁾، كما أشار إلى أسباب أخرى مهمّة تجعله يعتمد هذا الكتاب، بل ويدفعه إلى نشره وطبعه تعميماً لفائدته، منها:

- احتواؤه للعقائد الحقّة الصحيحة، الحالية من محدثات المخربين الدّجاجة، من المتأخرين.
- كونه أنموذجاً راقياً في بيان مناهج البحث والتعمّق في النّظر، والاستقلال في الفكر والتمييز.

(1): المصدر نفسه، (مج 04 / ص: 128).

(2): المصدر نفسه.

(3): أنظر: المقري، أحمد بن محمد التلمساني، نفع الطيب من غصن الأندلس الرّطيب، تحقيق: د/ إحسان عبّاس، (لبنان - بيروت: دار صادر، د/ ط، 1408 هـ - 1988 م)، (مج 02 / ص: 35). وإسماعيل باشا، إيضاح المكنون في الدّليل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، (لبنان - بيروت: دار إحياء التراث العربي، د/ ط/ ت)، (مج 01 / ص: 279).

(4): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (مج 04 / ص: 128).

(5): المصدر نفسه، (مج 04 / ص: 128-129).

- كتاب العواصم؛ كتاب يبين ويُجَلِّي بوضوح الحالة الفكرية للمسلمين في بقاع الأرض، وذلك في عصر الإمام ابن العربي؛ في القرن الخامس الهجري.

لم يدع الإمام ابن باديس بأنه هو من اكتشف هذا الكنز العلمي، بل أرجع الفضل إلى أهله فقال معترفاً: "أول سماعي بهذا الكتاب وفضله كان من العلامة الكبير؛ أستاذنا الشيخ محمد النخلي... فاستعرت نسخة من خزانة الجامع وكانت هي النسخة الوحيدة للكتاب بها"⁽¹⁾.

2-2 / الإمام أبو عمر يوسف بن عبد البر (ت: 463 هـ)⁽²⁾: لقد أكثر الإمام ابن باديس من الأخذ عن الإمام ابن عبد البر، واستعان بأهم كتبه ومؤلفاته، كما كان يصرح باسمه وبعناوين كتبه، وذلك لأسباب سبق ذكرها مع الإمام ابن العربي، وقد وصفه الإمام بقوله: "الحافظ أبو عمر عبد البر"⁽³⁾. كان الإمام ابن باديس يستعين بأحكام ابن عبد البر الحديثية، من حيث التصحيح والتضعيف، ومن أمثله قوله: "قال الإمام ابن عبد البر (صحيح من رواية ثابت البناني وغيره عن أنس) ورواه من الأئمة أحمد وغيره"⁽⁴⁾، ومن كتبه التي استعان بها في درسه الحديثي:

* كتاب جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله: وهو من أكثر كتب الإمام ابن عبد البر التي استعان بها الإمام ابن باديس كمصدر في دروسه، ومن كثرة ما وظفه واستعمله؛ قال: "وكل ما نقله عنه من غير عزو إلى كتاب؛ فمن كتابه جامع بيان العلم وفضله"⁽⁵⁾، ومن خلال هذا النص

(1): المصدر نفسه، (مج 04 / ص: 130).

(2): الإمام ابن عبد البر (368-463 هـ): "هو الإمام العلامة، حافظ المغرب، شيخ الإسلام، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري، الأندلسي، القرطبي، المالكي، صاحب التصانيف الفائقة، تعلّم على علماء بلاده من أهلها، ومن قصدها من الغرباء، ولم يخرج منها إلى غيرها ولم يهاجر على عادة العلماء، أدرك الكبار، وطال عمره، وعلا سنده، وتكاثر عليه الطلبة، وجمع وصنّف، ووثّق وضعّف، وسارت بتصانيفه الرُّكبان، وخضع لعلمه علماء الزّمان، ومن أشهر مؤلفاته: (جامع بيان العلم وفضله)، (الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمّنهُ الموطّأ من معاني الرأي والآثار وشرح ذلك كله بالإيجاز والاختصار)، (التمهيد لما في الموطّأ من المعاني والأسانيد)، توفي آخر شهر ربيع الأوّل سنة: 463 هـ. أنظر: بن خلّكان، المصدر السابق، (مج 07 / ص: 66). و الذّهبي، المصدر السابق، (مج 18 / ص: 153). وابن كثير، المصدر السابق، (مج 16 / ص: 33). وابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، (مج 05 / ص: 266).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 187).

(4): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04 / ص: 87).

(5): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 187).

يبيّن الإمام ابن باديس منهجه في الأخذ من كتاب جامع بيان العلم وفضله، كما يبيّن منهجه في الأخذ عن الإمام ابن عبد البرّ، ومن خلال التّتبّع والاستقراء وجدت بأنّه قد وظّف هذا الكتاب بعدّة صور، وأورده بعدّة طرق، ومن الصّيغ التي وجدها، ما يأتي:

1 - " روى ابن عبد البرّ في (جامع بيان العلم وفضله)"⁽¹⁾.

2 - " ذكره ابن عبد البرّ في جامع العلم"⁽²⁾.

3 - " روى ابن عبد البرّ في جامعه"⁽³⁾.

4 - " ذكره ابن عبد البرّ"⁽⁴⁾.

5 - " رواه ابن عبد البرّ"⁽⁵⁾.

وهنا نلاحظ بأنّ الإمام ابن باديس يعبر عمّا يورده عن الإمام ابن عبد البرّ من المرويّات بطريقتين، أحيانا بقوله: ذكره، وأحيانا أخرى بقوله: رواه، فهو يفرّق بين ما يرويّه الإمام وما يذكره غير مسند. * كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ويبدو أنّ الإمام ابن باديس يرجع إليه في الترجمة للرواة، وفي التعريف بالصّحابة ورجال الأسانيد⁽⁶⁾.

* كتاب الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمّنه الموطأ من معاني الرّأي والآثار وشرح ذلك كله بالإيجاز والاختصار.

* كتاب التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد.

وفي آخر هذا العنصر يمكن تسجيل ملاحظات موجزة، أهمّها كون هؤلاء العلماء الذين احتفى بهم الإمام ابن باديس، واقتبس منهم وجعلهم مصدرا وموردا لدرسه؛ من العلماء القدامى من علماء القطر المغاربي، كما أنّهم جميعا من أهل الرواية والدراية في علم الحديث النبويّ.

(1): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السّابق، (ص: 187).

(2): أنظر: المصدر نفسه، (ص: 107).

(3): أنظر: المصدر نفسه، (ص: 196).

(4): أنظر: المصدر نفسه، (ص: 134 / 187 / 194).

(5): أنظر: المصدر نفسه، (ص: 187 / 191 / 192 / 193).

(6): أنظر: المصدر نفسه، (ص: 110).

الفرع الثاني / سرد لأهم مصادر الدرس الحديثي المتبقية:

في هذا العنوان سأعرض لما أمكنني الوصول إليه، والاطلاع عليه من الكتب والمؤلفات التي شكّلت مصادر الدرس الحديثي للإمام ابن باديس، وسأوردها هنا سرداً دون تفصيل، إلا إذا اقتضت الضرورة، كأن يكون هذا العنوان ممّا أشاد به الإمام ابن باديس، أو نبّه على ما فيه ممّا يجب الحذر منه، ولولا مخافة التّطويل لأشرت لمواضع ورودها في آثاره، وهي حسب تاريخ وفاة المؤلفين.

* متون الحديث وشروحه وعلومه:

- 01 / مسند أبي داود الطيالسي: للإمام سليمان بن داود بن الجارود (ت: 204هـ).
- 02 / كتاب فضائل القرآن: للإمام أبي عبيد القاسم بن سلام الهروي (ت: 224هـ).
- 03 / سنن سعيد بن منصور: للإمام الحافظ سعيد بن منصور بن شعبة أبو عثمان الخراساني (ت: 227هـ).
- 04 / المسند: للإمام الحافظ الحجة أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المروزي ثم البغدادي (ت: 241هـ).
- 05 / الموطأ للإمام مالك بن أنس: رواية يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي (ت: 244هـ).
- 06 / مسند عبد بن حميد: أو كتاب المنتخب من مسند عبد بن حميد الكشي، للإمام أبو محمد عبد بن حميد بن نصر الكشي، أو الكشي (ت: 249هـ).
- 07 / صحيح ابن خزيمة: للإمام أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة (ت: 311هـ).
- 08 / صحيح ابن حبان: واسمه الكامل: المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في ناقلها: للإمام الحافظ محمد بن حبان بن أحمد أبي حاتم التميمي البستي (ت: 354هـ).
- 09 / المعجم الصغير: للحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت: 360هـ).
- 10 / المعجم الأوسط: للحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت: 360هـ).
- 11 / المعجم الكبير: للحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت: 360هـ).
- 12 / العلل الواردة في الأحاديث النبوية: للإمام الحافظ أبي الحسن علي بن عمر ابن أحمد بن مهدي الدارقطني (ت: 385هـ).

- 13 / الخطّابي، أبو سليمان أحمد بن محمّد الخطّابي البستي (ت: 388 هـ): معالم السنن، وهو شرح سنن الإمام أبي داود.
- 14 / المستدرّك على الصّحّاحين: للحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري (ت: 404 هـ).
- 15 / الجامع لشعب الإيمان: للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت: 458 هـ).
- 16 / المنتقى شرح الموطأ: للقاضي أبي الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب الباجي (ت: 494 هـ).
- 17 / مسند الفردوس بمأثور الخطاب: للإمام الحافظ أبي منصور شهردار بن شيرويه الديلمي الهمداني (ت: 558 هـ).
- 18 / كتاب الموضوعات: للعلامة أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت: 597 هـ).
- 19 / التّرجيب والتّرهيب: للإمام زكي الدين أبو محمد عبد العظيم المنذري (ت: 656 هـ).
- 20 / فتح الباري بشرح صحيح البخاري: للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: 852 هـ).
- 21 / مكمل إكمال الإكمال: للإمام أبي عبد الله محمد بن محمّد بن يوسف السنوسي الحسني، التلمساني، الجزائري (ت: 895 هـ).
- 22 / القسطلاني أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدّين (ت: 923 هـ): له إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري.
- 23 / بن علان، محمّد بن علي بن محمّد المكّي الشافعي (ت: 1057 هـ): صاحب كتاب الفتوحات الرّبانيّة على الأذكار النّوويّة، وهو شرح لكتاب حلية الأبرار وشعار الأخيار في تلخيص الدّعوات والأذكار المستحبة في اللّيل والنّهار للإمام محيي الدّين النّووي (ت: 676 هـ)، والمعروف اختصارًا بكتاب الأذكار.

* كتب التفسير:

- 24 / تفسير الطبري؛ جامع البيان عن تأويل آي القرآن: للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: 310 هـ).
- 25 / تفسير القرآن العظيم مسندا عن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين: للإمام الحافظ الناقد المفسر أبي عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي (ت: 327 هـ).
- 26 / معالم التنزيل (تفسير للقرآن الكريم): للإمام ركن الدين ومحيي السنة أبي محمد الحسين بن مسعود ابن الفراء البغوي (ت: 516 هـ).
- 27 / تفسير القرآن العظيم: للإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت: 774 هـ).
- 28 / تفسير الثعالبي، المسمى بالجواهر الحسان في تفسير القرآن: للإمام عبد الرحمن بن مخلوف بن محمد بن مخلوف أبي زيد الثعالبي المالكي (ت: 875 هـ).
- 29 / الدر المنثور في التفسير بالمأثور: للإمام جلال الدين السيوطي (ت: 911 هـ).
- 30 / فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: للإمام العلامة محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت: 1250 هـ).

* كتب التاريخ والتراجم:

- 31 / تاريخ دمشق، أو تاريخ ابن عساكر، أو تاريخ مدينة دمشق -حماها الله- وذكر فضلها، وتسمية من حلها من الأماثل، أو اجتاز بنواحيها من واردتها وأهلها: للإمام علي بن الحسن بن هبة الله أبو القاسم، المعروف بابن عساكر (ت: 571 هـ).
- 32 / ابن الأثير، عمدة المؤرخين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري (ت: 630 هـ): صاحب الكامل في التاريخ.
- 33 / ميزان الاعتدال في نقد الرجال: للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت: 748 هـ).
- 34 / الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب: للإمام القاضي إبراهيم بن نور الدين، المعروف بابن فرحون المالكي (ت: 799 هـ).

* علماء وكتب عامة:

- 35 / البدع والنهي عنها: للإمام المحدث أبو عبد الله محمد بن وضاح بن بزيع المرواني القرطبي (ت: 287 هـ)، وقد قال الإمام ابن باديس عن هذا الإمام ومؤلفه: "وكل ما نقله عنه من غير عزو إلى كتاب فممه"⁽¹⁾.
 - 36 / ابن المنذر، محمد بن إبراهيم أبو بكر النيسابوري الشافعي الشهير بابن المنذر (ت: 318 هـ): من مؤلفاته: الإشراف على مذاهب الأشراف، والاقتصاد في الإجماع والخلاف، والإقناع في الفروع، والأوسط في السنن والإجماع والاختلاف، وكتاب تفسير القرآن، وجامع الأذكار، وكتاب السنن، وغيرها من الكتب.
 - 37 / الجصاص، أحمد بن علي بن أبي بكر محمد البغدادي الرازي الحنفي، (ت: 370 هـ).
 - 38 / القاضي عياض بن موسى بن عياض بن عمر اليحصبي، المالكي، (ت: 544 هـ). قال الإمام ابن باديس عن هذين العالمين: "إمامين كبيرين في الحديث والفتوى"⁽²⁾.
 - 39 / إحياء علوم الدين: للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي (ت: 505 هـ).
 - 40 / القرافي (ت: 684 هـ): الشيخ الإمام العالم الفقيه الأصولي أحمد بن إدريس، شهاب الدين الصّهنّاجي الأصل المشهور بالقرافي، صاحب كتاب: الفصول في علم الأصول.
 - 41 / ابن دقيق العيد (ت: 702 هـ): محمد بن علي بن وهب بن مطيع، أبو الفتح، تقي الدين القشيري، المعروف كأبيه وجده بابن دقيق العيد: قاض ومجتهد من أكابر العلماء بالأصول.
 - 42 / إعلام الموقعين عن ربّ العالمين: للإمام أبي عبد الله ابن قيم الجوزية (ت: 751 هـ).
- * مصادر حديثة انتقدتها الإمام ابن باديس: على تفاوت في التناول؛ بين التنبيه والنقد:
- 43 / المستدرك على الصحيحين: للإمام الحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري (ت: 405 هـ)، وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي (ت: 748 هـ).

(1): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 188).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 02 / ص: 131).

لقد نقل الإمام ابن باديس عن الحاكم من هذا الكتاب في عديد المواضع، لكنه أشار إلى أن هذا المؤلف من تلك المصادر التي لحقتها بعض الروايات العلية، ومعظمها من الإسرائيليات التي "تلقى من غير تثبت ولا تمحيص من روايات كعب الأحبار ووهب بن منبه، وروى شيئاً من ذلك الحاكم في مستدركه وصرح الذهبي بطلانه"⁽¹⁾.

- 44 / حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني (ت: 430 هـ).

لقد حذر الإمام ابن باديس من هذا الكتاب، فبعد أن نقل منه حديثاً موضوعاً، بين مرتبته وحكم النقاد فيه، ثم قال: "ذكرنا هذا الحديث الموضوع الذي رواه أبو نعيم في كتابه (حلية الأولياء) لننبه على وضعه، ولنحذر قراء (الحلية) وقد طبعت منها أجزاء؛ من الاعتماد على كل ما فيها فإن كثيراً من المنتسبين للعلم يغترون باسم الكتاب واسم المؤلف فيتناولون كل ما فيه من الأحاديث بالقبول والتسليم كأنه ثابت صحيح مع أننا نجد فيه مثل هذا الحديث الموضوع"⁽²⁾.

- 45 / تنبيه الأنام في بيان علو مقام نبينا محمد عليه الصلاة والسلام: لعبد الجليل بن محمد بن أحمد بن عظم المرادي القيرواني (ت: 960 هـ).

أما هذا الكتاب فقد نال الحظ الأوفر من النقد والخط من قيمته العلمية، لكثرة احتوائه على الموضوعات، واتهام ما فيه بأنه مختلق مكذوب، وذلك عند قوله: "ومن الكتب المشهورة بين الناس في الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم - كتاب تنبيه الأنام وفيه موضوعات كثيرة لا أصل لها، فبينما قارؤه في عبادة الصلاة إذا هو في معصية الكذب، فليكن منه على حذر"⁽³⁾.

* ملاحظات على منهج ابن باديس في توظيف مصادره وموارده: يمكن هنا تسجيل بعض الملاحظات حول طريقة الإمام ابن باديس ومنهجه في استعمال مصادر درسه الحديثي، وذلك باختصار وتركيز، دون إعادة لما سبق ذكره من بعض الملاحظات:

- قدم المصادر والمؤلفات والمؤلفين الذين يرجع إليهم الإمام في تجلية درسه، وتبيين معانيه، فنجد

(1): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (مج 02 / ص: 40).

(2): المصدر نفسه، (مج 04 / ص: 112).

(3): المصدر نفسه، (مج 04 / ص: 407).

أكثر أصحابها من أهل القرون الأولى، وهذا تطبيقاً عملياً منه لما كان قد دعا إليه نظرياً من وجوب الرجوع إلى السابقين، وعدم الاحتفاء والاكتفاء بكتب المتأخرين فقط.

- كثرة الكتب والمؤلفات الحديثية التي وظفها الإمام، سواء متون الحديث وشرحها، أو كتب الرجال والتراجم، أو حتى كتب النقد والعلل، وقد وصل عدد ما ذكرته جميعاً إلى 60 مصدراً.

- الحضور النوعي والمميز لعلماء المغاربة المتقدمين، كالقاضي عياض، وابن عبد البر، وابن العربي، وغيرهم، خاصة المعتنين منهم بالحديث وعلومه.

- كثيراً ما ينقل الإمام ابن باديس من المصدر مباشرة، لكن وجد بعض الحالات ينقل فيه من المصدر بواسطة، ولعل ذلك بسبب عدم توفر هذا المصدر بين يديه، كما هو الحال مع المعجم الصغير للطبراني، فهذا الأخير ينقل عنه الإمام بواسطة كتاب (الترغيب والترهيب) للمنذري⁽¹⁾.

ومن الكتب التي لا ينقل عنها الإمام مباشرة؛ كل من: مسند الديلمي، ومسند عبد بن حميد، والتفسير المسند لابن أبي حاتم، وتاريخ ابن عساكر، وشعب الإيمان للبيهقي، فهذه المصادر ينقل عنها بواسطة الدر المنثور للسيوطي⁽²⁾.

- نلاحظ أن الإمام ابن باديس ينقل ويأخذ عن هذه المصادر بطريقتين؛ إما بنقل النص حرفياً من المصدر، أو الاكتفاء بتوظيف المعنى مع الإشارة إلى موضعه العام⁽³⁾.

- حذره وتحذيره من "الكتب التي عدلت عن الأحاديث النبوية الصحيحة، والطريقة النبوية الواضحة، وذهب في بنيات الطريق، فكانت بلاء على العامة وأشباههم ووبالا"⁽⁴⁾.

- ختم الإمام وتناوله لأهمّات كتب "الأحاديث النبوية، حتى إنه ليقول في المتصدرين للتدريس من كبار العلماء في أكبر المعاهد من يكون قد ختم كتب الحديث المشهورة كالموطأ، والبخاري، ومسلم، ونحوها مطالعة، فضلاً عن غيرهم من أهل العلم، وفضلاً عن غيرها من كتب السنة"⁽⁵⁾.

(1): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 50).

(2): أنظر: المصدر نفسه، (ص: 200-202).

(3): أنظر: عامر، علي عرابي، المصدر السابق، (ص: 292-295).

(4): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (ص: 86).

(5): د/ تركي، رابح عامرة، المصدر السابق، (ص: 484).

المبحث الثالث : منهجية الإمام ابن باديس في شرح الحديث النبوي.

في هذا المبحث سأتناول أحد أهم الجوانب التي يرمي البحث إلى كشف الغطاء عنها، وتجلية بعض مسائلها، وهذا الجانب هو: منهجية الإمام ابن باديس في شرح الحديث النبوي، وطريقته في الدرس الحديثي، وذلك من ناحية شرح الحديث النبوي وتحليله، وأهم الملاحظات العلمية والنفسية التي تحيط بهذا الشرح.

كما سنحاول الإجابة عن إشكالية فرعية فحواها: ما هي طريقة الإمام ابن باديس في شرح الحديث النبوي، وما هي المراحل التي يمر بها في درسه؟، وما نوع القضايا والمسائل التي يُسهب في شرحها والتعرّض إليها؟.

وقد استقرّ الرأْي والاختيار على تقسيم هذا المبحث إلى ثلاثة مطالب؛ الأول منها سيكون حول منهج الإمام ابن باديس في دراسة سند الحديث، والثاني في طريقة الإمام في تحليل المتن، لاختتم هذا المبحث بمطلب ثالث أتناول فيه أسلوب الإمام في التدريس.

والسبب في اختيار هذا التقسيم فرضته ضرورات علمية لعل أهمّها ما يأتي:

- إنَّ أيَّ حديث نبويٍّ يمكن دراسته يتكوّن من ثنائية ضرورية، وهي ثنائية السند⁽¹⁾ والمتن⁽²⁾، فمن أراد استنطاق واستخراج مكنونات هذا النصّ النبوي -على طريقة المحدثين والعلماء السابقين- فما عليه سوى أن يُراعي هذه الثنائية.
- النّظر في صنيع الإمام ابن باديس ومنهجه؛ ومدى مراعاته لطريقة النّقد الداخلي والخارجي للحديث النبويّ، وما مدى التزامه العمليّ لما كان ألزم به نفسه نظريّاً؛ من سعيه للتّثبت والتّوثيق في الوصول لدرجة الحديث، ثمّ النّظر في مدى صلاحيّته للاستدلال من عدمه.

(1): السّند: "هو الطّريق الموصل للمتن، أو هو حكاية رجال الحديث الذين رووه واحداً عن واحد إلى رسول الله ﷺ، وأمّا الإسناد فهو إضافة الحديث إلى قائله، أي نسبته إليه، وقد يطلق أحدهما على الآخر، كما أنّهما قد يطلقان على رجال سند الحديث، ويعرف المراد بالقرائن". أنظر: د/ أبو شهبة محمد، المصدر السابق، (ص: 18). وود/ نور الدين عتر، المصدر السابق، (ص: 33).

(2): المتن: "هو ما ينتهي إليه السّند من الكلام أو من ألفاظ الحديث، وأحوال المتن، هي ما يطرأ عليه من رفع، أو وقف، أو شذوذ، أو صحّة، أو غير ذلك من الأحوال". أنظر: د/ أبو شهبة محمد، المصدر السابق، (ص: 19). وود/ نور الدين عتر، المصدر السابق، (ص: 33).

المطلب الأول: منهجية الإمام ابن باديس في التّخريج ودراسة الأسانيد.

سأحاول في هذا المطلب الكشف عن أهمّ الجوانب العلميّة التي كان الإمام ابن باديس يتعرّض فيها، ومن جهتها لتخريج أسانيد الأحاديث التي يوردها في درسه، ثمّ دراستها، وبعد التّتبّع والاستقراء لما أمكن الوصول إليه من تراث الإمام، أمكنني استخراج الجوانب الآتية:

الفرع الأوّل / منهج الإمام ابن باديس في تخريج الحديث النبوي⁽¹⁾:

لا يمكن معرفة مرتبة الحديث النبوي إلّا بعد تخريجه من مصادره الأصليّة، ومطأنه الحديثيّة، ومن ثمّ يمكن دراسته والحكم عليه بالحكم المناسب والملائم، وإنزاله مرتبته من حيث القبول أو الرّدّ، ورغم أنّ الإمام ابن باديس كان يكتب لجمهور أغلبه لا دراية له بهذا الجانب إلّا أنّه كان يولي هذا الموضوع عناية خاصّة، وذلك من عدّة جهات؛ منها:

- ذكّر المصادر والمراجع التي يستعين بها في تخريج الحديث النبوي، والتي استطعنا الوصول إلى بعضها، كما هو مذكور في المبحث السّابق.

- كثرة المصادر والمراجع الحديثيّة التي يستعملها الإمام ويرجع إليها في تخريج الحديث، رغم التّضييق والحصار الثقافي والعلمي الذي كان مفروضاً على الجزائر من قبل المستعمر.

- التّنوع التّخصّصي والوزن العلميّ لمصادر التّخريج عند الإمام ابن باديس، التي هي من أمّهات كتب التّخريج ومصادره الأساسيّة.

إذا كان التّخريج يشمل الدّلالة على مواضع الحديث في مصادره الأصليّة، ثمّ الحكم على هذا الحديث وتبيين رتبته عند الحاجة، سنرى مدى التزام الإمام ابن باديس بهذا المنهج، وسندرس هذا الجانب من خلال كتابه: مجالس التّذكير من حديث البشير النّذير، وأهمّ ما توصلنا إليه ما يأتي:

(1): التّخريج: "هو الدّلالة على موضع الحديث في مصادره الأصليّة من كتب السنّة التي أخرجته بسنده، وإبرازه للنّاس، مع بيان

درجته عند الحاجة، أو هو معرفة حال الراوي والمرويّ، ومخرّجه، وحكمه صحّة وضعفاً بمجموع طرقه، وألفاظه".

أنظر: د/ بكر بن عبد الله أبو زيد، التّأصيل لأصول التّخريج وقواعد الجرح والتّعديل، (السعودية- الرياض: دار العاصمة، ط/ 01،

1413هـ)، (مج/ 01 ص: 41). ود/ سعد بن عبد الله آل حميد، طرق تخريج الحديث، (السعودية- الرياض: دار علوم السنّة

للنّشر، ط/ 01، 1420هـ-2000م)، (ص: 07). ود/ محمود الطّحان، أصول التّخريج ودراسة الأسانيد، (لبنان- بيروت:

دار القرآن الكريم، ط/ 03، 1401هـ-1981م)، (ص: 12). ود/ محمّد محمود بكّار، علم تخريج الأحاديث (أصوله.

طرائقه. مناهجه)، (السعودية- الرياض: دار طبية للنّشر والتّوزيع، ط/ 03، 1418هـ-1997م)، (ص: 12).

1/ منهج الإمام ابن باديس في الدلالة على مواضع الحديث : لقد اعتمد الإمام طريقة متميزة في الدلالة على مواضع الأحاديث في مصادرها التي يأخذ منها، ويظهر هذا التميز من عدة جوانب ومظاهر أهمها:

- عناية الإمام ابن باديس بتخريج الأحاديث التي يشرحها في درسه، والدليل على ذلك؛ العناوين التي يُقدّم بها لدرسه في موضوع التّخريج⁽¹⁾، علماً بأنّ الإمام لا يُعنُون إلّا لمهمّ.

- عندما يعزّوا الإمام إلى صحيح البخاري، فإنّ له في ذلك عدّة طرق، ومنها:

* في كثير من الأحيان يعزّوا إليه عزوا عامّاً فقط دون تفاصيل، وذلك بقوله: "رواه البخاري" فقط.
* في بعض الأحيان لا يكتفي بالعزو إليه عزوا عامّاً فقط، بل غالباً ما يشير إلى ترجمة الكتاب أو الباب الذي يندرج فيه الحديث، أو يشير إليهما معاً⁽²⁾.

* قد يشير الإمام إلى أنّ الحديث قد رواه البخاري من طرق مختلفة، وفي عدّة أبواب، أي أنّه لم يجمع طرقه في باب واحد كما هو صنيع مسلم في صحيحه⁽³⁾.

وكّل هذا دليل على تمّرس الإمام بصحيح البخاري، ووعيه بالأهميّة العلميّة لتراجم البخاري في صحيحه، وقد يكون دليلاً لمن قال بأنّه قد حفظ صحيح البخاريّ.

- أمّا مسلم فتتطبق عليه الملاحظات السّابقة على البخاري، ما عدا الأخيرة منها.

- عندما يُخرّج حديثاً من الصّحيحين معاً، فإنّه يشير إليه بعدّة صيغ مختلفة؛ هي:

* الإشارة إليهما إشارة عامّة دون تفصيل، وذلك بالصّيغ التّالية: (رواه الشّيخان/ أخرجه الشّيخان في صحيحيهما/ رواه البخاري عن.. ومسلم عن.. / رواه البخاري ومسلم).

* العزو إليهما مع الإشارة إلى التّرجمة التي يندرج تحتها الحديث في كلّ من البخاري ومسلم⁽⁴⁾.

* العزو إليهما بشيء من التّبجيل والتّفخيم من قدريهما والتّرحّم عليهما⁽⁵⁾، ولعلّ ذلك تنبيهاً منه

(1): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 39).

(2): أنظر: المصدر نفسه، (ص: 88/125/203). وابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04/ ص: 406).

(3): أنظر: المصدر نفسه، (ص: 83).

(4): أنظر: المصدر نفسه، (ص: 125/123).

(5): أنظر: المصدر نفسه، (ص: 149).

للسامع أو القارئ على عظم الجهد الذي قاما به وأهميته للأمة جمعاء، وإشعارًا بمكانتهما بين العلماء.

* تقديم الإمام ابن باديس للفظ مسلم على لفظ البخاري أو غيره أحياناً⁽¹⁾، ولا شك أن هذا الصنيع منه ليس لاعتقاده بأصحية مسلم على البخاري، ولكن لإدراك الإمام بأن رواية مسلم تامة كاملة في موضعها، وليس لها أطراف في مواضع أخرى كما هو الحال مع البخاري في صحيحه، فيحصل برواية مسلم تأدية الغرض والمطلوب.

- عندما يعزوا الإمام إلى الموطأ، فإننا نلاحظ تقديم الإمام له على غيره، وذلك لقدمه وعلو أسانيده على غيره، كما أن الملاحظة الأهم هي؛ حرصه على تأييد روايات الموطأ بما في الصحيحين عموماً، والبخاري خصوصاً، وذلك مثل قوله: "خرجه مالك وتلقاه من طريقه الأئمة البخاري ومسلم والترمذي والنسائي رضي الله عنهم"⁽²⁾، ولا يخفى ما في هذا من رفع لقدر الموطأ.

- إذا كان العزو إلى الإمام الترمذي في سننه، فإن الملاحظ هو التزام الإمام ابن باديس بنقل حكم الترمذي في الحديث الذي يرويه، والأمثلة على هذا كثيرة عديدة⁽³⁾.

- ينقل الإمام ابن باديس من مصادره في التخريج بطريقتين:

* الطريقة المباشرة؛ وهي الطريقة الأكثر والأعم في منهجه في العزو إلى مصادر التخريج.

* الطريقة غير المباشرة؛ وذلك بالنقل من المصدر بواسطة، وذلك ظاهر في عديد المصادر التي أشرنا إليها سابقاً⁽⁴⁾، ويمكن أن نضيف كتاباً آخر وهو كتاب تفسير القرآن العظيم للإمام إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت: 774هـ)، حيث ينقل عنه في عديد المواضع⁽⁵⁾.

2/ منهج الإمام ابن باديس في الحكم على الحديث : بعد أن يعزو الإمام ابن باديس الحديث

النبوي إلى مواضعه من كتب السنة؛ يحكم على الحديث بالحكم المناسب من حيث القبول والرد، وكل ذلك ليس بالتشهي بل بالاعتماد على أقوال العلماء أهل الصناعة والاختصاص.

(1): أنظر: المصدر نفسه، (ص: 115 / 48).

(2): المصدر نفسه، (ص: 177).

(3): أنظر: المصدر نفسه، (ص: 39 / 71 / 95 / 141 / 188).

(4): أنظر: (ص: 177).

(5): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 200 / 204 / 211 / 212).

ومن أهم ما يلاحظ في طريقة الإمام في التعرض لهذا الجانب ما يأتي:

أ/ النظر في المتن قبل البت في حكم الحديث ومنتهاه: إن الإمام ابن باديس لا يغتر بما يظهر من السند فقط، بل ينظر في المتن وملا بساته قبل أن يحكم على الحديث من حيث رتبته وقائله، فمن أمثلته ما رواه الإمام عن معاذ بن جبل رضي الله عنه فيما يقع من الفتن في مستقبل الأيام، فقد قال فيه الإمام ابن باديس: "وهذا الحديث وإن كان موقوفاً على معاذ فهو في حكم المرفوع لأنه إخبار بمغيب مستقبل، وهذا ما كان يعلمه الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- إلا بتوقيف من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-"⁽¹⁾، فهو عنده في حكم المرفوع، أو مرفوع حكماً.

ب/ إذا كان الحديث في الصحيحين، أو في أحدهما: هنا يكتفي الإمام ابن باديس بالإشارة إليهما، دون إيراد مرتبة الحديث، وذلك لعلم الخاصة والعامة بأن ما في الصحيحين صحيح، بل يشرع مباشرة في المقصود من درسه، وهو استنباط الهدايات النبوية، والأحكام الشرعية.

ج/ الشدة والحزم في التحذير من الموضوعات: لقد كان الإمام ابن باديس لا يلين ولا يتساهل في التحذير من الأحاديث الموضوعة، فقد كان يهيب بالعلماء والمدرسين أن يستدلوا " بالحديث الشريف من غير تخطيط فيه، بل واقفين عند حق ما اتفق الأئمة على الاستدلال به، لا تجد لديهم للموضوعات رواجا"⁽²⁾، كما كان يشير إلى أخطر أنواع الاستدلال بالأحاديث الموضوعة، التي تهدم معانيها أساسات الدين، وتمسه في عقيدته وأركانه، فكان أحياناً في معرض كشفه لبعض الموضوعات يقول: "وهو موضوع لا يتجرأ على الاستدلال بأمثاله من الموضوعات إلا من له حاجة في نفسه يريد الوصول إليها باسم الدين"⁽³⁾.

والإمام ابن باديس كما كان يمقت من يستعين بالموضوع تشهياً، كذلك هو لم يكن يتهم الحديث بالوضع دون تبين، بل كانت طريقته تعتمد على إيراد الحديث، ثم الحكم عليه بالوضع، وبعده يردف هذا الحكم بأقوال الأئمة المعتمدين في الجرح والتعديل في الرجل المتهم بالوضع في الإسناد⁽⁴⁾.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 01 / ص: 410).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05 / ص: 98).

(3): المصدر نفسه، (مج 05 / ص: 98-99).

(4): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04 / ص: 111).

الفرع الثاني / دعوة الإمام ابن باديس إلى دراسة الأسانيد:

لقد كان الإمام ابن باديس حريصاً وجاداً في الدعوة إلى دراسة أسانيد الأحاديث النبوية، ونادى بوجوب إحياء هذا العلم الذي كان قد اندرست معالمه، وغابت رسومه، حتى اندس في المتصدرين للتدريس أذعياء العلم، ودعاة الضعيف والموضوع، فكان لزاماً عليه تنبيه الأمة، وتطهير صفوف المرشدين، ويمكننا الاستدلال على هذا التوجه البارز في الدرس الحديثي للإمام بالعناصر التالية:

1/ التوقير والإجلال العظيمين لجناب المصطفى ﷺ: لقد كان الإمام ابن باديس شديد التوقير والتبجيل لمقام النبوة، وحريصاً على ذكر المصطفى ﷺ بكل أوصاف التعزير والإكبار له ﷺ، فنجده يروي عن النبي ﷺ بقوله: " قال سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وآله وسلم -"⁽¹⁾، أو بقوله: "محمد الرجل العظيم، والمصلح الحكيم، والرسول الكريم"⁽²⁾، أو "سيدنا الأكرم، وقدوتنا الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم"⁽³⁾، وذلك لعدة أسباب؛ لعل أهمها:

- الامتثال لأمر الله تعالى في نبيه ﷺ، القائل سبحانه: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ ﴾

لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ (الفتح: 08-09).

- تنبيه الغافلين والمتقولين على عظم من يتقولون عليه، وإلجاءاً للعمامة عن تساهلهم في إطلاق القول ونسبه إلى النبي ﷺ دون تحرر أو دراسة.

- الحث على الامتثال والإذعان للحديث، والتذكير بأن صاحبه هو الموحى إليه من ربه، لأن الناس مجبولة على اتباع العظيم، والاحتفاء بأمره ونهيه.

2/ دعوة الإمام ابن باديس لتبيين رتبة الحديث النبوي: لقد كان كثير الدعوة لتبيين رتبة الحديث ودرجته، وذلك لا يكون إلا بدراسة سند الحديث ثم المتن، وقد اتخذت هذه الدعوة عدة جوانب ومظاهر؛ أهمها:

2-أ/ منهج اللين والرفق، والنصح والإرشاد: لقد دعا الإمام إلى التحري في الإسناد، ودراسة رجاله، والتنقيب في أحواله، كل ذلك بأسلوب التذكير والإرشاد والتنبيه، وذلك مثل صنيعه لما

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03 / ص: 14) .

(2): المصدر نفسه، (مج 03 / ص: 17) .

(3): المصدر نفسه، (مج 03 / ص: 24) .

أهديت له نسخة من كتاب (خطب أبي يعلى الزواوي) فقد قال الإمام ابن باديس؛ بعد الإشادة بالمولف والشكر للمؤلف: "...فشكر الله صنعه، وأحسن جزاءه، ووددنا لو ذكر مآخذ أحاديثه وزاد تحرياً في تخريجها، فإن فيها قليلاً من الضعيف الذي يغني عنه الحسن والصحيح"⁽¹⁾.

كما التزم الإمام هذه الدعوة عملياً، فقد كان حريصاً على تبين "رتبة الحديث العلميّة والعملية"⁽²⁾، خاصّة مع الأحاديث التي ليست في الصحاح، وبعد أن يفرغ من دراسته وتقليبه، ينطق بالنتيجة التي توصّل إليها فيقول: "فبعدما عرفنا من حال سنده وتصحيح هؤلاء الأئمة له، حصل لنا العلم الكافي -وهو الظنّ الغالب- بثبوته، وحيث كان بهذه المنزلة من الثبوت فإنّه صالح لاستنباط الأحكام الشرعية العملية منه"⁽³⁾.

كما يمكن أن نستدلّ في هذا الموضع بما سبق ذكره من مصدرية الحديث النبوي في الدرس الحديثي الباديسي، ونوعية الحديث الذي كان يرى الأخذ والاستدلال به.

2-ب/ منهج التّقرّيع والإنكار، والتّشنيع والتّقبّيح: لقد كان الإمام ابن باديس يتنهج أحيانا أسلوب الإنكار الحادّ، والتّشنيع الشديد، في دعوته لتخريج الأحاديث ودراسة الأسانيد، خاصّة في حالات الردّ على المخالفين والخصوم، أو إرادة تقرير شيء في الشرع وهو ليس منه، أو في حالة ما أحسّ الإمام بأنّ هذا المعنيّ ليس من أهل الفنّ والصّناعة.

فمن أمثلة إنكاره على المخالفين، ممّن تصدّروا وبادروا؛ قوله: "نقول لحضرته لا تستدلّ بالحديث دون بيان رتبته ولا ذكر لمخرجه، وما هكذا يكون استدلال الأمناء من العلماء، وإنّه يرمي الأحاديث هكذا مهملة اختلط الحقّ بالباطل، وتجراً على السنّة النبويّة الغيبيّ والجاهل، حتّى بلغ الأمر إلى نسبة الأحاديث إلى كتب الإسلام المتّفق عليها ولا وجود لها فيها"⁽⁴⁾، وهذا النصّ يدلّ على سعة اطلاع الإمام ابن باديس على ما في كتب الحديث ودواوين السنّة.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05 / ص: 336).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 39).

(3): المصدر نفسه.

(4): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 01 / ص: 461).

ليس هذا فقط؛ بل يتحدّى الإمام مخالفه -إن استطاع- أن ينقض عليه أدلّته التي يستدلّ بها على ما يقرّره، فيقول: "ردّ علينا دون أن يذكر جميع أدلّتنا، ودون أن يتعرّض لنقضها في سندها أو متنها، أو عدم انطباقها..."⁽¹⁾، وهذا لقناعة الإمام بالقوّة الثبوتية للأحاديث التي يستدلّ بها.

أمّا الجهّال والمتطفّلون على هذا العلم، فقد كان نصيبهم من سخط الإمام أكبر وأشدّ؛ حين صرخ فيهم: "و شأن أنصار الهوى والعصبية أنهم يكتبون ما لا يعرفون، ويعارضون ما لا يفهمون، ويستدلون بما يجدون، فمن تأويلات بعيدة، ومن تنزيلات مقلوبة، ومن أدلّة مقطوعة الأسانيد أو مكسورة المتون، كلّ ذلك بلا تحقيق ولا ترتيب، ولسان حالهم يقول: (حشلف)⁽²⁾ وجيب"⁽³⁾، وفي استعمال الإمام ابن باديس لهذه الكلمة العامية عدّة دلالات؛ منها:

- تنبيه هؤلاء المتطفّلين على أنّهم ليسوا من أهل العلم والنظر، بل هم من العامة والذمّاء العمياء.
- أو تنبيههم على بعدهم عن الخطاب النبوي الفصيح، وأنّهم لا يفهمون إلّا لغة السوق والشارع.
- أو تشبيهها لصنيعهم بحاطب الليل الأعمى، الذي يجد بأنّه قد احتطب بما ينفعه وما يضرّه.

3/ تحري الإمام ابن باديس إعمال أقوى الأسانيد: لم يكن حرص الإمام ابن باديس على دراسة الأسانيد فقط، بل دعا إلى عدم الاكتفاء بالصّحيح إن وُجد الأصحّ، وإعمال الأقوى ولو مع وجود القويّ، وكلّ هذا تحريّاً للحقّ والصّواب، ومّا يدلّ على هذا المنهج ما يأتي:

3-أ/ حرص الإمام ابن باديس على الاقتصار على المتّفق عليه: لقد كان الإمام يكتفي بالأصحّ، ومن أمثلته؛ عندما أخذ يقرّر أصحّ الصّيغ في الصّلاة على النبي ﷺ، حيث قال في آخر البحث: "ونقتصر من متونه على الصّحيح الثابت المتّفق عليه ممّا في الموطأ والصّحيحين... وهذه المتون الصّحيحة كلّها قد اتّفقت واختلفت... هذا الذي ذكرناه من الروايات هو الصّحيح المتّفق على صحّته وثبوته، ووراءها روايات ليست في درجتها، رأينا الاكتفاء بالصّحيح عنها"⁽⁴⁾، فرغم أنّ الروايات التي ذكرها يُصحّحها جميعاً، إلّا أنّه يرى الاكتفاء بالأصحّ منها عن الصّحيح.

(1): المصدر نفسه، (مج 01 / ص: 447).

(2): حشلف: كلمة عامية جزائرية تستعمل لإفادة معنى: الإمساك بالشّيء بسرعة وأخذه للاستعمال، دون نظر أو تفكير.

(3): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05 / ص: 284).

(4): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04 / ص: 385-389).

3-ب/ عدم اغترار الإمام ابن باديس بالزيادات الضعيفة: فعندما أورد الإمام ابن باديس رواية مختصرة لمسلم، ورواية أخرى مطوّلة للطبراني في المعجم الأوسط، لم يغترّ الإمام بهذه الرواية الطويلة، رغم ما فيها من الزيادات التي يؤدّ المدرّس قولها، ويحبّ العامة سماعها، بل قال: "كلّ ما في المطوّلة مما هو زائد على المختصرة غير معارض لشيء فيها، فهو مع المختصرة حديث واحد روي مطوّلاً ومختصراً وإن تفاوتت طريقاه، وما جاء فيها معارضاً لشيء في المختصرة... فإننا نأخذ بما في المختصرة ترجيحاً لها لقوّة سندها"⁽¹⁾.

كما جعل الإمام منهجه في دراسة الحديث يقوم على دراسة السند والمتن، خاصّة مع الأحاديث التي تنازع أهل الاختصاص في ثبوتها من عدمه، فعندما يشرع في حديث من هذا النوع يقول: "فلتكلّم على سنده ومنتنه"⁽²⁾.

حتّى كتاب الموطأ الذي شرحه الإمام ابن باديس؛ لم يقتصر فيه على الجانب الفقهي أو الوعظ فقط، بل عكف على هذا الكتاب "يحرّر أسانيده، ويعزّز مسانده، ويرفع مراسله، ويستجلي أسرارهِ"⁽³⁾.

الفرع الثالث / عناية الإمام ابن باديس بكشف أحوال الأسانيد ومنتهاها:

لقد كان الإمام ابن باديس يعتني بكشف موصل الإسناد ونهايته، حتّى ينسب القول إلى قائله، فقد ينتهي إلى النبي ﷺ، أو إلى الصّحابي، أو إلى التّابعي، وكلّ هذا حرصاً على نسب القول إلى قائله، وحتّى لا يقول أحداً ما لم يقله، كما كان يُنبّه إلى بعض المسائل التي يمكن أن تعرض في السند، ومن مظاهر هذه العناية ما يلي:

1/ تبيين منتهى السند للحكم في قائل المقول: وذلك تنقية للحديث النبوي ممّا ليس حديثاً، فيظهر الحديث المرفوع والموقوف والمقطوع، وهذا مهمّ لأنّ ما ينسب للنبي ﷺ ليس مثل ما ينسب لغيره ولو كان من الصّحابة أو التّابعين، ومن أمثلة هذا الباب ما يلي:

- تحذير الإمام ابن باديس من تلك الأخبار التي تجري على الألسنة على أنّها أحاديث نبويّة، وتنبيهه إلى وجوب التّحرّي فيها، والرّجوع إلى الكتب المعتمدة التي تبين حالها، "وكثيراً ما

(1): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 51).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03 / ص: 110).

(3): الجيلاني بن محمّد، الاحتفال بختم الموطأ، المصدر السابق، (ص: 329).

تكون هذه الأخبار الدائرة على الألسنة باطلة في نفسها معارضة لما صحّ في غيرها، فيجب الحذر منها"⁽¹⁾.

- ساق الإمام ابن باديس أثراً يحسبه البعض حديثاً، ثم قال: "واستدلّوا على هذا بقول أنس - رضي الله عنه - الذي تحسبه العامة حديثاً... فهو زعم باطل"⁽²⁾، خاصّة لما يُستدلُّ به على أساس أنّه حديث مرفوع تلزم به الحجّة، ويصير دليلاً يصلح للتّشريع.
- كما حصل في موضع آخر عندما نبّه على أثر يعدّه البعض حديثاً، وعلى لفظة أدرجت في لفظ الحديث فقال: "(اعمل لدنياك) ليس حديثاً إنّما هو أثر، لفظة (مرصوص) ليست من ألفاظ الحديث"⁽³⁾، والحقيقة أنّ مثل هذه الدقّة والتّحري كان عزيزاً وما زال!.

2/ الإشارة والإشادة بعدالة الصحابة: أوّلاً لا بدّ من معرفة من هو الصّحابي عند الإمام ابن باديس، والذي عرّفه بقوله: "ثبت الصّحبة بمطلق الاجتماع بالنّبي - صلى الله عليه وآله وسلم - مع الإيمان به والموت على ذلك"⁽⁴⁾، وقد جعل الإمام الصّحبة مطلقة وعامة، وأصحاب الصّحبة الخاصّة هم الذين تربّوا على يد النّبي ﷺ تربية نبويّة، وتنشئة إيمانيّة.

لقد كان الإمام يشير إلى عدالة الصّحابة كلّما سمحت الفرصة بذلك، ولعلّ هذا الفعل منه كان لعدّة أهداف وغايات؛ منها:

- الإشادة بالصّحابة والتّنويه بهم، وبديانتهم وورعهم، ولفت النّظر إليهم للتّأسي بهم، والرجوع إلى فهمهم واجتهاداتهم.
 - تنبيه النّاس إلى أنّ هؤلاء الصّحابة ما كان ليكون لهم ذلك الفضل وتلك المنزلة، إلّا لأنّهم آمنوا بالنّبي ﷺ، وتربّوا على هديه وسنّته الصّحيحة.
- وقد أشار الإمام إلى حالتين يمكن أن يكون فيهما السّند فيه شبهة الانقطاع من جهة الصّحابة، فأجاب الإمام عن هاتين الحالتين بما يلي:

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04 / ص: 124).

(2): المصدر نفسه، (مج 03 / ص: 144).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05 / ص: 51).

(4): المصدر نفسه، (مج 04 / ص: 95).

2- أ/ إذا ذكر الصحابي مبهمًا بغير اسمه الذي يُعرف به: وذلك مثل أن يقال في الحديث مثلاً سأل رجل من المسلمين أو رأى رجل من المسلمين، فقد قال الإمام في هذه الحالة: "الحديث صحيح بسندي، مرفوع بهما، ولا يضرُّ إبهام الرجل الرَّائي لأنَّ حذيفة قال إنَّه من المسلمين، والمسلمون يومئذ هم الصحابة، وكلُّهم عدول"⁽¹⁾.

2- ب/ عدم تصريح الصحابي بمن روى عنه من الصحابة: ينبّه الإمام ابن باديس إلى أنَّه "إذا روى الصحابي ما هو من أقوال النبي صلى الله عليه وآله وسلّم وشؤونه من غيره، فلا يقدح في حديثه عدم تصريحه بمن روى عنه لأنَّ غيره صحابي مثله، والصحابة كلُّهم عدول"⁽²⁾.

في آخر هذا المطلب يمكن تسجيل بعض الملاحظات المهمّة، والمشاهدات العلميّة التي لاحت في صنيع الإمام ابن باديس من ناحية التّخريج ودراسة أسانيد الأحاديث، وأهمّها ما يلي:

- اهتمام الإمام بجانب التّخريج ودراسة أسانيد الأحاديث قبل الخوض في معانيها، أو دراسة ألفاظها، كما خصّص عنواناً لهذا الجانب في مجالس التذكير من حديث البشير النذير⁽³⁾.
- أحياناً يسلم الإمام ابن باديس جدلياً بصحّة الحديث غير المقبول، ليكشف للخصم بأنّ دليله ضعيف من حيث الثبوت والفهم كليهما، "على تسليم صحّته وعلى ما في سنده"⁽⁴⁾.
- قد يجمع الإمام ابن باديس "بين الحديث المرفوع والأثر الموقوف... لا تتّحدهما في المعنى وورودهما على غرض واحد، قدّمنا الحديث لأنّه الأصل، وأخرنا الأثر لأنّه الفرع الشاهد المقوّي لسند ذلك الحديث"⁽⁵⁾، خاصّة إذا وجد الإمام بأنّ هذا الحديث ضعيف، وأراد أن يستدلّ به في فضائل الأعمال، لكن أن يقوّي سند المرفوع بالموقوف فهذا ممّا يحتاج لدراسة واحتكام لقواعد مصطلح الحديث.
- نادراً جدّاً ما يقع ويستدلّ الإمام بالحديث الموضوع، والواقع منه نجد بأنّ الإمام لم يستدلّ

(1): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 110).

(2): المصدر نفسه، (ص: 133).

(3): أنظر: المصدر نفسه، (ص: 109/132/159/162/170).

(4): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03/ ص: 37).

(5): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 201).

به إلا وهو محدّر منه، أو غافل عنه، كما يشير إلى أنّه سيأخذ منه المعنى فقط، وقد وُجد استدلاله بحديث شطره باطل، والشّطر الآخر صحيح، فلم يكن حديثا موضوعا خالصا، بل فيه شطران، باطل وصحيح⁽¹⁾.

- لقد أظهر الإمام ابن باديس اعتناء ملفتا بالمباحث الإسنادية، واهتمّ به اهتماما كبيرا، وليس ذلك حبا في التّطويل أو الإغراب، ولكن كان يرمي من وراءه إلى عدّة مقاصد وأهداف علمية، أهمّها هدفان هما: "أولها: طمأننة القارئ بأنّ الحديث الذي يشرحه الشّيخ، ويستنبط منه الأحكام والحكم حديث صحيح ومتوفّر على مواصفات القبول. ثانيهما: تدريب الطّلاب والدارسين على دراسة الأسانيد ومعرفة الرجال وكيفية التّصحيح والتّضعيف"⁽²⁾.

- لم يسلك الإمام ابن باديس طريقة واحدة في تخريج الحديث، ولكن ما يمكن الجزم به؛ هو أنّ الإمام لم يكن يغرق في إيراد أماكن الحديث ومواضعه في كتب السنّة والتّخريج، وهذا ليس عجزا منه أو تقصيرا، ولكن لكونه يخشى من تشتت ذهن المستمع أو القارئ وذهاب فكره، فيضيع المقصد، وتفوت الفرصة لإيقاظ الأمّة، خاصّة وأنّ أغلب المخاطبين من عامّة الأمّة الأمية، والقليل منهم فقط يمثلون طلبته المداومين.

لكنّ هذا لم يمنعه من الإشارة إلى القدر الذي يحصل به المقصود؛ من التّأكيد على صحّة الحديث، وثبوت نسبته إلى النّبي ﷺ، وذلك في صور عديدة أهمّها:

* إذا كان الحديث في الصّحيحين أو في أحدهما؛ فإنّه يكتفي ويقتصر بالإشارة إليهما، وقد تكون الإشارة عامّة، أو مع ذكر الكتاب أو الباب الذي انتظم فيه هذا الحديث، كما قد يشير إلى صاحب اللفظ المختار إذا كان في الصّحيحين.

* إذا كان الحديث في غير الصّحيحين؛ فإنّه غالبا ما يكثر -كثرة نسبيّة- من ذكر مصادر أخرى ذكر فيها هذا الحديث، وإذا كان في إسناده رجل أو أكثر من رجال الصّحيحين فإنّه يذكره.

(1): المصدر نفسه، (ص: 196).

(2): د/ محمد الدّراجي، المصدر السّابق، (ص: 123).

* إذا تعدّر على الإمام الاطلاع على بعض المصادر المهمة، والوصول إليها، خاصّة العتيقة منها، فإنّه يشير إليها من خلال وسائط أخرى تشير إليها، كما فعل ذلك مع مصادر سبق الإشارة إليها من قبل.

- غالبًا ما كان الإمام ابن باديس من ناحية دراسة الإسناد -إضافة على ما قلنا من قبل- يتعرّض لرجاله بالطرق التالية:

* قد يترجم للصحابي راوي الحديث ترجمة موجزة ومختصرة، بأن يورد أهمّ الجوانب من حياته ممّا يرمي من وراءه لتنبية العامة إلى صفات الصحابة، أو يلفت نظر القارئ أو سمع المستمع إلى صفة من الصفات التي يريد إيجادها في المجتمع.

* في حالة ما إذا كان هذا الحديث في غير الصحيحين، ومن الأحاديث المشكّلة، أو التي بُنيت عليها بعض الاعتقادات أو الأحكام الشرعية المهمة؛ فإنّ الإمام هنا يتوسّع في دراسة الإسناد، ويترجم لكلّ رجاله، ويورد أسانيده المختلفة، كلّ ذلك مستعينًا بكلام أئمة الجرح والتعديل، وموردًا لأحكامهم وأقوالهم في الرواة.

* بعد أن يطمئنّ الإمام إلى أنّ الدّراسة قد اكتملت، وبأنّ السّند قد أُستجلى حال رواّته، وبعد أن يرى بأنّ الإشكالات حُلّت، والغوامض تجلّت؛ هنا ينطق الإمام بالحكم في الحديث من حيث الصّحة والضعف، ومن حيث القبول والردّ، فإن قيل أقبل، وإن رُدّ أحجّم.

ولكن حتّى هذا ليس على إطلاق؛ ففي بعض الأحيان قد يُضعّف الحديث ويُبيّن قصور سنده وعلّته، لكن لا يتوقّف هنا، بل يُثني على المتن يُبيّن عدم إرادته وملائمته لمذهب المخالف، وبذلك ينقض الإمام مذهبه من ناحيتين؛ من ناحية الثبوت، ومن ناحية الفهم.

هذا أهمّ ما يمكن الإشارة إليه من ناحية منهج الإمام ابن باديس في التّعرّض لجانب التّخريج ودراسة الإسناد، هذا الجانب الذي كان بمثابة الافتتاحية العلميّة لدرسه الحديثي، وأقرّ هنا بأنّ ما تمّ التّعرّض له ليس سوى قليلٍ من كثير، وإلاّ فمن رام التّفصيل والتّحرير؛ فإنّ المجال رحب وواسع لمن قصد هذا المجال بالدّراسة، والمقام هنا مقام الإشارة المركّزة، وليس مقام الإسهاب والإكثار.⁽¹⁾

(1): أنظر: د/ محمد الدّراجي، المصدر السّابق، (ص: 123 - 130).

المطلب الثاني: منهج الإمام ابن باديس في تحليل المتن .

إنّ دراسة الإسناد ليس غاية بحدّ ذاته، بل هي وسيلة ومرحلة أولى قبل الانتقال إلى المتن، ولهذا كان الإمام ابن باديس بعد أن يطمئنّ إلى صحّة الإسناد، وبعد أن يفرغ من الدّراسة الخارجيّة للحديث، هنا ينتقل لتحليل المتن واستخراج مكنوناته، وينكبّ على الدّراسة الدّاخلية للحديث، ولن أبالغ إن قلت بأنّ الإمام قد أبدع في شرحه وأمتع، وكان له في منهجه في الشّرح صولات وجولات، وهذا ما سيظهر بعضه في هذا المطلب.

وسأحاول في هذا المطلب أن أتناول باختصار وتركيز؛ منهج الإمام ابن باديس في التّعرّض لمباحث المتن وعلومه، متعرّضا في ذلك لأهمّ الجوانب التي تبيّن هذا الجزء من البحث، والمُعتمد سيكون على الأحاديث التي وردتنا في مجالس التّذكير من حديث البشير النّذير، التي جُمعت من التّراث الحديثي للإمام.

الفرع الأوّل / ملامح الدّرس الحديثي عند الإمام ابن باديس:

قبل الدّخول في تفاصيل الدّرس الحديثي، لابدّ من التّعرّض للمعالم العامّة للدّرس الحديثي المكتوب، وملاحمه الظّاهرة منها خاصّة، كون هذه الملامح لها دلالات علميّة ومقاصد تعليميّة، ولكون الإمام ابن باديس لم يكن من أصحاب التّرف العلميّ، والإسراف المعرفي، بل كان بحكم الواقع المعاش والأهداف المقصودة - لا يأتي على إشارة أو عبارة إلّا وله من راءها مرام وغايات، علمها من علمها وجهلها من جهلها.

1/ الملامح الخارجيّة للدّرس الحديثي الباديسي : لاشكّ أنّ للمظهر الخارجيّ أثر بالغ في إقبال القارئ على المكتوب، والاستفادة منه، بل يمكنه أن يأخذ منه رأيا أوليا وحكما مبدئيّا، ثمّ بعد أن يطّلع على المضمون؛ إمّا أن يزداد حكمه - الإيجابي أو السلبي - قوّة وتأكيدا، وإمّا أن يُغيّره أو يعدّله، وهنا نقصد الدّرس المكتوب، أمّا الذي كان يُلقيه مشافهة فستتناوله أكثر في المطلب الثالث من هذا البحث، والإمام ابن باديس لم يهمل هذا الجانب -حسب ما بدا- وذلك من خلال المظاهر الآتية:

- تقديم الإمام ابن باديس لجانب شرح الحديث النبويّ، وجعله إيّاه في صدر مجلّته (الشّهاب) ولا يخفى عند ذي لبّ أنّه لا يُقدّم إلّا ما يستحقّ التّقديم، ولا يرقى صدر الأمر إلّا المهمّ من الأمر وأوّله.

- إنَّ تصدُّر الدَّرس الحديثيَّ لمجلَّة الشَّهاب؛ يجعل القارئ يتلقَّى ما فيه وهو فارغ الذَّهن، متَّقد البصيرة، حاضر الفكر، كما سيأخذه وهو في أوَّل جوعه وعطشه الفكريِّ، ولا يخفى أنَّ أنفع الطَّعام ما صادف الجوع، كما أنَّ أنفع الماء ما صادف العطش.
- إنَّ تسلسل المواضيع التي يتلقَّاها القارئ تسلسل منطقي، وتتابع علميٌّ مدروس، فالبدءُ بكلام الحكيم الخبير وحديث البشير النذير، ثمَّ باقي المعارف والعلوم، إشارة إلى أنَّ القرآن والسنة هما أوَّل ما يستحقُّ التَّقديم من المعارف والعلوم الشرعية، وكلُّ ما سواهما تبعٌ لهما. وهنا استعملت حرف العطف (الواو) ولم أقل: (ثم)، لأنَّ الإمام ابن باديس لم يكن يفصل بين الكتاب والسنة فصلاً متراخيًّا، بل كان يجمع بينهما باعتبارهما وحياً من عند الله تعالى، أو يتابع بينهما تتابعاً مستلزمًا لكليهما.
- بعد النِّظر في الأحاديث التي في مجالس التَّذكير؛ وجدت بأنَّ الإمام ابن باديس كان يتناول الحديث بالشرح على ثلاث صور مختلفة؛ من حيث الطُّول والقصر:
 - 1- أ/ فيه أحاديث أطال الإمام في شرحها وكشف أسرارها، وقلَّبتها واستخرج مكنوناتها، وذلك لكونها كانت تحوي مواضيع وأهداف كان يرمي إليها، وهذا قليل.
 - 1-ب/ فيه أحاديث تناولها الإمام بشرح مختصر، بحيث يورد الحديث ويُعلِّق عليه فقط، وذلك لوضوح الحديث، وتحقيقه للكفاءات المستهدفة في مدَّة قصيرة، وهو قليل أيضاً.
 - 1-ج/ أمَّا الغالب الأعمُّ، فقد كان شرح الإمام ابن باديس للحديث مختصراً، وبعد عمليَّة حسابيَّة بسيطة يمكن الوصول للمعدَّل العامِّ للمساحة التي يمكن أن يشغلها شرح حديث نبويٍّ عند الإمام ابن باديس، وذلك بأن نقسم حجم الصَّفحات التي جُمِعت فيها مجالس التَّذكير على عدد الأحاديث الموجودة؛ $(190 \div 56 = 03)$ فنجد بالتَّقريب بأنَّ الحديث النبوي الواحد في المتوسِّط العامِّ يشغل ثلاث صفحات، أو ورقة ونصف الورقة، ولا شكَّ بأنَّ هذا الشَّرح من حيث العموم مختصر وليس بالطَّويل.
- لقد كان الدَّرس الحديثيَّ يشغل أفضل الأمكنة والأزمنة عند الإمام ابن باديس، فأمَّا المكتوب منه فقد كان في صدر مجلَّة الشَّهاب، وأمَّا المسموع فقد كان -في الأغلب- في المسجد أو في الأماكن التي يتصدَّر فيها للخطابة والتَّدريس، وقد كان يفتتح دروسه بعد

صلاة الصبح في الجامع الأخضر بشرح الموطأ، وبهذا نجد بأن الدرس الحديثي قد حاز شرف الزمان والمكان.

- شرح الحديث النبوي في فقرات متتابعة، فلم يجعل الشرح في فقرة واحدة، ولا شك بأن هذا له أثر في القارئ، حيث يُحفّزه ويبعث فيه الهمة للقراءة وإكمال الشرح، وقد فصل بين هذه الفقرات بواسطة عناوين.

2/ الملامح الداخلية للدرس الحديثي الباديسي : إن أبرز الملامح الداخلية لمجالس التذكير هو الاستعمال المُلَفَّت للعناوين في شرح الحديث، وتوظيفها في شتى مراحلها، ولهذا لا بد من التوقف عندها واستجلاء مقاصدها، وتبيين أهم مراميها، كما تظهر هذه الضرورة العلمية فيما يلي:

في (56) حديثاً شرحه الإمام ابن باديس في مجالس التذكير أمكنني إحصاء (267) عنواناً، وهذا عدد كبير بالنسبة لعدد الأحاديث، والذي يجعلنا نتساءل عن الغاية والمقصد من هذه العناوين، ويمكن تصنيفها إلى الأنواع التالية:

2-أ/ العناوين العامة: التي عنون بها للأحاديث؛ وعددها: (55) عنواناً.

2-ب/ العناوين الفرعية: التي وردت في أثناء الشروحات، وعددها باحتساب المكرر منها هو: (212) عنواناً، أما دون احتساب المكرر منها؛ فهي بالتقريب (115) عنواناً.

وكل هذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أهمية هذه العناوين ومكانتها في الدرس الحديثي الباديسي، ويمكن تقسيم هذه العناوين حسب الاعتبارات المتاحة؛ وهي كالتالي:

- باعتبار الطول والقصر (طويلة/ متوسطة/ قصيرة).

- باعتبار مواضعها (خارجية/ داخلية).

- باعتبار مواضيعها (حُكْم/ سؤال/ خلاصة/ حديث).

لكن سلكتُ طريقاً آخر لاستجلاء هذه الأهمية هو تقسيم هذه العناوين إلى قسمين:

أ/ عنوان خارجي: ويمكن أن نسميه بالعنوان العام أو الأصلي للحديث، ولعلّ الوصف الأدق والأصدق، والذي يتناسب مع موضوع البحث؛ هو اعتبار هذه العناوين الرئيسية بمثابة: ترجمة للحديث المشروح، وقد وردت هذه التّراجم بالمواصفات التالية:

- تقدّمها للحديث وأسبقيتها عليه، كما كان الإمام يكتبها بالخطّ العريض والبارز لكبره وتميّزه

عن باقي الشرح، فُيلفت الانتباه ويجذب القارئ إليه.

- أغلبُ التّراجم تتّصف بالاختصار والقصر، فلا يطيل العنوان ولا يكثر فيه من الكلمات، ولا يُمطّط في العبارات، بل وُجد له أحاديث كثيرة عنون وترجم لها بترجمة مبناها من كلمتين أو ثلاث كلمات فقط⁽¹⁾.

- تنوّع هذه التّراجم من حيث موضوعها، واختلاف مادّة صياغتها إلى عدّة أنواع منها:

01/ أكثر ما ورد من التّراجم للأحاديث هي عبارة عن فكرة عامّة وخلاصة للحديث، حيث جعل الإمام ترجمته -رغم اختصارها وإيجازها- تحوي أبرز ما في الحديث من التّوجيهات والإرشادات، ويمكن للقارئ من خلال تلك التّرجمة لوحدّها أن يفهم المغزى والمرمى من الدّرس⁽²⁾.

02/ من التّراجم ما جاء موضوعها حكمًا شرعيًا، ولعلّ ترجمة الإمام ابن باديس للحديث مباشرة بالحكم، للاهتمام به ولفت الانتباه، وتشويق القارئ على معرفة المزيد عنه، خاصّة إذا كان هذا الحكم مصادمًا للعوائد، مناقضًا للعادات، رغم أنّ المنطقيّ هو تأخّر الحكم عن الدّليل لا تقدّمه عليه⁽³⁾.

03/ بعض التّراجم جاءت ألفاظها مقتبسة من أحاديث نبويّة إن كانت طويلة، أو حديثًا كاملاً إن كان قصيرًا ويصلح إيرادها كاملاً في التّرجمة، كما قد تكون مناصفة بين الحديث والكلام الآخر حتّى يتشكّل منها العنوان⁽⁴⁾.

04/ كما كان الإمام ابن باديس يَصوغ أحيانًا تراجم أحاديثه في شكل سؤال أو تساؤل، ثمّ يورد الحديث المراد شرحه أو التّعليق عليه⁽⁵⁾.

وقد اكتفيت بالإشارة إلى مواضع الأنواع السّابقة ولم أذكرها، اجتنابًا للتّطويل، واشتغالًا بالأهمّ. إنّ النّاطر في هذه التّراجم والعناوين التي يُقدّم بها الإمام ابن باديس لدرسه الحديثي، يجد بأنّها

(1): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 125/141/162/166/187/188/191/

192/200/209/211/212).

(2): أنظر: المصدر نفسه، (ص: 33/38/48/54/60/67/71/74/91/95/99/121/125/137/141/146/149/

157/159/162/166/187/188/189/191).

(3): أنظر: المصدر نفسه، (ص: 83/105/109/129/170/178/196/197).

(4): أنظر: المصدر نفسه، (ص: 78/88/180).

(5): أنظر: المصدر نفسه، (ص: 115/200/202).

تلعب دوراً مهماً في تحقيق الغاية من شرح الحديث النبوي، ولعل من أهم هذه الغايات ما يلي:

- سلوك الإمام ابن باديس لطريقة السابقين في الكتابة والتأليف، مثل الإمام مالك في الموطأ، وأصحاب المصنّفات الحديثية الأخرى، خاصة منها صحيح البخاري ومسلم، فقد كان أصحابها يُقدّمون لأحاديثهم بعناوين وتراجم مُمهّدة، والدليل هو وجود أنواع التراجم في درس الإمام ابن باديس عند من سبقه من ذكرناهم أنفاً من قدامى المؤلفين.
- يمكن القول بأنّ فقه الإمام ابن باديس في تراجمه؛ خاصة إذا استحضرنّا التنوع المتعمّد الذي كان الإمام يلجأ إليه في إيراد هذه التراجم، وذلك من عدّة اعتبارات سبق الإشارة إلى بعضها.

- مراعاة هذه التراجم لحال القراء والمتلقين، فنجد أكثرها مختصرة وموجزة، ألفاظها سهلة مفهومة، وعباراتها واضحة جليّة، بعيدة عن الاحتمالات غير المقصودة، والتّعقيدات المنفّرة، بل تجذب المُدبّر النّافر، وتشدّ الغافل، وتُنقل في المحافل، بل هي في مواضعها كالغاليق للأبواب، والمفاتيح للألباب.

في آخر هذه النّقطة؛ يمكن الإشارة إلى أنّ فيه حديثاً واحداً فقط لم يضع له الإمام ترجمة في أوّل، وتركه دون عنوان⁽¹⁾، ولا ندري السّبب الحقيقيّ من وراء صنيعه هذا، فقد يكون السّبب هو حساسيّة الموضوع الذي تعرّض له الإمام، خاصّة إذا وجدنا بأنّ المشرف على نشر كتاب مجالس التذكير من حديث البشير النذير قد عنون له بعنوان: "السيادة في البرّ لمن ساد في البحر"، ولا يخفى ما في هذا العنوان من تحدّ لفرنسا، وذكر لمآثر الجزائر أيام سيادتها على البحر الأبيض المتوسط، ولهذا ترك الإمام العنوان اكتفاءً منه بما في الشّرح.

ب/ العناوين الدّاخلية: لقد شغلت هذه العناوين الكثير من الحيّز في شرح الإمام ابن باديس للحديث، كما أنّها قد جمعت بين الكثرة والتنوّع، حتّى لقد لقيت صعوبة في حصرها وتصنيفها، رغم صغر ومحدوديّة مساحة البحث، ولكن العبرة ليست في المساحة؛ بل في الغنى العلميّ والمعرفيّ للموضوع المدروس والمتطرّق إليه، ولهذا فأهمّ ما يمكن أن يسجّل عن هذه العناوين الدّاخلية -

(1): المصدر نفسه، (ص: 132).

إضافة على ما سبق ذكره في التّراجم - ما يلي:

- الكثرة والتنوّع والغنى في العناوين الواردة في شرح الحديث عند الإمام ابن باديس، لكن المسجّل أنّ كثرتها لمن تكن كثرة عبثيّة، وتنوّعها لم يكن تنوّعا لفظيًّا شكليًّا، بل وراء كلّ منها غايات ومقاصد جمّة سنشير لبعضها.

- تفريق هذه العناوين بين فقرات الشّرح، فبتلك العناوين يعرض الإمام درسه في شكل وحدات متتابعة، يفصل بينها بعنوان يكون بمثابة ترجمة للفقرة التي تليه، أو يمكن تسمية هذه العناوين بالأفكار الثانوية والفرعيّة، في مقابل الفكرة الرئيسيّة أو الأساسيّة للحديث المشرح.

- تتسم هذه العناوين الفرعيّة بكونها تنوّع إلى عناوين قارّة وأساسيّة وثابتة، وذلك لورودها في كلّ الشروح الحديثيّة، وعناوين أخرى ظرفيّة وثانويّة وغير ثابتة، وذلك لورودها الآني والمؤقت، وتغيّرها من شرح إلى آخر، ومن خلال التّبّع والاستقراء؛ يمكن تقسيم هذه العناوين الفرعيّة الدّاخلية إلى مجموعات، كلّ مجموعة منها تخدم جانبًا من جوانب شرح الحديث النبوي، وهي:

01/ العناوين التّمهيدية: وهي العناوين التّمهيدية التي تتصدّر شرح الإمام ابن باديس للحديث غالبًا، والتي تدرس الحديث من حيث التّخريج والإسناد، وألفاظه المختلفة؛ وهي: (تمهيد/ السّند/ مخرّجو الحديث/ سبب الورود/ المتن/ ألفاظ المتن/ الراوي/ النّظر في الرّوايتين/ رتبة الحديث/ ترجمة شخصيّ الحديث/ الأشخاص).

02/ العناوين اللّغويّة: وهي العناوين التي يدرس تحتها مختلف المسائل اللّغوية، والقضايا اللفظية، وتحليل المفردات، ودراسة التّراكيب، وأهمّها: (الألفاظ/ المفردات/ التّراكيب/ الكلمات/ العربيّة/ اللّغة).

03/ العناوين التّحليليّة: وهي العناوين التي يقوم من خلالها بتحليل الحديث وشرحه، واستنباط أحكامه وحكمه، ومما جمعه في هذا الجانب: (المعنى/ الأحكام/ فوائد الأحكام/ الفوائد والأحكام/ الفوائد/ الحكم/ تلخيص وتحصيل/ زيادة بيان/ البيان/ بسط وبيان/ الشّرح/ تبصّر/ تبصرة/ تفقّه/ فقه/ تفصيل وتقسيم/ فقه الحديث ومقصوده/ توضيح).

04/ العناوين الإرشادية الوعظية: وهي العناوين التي يستعملها الإمام في الحث والترغيب، والوعظ والإرشاد والتوجيه، وغالبا ما يرد ما فيها باللين والمطاوعة، ومنها: (اتساء/ الأسوة/ الاقتداء/ امثال/ إرشاد/ إرشاد وترغيب/ اهتداء/ العلاج/ اعتبار/ الموعظة/ توصية/ امثال/ إيمان وامثال).

05/ العناوين التحذيرية الترهيبية: وهي العناوين التي سلك فيها الإمام مسلك الشدة والتحذير والزجر، خاصة في المواضيع الخطيرة التي عمّت البلوى بمواقعتها رغم تحريمها، أو إهمالها رغم وجوبها، ومن العناوين في هذا المجال: (إرشاد وتحذير/ اقتداء وتحذير/ تنبيه وتحذير/ تحذير وإرشاد/ عبرة وتحذير/ تحذير/ تحذير أوكد/ تفرقة وتحذير/ ترهيب/ البلاء/ تنبيه على استلزام).

06/ العناوين الترجيحية التحقيقية: وهي العناوين التي يستعملها الإمام للتّرجيح بين الأقوال، والتّوجيه والتّعليل، وزيادة تحقيق ما سبق وأشار إليه من المسائل، ومن عناوين هذا المجال: (تفرقة وترجيح/ الجمع والتّرجيح/ تفرقة/ تفرقة وتميز/ تفرع/ تفرع على الحديث/ توجيه/ توجيه وتعليل/ دفع شبهة/ تقييد وتعميم/ تعميم/ تميم/ تحقيق تاريخي/ استنباط/ نفي التّعارض/ المطابقة/ الجمع).

07/ العناوين الاستدلالية: وهي العناوين التي يسعى الإمام من خلالها لمزيد من الاستدلال لما يذهب إليه، والتقوية بإيراد الحجج والبراهين، ومن عناوينه: (تأييد/ تصديق/ الاحتجاج/ توسّع في الاستدلال/ استدلال/ استشهاد).

08/ العناوين السلوكية التربوية: وهي العناوين التي يشير من خلالها إلى مباحث تربوية، وتوجيهات سلوكية، مثل: (الآداب/ أصل عام في التربية/ تربية/ سلوك/ سلوك العاملين بهذه الأحاديث/ حقيقة نفسية).

09/ العناوين الاحتجاجية الإنكارية: وهي العناوين التي كان الإمام ابن باديس يحتجّ من خلالها على بعض المسائل والقضايا المطروقة، وهي مختلفة وكثيرة، منها: (بيان عقيدة وإبطال ادّعاء/ ليس الخبز كلّ ما نريد/ إلى أيّ درجات الكمال بلغنا/ الرّد على المتشدّدين).

10/ العناوين الختامية: وهي العناوين التي يختم بها الإمام شرحه، أو التي يجعل فيها خلاصة القول وزبدته، والتي يُسقط من خلالها النظري على الواقع ويطبّقه، ومن أهمّها: (تطبيق/

استنتاج/ تحصيل/ العمل بالحديث).

الفرع الثاني/ طريقة الإمام ابن باديس في شرح الحديث:

سأشير هنا إلى أهم مرتكزات الإمام في شرح الحديث، وطريقته في التناول والعرض، دون الرجوع إلى ما سبق، بل سأكتفي بما لم يُذكر، وذلك عبر المراحل المتعلقة بالمتن، ثم تدوين الملاحظات على هذه المراحل، بذكر أهم مميزات ومقاصدها، والمذكور هنا هي المراحل الأساسية والجوهرية، وإلا فقد كان الإمام يضيف بعض العناوين استجابة لضرورات علمية، أو ظروف آنية.

1/ أهم مراحل شرح الحديث عند الإمام ابن باديس : لقد كان منهج الإمام ابن باديس في شرح الحديث النبوي قائماً على المرحلية والتدرج، وهذا ثابت قولاً وفعلاً، فأما من المقول فقد قال الإمام ابن باديس -مشيراً-: " هذا وإننا بعد أن نفرغ من نقل متون هذه الأحاديث الصحيحة الصريحة، نأتي بكلام الأئمة من شراحها عليها..."⁽¹⁾، كما قال في موضع آخر: "ولنكن في إرشادنا مقتصرين على إيراد لفظ الحديث وشرحه"⁽²⁾، أما مراحلها فيمكن اختصارها فيما يلي:

1/0 مرحلة اختيار الأحاديث: لقد كان منهج الإمام ابن باديس قائماً على اختيار الأحاديث القصيرة المختصرة، وقد بدا هذا جلياً واضحاً في شرحه، كما كان هو نفسه يشير ويحتفي بالروايات المختصرة⁽³⁾.

وإذا أتى بحديث فيه طول فلما فيه من الزيادات المهمة، فإنه يشير إلى الرواية المختصرة في مضائها لمن أراد الرجوع إليها والاطلاع عليها⁽⁴⁾.

وقد يأتي الإمام ابن باديس بالرواية المطولة لتوضيح وتبيين الرواية المختصرة، أو تفصيل مجملها، كما قال في أحد المواضع: " وذكر الرواية المطولة يوضح لنا الرواية المختصرة "⁽⁵⁾.

إذا حدث وجاء الإمام ابن باديس برواية مطولة فإنه يُعلّل سبب اختياره، ويبين علّة خروجه عن

(1): المصدر نفسه، (ص: 155).

(2): المصدر نفسه، (ص: 152).

(3): أنظر: المصدر نفسه، (ص: 188).

(4): أنظر: المصدر نفسه، (ص: 133).

(5): أنظر: المصدر نفسه، (ص: 50).

المنهج المعتاد، مثل قوله في إحدى الحالات: "قد أتينا هذه المرة بحديث فيه طول، ولكن ما فيه من الفوائد نعتقد أنه يكون حافزاً للقارئ إلى حفظه، وليس حفظ الحديث الجليل بكثير على همّة المستفيدين"⁽¹⁾، فيبين أن سبب اختياره للحديث الطويل هو كثرة الفوائد والدّرر التي حواها، وإلا لما حاد عن منهجه المرسوم، كما أشار إلى أن من أسباب حرصه على الروايات المختصرة، هو القدرة على حفظها لاستحضارها عند الحاجة.

02/ مرحلة ربط الحديث النبوي بالترجمة: لقد كان الإمام مهتماً بالتّراجم التي يوردها، كما كان يحاول الربط بين الأحاديث التي يشرحها والتّراجم التي تنضوي تحتها، إظهاراً للتّرابط والاستلزام بينهما، فمن أمثلة إشارته للترجمة قوله: "من حضر مع قوم وكثّر جمعهم فهو منهم وشريك لهم في عملهم، سواء أكان خيراً أم شراً كما يفيد الحديث الذي جعلناه ترجمة"⁽²⁾.

ولعلّ الأبرز هنا هو اعتراض الإمام ابن باديس على عدم ملائمة الترجمة لمضمون الحديث، وإنكاره على من جعل ترجمته منافية لمعنى الحديث، ومن أمثلة هذا الصّنيع؛ ما ذكره عند شرح حديث عائشة رضي الله عنها المتفق عليه، وقد اختار لفظ مسلم الذي جاء فيه: "أنّ رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى الإنسان الشيء منه أو كانت به قرحة أو جرح، قال النبي ﷺ بإصبعه هكذا، ووضع سفيان سبّابته بالأرض ثم رفعها «باسم الله، تربة أرضنا، بريقة بعضنا، ليشفى به سقيمنا بإذن ربّنا»"⁽³⁾.

وبعد أن شرح الإمام ابن باديس الحديث قال: "فليس هذا الحديث إرشاداً لمعنى طبيّ ولكنه درس في الوطنيّة عظيم، ولو أنصف المحدثون لما وضعوه في باب الرّقى والطّب، فإنّه بباب حبّ الوطن أشبه"⁽⁴⁾، وهذا لا اعتقاد الإمام بأهميّة التّراجم، ووجوب دلالتها على مضمون الحديث بدقّة وصحّة.

03/ مرحلة إحكام متن الرواية وتقليبه: وفيه يقصد الإمام ابن باديس إلى الحديث الذي تعدّدت رواياته؛ فلا يختار "منها إلا ما فيه شيء يوضح المعنى، أو يكمل الصورة أو يزيل لبساً أو يرفع

(1): المصدر نفسه، (ص: 198).

(2): المصدر نفسه، (ص: 89).

(3): متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب الطّب: باب رقية النبي صلى الله عليه وسلم (5745 / 5746)، (مج 04 / ص: 44).

وأخرجه مسلم في كتاب السّلام: باب استحباب الرّقية من العين والنملة والحمة والنّظرة، (2194)، (ص: 903).

(4): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 02 / ص: 118).

إشكالا، أو يدفع تعارضا وما أشبه ذلك، ثم إن كان بين الروايات شبه تعارض فإنه يسعى لإزالته بالجمع أو الترجيح، وأحيانا يأتي بأحاديث أخرى تؤيد حديث الباب وتعضده⁽¹⁾، ليس هذا فقط بل كان يأتي أيضا بالروايات المختلفة من باب "التناول الموضوعي للأحاديث والابتعاد عن القراءة الجزئية للنص... أي جمع كل الأحاديث التي وردت في موضوع ما، والاجتهاد في فهم ذلك الموضوع على ضوءها جميعا، وفهم الحديث الجزئي على ضوء الكلّيات الواردة"⁽²⁾.

عند إيراد هذه الروايات الصحيحة، كان يسعى جاهدا للجمع بينها والربط بين معانيها، فكان يختتم هذا العمل بقوله: "وبهذا يجمع بين الأحاديث"⁽³⁾.

وإذا لم يستطع الجمع بين الروايات، لجأ -بالحجة والبيان- إلى أنّها "مختلفة غير متناقضة فتفيد المعاني المتغايرة غير المتضاربة، وهي بهذا نظير اختلاف القراءات في صحيح الروايات"⁽⁴⁾، وبهذا المخرج تصير هذه الروايات سببا للتنوع والغنى العلمي، وبالتالي فلا "معارضة بين الروايات"⁽⁵⁾.

وأحيانا يصير الإمام إلى كون الراوي قد اختصر الرواية ولم يروها كاملة، أو أنّه نسي فلم يبلغ الحديث كما سمعه، وهذا خاصّة من حيث الزيادة والنقصان من متن الحديث ممّا له أثر في المعنى فقد يرى الإمام أنّ الزيادة قد "تكون في الأصل وأسقطها الراوي نسيانا أو اختصارا، وقد لا تكون وزادها من زادها نسيانا أو بيانا"⁽⁶⁾.

كما كان المتن من معايير الإمام ابن باديس في الحكم على الحديث، وضبط منتهاه، فبعد أن أتى بحديث موقوف على معاذ رضي الله عنه، يخبر فيه عن أمور من علم الغيب، قال الإمام فيه: "وهذا الحديث وإن كان موقوفاً على معاذ فهو في حكم المرفوع لأنّه إخبار بمغيب مستقبل، وهذا ما كان يعلمه الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- إلا بتوقيف من النبي -صلّى الله عليه وآله وسلّم-"⁽⁷⁾.

(1): عامر، علي عرابي، المصدر السابق، (ص: 304).

(2): د/ محمد الدراجي، المصدر السابق، (ص: 140).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (مج 01 / ص: 312).

(4): المصدر نفسه، (مج 04 / ص: 389).

(5): المصدر نفسه، (مج 04 / ص: 394).

(6): المصدر نفسه، (مج 04 / ص: 388). وانظر: المصدر نفسه، (مج 01 / ص: 367).

(7): المصدر نفسه، (مج 01 / ص: 410).

كما يشير إلى الزيادات التي يمكن أن ترد في المتن، فإذا كانت من الثقات العدول أشار إليها بقوله: "وهذه زيادة عدل فهي مقبولة"⁽¹⁾.

ولم يكن الإمام يسعى للجمع بين الروايات فقط، بل كان يسعى لإيجاد التوافق بين الأحاديث النبوية والآيات القرآنية، وذلك ربطاً بين الوحيين وتصديقاً لهما⁽²⁾.

كما لم يكن الإمام يأتي بهذه الروايات تطويلاً أو حشواً، أو استعراضاً لقواه العلمية الحديثة، بل كان يستعملها -أيضاً- في الترجيح بين الأقوال، واختيار أظهرها وأقواها⁽³⁾.

04/ مرحلة الدراسة اللغوية والبلاغية⁽⁴⁾: بعد أن يفرغ الإمام من تخريج الحديث ودراسة الإسناد، ويجزم بأصح الروايات وأقواها، يشرع في تناول المتن من زاوية الألفاظ والتراكيب، ويُجَلِّي الجوانب اللغوية والبلاغية، ولا بأس هنا بالإشارة إلى أهم مميزات هذا المرحلة:

- تنوع العناوين التي تدرج تحتها هذه المرحلة، فنجد أهمها: الألفاظ، المفردات، التراكيب، الكلمات، العربية، اللغة، والحقيقة أن بين هذه العناوين فرقاً، فالألفاظ والتراكيب مثلاً بينهما فرق، لكنها تدرج كلها تحت الجانب اللغوي.

- لقد كان منهج الإمام ابن باديس في شرح المفردات قائماً على عدة مراحل، أهمها ما يلي:

أ/ كان الإمام ابن باديس يتناول الألفاظ والمفردات المشكلة فقط، أو تلك التي يمكن أن تعتبر بمثابة الألفاظ المفتاحية للحديث، فيكشف معانيها حالة الأفراد، قبل التعرّض لمعانيها حالة التركيب، فلم يكن يتعرّض لكل ألفاظ الحديث.

ب/ "إذا ورد للكلمة شرح نبوي في حديث آخر اقتصر عليه دون ذكر للخلاف...إذا لم يرد من السنة ما يبيّن المراد وجاء تفسير عن أحد الأعلام اعتمده...وأما إذا لم يرد تفسير من طريق السنة أو من طريق الأعلام الذين قولهم حجة فإنه يرجع إلى أصل الكلمة...فإن احتمل اللفظ عدة تفسيرات كلها تليق بالمقام ولا تعارض بينها ولا مرجح، بل ترجع إلى أصل واحد اعتبرها

(1): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 40).

(2): المصدر نفسه، (ص: 85).

(3): المصدر نفسه، (ص: 69).

(4): أنظر: عامر، علي عرابي، المصدر السابق، (ص: 309 / 314). ود/ محمد الدراجي، المصدر السابق، (ص: 131).

جميعاً... فإذا كان لابد من الترجيح بين المعاني فإنه يعتمد على وسائل متعددة منها: النص، الأصل، العموم، السياق، الظاهر، وغيرها... كان يستشهد بالشعر زيادة عن القرآن والحديث في بيان معاني الألفاظ... وأكثر اعتماده في المعاجم على اللسان والصّحاح⁽¹⁾.

ج/ مهما تعددت الطرق والوسائل التي كان الإمام يكشف بها مكنونات الألفاظ، إلا أنه كان يأتي بالمعنى مختصراً ومركّزاً، خالياً من التعقيد المخلّ، أو التّطويل المملّ.

د/ كان في شرحه للألفاظ والمفردات حريصاً على إظهار جماليّات اللفظ النبوي، وإحساس القارئ أنّ غرابة الألفاظ ليس لصعوبتها أو تعقيدها، بل لغناها وثقلها الدّلالي والمعرفي، وبين المعنيين بون شاسع، فالأوّل يبعث على هجر الحديث واستصعابه، والثاني يحثّ على دراسته واستنطاقه.

- أمّا شرحه للتراكيب والجمل، فقد كان يتعرّض لها بإيضاح معاني الجمل، والتّطرق للمباحث الإعرابيّة، والمعاني البلاغيّة، وذلك بالطّرق التّالية:

أ/ كان لا يتعرّض للمباحث الإعرابيّة والبلاغيّة إلا عند الضّرورة فقط، خاصّة إذا كان إدراك المعنى قائماً على فهم موقع الكلمة من الجملة، وإدراك عملها ومحلّها من التّركيب.

ب/ الاعتماد الكبير للإمام ابن باديس على السياق في معرفة موقع المعربات المقدّرة، ومراعاته لهذا الجانب حتّى لا يخرج بالكلمة المحتملة عن سياقها الذي جاءت فيه.

ج/ الاختصار والإيجاز عند التّعرّض للمباحث الإعرابيّة والبلاغيّة، وعدم الإكثار أو التّطويل فيها، وذلك لعدّة أسباب موضوعيّة أهمّها:

* معاناة الإمام ابن باديس من هذه الطّريقة المملّة أثناء مرحلة الدّراسة، حيث طغت هذه الجوانب الجافّة من المعارف على اللّب والغاية من نصوص القرآن والسّنة النبويّة، حيث كان الطّالب يغرق في المساجلات الإعرابيّة والبلاغيّة ممّا يصرفه عن هدايات القرآن والسّنة النبويّة.

* مراعاة الإمام للمستوى العلميّ والمعرفيّ لعموم القراء الذين يطلّعون أو يستمعون لدرسه الحديثي، فعامة النّاس كانوا أميّين، وأكثر المتعلّمين -على قلّتهم- لا يمكنهم إدراك التّفاصيل، وفهم دقائق المسائل، ولا شك أنّ الإغراق في هذه المباحث يمكن أن يصرف القارئ أو المستمع عن

(1): عامر، علي عرابي، المصدر السابق، (ص: 306/ 309).

الدّرس كلفة فتضيع الفرصة، ويفوت المقصود، والإنسان عدوّ ما يجهل، والدليل على معرفة الإمام بمستوى المخاطبين قوله: "فيا أيّها القراء المؤمنون تطلّبوا معاني ما تقرأون، واعملوا بما تفهمون... ويا أيّها المؤمنون الأميون، اسألوا أهل الذّكر والعلم..."⁽¹⁾.

* محدودية المساحة المخصصة للدّرس الحديثي للإمام ابن باديس، ما يعني وجوب استثمارها بالشكل المناسب، والاكتفاء بالضروري المهم، والابتعاد عن مظاهر الترف العلمي.

د/ إضفاء الإمام ابن باديس لمعاني الكمال والتمام، وإظهار الإعجاز والقوة في الأحاديث النبوية، وذلك من خلال هذه المباحث الإعرابية والبلاغية، فعوض أن تكون سبباً للملل والضجر، صيرها جهة من جهات قوة النص الحديثي، ولم يكن يثبت هذا فقط، بل كان ينفي عكسه ويمقته، وينزه الخطاب النبوي عن الحشو، مثل قوله في بعض المواضع: "حشو تتحاشى عنه البلاغة النبوية"⁽²⁾، وحتى الإمام كان يقتدي بالنبي ﷺ في الاختصار على المطلوب والابتعاد عن الحشو والتّطويل.

5/0 مرحلة التحليل وتجلية المعاني: بعد أن يحيط الإمام ابن باديس بجوانب الحديث، ويدرس ألفاظه وتراكيبه، هنا يبدأ بتحليل الحديث وإظهار معانيه الإجمالية والتفصيلية، وقد سلك في ذلك منهجاً محكماً ومتكاملاً كالآتي:

- لقد كان الإمام في كثير من الأحيان يورد المعاني التي احتواها متن الحديث، فيُجمل ثم يفصل، وهذا انتقالاً بالقارئ من العام إلى الخاص، فيكون من الناس من يستوعب المعنى العام ويكتفي به، ومنهم من ينتقل إلى المعنى التفصيلي للحديث.
- لقد كان منهجه في هذا الجانب "يعمد إلى تبسيط أفكاره، وشرح معانيه، بجمل بسيطة، وأسلوب واضح مركّز، بحيث يجعل القارئ يستوعب أهم المعاني والأفكار التي تضمّنها النص"⁽³⁾، فيأتي في صياغة السهل الممتنع.
- يعبر الإمام ابن باديس عن هذه المرحلة من الدراسة بعدّة عناوين، فقد يشير إلى المعنى الإجمالي بلفظ: (المعنى) فقط، وهنا نجزم بأنّه يقصد المعنى الإجمالي من خلال عدّة قرائن،

(1): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (ص: 207).

(2): المصدر نفسه.

(3): د/ محمد الدراجي، المصدر السابق، (ص: 133).

- منها السياق الذي يرد فيه، وكذا حجمه الذي يستحيل أن يريد به التفصيل والبيان، ولعل أقوى هذه القرائن هو إتباعه بعنوان: (بسط وبيان)، ما يعني أن ما قبله هو إشارة وإجمال⁽¹⁾.
- في هذه المرحلة تقع أكثر العمليات العلمية في الدرس الحديثي عند الإمام ابن باديس، ففيها نجد إيراد الأدلة، ومناقشة الحجج، والترجيح بين الأقوال والموازنة بينها، كل ذلك بتركيز واختصار غير مخلين بالمعنى، ولا مهملين لمستوى القارئ أو المستمع.
- 06 / مرحلة استنباط الفوائد والأحكام: بعد الدراسة وتقليب الأدلة، يأتي دور استخلاص الفوائد والعبر والإرشادات والأحكام من الحديث، وتتميز هذه المرحلة بعدة خصائص أهمها:
- في هذه المرحلة يكون المتلقي مستعداً لتلقي الأحكام والفوائد التي جاءت في الحديث، فلا يأتي بها الإمام بغير تقديم أو توطئة، بل كل المراحل السابقة تصب في هذا الاتجاه، فتجدها تأخذ بيد المتلقي برفق وتدرج إلى هذه المرحلة، ومع هذا التدرج والبناء المعرفي لا يستغرب ولا يتفاجأ، بل يصل إليها بسلاسة وليونة تخضع لها النفس بالتسليم.
- إن الناظر في الأحاديث التي شرحها الإمام يجد بأن أغلبها "أحاديث عقائد وأخلاق وآداب لا أحاديث أحكام فقهية... وتظهر له طريقتان في بحث أحاديث الفقه والعقائد:
- تتمثل الطريقة الأولى في الاختصار على سرد الفوائد والأحكام من الحديث الواحد بعد الآخر دون بحث أو تدليل أو نقاش وتشعب...
- أما الطريقة الثانية فتتمثل في التوسع في بعض المسائل بالبحث والتحقيق عندما تدعوا الضرورة لذلك"⁽²⁾.
- لم يكن الإمام يتكلف استنباط الأحكام، أو كان يُجمل النصوص ما لا تحتل، بل كان "يتمتع بقدرة فائقة مكنته من استخلاص دروس حيّة، وعبر مفيدة، وحكم بالغة من النصوص النبوية التي تعرض لها بالشرح... لذا كان يغوص في أعماق النص النبوي ويستنبط منه حقائق وقيم نفسية، وأخلاقية، واجتماعية، وتاريخية وتشريعية وكونية..."⁽³⁾.

(1): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 75).

(2): عامر، علي عرابي، المصدر السابق، (ص: 314).

(3): د/ محمد الدراجي، المصدر السابق، (ص: 135 / 137).

07/ مرحلة التطبيق والإسقاط على الواقع: تُعدُّ هذه المرحلة هي الغاية والمقصد من الدرس الحديثي، والتأخير لهذه المرحلة ليس تأخيرًا ترتيبيًا، بل هو تأخير ذكرّي فقط، لأنَّ الإمام كان في درسه ينطلق من الواقع لينتهي إلى الواقع نفسه، ومما يدلُّ على هذا الاتجاه " استحالة فصل مواقف وتصريحات ابن باديس... عن الظروف الزمانيّة، والملابسات والمعطيات الظرفيّة التي صدرت فيها، والتي تعطيها القراءة السليمة، والتفسير الصحيح، بحكم هذه المواقف والتصريحات... وهذا ما يتطلّب منّا الرجوع إليها، لفهم ما صدر فيها عن ابن باديس وتعليقه"⁽¹⁾.

وهي مرحلة غنيّة ومميّزة تستحقُّ الوقوف عندها، واستجلاء أسرارها ومكنوناتها، ولكن سنكتفي بالأهمّ فقط؛ وهو ما يلي:

- لقد كان الإمام حريصًا على ملامسة الواقع والتعرّض إليه، فكان يشرح الأحاديث ثمّ "يطبّق شروحه على الواقع الجزائريّ في مهارة فائقة"⁽²⁾، وهذا الحرص لا يُلتمس من خلال صنيعه فقط، بل كان هو أيضًا يشير إلى هذا السعي من عدّة جهات منها:

أ/ دعوة الإمام في مناسبات عديدة للخطباء والمدرّسين لمراعاة الواقع وتطبيق دروسهم عليه، فاتّجه ناصحًا "للأئمة المجتمع وخطبائها في توجّهِهم بخطبهم الوقائع، وتطبيقهم خطبهم على مقتضى الحال، بلنّ والله بلنّ والله، ولقد كانت الخطب النبويّة والخطب السلفيّة كلّها على هذا المنوال، تشتمل مع الوعظ والتذكير على ما يقتضيه الحال"⁽³⁾، كما كان يدعو إلى إعمال الحديث النبوي ودعوة الناس إليه في الواقع، ومعالجة أمراض الأئمة بحكّمه وأحكامه، فقد قال موصيًا: "...على من عرف هذا الحديث النبويّ أن يعمل به في نفسه، وأن ينشره بين الناس وأن يعالجهم به؛ بتفهمهم فيه، وتحذيرهم من مغبّة مخالفته والإصرار على معاندته، ولأنّ يهدي الله بك رجلا واحدًا خير لك من حمر النعم"⁽⁴⁾، كما كان الإمام يعتبر الحديث النبوي دواء لكلّ الآفات التي تفتك بالأمة الإسلاميّة، ومن المواضع التي أشار فيها لهذا الاتجاه؛ قوله عند شرح حديث نبويّ: "وهذا الحديث النبويّ هو دواؤها

(1): زروقة، عبد الرّشيد، المصدر السابق، (ص: 141). وانظر: د/ محمد الدراجي، المصدر السابق، (ص: 141).

(2): د/ الطاهر أحمد مكي، المصدر السابق، (ص: 124).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 01 / ص: 418).

(4): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 114).

والقاطع لها، فليتمّله قرّاءنا ولينشروه في المسلمين وليذيعوه بالتلاوة والتفسير والتأكيد والتقرير عسى أن يشفي الله به القلوب من داء الغلو والادعاء والغرور والتغيرير⁽¹⁾.

ب/ كثرة العناوين التي استعملها الإمام للإشارة إلى هذا الجانب، وهي وإن اختلفت في صياغاتها فقد اتّحدت في غايتها؛ وهي إصلاح الواقع، ومن هذه العناوين: (تطبيق/ العمل بالحديث)، لكنّ أكثر هذه العناوين تكرّراً هي العناوين التي وردت بصيغة التحذير والتنبية؛ ومنها: (إرشاد وتحذير/ اقتداء وتحذير/ تنبيه وتحذير/ عبرة وتحذير/ تحذير أوكد....)⁽²⁾، وما كثرة هذه العناوين إلّا لحرص الإمام على التنبية التحذير من الآفات والمظاهر المرضية في المجتمع.

- نلاحظ من خلال الدرس الحديثي عند الإمام ابن باديس وشرحه؛ أنّ "الهدف من وراء شرح السنّة عنده هو علاج مشكلات الأمة على جميع المستويات، من خلال رصد مواطن الخلل، ومظاهر القصور، ووصف الحلول الناجعة لذلك كلّ من السنّة النبويّة الشريفة"⁽³⁾.

2/ أهمّ مميزات مراحل شرح الحديث عند الإمام ابن باديس : في آخر هذا المطلب يمكن أن نسجّل أهمّ الملاحظات والمميزات التي تظهر من شرح الإمام للحديث النبويّ، وطريقة تحليله للمتن المدروس، ولعلّ أهمّها ما يلي:

- لقد كان الإمام ابن باديس "يتناول الحديث ليستنتج منه نتائج وعبر حول الحاضر والظروف السياسيّة والثقافيّة التي يعيشها العالم الإسلاميّ والجزائر"⁽⁴⁾، فشرحه للحديث كان وسيلة ولم يكن غاية بحدّ ذاته.

- إنّ كلّ هذه المراحل التي سبق ذكرها هي بمثابة خطوات "منهجية تربويّة شاملة، تربط الماضي بالحاضر، وتطبّق الأحكام المستنبطة على الواقع العمليّ، وتوجّه إلى مواطن القدوة والأسوة، ببيان ما قامت عليه الأحكام الشرعيّة، والآداب الإسلاميّة، من علل وأسباب،

(1): المصدر نفسه، (ص: 87).

(2): أنظر: المصدر نفسه، (ص: 52/58/65/86/94/107/118/119/127/173).

(3): د/ محمد الدراجي، المصدر السابق، (ص: 135).

(4): أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (مج 07/ ص: 46).

وما ترمي إليه من حكم ومقاصد"⁽¹⁾.

- لقد انتهز الإمام ابن باديس " فرصة شرحه للسنة النبوية الشريفة، لمدّ جسور التواصل بين علمي الحديث والفقه، والرجوع بالتعليم إلى ما كان عليه في عهده الزاهرة، منطلقاً من التفقه في الكتاب والسنة وربط الفروع بالأصول، وبالتالي التحرر من ربة التقليد والتعصب"⁽²⁾، كما يؤازر هذا الطرح؛ كثرة العناوين التي كانت تتعرض لجانب الفقه في الحديث النبوي مما سبق الإشارة إليه، واحتفاؤه على وجه الخصوص بفقه الإمام مالك⁽³⁾. كما يمكن الاستدلال على جانب الفقه في درسه؛ بمباحث الترجيح والموازنة بين الأقوال والمذاهب لاختيار أقواها وأرجحها.

- لقد كان الإمام ابن باديس في درسه وشرحه "يمقت السطحية ويريد التعمق لإدراك الحقائق، لأنّ الانحدار دائماً إلى المحسوسات والارتباط بها قد يضلّل الإنسان ويحجب عنه الحقيقة والنفاذ إلى البواطن والخفايا، وهو العلم الذي يهدف إليه...مما يجعله من المفكرين الإسلاميين، بل حكماء الإسلام المعاصرين الذين لهم نظرة في الحياة وفي الإنسان وفي العلم والمعرفة"⁽⁴⁾.

- إنّ الدرس الحديثي للإمام ابن باديس كان محاطاً بالإبداع والعظمة، " لم تكن عظمتة... مرتبطة بذلك الكمّ من الدروس المختلفة المتباينة، بل كانت العظمة مرتبطة بكيفية تلك الدروس، بمنهجها، بالفكرة العالية التي تمليها وتهدف إليها"⁽⁵⁾.

- إنّ هذه الجوانب القليلة من الدرس الحديثي تجعلنا نوقن بأنّ الإمام " عبد الحميد بن باديس رجل تربية -بسليقته - وطبعه، وتكاد تكون ملكة التفهيم أبرز صفاته، وأخصّ نعوته... أمّا أسلوبه في التفسير والحديث... فيعتمد على التطبيق -والتحقيق - وسوق العبر - وصوغ

(1): عبد الرحمن شبيان، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 23).

(2): د/ محمد الدراجي، المصدر السابق، (ص: 119).

(3): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (ص: 56).

(4): عمّار طالبي، نظرية العلم في تصوّر الشيخ ابن باديس، عبد الحميد بن باديس يعيّن العلماء والأدباء والشعراء، (ص: 23).

(5): توفيق المدني، أحمد، عبد الحميد بن باديس الرّجل العظيم، المصدر السابق، (ص: 146).

العظات، ومن أخص صفاته في التدريس أنه لا يشعرك بثقل القواعد -وجفاف الحقائق العلمية- بل يفيض عليك بروحه الأدبية -وحياته الاجتماعية- ونشاطه المستديم - ما يكسبك نشاطاً -ومرحاً- ورغبة في العلم وتعطشاً له"⁽¹⁾.

- من خلال شرح الإمام ابن باديس للحديث النبوي، نلاحظ بأنه قد "طغت على النص الباديسي قيم النجاعة والجدوى، بحيث جاء -بمواصفاته المذكورة- اعتدالا في المتن، تركيزاً على الجوهر، تبسيطاً للفحوى، واشتمالاً على إماءات من العمق التفكيرى التي كان ابن باديس يدرك أنها تستجيب لحاجة ذوي المستوى العقلي المهيأ للتفكير"⁽²⁾.

- من خلال ما تم الإشارة إليه من قبل، نجد -بما لا يدع مجالاً للشك بأن "النص الإصلاحي الباديسي من هذا الجانب تهيأ لأن يكون تعليمياً، يكفل حاجة الطبقات المختلفة، فهناك استهالة لغوية توطئ لبيان رسالة النص والغرض منه، وهناك فذلكة تحليلية تستثمر المعطيات الخطابية والبيانية وتنش في النواحي المعنوية والمفاهيمية، وفي ذلك إفادة للطلاب المنتظمين، كما أن هناك تشخيصات فكرية وتعريفات قيمية، وتعميمات أخلاقية، وتسديدات سلوكية، تفيد الجميع لا سيما الطبقات الشعبية التي لم يكن يتوفر لها يومئذ من أسباب الترشيده فتياً"⁽³⁾.

- من خلال ما اطلعنا عليه نجد بأن "هناك اهتمام تحليلي واضح في معالجات ابن باديس النصوصية يتجلى في ما نسميه نحو النص، فقد ظل يعالج المعاني النصية ويستقرئها من خلال إبراز وظائف الجمل ومنزلة وحدات السياق، مؤسسا قراءته على دعامة بيانية تفكيكية تركيبية تضيء القصد"⁽⁴⁾، وتوصل إلى المعنى، كل ذلك بسلاسة واستلزام لا يظهر معها أي شكل من أشكال التكلف أو المبالغة.

- رغم أن الإمام ابن باديس يُعدُّ من العلماء الذين ينصرون العتيق والقديم، ودرّس ودرّس

(1): د/ تركي، رابح عامرة، المصدر السابق، (ص: 479).

(2): أ/ د عشراي سليمان، المصدر السابق، (ج 02 / ص: 188).

(3): المصدر نفسه.

(4): المصدر نفسه.

وتعلّم وعلم على طريقة الأوائل، إلّا أنّنا " نجد النصّ البادييّ يستفيض ويسترسل ويأخذ أبعاداً تحليليّة وتوثيقية وتدليلية، ما يعطيه طابع العمل الأكاديمي على أظهر ما تكون الأكاديمية"⁽¹⁾.

- لما نقول بأنّ الدّرس الحديثي الباديي كان في أعلى درجات العمل الأكاديمي، لا يعني بأنّه كان يخاطب به فئة من فئات الأمّة، أو نخبة من النّخب، أو جماعة من الجماعات، بل هو "بذرة تستزرع في تربة إنسانيّة، فتسترسل بجذورها، وتتخطّى الحدود، وتنجم في المحيط كلّها، إذ تهيأ للفكر الإصلاحيّ الباديي من أسباب الذّيوع ما جعله مادة تمسّ الفئات الأهلّة قاطبة"⁽²⁾، فلم يدع فئة إلّا ونالها نور خطابه، كلّ على حسب استعداده وتهيؤّه، وهذا سواء في درسه المكتوب أو المسموع.

- إنّ الإمام ابن باديس في درسه؛ لم يكن يُكثر الكلام أو الكتابة، بل كان يرسل كلماته قليلة في المبني، ثقيلة في المعنى، ولا يخفى أنّ " الكلمة الهادفة في زمن البغي، هي فدائي متكرّر، يحسبه الرّقيب فرداً من الرّعاع، وما هو من الرّعاع، إنّما هو شحنة من فيض، وصرخة من غيظ، وصاعقة تكتظّ بها الحنايا، ووعيد يترصد أعداء الحرّية والإنسانيّة الطّغاة"⁽³⁾، وينال من الخرافة والدّجل، وينير الطريق للجموع والحشود الضّالة، فلا يُعرف قدره إلّا وقد نال مبتغاه، وفات على الرّقيب أمره.

- لقد كان للدّرس البادييّ ظاهر وباطن، وتجلّ وخفاء، "فيه الضّوء وفيه الظّل، والقراءة في الظّل أحياناً تفوق من حيث الدّلالة القراءة في الضّوء، بل إنّهُ مساحة تتهيأ إيعازاتها لأكثر من هيئة، هناك ظاهر وعظي وباطن تسديديّ، هناك مباشر توجيهيّ وخفيّ تجييشي"⁽⁴⁾.

- لقد اتّبع الإمام ابن باديس "جملة من الخطوات كلّ خطوة منها يبنى عليها اللاحق، وتوضح السّابق بعناوين فرعيّة، تساعد القارئ على حسن الاتّباع، وسلامة الاستنتاج، فلا يسعه في

(1): المصدر نفسه.

(2): المصدر نفسه، (ج 02 / ص: 189).

(3): المصدر نفسه، (ج 02 / ص: 190).

(4): المصدر نفسه.

خاتمة القراءة إلا أن يكون فكرة صحيحة عن الموضوع المراد بحثه"⁽¹⁾.

- لقد كان الإمام ابن باديس في شرحه للحديث " لا يتوسّع في المباحث التي هي بمثابة وسائل لا مقاصد كاللغويات والأصول والمصطلح وغيرها، بل يتكلّم في مثل ذلك بالقدر الذي يخدم الغاية العظمى من بعث الرّسل... يلاحظ عدم ذكره للمصادر كثيرًا، بل يقتصر على الاستفادة منها بالاعتباس إمّا نصًّا أو معنى..."⁽²⁾.

- تنقسم شروح الإمام ابن باديس للحديث، " - من ناحية التّوسّع والاختصار في الشّرح - إلى ثلاث فئات:

الفئة الأولى: توسّع في شرحها وهي التي تعرّض لها ضمن موضوع معيّن قصد البحث فيه ابتداء...

الفئة الثانية: أحاديث الموطأ: إذا اعتبرنا شرحه لآخر حديث فيه نموذجًا لطريقته التي اتّبعها في كلّ أحاديثه فإننا نلاحظ أنّه توسّط في الشّرح فلم يختصر ولم يسهب.

الفئة الثالثة: وهي الأحاديث التي شرحها على صفحات «الشّهاب» فإنّه اختصر شرحها بما يتناسب مع مستوى القراء"⁽³⁾.

- كثيرًا ما كان الإمام ابن باديس يختتم درسه الحديثي بالدّعاء⁽⁴⁾، وذلك في آخر الحديث بعدما يفرغ من المراحل الصّوريّة في الشّرح، ومن الملاحظات التي يمكن تسجيلها في هذا الجانب؛ أنّه كان يتخيّر الدّعاء المناسب للموضوع الذي تطرّق إليه، ومن أمثلة هذا الصّنيع منه، عندما شرح حديثًا عنونه بقوله: « الرّاعي الغاشّ لرعيّته»، ختم شرحه وتحليله للحديث داعيًا بقوله: " نسأل الله لنا وللمسلمين أن يوفّقنا للقيام بأحسن الرّعاية، في كلّ ما استرعانا من أنفسنا وغير أنفسنا"⁽⁵⁾، كما فعل عند شرحه لحديث عنونه بقوله: « أثر النّيّات

(1): د/ محمد الدّراجي، المصدر السّابق، (ص: 123).

(2): عامر، علي عرابي، المصدر السابق، (ص: 291).

(3): المصدر نفسه، (ص: 289).

(4): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 37 / 59 / 66 / 82 / 124).

(5): المصدر نفسه، (ص: 124).

- في الأعمال»، فقد ختمه بالدعاء التالي: "ونسأله تعالى لنا ولإخواننا المسلمين أن نكون من الذين يرجون لقاء ربهم فيعملون الأعمال الصالحة ولا يشركون بعبادة ربهم أحد" ⁽¹⁾.
- كان الإمام في بعض الأحيان يعتمد في درسه على طريقة السؤال والجواب، ولا يخفى ما في هذه الطريقة من الجدة، وما تضيفه من الحيوية على الدرس والمستمعين، وقد وجدنا هذه الطريقة عند شرحه لحديث: «التوجه إلى الله، برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»، ففي هذا الحديث أورد الإمام (05) أسئلة كاملة، ثم أتبعها بأجوبتها، وقد كانت هذه الأجوبة تختلف من حيث الطول والقصر حسب محتوى السؤال ⁽²⁾.
- يلاحظ أن الإمام ابن باديس كان ذا حذر شديد وحيطة كبيرة عند مناقشته لمذهب الإمام مالك، فمثلا عند تعرضه لمسألة صيام ستة أيام من شوال؛ نقل استحباب صيامها عند الجمهور، ثم عرج على قول المالكية يحلله ويدرسه، وقد كان في ذلك محاطا بحذر وأدب جم، ربما حتى لا يؤلب عليه من يتهمه في مرجعيته، لما كان في ذاك الوقت لمذهب الإمام من تقديم واعتبار لدى الأمة الجزائرية -ولا يزال-، فرغم أن الإمام ابن باديس لم يختار قول مالك ومذهبه، إلا أنه التمس له العذر والمخرج فيما ذهب إليه ⁽³⁾.

(1): المصدر نفسه، (ص: 66).

(2): المصدر نفسه، (ص: 42-46).

(3): المصدر نفسه، (ص: 54-59).

المطلب الثالث: أسلوب الإمام ابن باديس في التدريس

إذا كنّا قد أشرنا في المطلب السابق إلى أهمّ ملامح الدّرس الحديثي، وقد ركّزنا فيه على جانبه المكتوب، فإنّنا في هذا المطلب سنشير إلى أسلوبه في الدّرس الحديثي المسموع، هذا الأخير لا يمكن معرفة خصائصه وأسلوبه إلّا بالرجوع إلى ما دوّنه وأثبتته تلاميذه، أو الذين كانوا يرتادون دروسه، ممّن أمكنهم تدوين ما سمعوه وشاهدوه، أو أدوّه كشهادة لمن جمع تراث الإمام.

والضرورات التي قادت إلى تقرير هذا المطلب كثيرة عديدة، أهمّها ما يلي:

- أكثر الدّروس الحديثية للإمام ابن باديس كان يُصدرها بطريقة الإلقاء والسّماع، وما كُتب منها لا تمثّل سوى النّادر من درسه، فإهمال المسموع إهمال للدّرس كلّ، وأفضل مثال على هذا؛ شرح الموطأ الذي لم يُكتب منه شيء يُذكر، وشرح صحيح البخاريّ في رمضان.
- إنّ الدّرس الحديثي المسموع هو الذي كان يمسّ أكبر وأكثر فئات المجتمع الجزائريّ، خاصّة وأنّ أغلب أبناء الأمتّة الجزائرية أميّون، فلم يكن لهم من درسه إلّا السّماع منه فقط.
- إنّ أخطر الميادين وأعظم المواقف التي انفعل لها الإمام؛ كان درسه فيها بالإلقاء والسّماع، لما في هذا النوع من الدّروس من مساحة للتّعبير، ووسائل للتّغيير والتّأثير، ممّا لا يمكن أن يوجد في الكتابة.

كما يجب التّنبية على أنّ هذا الاتجاه لا يعني بأنّ ما سبق تناوله خاصّ بالدّرس المكتوب، وأنّ هذا المطلب خاصّ بأسلوب الدّرس الملقن والمسموع، بل بين الاثنين ارتباط والتّحام وثيق، لكن الإشارة هنا بحكم الغالب والأعمّ فقط، وما ذكّر وسيُذكر يشمل الاثنين معاً، مع تفاوت بينهما.

الفرع الأوّل / وسائل الإمام ابن باديس في درسه:

لابدّ في البداية من معرفة وسائل الإمام ابن باديس أثناء التّدريس أو الخطابة، فيا ترى ما هي الأماكن والميادين التي كان الإمام يتحرّرها ليلقي فيها دروسه وخطبه؟، وكيف كان مزاجه وحالته أثناء إلقائه لدروسه؟، فلإجابة عن هذه الإشكالية الفرعية سنتناول العناصر التالية:

1 / وسائل الإمام ابن باديس المادية في درسه الحديثي: لقد اتّخذ الإمام ابن باديس عدّة وسائل

لتحقيق النّجاعة في درسه، وقد تميّزت هذه الوسائل بعدّة خصائص أهمّها ما يلي:

- التنوع والتعدد، فالإمام لم يعتمد على وسيلة واحدة وحيدة، بل نوع من وسائله وعدد، وذلك لتنوع المخاطبين، واختلاف حال المستمعين.
 - الاختلاف والتباين من حيث الأولوية في الاستعمال، فقد كان الإمام يُقدّم بعضها على بعض، ويشتغل ببعضها أكثر من الأخرى.
 - الجدوى والفاعلية التي تتميز بهما وسائل الإمام في درسه، فلم يكن يتّجه إلى الوسائل غير المجدية، والتي يمكن أن تكون سبباً في تضييع الجهود والوقت، وإهدار الطاقات.
- لقد اتخذ الإمام ابن باديس عدّة وسائل لتقوية درسه ونشره، و"لم يترك وسيلة أُتيحت له للعمل بها، أو أمكنته إمكانياته المحدودة من توظيفها وتسخيرها لتحقيق أهداف حركته الإصلاحية الجهادية الواسعة إلا وظّفها واستعملها بفعالية قصوى، مع الاعتماد -أساساً- على وسائل أربعة أساسية هي: المسجد، المدرسة، النادي، الصحافة"⁽¹⁾.
- وإذا أردنا أن نشير إلى أهمّ هذه الوسائل وأولاهها بالتقديم عند الإمام فهو المسجد، وقد كان "المسجد هو المركز الرئيسي لنشاطه"⁽²⁾، ومن أهمّ هذه المساجد؛ المسجد الأخضر بقسنطينة، وترجع مركزية هذا المسجد في كونه المكان الذي شرح فيه الإمام موطأ الإمام مالك، وقد أشار الإمام نفسه إلى عدد الذين كانوا يحضرون دروسه في هذا المسجد، وجعل عددهم "مسألة نحو الألفين من سكّان قسنطينة ونواحيها يمتلئ بهم الجامع الأخضر كلّ ليلة في مجلس التذكير"⁽³⁾.
- لاشكّ أنّ هذا العدد كبير ومهمّ، وكم كان الإمام يفخر ويعتزّ بهؤلاء الذين كانوا يرتادون دروسه من أنصار الإصلاح والتغيير، فكان يقول عنهم: "المعدن الجزائريّ معدن ذهبيّ لا ينقطع وإن دقّ"⁽⁴⁾، فكان يرى فيهم الأمل، ويدعوهم للجدّ والعمل.
- إنّ الإمام لم يكن يكتفي بدروسه في الجامع الأخضر في قسنطينة، فهو كان على دراية تامّة بأنّ المرض قد أتى على الجزائر كلّها، وليس على قسنطينة فقط، لهذا "لم يكن الشيخ عبد الحميد يكتفي

(1): زروقة، عبد الرّشيد، المصدر السابق، (ص: 166).

(2): محمّد بن محفوظ ابن المختار الشنقيطي، المصدر السابق، (ص: 13).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03 / ص: 194).

(4): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05 / ص: 97).

بالدروس التي كان يقدّمها أو يشرف عليها، بل كان يقوم في العطلة الصيفية، وفي أيام الراحة الأسبوعية بجولات استطلاعية في القطر يتعرّف فيها على أحوال البلاد والعباد، ويُلقي الدروس في المساجد والزوايا، وحيثما تيسّر له"⁽¹⁾، فقد يشرح حديثاً في رحبة سوق من الأسواق، أو في دكان أو بيت أحد من المتعاطفين مع دعوة الإمام، كما كان يحرص على إعطاء كلّ مقام مقالته.

2/ وسائل الإمام ابن باديس المعنوية في درسه الحديثي: ولعلّ هذه الوسائل هي الأهم والأحقّ بالدراسة والإشارة، وهي بدورها متنوّعة ومتعدّدة، وأهمّها ما يلي:

01/ اللّغة العربيّة: لقد كان الإمام ابن باديس يُدرّس باللّغة العربيّة الفصحى، وذلك في كلّ المجالس والدروس والخطب التي كان يُلقّيها، وهذا الصّنيع منه له عدّة أسباب، أهمّها:

- تنبيه الأُمَّة إلى أنّ لها لغةً خاصّة بها وهي اللّغة العربيّة، والتي كانت اللّغة الوحيدة التي يُمكنها أن تُوحّد بين الجزائريّين جميعاً.

- التّصدي لمخطّطات المستعمر الفرنسيّ، الذي سعى بكلّ ما أوتي من قوّة الحديد والمكر لوأدّ هذه اللّغة في موطنها، وذلك بإلغاء التّعامل بها وتدريسها، والسّعي لإحياء اللّهجات الكثيرة التي كانت منتشرة في الجزائر، والتي كان بوسعها قطع الصّلة بين مناطق الأُمَّة.

- كون اللّغة العربيّة هي لغة القرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف، ومن لا يعرف هذه اللّغة لا يمكنه بحال أن يطّلع على درر القرآن الكريم ومكنوناته.

لهذا فقد كان "من أبرز صفاته في التّدريس -بل وفي الحديث المعتاد- العربيّة الفصحى، فلا ينجح للعبارات العاميّة ليستعين بها، ولا للكلمات الدّورية التي يعتادها بعض المدرّسين في كلامهم"⁽²⁾، ولكن هذا الصّنيع من الإمام لم يكن في كلّ دروسه، بل قد ثبت أنّه أحياناً كان ينتقل إلى العاميّة ويستعمل بعض ألفاظها، خاصّة إذا كان لهذه اللفظة مدلول عميق لدى المستمع والقارئ، ولهذا فقد "كان يُمّر من الفصحى إلى العاميّة، وقد كان هذا جديداً بين الخطباء، وأثبت أنّه منعش للجمهور الذي كانت معتاداً على خطب لا يفهمها"⁽³⁾.

(1): د/ عبد القادر فضيل، أ/ محمد الصالح رمضان، المصدر السابق، (ص: 44).

(2): أ/ الجيلاني بن محمد، الاحتفال بختم الموطأ، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 334).

(3): أندري ديرليك، المصدر السابق، (ص: 172).

02 / الموهبة الخطابية: لقد كان الإمام ابن باديس "يتمتع بموهبة خطابية فذة، وله قدرة كبيرة على التأثير في الجماهير وإقناعهم بوجاهة الفكرة التي يدعوا إليها ويعمل من أجلها"⁽¹⁾، ولهذا كان في كل مجلس يحل فيه، أو منبر يرقى عليه؛ إلا والتفت حوله كل من سمع به وذلك ليروا عن قرب ذلك الخطيب الذي أخذ "هذه الموهبة الخطابية في نشر دعوته الإصلاحية في مختلف الأوساط الجزائرية، وإقناعهم بوجاهتها، كما كانت سلاحه في إفحام خصومه من دعاة الفرنسة والاندماج في فرنسا- والتجنس بجنسيتها- والقضاء النهائي في الأخير على انحرافاتهم الخطيرة ضد الشخصية الجزائرية"⁽²⁾.

ولا يخفى أن هذه الموهبة مما يتميز به البعض من الموفقين فقط، كما لا يخفى دور الخطابة في توجيه الناس بمختلف طبقاتهم ومستوياتهم، المتعلمين منهم والأُميين على السواء.

03 / الموهبة الشعرية: لقد كان الإمام ابن باديس من أولئك القلة الذين بقي شعرهم، بل وسارت بقصائده -على قلتها وقصرها- الرُّكبان، كما صارت شعارًا للوطنية والجهاد والتحرر، ولهذا لا أصدق في هذا المقام مما ذكره الدكتور: عبد الملك مرتاض في كتابه: معجم الشعراء الجزائريين؛ حين قال: "ولذلك تردّدنا أول الأمر في أن نصنّفه في طبقة الشعراء، على الرغم من أنه قال شعراً، غير أن شعره ليس شعر تصوير وتخيل، وتنميق وتجميل، ولكنه يشبه الحكمة المنثورة في نظم، ولو لم ندرجه ضمن المائة شاعر وشاعرين، وهو العدد الذي احتوى عليه هذا الكتاب من الشعراء الجزائريين، لكننا لم نفعل شيئاً! ذلك بأننا نعتقد بأن ابن باديس هو أشعر شاعر كتب شعراً في الجزائر"⁽³⁾.

04 / طريقة الإملاء: لقد كان من طرق الإمام في التدريس طريقة الإملاء، وقد ذكرنا فيها سبق بعض مؤلفاته في هذا الفن، في كل من علم الأصول ومصطلح الحديث، ولا شك أن "أكمل طرائق المتقدمين من علماء هذه الملة في تلقين العلوم طريقة الإملاء، والإملاء نتيجة لاستحكام الملكة في العلم واستقلال الفكر فيه، أو سعة المحفوظ ورحابة آفاق الحافظة، واستحكام الملكة واستقلال

(1): د/ تركي، رايح عامرة، المصدر السابق، (ص: 180).

(2): المصدر نفسه، (ص: 218).

(3): د/ عبد الملك مرتاض، معجم الشعراء الجزائريين في القرن العشرين، (الجزائر: دار هومه، د/ ط، 2007م)، (ص: 67-68).

الفكرة وقوة الحافظة تكاد تكون خالصة لعلماء سلف هذه الأمة، لم يبلغ علماء الأمم الأخرى مدّ أحدهم فيها ولا نصيبه ⁽¹⁾.

الفرع الثاني / أسلوب ومزاج الإمام ابن باديس في التدريس:

لقد كان الإمام ابن باديس في درسه يستعين بثنايئة مثمرة، وهي ثنائيّة الأسلوب والهيئة، ونقصد بالهيئة هنا: الحالة النفسيّة والمزاج الذي يعتري الإمام أثناء درسه، وسنشير في هذه النقطة إلى أهمّ مميزات هذا الجانب.

1 / أسلوب الإمام ابن باديس في درسه الحديثي: لقد كان أسلوبه -حسبنا أجمع عليه من عاصروه وخبرّوه- يتميز بالمظاهر التالية:

- لقد كان الإمام ابن باديس يفتح دروسه في التفسير والحديث بقوله: "الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.. من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلّل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّدا عبده ورسوله.

أمّا بعد: فإنّ أحسن الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمّد -صلى الله عليه وآله وسلم- وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ بدعة ضلالة وكلّ ضلالة في النار" ⁽²⁾.

- لقد كان أسلوبه "بأسلوب محمّد عبده أشبه وإليه أقرب، وأبرز ميزاته فيها التطبيق والتّحقيق وسوق العبر وصوغ العظات" ⁽³⁾، فنجزم بذلك أنّ أسلوبه أسلوب معاصر ومتكيّف مع الوقت والمخاطبين.

- لا بدّ أن نشير إلى ثنائيّة مهمّة في هذا الجانب، وهي التّوع والغاية في أسلوب الإمام ابن باديس، والذي اتّضح بأنّه "أسلوب دعويّ إصلاحيّ إرشاديّ، أي أنّه لا يريد بعمله ذلك تثقيف المستمع أو القارئ فحسب، وإنّما المراد تفهيمه بأخصر طريق وحمله على العمل بما

(1): خلاصة تفسير المعوّذتين، آثار ابن باديس، (مج 02 / ص: 101).

(2): عبد الرحمن شيان، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 29). وانظر: الألباني، محمّد ناصر الدّين، خطبة الحاجة التي

كان رسول الله ﷺ يُعلّمها أصحابه، (سوريّة- دمشق: المكتب الإسلامي، ط/ 04، 1400 هـ).

(3): أ / الجيلاني بن محمد، الاحتفال بختم الموطأ، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 334).

فهم" (1).

- إن أسلوب الإمام قد تفوّق في بعض الأحيان على الكتب التي كان يُدرّسها، إذ "المناهج والكتب التي أقرأها ابن باديس على أهميتها وعظيم شأنها، إلا أنّها في نظرنا تحتلّ مرتبة ثانية بعد أسلوب التعليم والتربية الذي اتّبعه ابن باديس" (2).

- لقد كان الإمام في أسلوبه يراعي عموم الأُمَّة، فلم يكن يُفخّم الأسلوب، ويُغرب في اختيار ألفاظه، حتّى يثير الإعجاب، بل كان حريصا على أن تكون "الأفكار بسيطة لأن المتلقّي هم الفئات الشعبيّة الأُمّية التي لم تتعوّد على تفعيل فكرها والارتفاع بمداركها فوق الهمّ الحاجيّ المعتاد" (3).

- بفضل الأسلوب الذي سلكه الإمام استطاع أن يكون "لهذه الدّروس الشّفويّة والكتابيّة أثر بالغ في نفوس المستضيئين بها في تلك الحقبة المظلمة سواء من كان يحضر دروسه التعليميّة، من طلبته النّظاميّين وطلّاب المعرفة الإسلاميّة، أو من كان يتابعها في افتتاحيّات مجلّة «الشّهاب» الشهريّة، فكانت بحقّ الشرارة الأولى التي فجّرت النّهضة الإصلاحية الحديثة في الجزائر" (4).

- نجد كذلك بأنّ كتابات و"مقالات ابن باديس تمتاز بالعمق والقصر والدّلالة، أمّا العمق فذلك يرجع إلى بعد غوره ووفرة أفكاره وشدّة ملاحظته والتّجائه إلى التّلميح والتّرميز أحيانا، أمّا القصر فلأنّ ابن باديس كان كثير الأشغال والتّرحال والدّروس، وليس متخصّصا للصحافة أو متفرّغا للكتابة... وأمّا الدّلالة فهي ترجع إلى أنّ ابن باديس كان يرمي إلى معان بعيدة يوجّه إليها خطابه ومخاطبه ويترك له الحرّيّة في القرار مع لمسة لضميره ونفحة في قلبه" (5).

(1): عامر، علي عرابي، المصدر السابق، (ص: 291).

(2): مطبقاني، مازن صلاح، المصدر السابق، (ص: 52).

(3): أ/ د عشراقي سليمان، نفس المصدر، (ج 02 / ص: 186). وانظر: مطبقاني، مازن صلاح، المصدر السابق، (ص: 121).

(4): عبد الرحمن شيبان، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 10).

(5): أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (مج 08 / ص: 70).

- لم تكن دروس الإمام ابن باديس " تُقدّم المعرفة لذات المعرفة، ولم يكن خطابه من أجل إظهار البراعة الأسلوبية، إنّما كان يخاطب القلب والعقل والوجدان بلغة تحقّق المسعى بأسلوب تربويّ ينفذ إلى الأعماق (هكذا حدّثنا تلاميذ الشيخ الذين لازموه مدّة) "(1).
- " لقد اتّبع الشيخ عبد الحميد بن باديس في عرض الأحاديث طريقة اتّسمت بالوضوح، وقوّة الإقناع، تقود في النهاية إلى إقناع العقل وإشباع الوجدان "(2).

2/ مزاج الإمام ابن باديس أثناء درسه الحديثي: في هذا العنصر سنحاول نقل صورة حيّة عن الإمام ابن باديس وهو يُلقّي درسه الحديثي، فلا شك أنّ هذه الشّخصيّة التي استطاعت أن تقود أمة كاملة خلفها، واستطاعت التأثير في أفرادها؛ باختلاف مستوياتهم وقابلياتهم، قد كان لها من المزاج والحالة النّفسيّة ما استطاعت بها أن تنفذ إلى القلوب والوجدان.

وفيما يلي أهمّ ملامح الإمام أثناء درسه، وذلك من مختلف الشّخصيّات والقامات العلميّة الجزائريّة:

- وصفه مالك بن نبيّ بقوله: " لقد بدأت معجزة البعث تتدفّق من كلمات ابن باديس، فكانت تلك ساعة اليقظة، وبدأ الشعب الجزائريّ المخدّر يتحرّك، ويا لها من يقظة جميلة مباركة! يقظة شعب مازالت مقلّته مشحونتين بالنّوم، فتحوّلت المناجاة إلى خطب ومحادثات ومناقشات وجدل، وهكذا استيقظ المعنى الجماعي وتحوّلت مناجاة الفرد إلى حديث الشعب "(3).

- أمّا توفيق المدني فقد أمعن في الوصف ودقّق، فقد قال عن دروسه: " وأخذت دروسه كاهلال المشرق، تزداد نورا وانتشارا يوماً بعد يوم... عامرة بمختلف علوم الدّين، مكتظة بالنّصائح والتّوجيهات... ما من الله به إلّا على القليل من عباده الصّالحين "(4).
- وقال أكثر من هذا ممّا سننقله -رغم طوله- وذلك لما قال: " وكان رجلنا العظيم إذا خطب أتى

(1): د/ عبد القادر فضيل، أ/ محمد الصالح رمضان، المصدر السابق، (ص: 116).

(2): د/ محمد الدّراجي، المصدر السابق، (ص: 123).

(3): بن نبي، مالك، شروط النهضة، ترجمة: عمر كامل مسقاوي وعبد الصّبور شاهين، (سورية-دمشق: دار الفكر، ط/ 06،

1427هـ-2006م)، (ص: 26).

(4): توفيق المدني، أحمد، حياة كفاح، (مج 02/ ص: 26).

بالعجب، كان لا يتكلم بلسانه، بل كان يتكلم بقلبه وشعوره وإحساسه، وكانت كل كلمة تخرج من فمه، وكأنها السهم الصائب الذي يحيي ولا يميت، فمن أصابه ذلك السهم، دبّت فيه بذور الحياة الأبدية، كان إذا تكلم وغاص في بحر حديثه، أغمض عينيه حتى لا يرى الناس إلا بمرآة قلبه، وكأنه يناجي كل أحد منهم على انفراد إلى أن يقنعه، وأشهد أنني ما رأيت فوق رقعة أرضنا هذه خطيباً مُصقّعا، يصيب المحزّ، ويتغلغل في أعماق العقول والقلوب، ويهزّ المشاعر هزّاً عنيفاً، كرجلنا العظيم ابن باديس، لقد كان في خطبه أسمى وأعلى ممّا كان في كتابته، كان يكتب كتابة العلماء المصلحين، وكان يخاطب بلسان المدرهين من رجال الفكر والحكمة والسياسة⁽¹⁾.

- لم يستقرّ للإمام ابن باديس بال مادامت الأمة في قيدها، فصار في قلق دائم، هذا القلق الذي تمثّل في تلك الدروس المتتابعة، "وقد رزق عبد الحميد هذا القلق الثائر الذي لا يستقرّ حتى يستقيم الأمر لأهله، وتنجاب حنادس الشكوك، فأخذ على عاتقه القيام بالدعوة إلى الإسلام في وطن مستضعف يتكالب عليه الباطل بخيله ورجله"⁽²⁾.

كما وصفه الدكتور محمد بهي الدين سالم -كذلك- بقوله: "إنّ الشيخ ابن باديس هو السهل الممتنع، ذلك أنّ صفاته تتدرّج من التواضع والرفق بالناس والتسامح معهم، والتفائل لهم والاعتماد على الخالق، إلى الصرامة في الحقّ والشجاعة التي لا تقف عند حدّ هذا، إلى ذكاء مفرط وتوفيق من الله جعله قادراً على توجيه الأمة الجزائرية إلى النصر في أناة وحزم"⁽³⁾.

- كما كان من منهج الإمام في دروسه؛ العمل في صمت وتؤدة، وقد كان دائماً "يذكر إخوانه العلماء والأساتذة، وأبناء الطلبة، بأن يكونوا مثله يضرب الضحّة في مقاتلها من غير أن يسيل لها دمًا، أو يترك أثراً يلفت الأنظار، ويدلّ عليه"⁽⁴⁾.

- من أهمّ الصفات المعوّقة والمُخذلة، التي يُنزه عنها الإمام في درسه الحديثي؛ والتي كانت

(1): توفيق المدني، أحمد، عبد الحميد بن باديس الرّجل العظيم، المصدر السابق، (ص: 152).

(2): د/ محمد بهي الدين سالم، المصدر السابق، (ص: 65).

(3): المصدر نفسه، (ص: 77).

(4): زروقة، عبد الرّشيد، المصدر السابق، (ص: 146).

سبباً لفشل الكثير من الدّعاوات الإصلاحية، أنّه لم يكن "لا متعجلاً ولا مُندفعاً، ولا حارفاً للمراحل التي قطعتها حركته الإصلاحية الجهادية في تلك الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت تحيط بها، والتي كان الإمام جدُّ متبها إليها، آخذاً إياها بعين الاعتبار، وقارئاً لها حساباتها مُقدِّماً"⁽¹⁾.

- كان الإمام ابن باديس يُتقن المناورة، والطريقة المثلى لمواجهة عدوٍّ شرّس، وتجلّى ذلك في "مدارة الاستعمار ومناورته، إدراكاً منه أنّ الدّول الرّاسخة في العمران، يُقضى عليها في عملية التدافع بين الأمم بالمطاوله، لا بالمناجزة والصّراع الجزائي غير المتكافئ القوي"⁽²⁾.

- لقد كان "مزاج ابن باديس يلوح من خلال خطوط وجهه، فسفور طلعتة، وثقوب نظرتة، وسكينة ملامحه، وجنوحه التّأملي، تخفي وراءها مزاجاً حاداً ومتهيئاً للانتفاض إذا ما اقتضاه الموقف ذلك"⁽³⁾.

- لقد كانت كلمات الإمام ابن باديس كلمات تنويرية عميقة، "وفرق بين الكلمة المسطّحة ذات البعد الأدائي الواحد، وبين الكلمة المكتنزة التي تسترّ -لدواعي القمع- على مقاصدها التنويرية، والتنوير باصطناع حال الانكماش ثمّوّه به على حقيقتها"⁽⁴⁾.

- كما كان من مزاج الإمام ابن باديس "أنّ - ألأنا- في خطاب ابن باديس كانت في أكثر الأحيان -نحن- وكانت حالاً من الأعماء التّعبدية، لأنّ هذا المصطلح الفذّ عاش التّجرّد والتّنسك في أظهر صورهما المعبرة"⁽⁵⁾.

- لقد وصف أحد تلاميذ الإمام وقع كلماته على الأسماع بقوله: "وإني لأتذكّر إلى الآن وقع كلماته المؤثرة على الأسماع وفعلها في النفوس والأرواح، فلا تبرح موضعها إلّا وقد ازدادت

(1): المصدر نفسه، (ص: 154).

(2): المصدر نفسه، (ص: 156).

(3): أ/ د عشراقي سليمان، المصدر السابق، (ج 01 / ص: 203). وانظر: د/ توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، المصدر السابق، (ص: 07).

(4): أ/ د عشراقي سليمان، المصدر السابق، (ج 02 / ص: 190).

(5): المصدر نفسه، (ج 02 / ص: 218).

يقظة ووعياً، وإرادة في الخير، يتيح لها هذا الخير والنفع، ما تكون عليه من طهارة وصفاء في شهر الصَّيام"⁽¹⁾، وفي شهر الصَّيام كان يضيف شرحاً على صحيح البخاري.

3 / الشجاعة الأدبية للإمام ابن باديس في درسه الحديثي: من أهم ما يمكن ملاحظته في درس الإمام ابن باديس، بما لا يدع مجالاً للشك أو الريب؛ أنه كان يتحلّى بشجاعة أدبية كبيرة، وهذا سواء في درسه المكتوب أو المسموع، وذلك راجع بالدرجة الأولى إلى إيمانه العميق، وقناعته الكبيرة بصحة وقوة ما يدعوا إليه ويناضل من أجله.

كما كان انفعاله أثناء درسه يجعل المستمع يجزم بصحة وعدالة ما يدعوا إليه الإمام، أضف إلى أن هذه الشجاعة كانت وقوداً وحافزاً لأنصار الإصلاح، وفي نفس الوقت كانت تُرعب وتُقص مضاجع الظالمين، وتكّم أفواه الدجاجلة والمخرّصين من أنصار الظلم وأدعياء العلم، فقد جاء في وصف الإمام من هذا الجانب الشيء الكثير، فقد تواتر عنه بأنه "كان لا يُماري في الحق، ولا يُجامل، ولا تدلّ تسديداته إلا على نفس غير هيّابة وروح لا تحتسب مواقفها إلا الله"⁽²⁾.

لقد كان الإمام مؤمناً كامل الإيمان من ناحية أن "كلمة الحق تلقى المعاكسات والاضطهادات ثم يكون لها الفوز في الأخير"⁽³⁾، ولم يخيب الله رجاءه، فقد صارت كلمات هذا الإمام وقوداً لحرب وجهاد وضع الله بها حداً لأعداء استنزفوا البلاد والعباد، كما صارت كلماته مورداً للباحثين، ومصدرًا لرجال التربية والتعليم.

بل بلغ من شجاعة الإمام أنه قال عند شرحه لحديث نبوي: "في إحدى جولاته مستطردًا مظالم ومناكر المستعمرين فقال: « إذا كُفّ فمي، وكُبلت يداي، فإني أنظر إلى الظالم نظرة تكون بمثابة سهم تخترق وتشوي كبده »، أي لا يقتصر في التفسير باليد واللسان فقط"⁽⁴⁾، ولا يخفى ما في هذا النص من إشارة إلى عزم الإمام على المضيّ قُدماً لتحقيق آمال الأمة، هذا المضيّ الذي لم تشبّه في يوم من الأيام مDAHنة أو مسالمة لمن ليس لهذا بأهل، بل كان شعلة إيمانية أتت على الظلام تمزق سواده.

(1): علي مرحوم، لمحات من حياة الشيخ ابن باديس، عبد الحميد ابن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء، (ص: 244).

(2): أ/ د عشراي سليمان، المصدر السابق، (ج 01 / ص: 205).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05 / ص: 265).

(4): محمد الحسن فضلاء، إملاء العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، (هـ / ص: 45).

إنَّ أهمَّ الملاحظات والتَّائج التي يمكن أن يشير إليها محتوى هذا الفصل مبثوثة في ثناياه، لكن لا بأس بالإشارة إلى أهمَّها، والتَّعريض لما يمكن أن نسمِّيه بمآلات الفصل وغاياته، وذلك من ناحية منهج الإمام ابن باديس في شرح الحديث النبوي، والتَّعريض لأحقَّ الملاحظات بالذِّكر والتَّنويه والإشارة؛ كلُّ ذلك باختصار وتركيز مؤدِّيْن للغرض، وموصلين للمطلوب.

-01- لقد كان للإمام ابن باديس منهج وطريقة مدروسة في تعرُّضه للحديث النبوي بالشرح والدِّراسة، فمن خلال ما سبق نجد بأنَّ الإمام لم يكن يشرح الحديث كيفما حصل، ولم يكن يخوض غماره خوض المغامرين أو المقامرين، بل كان له مسار يراعيه، ومنهج يحرص عليه ويُعمِّله.

-02- من خلال ما سبق التَّعريض إليه؛ نجد بأنَّ منهج الإمام ابن باديس في شرح الحديث لم يصل إلى أهمَّ خصائصه من خلال صنيعه وفعله فقط، بل نقلنا الكثير من النصوص التي بقيت من تراثه؛ والتي يمكن أن نعتبرها بمثابة الجانب التَّنظيري والعلمي للجانب العملي التَّطبيقي، وهذا يُظهر لنا الفرق بين من سار ثم رسم خارطة لسيره، وبين من قدَّم الخارطة ثم التزمها وسار على وفقها، فيكون نهجه واضحًا، ومنهجه محكمًا وثابتًا.

-03- لقد كان الإمام ابن باديس يسعى لمنهج إسلامي في التَّدريس، فقد أشار في كثير من المواطن إلى وجوب نهوض الحواضر العلميَّة في العالم الإسلامي بالتَّربية والتعليم، وكلِّما رأى تقاربًا في مناهج التَّعليم والتَّدريس؛ سارع إلى مباركة هذا التقارب والاحتفاء به، كيف لا! وهو الذي كان يمقت الجهويَّة والأحاديَّة في كلِّ شيء، حتَّى في العمل والجهاد، ومن دلائل هذا الاتِّجاه قوله محتفياً: "وليس بصحيح أن مساجد القاهرة يدرِّس فيها ما ليس من الدِّين، وما دروسها ودروس جامع الزيتونة وجامع القرويين ودروسنا بقسنطينة إلَّا واحدة، كلُّها ترمي إلى المحافظة على علوم الإسلام والعربيَّة ونشر العلم والتَّهذيب بين طبقات النَّاس، وما هذا إلَّا أصل المدنيَّة التي تدعوا إليها الأمم الرَّاقية في هذا العصر"⁽¹⁾.

-04- احتفاء الإمام ابن باديس بالسنة النبويَّة، واعتباره إيَّاها بجانب القرآن هي الدَّواء

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03 / ص: 296).

والشفاء، والبسم الذي يشفي الأمة من عوامل الشقاء، وهي الكفيلة بإحياء الأمة من موتها، وبعثها من رقدتها وغفلتها.

05- التناول العلمي والمؤصل لكثير من المسائل والقضايا في علم الحديث ومصطلحه، والخوض فيها بطول نفس، وقدرة على التحليل المركز، والتركيب المحكم، كل ذلك بمصطلحات هذا الفن وضوابطه.

06- التنوع والغنى الكبيرين لمصادر وموارد الإمام ابن باديس، فقد عدّنا بعضها فقط، ممّا ظهر وتجلّى، ففاقت الستين (60)، ولم ينحصر هذا التنوع والغنى في ذاتها فقط، بل تجلّى أكثر في استعمال وتوظيف الإمام لها، ممّا يدلّ على تمرّسه وتحكّمه فيها.

07- الوزن العلمي والثقل المعرفي الذي كانت تتمتع به هذه المصادر، التي كان الإمام يوردها في درسه الحديثي، فقد كانت تتميز بقدّمها وحجّيتها في مجالاتها وفنونها.

08- تقديم الإمام ابن باديس لكتب ومؤلفات العلماء المغاربة والسادة المالكية، واعتماده على شروحه، كالإمام ابن عبد البر وابن العربي، وحرصه على الاقتباس من المعروفين منهم بتمسّكه بالسنة النبوية، والمشهورين بالثورة على الجُمود والخمود.

09- المرحلية والتدرّج هي سمة منهج الإمام ابن باديس في شرح الحديث النبوي، فلم يكن يتطرق لشرحه دون نظام أو ترتيب، بل كان ينتقل من مرحلة إلى أخرى بكلّ سلاسة، وبعد دراسة متأنية ودقيقة وتخيّر للعناوين والمصطلحات، وبالتالي فقد كانت دراسته للحديث " دراسة عميقة تبدأ من السند يُبين درجته من الصّحّة والحسن، ثمّ ينتقل إلى شرح مفرداته، وبعد ذلك يستنبط الدروس والعبر"⁽¹⁾.

10- الدلالات العلمية للعناوين التي كان يُعنون بها الإمام الأحاديث التي يشرحها، وأكثر ما كان يلفت النظر في هذه العناوين؛ أمور ثلاثة:

أ/ الكثرة: فقد كانت حاضرة في كلّ الأحاديث التي يشرحها، ما يعني أنّها كانت جزءاً من درسه الحديثي، ولم تكن بمثابة مُتطلّب مرحليّ من متطلّبات الشّرح.

(1): مطبّقاني، مازن صلاح، المصدر السابق، (ص: 73).

ب/ التنوع: لقد كانت هذه العناوين -مع كثرتها- متنوعة ومختلفة الورود، فمنها ما كان ثابتاً لا يتغير في كل الأحاديث، ومنها الآني المتغير، كما تنوعت من حيث الطول والقصر، ومن حيث القوة والسهولة، ومن حيث التصريح والتلميح.

ج/ الدلالة: لقد كانت هذه العناوين ذات دلالات عميقة في أكثرها، فنجد الكثير من هذه العناوين قد يصل باللبيب إلى حد الاستغناء عن باقي الدرس، فمن العنوان يعرف القضية، ومن خلاله يعرف المنطلق والموصل.

11- ميل الإمام ابن باديس في درسه الحديثي إلى الاختصار والتركيز وعدم الإطالة، واختلاف التناول عنده باعتبار موضوع الحديث والأثر الذي يمكن أن يتركه في الأمة.

12- حرص الإمام على الاستعانة بكل الوسائل المشروعة، والتي كان يرى فيها الفعالية والمساهمة في إضفاء القوة لدرسه، ولعل أهم هذه الوسائل؛ المسجد والصحافة.

13- الموهبة الخطابية والشعرية، والقدرة اللغوية التي كان يتمتع بها الإمام، والتي استغلها جميعها في درسه الحديثي، أضف إلى هذا الأسلوب الذي كان من السهل الممتنع، هذا الأسلوب الذي نال المثقف فيه بُعَيْته، كما وجد ذاك المواطن البسيط الأمي كذلك غايته، فاستطاع هذا الأسلوب أن يصل إلى الجميع دون استثناء.

إنّ ما تمّ الإشارة إليه في هذا الفصل المهمّ من البحث، في الحقيقة ليس سوى جهد المقلّ، وإشارة من الإشارات إلى منهج الإمام ابن باديس في شرح الحديث النبوي، وطريقته الفريدة والتميّزة في درسه الحديثي، فتمكّناً بحمد الله تعالى من الإشارة إلى أهمّ جوانب وحيثيات هذه الزاوية، كلّ ذلك بتركيز واختصار شديدين، ولو قصد أحدهم إلى التفصيل والتحليل لاستنفذ الوقت، ولطال السّفر على الحامل والقارئ.

الفصل الثالث

مقاصد وأهداف الدرس الحديثي
عند الإمام ابن باديس.

المبحث الأول:

المقاصد والمرامي الإصلاحية.

المبحث الثاني:

المقاصد والأهداف التربوية.

المبحث الثالث:

المقاصد العلمية والمعرفية.

تمهيد:

بعد أن أشرنا في الفصل السابق إلى أهم ملامح منهج الإمام ابن باديس في شرح الحديث النبوي، نجد أنفسنا قد أضربنا علمياً إلى طرح الإشكال المحلي أو الفصلي التالي: ما هي المقاصد والأهداف والمرامي التي كان الإمام ابن باديس ينزع من خلال درسه الحديثي إلى الوصول إليها، وتحقيقها؟، أو بعبارة أخرى؛ ما هي الغاية من كل تلك المراحل والأشواط والضوابط التي كان الإمام يلزم بها نفسه في درسه؟، هل من المعقول والممكن أن تكون كل تلك الاحترازاات والإيهامات والتصرّيات والخطط في درسه بلا معنى ولا هدف؟.

إنّ الإمام ابن باديس لم يفن حياته -وهو الذي كان بوسعه أن يفنى فيها- ويضيع جهده بحثاً عن مجد، أو تحصيلاً لجاه، أو كسباً لمكانة أو رياسة؛ فكل هذه الأعراض كان بوسعه التّنعّم بها بغير ما مشقّة، ولكنّه بذل نفسه ودرسه لغايات عظيمة، وأهداف جسيمة، لاحت وظهرت في درسه الحديثي.

لقد ظهر من درس الإمام ابن باديس الكثير من المقاصد والأهداف، التي كان يجاهد في سبيل الوصول إليها وتحقيقها، وبعد طول سبر ونظر، ارتأيت تقسيم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث، كلّ مبحث منها يتعرّض إلى مقصد أساسي من مقاصد الدرس الحديثي، ولعلّ المقصد الأوّل والأساس للدرس الحديثي عند الإمام ابن باديس؛ هو المقصد الإصلاحي، الذي تناولته في المبحث الأوّل، أمّا المبحث الثاني فيسيكون في الأهداف التّربويّة والأخلاقيّة من شرحه للحديث، لتختتم هذه المباحث بمبحث ثالث سأعرّض فيه للمرامي العلميّة والمعرفيّة من درسه.

سألتزم في هذا الفصل بنفس ما ألزمت به نفسي في الفصول الأخرى؛ من تحرّ للاختصار مع التّركيز، والحرص على الاستدلال بكلام الإمام فيما يُنسب إليه، كما سأحرص على عدم تكرار ما كثر التّعرّض إليه لدى الباحثين في بعض الجوانب التي أشبعت بحثاً من تراث الإمام ابن باديس، وفي حالة ما اضطررت إلى التّعرّض لها؛ فسأكتفي بالإشارة.

يمكن اعتبار موضوع هذا الفصل بمثابة الخلاصة العلميّة، والأثر الأكبر لجهاد الإمام ابن باديس، ولا يخفى ما في هذا الادّعاء من خطر، لأنّه -بلا مبالغة- من الصّعوبة بمكان أن يحيط الباحث بكلّ مقاصد الإمام من درسه، فكيف إذا كان المدّعي من المتطفّلين على هذا الميدان الفسيح.

المبحث الأول: المقاصد والرامي الإصلاحية.

إن الإمام ابن باديس لم يقصد من وراء جهاده إلا الإصلاح ما استطاع، " فمن أجل الإصلاح قام بتفسير القرآن وتفسير الأحاديث "⁽¹⁾، ولو طُلب من أحدهم أن يختصر مقاصد الإمام ابن باديس من كلّ أعماله في كلمة واحدة، لما وسعه إلا أن يقول: « الإصلاح »، والدليل على هذا المقصد هو تنوع المجالات والميادين التي قصد الإمام إلى إصلاحها، وتغيير واقعها، وقد سعت ولا زالت تسعى بعض الأطراف إلى حصر جوانب الإصلاح لدى الإمام في جوانب يتيمة فقط، وذلك إمّا لقلة النظر والتّبع في تراث الإمام، أو لغايات أخرى في أنفسهم لا تنطوي على خير.

قصدًا للإيجاز قمت بتقسيم هذا المبحث إلى ثلاث مطالب غنيّة، أمّا المطلب الأوّل فسأعرض فيه إلى جانب الإصلاح الدينيّ أو الشرعيّ، والثاني سيتناول جانب الإصلاح السياسي الذي كان ينزع إليه الإمام في درسه الحديثي، لأختتم هذا المبحث بمطلب ثالث أتناول فيه جانب الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي، هذا المطلب الأخير الذي سأشير فيه إلى كثير من القضايا التي أشار إليها الإمام، وحثّ الأمة على وجوب الأخذ بأسباب المدنية والتّطور، ولطالما أوتي الإمام من هذا الجانب؛ فأنهم بإهماله للإصلاح الاقتصادي والماديّ للأمة، وبأنه ركّز فقط على الإصلاح الديني، وسنحاول إن شاء الله التّعرّض إلى هذا الجانب لتأييده أو معارضته.

قبل الشّروع في مختلف الميادين والمجالات التي قصدها الإمام بالإصلاح، لابدّ أولاً من الجزم بهذا التعدّد والتنوّع، فالإمام ابن باديس نفسه صرّح بأنّ غايته من كلّ ما يقوم به هي " غاية واحدة وهي النهوض بالأمة الجزائرية نهضة أخلاقية على أساس الدين والعلم على نور الكتاب والسنة وهدى صالحى سلف الأمة "⁽²⁾، ولا شك أنّ هذه النهضة لن يتحقّق عشر معشارها إذا لم تنطلق من جميع جوانب الحياة؛ الدينية، والسياسية، والاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية.

إذا كان بعض من تصدّوا للإصلاح " نظروا إلى مشكلة المنهج والإصلاح نظرات جزئية وحاولوا الاهتمام بجانب واحد من الجوانب ولم يهتمّوا بشمول المنهج وعموم المشكلة، أما ابن باديس فقد

(1): د/ عبد الحميد درويش النّساج، المصدر السابق، (ج 01، ص: 46).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03 / ص: 212).

استلهم شمول منهجه من شمولية القرآن واهتمامه بالإنسان ككل... فكان منهج ابن باديس الشامل لجميع جوانب الإصلاح الديني والأخلاقي والاجتماعي والسياسي⁽¹⁾.

المطلب الأول: الإصلاح الديني

إنّ الإصلاح الديني هو غاية كل من تصدر للتوجيه والإرشاد والوعظ الإسلامي، خاصة إذا كان من الذين استحكمت لديهم الخبرات، وتنوّعت لديه العلوم التي يستعملها ويوظّفها في عمله، لكن الإمام ابن باديس قد تفرّد ونبغ في هذا الجانب، ولمع نجمه في سماء الإصلاح الإسلامي في عصره حتّى أفلت دون نور جهاده أنواراً.

سنجد بأنّ هذا الكلام بعيد عن المبالغة والإطراء، بل هو أقلّ ما يمكن أن يقوله من خشي أن يتّهم بالتّقدس للأشخاص، والبعد عن المنهجية العلمية في الحكم على الجهود، وذلك إذا استحضرنّا المعاني العلمية - الدقيقة - التالية:

- اعتبار الإمام ابن باديس الدّين هو مبدأ كلّ صلاح وإصلاح، وذلك أنّ " الدّين بعقائده النّقيّة الصّادقة وآدابه الكاملة الفاضلة، وأصول معاملاته الجامعة العادلة، هو أساس كلّ سعادة ومبدأ كلّ صلاح وإصلاح، وسلطانه على العقول والقلوب فوق كلّ سلطان، ولهذا كان إصلاحه بتطهيره ممّا أدخل فيه - والإصلاح به - بدعوة أبنائه به - أول ما يبدأ به المصلحون، وخير ما يفعله المرشدون"⁽²⁾.

إنّ هذا النّصّ يعدّ بحقّ النّصّ المفتاح لهذا المطلب ككلّ، وذلك لحجم الأسئلة التي أمكن للإمام أن يجيب عليها من خلال هذا النّصّ القصير، وهو كذلك نصّ يحتمل عدّة قراءات، لكنّ أهمّ ما يمكن استنباطه من هذا النّصّ ما يلي:

1 / مفهوم الدّين؟: من خلال هذا النّصّ نجد بأنّ الدّين هو: العبادات والمعاملات.

2 / مفهوم العبادة؟: أعظم جوانبها هي العقيدة النّقيّة الصّادقة، والآداب الكاملة الفاضلة.

(1): د/ عبد الحميد درويش النّساج، المصدر السابق، (ج 01، ص: 47). وانظر: المصدر نفسه: (ج 01، ص: 55). و د/ عمار طالبي،

ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 01 / ص: 88). و د/ سعد الله، أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، (مج

3 / ص: 20).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05 / ص: 239).

3 / مفهوم المعاملات؟: هي المعاملات الجامعة العادلة.

4 / مكانة الدين؟: أساس كل سعادة ومبدأ كل صلاح وإصلاح، وهو سلطان على العقل والقلب.

5 / محل الدين من الإصلاح؟: يكون بإصلاحه والإصلاح به، وهو أول وخير ما يبدأ به.

6 / الذي يقوم بهذه العملية؟: هم العلماء المصلحون والسادة المرشدون.

إنّ حديث الإمام ابن باديس عن « إصلاح الدين والإصلاح به » يمكن اعتباره من الحكم والأقوال التي أمكن للإمام أن يختزل فيها أزمة أمة، ففي هذه العبارة نجد: الداء والدواء، المنطلق والغاية، البداية والنهاية، الألم والأمل، السؤال والجواب، وهذه ليست سوى دُرّة من درر دفينه.

- لقد سلك الإمام ابن باديس في الإصلاح الديني " خطة مزدوجة للهدم والبناء: هدم المفاهيم الزائفة، ومحو المعتقدات الباطلة، والقضاء على كل ما من شأنه أن يشدّ إلى وراء... وفي نفس الوقت وضع الأسس التي يقوم عليها البناء الجديد وتثبيت قواعده بغرس مفاهيم جديدة وتجديد ما يزال صالحاً من المفاهيم القديمة"⁽¹⁾.

ولا شك أنّ هذا المنهج منهج متكامل، يقوم على التّصفية والتّربيّة، أو التّخلية والتّحلية، ولهذا سأعتمد على هذه الثنائية في تقسيم المطلب.

- إنّ تقديم الإصلاح الديني في هذا المبحث نابع من تقديم الإمام له في خطّته الإصلاحية، والإمام نفسه جعل "الإصلاح الديني هو المقدّمة الصّوريّة لصلاح الإنسان وبناء الثّورة الجزائيّة وإحداث التّغيير المطلوب، وتحقيق أمل الإنسان في الحياة، وأنّ إصلاح الإنسان وبنائه لا يكون إلّا بتثبيت اليقين وعقائد الإيمان الصّحيح الذي يخلّصه من حالة الشكّ والارتباب وكلّ مظاهر الضّعف في حياته"⁽²⁾.

الفرع الأوّل / مرحلة هدم المفاهيم والمعتقدات الباطلة:

في هذه المرحلة تعرّض الإمام ابن باديس للاعتقادات الزائفة، والشّوائب التي علقّت بالدين الصّحيح، والتي صارت لدى العامّة هي الدين الذي لا يبعون عنه حوّلًا، وقد ركّز الإمام كرّته على

(1): الملي، محمّد، المصدر السابق، (ص: 45).

(2): د/ عبد الحميد درويش النّساج، المصدر السابق، (ج 02، ص: 08).

المظاهر المرضية التي لحقت بالدين، والنصوص في هذا الجانب كثيرة عديدة، أهمها ما يلي:

أ/ الطرق الصوفية المنحرفة: لقد أدرك الإمام ابن باديس دور الطرق الصوفية في مجال التدوين، ومدى التأثير الذي كانت تلعبه لدى العامة من الناس، ولهذا سلك الإمام عدة طرق ومراحل في التصدي لهذه الطرق، أظهرها ما يلي:

- تحليل المظاهر الشريكية، وعلامات الوهن الديني العقدي، الذي يتجلى بقوة في مظاهر الخرافة والشعوذة التي ألفت بأطنابها على ميادين حياة الإنسان المسلم، ولهذا أقام الإمام ابن باديس "مشروعه التجديدي الإصلاحية الدعوي التربوي على تطهير الإسلام من كل البدع والخرافات، والشوائب والأضاليل التي ألصقت به كذباً وزوراً... لأن فساد العقيدة وسيطرة جملة من المفاهيم الغريبة على الكتاب والسنة على عقل وقلب الإنسان المسلم في عصر الانحطاط هي سبب تدهور المجتمعات الإسلامية، وابتعاد الإنسان المسلم عن الفعالية وركونه للسكون والاستسلام"⁽¹⁾.

- التحذير من الشرك كعنوان كبير، وتذكير الناس بمؤذياتهم ومآلاته المهلكة، وربط الإمام بين شرك الأولين من أهل الجاهلية، وشرك الآخرين من أتباع الطرق المنحرفة، وتنبيهه إلى أن شرك الآخرين مماثل أو يزيد على شرك أهل الجاهلية، فقد قال -مثلاً-: "فأصل عقيدة الشرك عند عرب الجاهلية أنهم يعلمون أن الله هو خلقهم وهو يرزقهم وهو المالك لجميع مخلوقاته، ولكنهم كانوا يجعلون توجهم وتقربهم وتضرعهم لأهتهم على اعتقاد أنها تقربهم إلى الله، وفي الناس اليوم طوائف كثيرة تتوجه لبعض الأموات وتتضرع لهم...

ومن أعمال المشركين في الجاهلية أنهم يسوقون الأنعام لطواغيتهم فينحرونها عندها طالين رضاها ومعونتها، وفي الناس اليوم طوائف كثيرة تسوق الأنعام إلى الأضرحة والمقامات تنحرونها عندها إرضاء لها وطلباً لمعونتها...

ومن أقوال المشركين في الجاهلية حلفهم بطواغيتهم تعظيماً لها، وفي الناس اليوم طوائف كثيرة يحلفون بالله فيكذبون ويحلفون بمن يعظمونه من الأحياء أو الأموات فلا يكذبون، فهذه الطوائف الكثيرة كلها قد لحقت بالمشركين...

(1): د/ محمد الدراجي، الإمام عبد الحميد بن باديس وجهوده في تجديد العقيدة الإسلامية، (ص: 39).

كانت عبادة الأوثان في الجاهلية بالخضوع والتذلل لها ورجاء النفع وخوف الضر منها... وفي الناس اليوم طوائف كثيرة لها أشجار ولها أحجار تسميها بأسماء وتذكرها بالتعظيم... مثل فعل الجاهلية أو يزيد... هذا كله واقع في الأمة لا شك...⁽¹⁾، والحقيقة أن هذا النص -على طوله- استعمل فيه الكثير من الوسائل لتوصيف الواقع العقدي الذي كان في الجزائر، فقد قام بنقل الواقع بكل أمانة ودقة، ثم نقل مقابل هذا الواقع الديني من العصر الجاهلي، ليصل القارئ بنفسه إلى نتيجة حتمية فحواها؛ أن شرك المتأخرين أغلظ من شرك الأولين، وهذا ما ختم به الإمام مقارنته المعقودة، حين جعل هذه المظاهر مماثلة لتلك الجاهلية أو تزيد عنها قبحا وشدة.

- التحذير من العقائد الضالة التي كانت منتشرة في أوساط الناس، وقد كان يركز فيها على الأخطر والأشد فتكا بالعقيدة الصحيحة، وذلك حرصا من الإمام على مراعاة الأولويات، ولعل أهمها هو التقليد الأعمى لأدعياء العلم، الذي نال حظا من انتقاد الإمام ابن باديس، حيث دعا " إلى الإيمان الصحيح، ونبد التقليد الأعمى، وأهاب بالعقل أن يستيقظ ويستنير بالعلم والمعرفة، ويساير الحياة في تطورها، فمن لم يسايرها خضع لسلطان الغالب، ودان لقوة الغاصب، ومدار الحركة الفاعلة والقوة الدافعة؛ العقيدة الصحيحة"⁽²⁾.

- محاربة الإمام للتقليد الأعمى للموروثات القديمة، التي كان الكثير منها مخالفا للعقيدة الصحيحة، ولا يخفى ما في هذا المجال من صعوبات، وذلك أن " لكلمة (تقاليد) في اللغة العربية سحرا أسرا، فهي تستر خرافات المتصوفة وخزعاتها بستر الإسلام الجليل، فأية مقارنة لتلك التقاليد بالإسلام تنقي الثقافة الإسلامية من تلك المقدسات الوهمية التي تسمى (تقاليد)، ولقد قام بتلك المهمة على خير وجه الشيخ (عبد الحميد بن باديس) فاستطاع أن يخلص الجزائر من تلك التقاليد الزائفة التي كانت تتجسد في الطريقة (المرابطة)"⁽³⁾، ومكمن الخطر في اعتقاد الناس أن هذه التقاليد هي الشرع والدين الصحيح.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس الذكر من حديث البشير النذير، (ص: 96-97).

(2): محمد الصالح الصديق، نماذج للاقتداء، (ص: 13).

(3): بن نبي، مالك، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، (سورية- دمشق: دار الفكر، ط/ 06، 1427هـ- 2006م)،

(ص: 57).

وقد عقد الإمام ابن باديس مقارنة بين الإسلام الوراثي والإسلام الذاتي، وبين مبني ومآل كل منهما، وذلك عند قوله: "الإسلام الوراثي لا يمكن أن ينهض بالأمم، لأن الأمم لا تنهض إلا بعد تنبّه أفكارها وتفتّح أنظارها، والإسلام الوراثي مبني على الجمود والتقليد فلا فكر فيه ولا نظر. أمّا الإسلام الذاتي فهو إسلام من يفهم قواعد الإسلام ويدرك محاسن الإسلام... وبينني ذلك كله على الفكر والنظر فيفرّق بين ما هو من الإسلام بحسنه وبرهانه، وما ليس منه بقبحه وبطلانه. إذّا! فنحن -المسلمين- مطالبون دينياً بأن نكون مسلمين إسلاماً ذاتياً"⁽¹⁾.

إنّ الإمام ابن باديس كان يدرك تمام الإدراك بأنّ دفع الناس إلى النظر والبحث، سيؤدّي بهم إلى اكتشاف الزيف من الحقيقة، تلك الحقيقة التي طالما بقيت ممسوخة من التقاليد الباطلة التي أُحيطت بهالات التّقدّيس، وبهذا استطاع الإمام "تحرير هذه التقاليد من ارتهاها"⁽²⁾، وذلك بعد أن "قُدّر لإشعاعه أن يبلغ أعماق الضمير الشعبي"⁽³⁾، فاقنّع الناس باعوجاج ما هم فيه، ووجوب التّراجع والتّصحيح.

- اعتناء الإمام بمحاربة الحديث الزّائد على الكرامات وخوارق العادات، ممّا كانت تُحدّر به عقول العامّة، وتُحيط صاحبها بالتّقدّيس والتّمجيد، حتّى يُعتقد فيه ما ليس له بأهل، بل قد يكون ممّا لم يُمنح للبشر، ولهذا حدّر "من عقيدة الجزم بالكرامة والجنّة لغير من نصّ عليه المعصوم عليه وآله الصّلاة والسّلام... ولا تجزم بالكرامة على الله لأحد غير المنصوص عليه وإن كان عظيماً... وليظنّ المسلم الخير بأهل الخير وليرجّح لهم حسن الجزاء والمصير... وهذا دين الله الحقّ الوسط السّالم من الغلوّ والتّقصير"⁽⁴⁾، وقد استدرك الإمام بهذا الكلام الأخير حتّى لا يترك مجالاً لمن يمكن أن يفهم من كلامه إنكار الكرامات، أو بغض أولياء الله وعدم محبّتهم، ولهذا أتبع هذا التّحذير بتقييده المهمّ.

- التّحذير من الخرافة والشّعوذة، حيث صرّح الإمام بأسف وخرقة، عندما قال: "وإنّ ممّا يؤسف المؤمن أنّ الأوقات المفصّلة في ديننا قد غمرناها بالخرافات وصرفنا أنفسنا عمّا يُراد فيها من الطّاعات

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03 / ص: 241-242).

(2): بن نبي، مالك، القضايا الكبرى، (سوريّة - دمشق: دار الفكر، ط/ 06، 1428 هـ - 2007 م)، (ص: 22).

(3): بن نبي، مالك، وجهة العالم الإسلامي، (ص: 155).

(4): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 87).

فحرمانا من خير كثير، وقلما تجد ولياً صالحاً، أو وقتاً فاضلاً، إلا وهو محاط بخرافات تعين إبليس على إبراز قسمه في الإغراء، وتقف حجر عثرة أمام الداعي المرشد إلى الصراط المستقيم⁽¹⁾، وقد استمر الإمام في مكافحة هذه الآفة المخدرة المخدلة⁽²⁾ حتى استقر الأمر للحق والصواب، ولم يستقر للإمام بالٍ حتى "نفضت الأمة عن رأسها غبار الذل وأخذت تنازل وتناضل، وتدافع وتعارض"⁽³⁾، وتمردت على الباطل معلنة ولائها وخضوعها للحق الذي نطقت به نصوص الشرع.

- الإشارة إلى آثار الطرقيّة على الأمة، والوسائل التي تستعملها في تشييطها، وطرق استيلائها على العقول والقلوب، وتغطية الحق بالباطل، كما أبدى أسفه على الأمة التي "عملت فيها يد الطرقيّة المحركة تفريقاً وتشتيئاً، حتى تركتها أشلاء لا شعور لها ببعضها ولا نفع، تتخطفها وحوش البشريّة من هنا ومن هنالك بسلطان القوّة على الأبدان، أو شيطان الدجل على العقول والقلوب"⁽⁴⁾.

ب/ تعظيم المشاهد وبناء المساجد على القبور: قد يبدو للوهلة الأولى أنّ القضية تتعلق بمسألة فقهية لا تستحقّ إفرادها بالدراسة، لكنّ الإمام قد أولاها اهتماماً في درسه الحديثي، وهذا لخطورة الأمر وتعلّقه بعقيدة المسلم، لكنّ الذي يظهر من حرص الإمام هو اعتباره للمسجد مركزاً للتربية والتعليم، فوجب تطهيره من الشرك ووسائله، وإلاّ أنّى له أن يُصلح وهو غير صالح. وقد تعرّض الإمام لهذه المسألة من عدّة جهات وجوانب، نذكر أهمّها:

- الإشارة إلى هذا الواقع: وتنبيه الأمة إلى انتشاره وكثرته في المجتمع، وأحوال الناس أمام هذه المساجد المبنية على المشاهد والقبور، "هذه هي حالتنا اليوم معشر مسلمي الجزائر وأحسب غيرنا مثلنا، تجد أكثر أو كثيراً من مساجدنا مبنية على القبور المنسوب أصحابها إلى الصّلاح... وتعال إلى الواقع المشاهد نتحاكم إليه، فإنّنا نشاهد جماهير العوام يتوجهون لأصحاب القبور ويسألونهم... ويحصل لهم من الخشوع والابتهاال والتّضرّع ما لا يشاهد منهم إذا كانوا في بيوت الله التي لا مقابر

(1): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (ص: 213).

(2): أنظر: د/ بوعلام بسايح، أعلام المقاومة الجزائرية ضدّ الاحتلال الفرنسيّ بالسيف والقلم 1830 - 1954م، (الجزائر: الطّبعة الشّعبية للجيش، د/ ط، 2007م)، (ص: 262).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04/ ص: 367).

(4): المصدر نفسه.

فيها" ⁽¹⁾، وهنا دعا الإمام القارئ للتّحاكم إلى الواقع، الذي لا يستطيع إنكاره إلا مكابر أو معاند.

- نداء الناس باسم الإيمان والتّصديق بحديث رسول الله ﷺ: لقد نادى الإمام في الأمتة إيمانها بالنبي ﷺ وتصديقها بحديثه، في وجوب الحذر من البناء على القبور، وذلك عند قوله: "فيا أيها المؤمنون بمحمد صلّى الله عليه وآله وسلّم المصدّقون لحديثه؛ إياكم والبناء على القبور، وإياكم واتّخاذ المساجد عليها إن كنتم مؤمنين" ⁽²⁾.

- الدّعوة إلى محاربة هذه الظّاهرة بحديث رسول الله ﷺ: لقد دعا الإمام إلى التّذكير بالحديث النبوي في محاربة هذا المنكر، وترتّب أجر المجاهد في سبيل الله لمن سلك هذا الطّريق، "وعليكم بتبليغ هذا الحديث والتّذكير به والتّكرير لذكره يكن لكم أجر المجاهدين في سبيل ربّ العالمين، وثواب العاملين لإحياء سنة سيّد المرسلين عليه وعليهم الصّلاة والسّلام أجمعين" ⁽³⁾، وقد اعتبر التّذكير بحديث واحد في مثل هذه القضايا العظيمة؛ إحياء لسنة النبي ﷺ.

- المراحل العلميّة للأخذ بالحديث والعمل به: لقد أشار الإمام ابن باديس إلى المراحل التي يجب أن يسلكها المسلم في الأخذ بالحديث النبوي، والحقيقة أنّ هذه المراحل صالحة في كلّ القضايا والمسائل الشرعيّة، وليس في مسألة بناء المساجد على القبور فقط، وذلك عند قوله: "علينا أن نصدّق بهذا الحديث بقلوبنا، فنعلم أنّ بناء المساجد على القبور من عمل شرار الخلق... وأنّ تنطق بذلك ألسنتنا كما نطق به هذا الحديث الشّريف، وأنّ نبني عليه أعمالنا... وأنّ ننكره كما ننكر سائر المنكرات حسب جهدنا" ⁽⁴⁾.

في هذا النّصّ جمع الإمام بين أنواع الإنكار الشرعيّة، كما عبّر عنها بتركيز واختصار عجيبين، فقد بدأ بالتّصديق: وذلك حتّى يكون سير الإنسان عن بيّنة من أمره، وعن قناعة وإيمان راسخين، ثمّ مرحلة النّطق اللّساني، ثمّ بناء الأعمال عليه، وإنكاره كما تنكر سائر المنكرات والآثام.

- الإشارة إلى أفضل وسائل الإنكار وأعظمها: لا شك أنّ وسائل الإنكار في هذا الميدان كثيرة

(1): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 151).

(2): المصدر نفسه، (ص: 153).

(3): المصدر نفسه.

(4): المصدر نفسه، (ص: 152).

عديدة، "ومن أعظم الإنكار تبليغ هذا الحديث بنصّه، وتذكير الناس به، والعمل على نشره حتّى يصير معروفاً عند عامّة الناس وخاصّتهم... ويعلن هذا الحديث في الناس ويذكّرهم به ولا يفتأ يقرع به أسماع الغافلين ويفتح به أعين الجاهلين"⁽¹⁾، فالإمام يحضّ على تبليغ الحديث بلفظه الثابت الصّحيح، والحرص على إيصاله إلى كلّ طبقات الأُمَّة وفئاتها، وذلك لعموم البلوى، واستفحال الدّاء.

- عدم الاغترار بكثرة الهالكين: أشار الإمام إلى وجوب الخضوع للحقّ، وعدم الاغترار بكثرة السّالّكين لطرق الغواية والضّلال، وإشارته إلى سبب انتشار هذه الآفة في عموم الأُمَّة، وقد قال: "ولا تستعظم انتشار هذه البدعة وكثرة ناصريها فإنّها ما انتشرت وكثر أهلها إلّا بالسّكوت عن مثل هذا الحديث والجهل به"⁽²⁾، وقال في موضع آخر: "فحذار أيها المسلم من فعل أهل الضّلال ومشكلة الأشرار ولا تغترّ بكثرة الهالكين"⁽³⁾.

- صراحة الحديث كافية في النّهي والتّحذير: اعتبر الإمام ابن باديس أحاديث النّهي عن اتّخاذ القبور مساجد صريحة واضحة، إلى درجة عدم الحاجة إلى شرحها أو التّعليق عليها، قال الإمام: "هذا حديث صحيح صريح في النّهي عن البناء على القبر، ومعضداته من السنّة كثيرة، وهو من الظّهور والصّراحة بحيث لا يحتاج إلى تفسير"⁽⁴⁾.

- الاستعانة بالأمثال الشّعبيّة المحذّرة من الشّرك: التي لها معان مطابقة لما في الكتاب والسنّة، والتي يمكن لها أن تقرّب المعاني إلى العامّة من الناس، وحتّى يُنوّع الإمام من الأدلّة التي يمكن أن يقرّب بها معاني الأحاديث، وذلك مثل قوله: "فاذكروا الله أيها المؤمنون، ولا تتخذوا وسطاء بينكم وبين الله في الإذن بالذّكر ولا في قبوله، وما أصدق قول النّاس: «باب الله ما عليه بواب»"⁽⁵⁾، ولا يخفى ما في هذا المثل الشّعبي من دلالة على بطلان الوسطاء بين العبد وربّه.

(1): المصدر نفسه، (ص: 152-153).

(2): المصدر نفسه.

(3): المصدر نفسه، (ص: 154).

(4): المصدر نفسه، (ص: 153).

(5): المصدر نفسه، (ص: 200).

الفرع الثاني / مرحلة بناء المفاهيم والعقائد الصحيحة:

لم ينتهج الإمام ابن باديس منهج النقص والهدم للباطل فقط، بل دلّ الأئمة على البديل الذي ينجيها في الدنيا والآخرة، وقد سعى سعيًا حثيثًا ووجد " وهو يشرح سنة رسول الله ﷺ القولية والفعلية والتقريرية، المجال أمامه واسع، والفرصة مواتية، لتصحيح الكثير من العقائد التي خالطها الدّخن، والعودة بها إلى حالة النّقاء والصّفاء والبساطة "⁽¹⁾، وقد انتهج الإمام في هذا البناء عدّة طرق أهمّها:

أ/ الاعتماد على العلماء المصلحين في توعية الأئمة: وذلك بإيقاظهم لهذه المهمة بعدّة طرق:

- دعوة العلماء لقول الحق وإظهاره للأئمة: وذلك بالدعوة للعقيدة الصحيحة، ببساطة أسلوب، ووضوح فكرة، دون خوف أو وجل من مصادمة المعارضين من أعداء النّور والحقّ، ممّن يعيشون في ظلام الجهل والخرافة، وقد تنوّع حثّ الإمام بين التّصريح والتّعريض كما يلي:

أ/ تنبيه العلماء إلى عظم المسؤولية الملقاة عليهم، وتذكيرهم بثواب النّاصحين، وبالعقوبة المتربّصة بالسّاكتين المداهنين، وذلك لو أنّ "الأئمة سمعت صيحات الإنكار من كلّ ذي علم لأقلعت عن ضلالها ورجعت إلى رشدّها، فما أسعد من نصحبها من أهل العلوم، وجاهد لإنقاذها، وما أشقى من غشّها وزادها رسوخا في ضلالها، وتماديًا في هلاكها، فحيهلا على العمل أيّها المصلحون النّاصحون المخلصون، فإنّ عهد الغشّ والخديعة قد آن بذهاب "⁽²⁾.

ب/ تقدير الإمام لجهود المصلحين من علماء الأئمة، والاحتفاء بها يبذلونه من النّصح والإرشاد، والإشارة إلى ما يمكن أن يلحق بالأئمة من الأمل لو لم تقم قائمة العلماء بالإنكار والتّحذير، " لولا أن قام في وجوههم العلماء المصلحون وفضحوهم... فردّ الله كيدهم ووقى الله الجزائر شرًّا عظيمًا "⁽³⁾.

ج/ إشعار العلماء بعظمة المسؤولية وثقلها اتّجاه أوطانهم وأمهم، وذهابه إلى أبعد ذلك عندما يعترف بالتّقصير تجاه الأمم الأخرى التي لم يصلها نور الحقّ والدّعوة، قال الإمام: " أمّا نحن فقد قصّرنا في هذا الواجب غاية التّقصير، فتركنا تبليغ الدّين إلى الأمم حتّى لنخشى أن يكون من أوزارنا

(1): د/ محمد الدّراجي، الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفيّة والتّجديد، (ص: 113).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 97).

(3): المصدر نفسه، (ص: 98).

بقاء الأمم الضالة" (1).

- الدعوة والإصلاح بالكتاب والسنة: لقد حثّ الإمام العلماء على الاستعانة بالوحيين في عملية الإصلاح، وجعل الكتاب والسنة هما الأساسين في عملية البناء العقدي للفرد المسلم، قال الإمام ابن باديس: "وسنخطو هذه الخطوة -إن شاء الله تعالى- على ما عرفه الناس من مبدئنا في الإصلاح الديني من ناحية العقائد والأخلاق والأفكار والأعمال، تصحيحاً وتهذيباً وتنويراً وتقويماً، كلّ ذلك في دائرة الإسلام كما نزل به القرآن وبيّنته السنة، ومضى عليه -علماً وعملاً- السلف الصالح من هذه الأمة" (2).

وقد فصل الإمام أكثر في نصوص أخرى، وذلك بذكره وحديثه عن كيفية التذكير المثمر الذي يمكن أن يؤثر في المستمعين، ومن درر أقواله في هذا المجال قوله: "علينا أن ندعو الناس إلى اتباع شريعته وسنته بما نبين لهم من براهين الحق وأدلة الصدق، وبما نذكر لهم من محاسنه ومحاسن ما جاء به، وبذلك نكون قد عملنا على حشر ما استطعنا من الناس على شريعته، وجمعنا ما أمكننا من القلوب على تعظيمه ومحبته، وفي ذلك الخير والسعادة للناس أجمعين" (3).

كما أشار الإمام إلى الإمام والقائد في الإصلاح الديني فقال: "نحن والإصلاح الديني: ليس لنا من إمام في هذا السبيل إلا القرآن والسنة وسيرة السلف الصالح، وليس لنا غاية إلا تصحيح العقائد، وتهذيب الأخلاق وتقويم الأعمال، وتنزيه الدين مما أحدثه فيه المحدثون" (4).

- وجوب الاستماع واتباع العلماء المصلحين: لقد دعا الإمام الأمة إلى الالتفاف حول علمائها الناصحين المصلحين، واتباع توجيهاتهم وإرشاداتهم المبنية على الكتاب والسنة الصحيحة، ومن النصوص التي صاح بها في الأمة قوله: "أيها المسلمون من وعظ منكم فليتعظ، ومن نهي منكم فليته، ومن أمر بمعروف فليأتمر" (5).

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04 / ص: 15).

(2): المصدر نفسه، (مج 04 / ص: 361).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 326).

(4): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05 / ص: 88).

(5): المصدر نفسه، (ص: 203).

- الهدي والسلوك أعظم ما يُمحي به الضلال: لقد أهاب الإمام ابن باديس بالعلماء أن يُظهروا الإسلام الصحيح بسلوكهم وهدْيهم بين الناس، وبذلك تجد الأمة القدوة والمثال للمؤمن الموحد الملتزم، فقد يكون في السلوك والعمل من الدعوة والإيضاح ما لا يكون في كثير من الكلام، ولهذا قال الإمام: "أن نعمل على محو الكفر والضلال والشّر والباطل وكلّ ما ينهى عنه الإسلام وما ابتدعه المبتدعون وحملوه إيّاه، فمحو ذلك كلّهُ من أنفسنا وحيثما استطعنا، ولا سبيل إلى هذا المحو إلّا بالعلم والعمل وإظهار الإسلام بسلوكنا في الحياة أمام الناس في مظهره الصادق الصحيح، فأعظم ما محى به الكفر سلفنا الصّالح هو هديهم وسلوكهم وتطبيقهم للإسلام تطبيقاً صحيحاً على الحياة في أنفسهم، وفي غيرهم، وفي جميع الأحوال"⁽¹⁾، فأول المحو يكون من أنفسنا أولاً، ثم من كلّ من استطعنا الوصول إليه من الناس.

- تركيز الإصلاح والعلاج على أكثر المواضع إصابة: لقد أدرك الإمام ابن باديس أنّ الطّريقة كانت تتخذ من -أكثر- الزوايا مقرّات لطقوسها، ومراكز لنشر أفكارها، كما أدرك مدى تعلّق عموم الأمة بها، لهذا أرسل الإمام رسالة يطمئن فيها الشيوخ والأتباع من دعوة الإصلاح، حيث قال -بوضوح ولين-: "نحن والزوايا: لا نريد هدم الزوايا وإنّما نريد إصلاحها... في الزوايا وفينا وفي غيرنا شيء من الفساد، غير أنّ الفساد إذا نشأ منها عمّ انتشاره بما لها من كثرة الأتباع، فهي جديرة بأن تقدّم على غيرها في الإصلاح وتخصّص بجانب كبير من دعوة المصلحين"⁽²⁾.

ب/ بعض نتائج الإصلاح الديني في الجزائر: سنشير إلى بعض نتائج هذه الخطّة الإصلاحية الباديسية، فقد أتت أكلها في مختلف المظاهر الدينيّة للأمة، وحققت عدّة نتائج منها:

- وضع أساس الإصلاح الديني في البلاد: هذا الأساس الذي أتمّ بناءه إخوانه البررة من بعده، وقد قال الإمام نفسه عن هذا الأساس -يتحدّث عن الشّهاب الذي هو الإمام ذاته-: "ووضع الأساس للإصلاح الديني في هاته الدّيار، وزرع البذرة الأولى لتطهير العقائد وتحرير الأفكار، وهو يأمل أن يستمرّ على تشييد ما أسس وتنمية ما بذر حتّى يتفياً ظلال بنائه ويجتبي ثمار غرسه جميع

(1): المصدر نفسه، (ص: 326).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05 / ص: 89).

إخوانه المسلمين الجزائريين، وما ذلك على العاملين المخلصين - بإذن الله - ببعيد⁽¹⁾.

- القضاء على عوامل التّخلف : لقد سعى الإمام ابن باديس جهده ليجعل عمله الإصلاحي شاملا وشافيا، " ذلك أنّ دعوته إلى الإصلاح الديني تندرج في إطار خطة عامّة تهدف إلى التّخلص من التّبعيّة للأجنبي، وإلى القضاء على عوامل التّخلف... التي تمثّل أقوى أحلاف الاستعمار"⁽²⁾، فالخرافة والشّعوذة من أقوى حلفاء الاستعمار، ومن أعظم العوامل التي أطالت عمره في هذه البلاد.

- تحجيم سلطان الطّرقية على الأُمّة: فبعد أن كان النّاس أتباعا وشيوخ الطّرق متبوعين، لم يبق لهم ذلك السّلطان الرّوحي، والقهر الديني الذي كانوا يمارسونه على العامّة "وبفضل من الله ثمّ بجهود خاصّة من الشّيخ عبد الحميد بن باديس تضاعف وجود الطّرق الصّوفيّة حتّى كادت تنقرض لولا أنّها فتنة تطلّ برأسها بين الحين والآخر، وتجد من أعداء الإسلام من يؤيّدونها لحاجة في نفسه"⁽³⁾.

- ردّ الاعتبار للعقيدة وإظهار دورها في الأُمّة: وإعطائها مكانتها الصّحيحة الشرعية، فليست مجرد اعتقادات في القلب فقط، بل هي اعتقاد وقول وعمل، وبهذه الثلاثية فقط يمكن لها أن يظهر أثرها الحميد في الأُمّة، وقد " أدرك الإمام ابن باديس نوايا الاستعمار من وراء هذه المظاهر، وأدرك في عمق أنّ العقيدة هي كلّ شيء في الإنسان، فإذا قويت هيمنت على العقل والقلب وصحّت العزيمة، واتّضحت الرّؤية، وكان التّخطيط سليما حكيما، فكانت له في هذا المجال جولات وصولات"⁽⁴⁾.

- تصحيح مسار التّصوّف: لعلّ من أهمّ نتائج الإصلاح الديني ؛ تقويم الكثير من مظاهر التدين الخاطئة والبعيدة عن الحقيقة الشرعيّة، و"عظمة ابن باديس وأهمّيته تكمن في نجاحه في تصحيح مسار التّصوّف الإسلاميّ في بداية القرن العشرين عائداً بشعبه إلى الحقيقة القرآنيّة وطريق الحياة"⁽⁵⁾.

(1): المصدر نفسه، (مج 05 / ص: 170).

(2): الميلي، محمّد، ابن باديس وعروبة الجزائر، (ص: 91 - 100).

(3): مطبقاني، مازن صلاح، المصدر السابق، (ص: 115).

(4): محمّد الهادي الحسني، جهاد ومواقف، عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء، (ص: 165).

(5): د/ عبد الحميد درويش السّاج، المصدر السابق، (ج 02، ص: 08). وانظر: المصدر نفسه، (ج 02، ص: 32). وأد/ محمد علي

فركوس، إمتاع الجليس شرح عقائد الإيوان للإمام ابن باديس ومنهجه في تقرير أسماء الله وصفاته، (الجزائر - القبة: دار

العواصم، ط/ 01، 1433 هـ - 2012 م)، (ص: 06).

المطلب الثاني: الإصلاح السياسي.

لقد تجلّى هذا الجانب من الإصلاح في الدرس الحديثي عند الإمام ابن باديس، و تميّز هذا النوع بعدة مظاهر منها:

- المساحة الشّاسعة والمكانة المقدّمة التي كان يوليها الإمام ابن باديس لهذا الجانب من الإصلاح، فقد كان يشغل حيّزاً مهماً من مقاصد الإمام في درسه الحديثي.
- تنوّع وتعدّد الوسائل والأساليب والخطابات التي كان الإمام ينتهجها في التعبير عن أهدافه ومراميه السياسيّة، وذلك دليل على تمكّنه من هذا الميدان وحنكته فيه، كما انتهج هذا السّبيل إبعاداً للشّكوك الاستعمارية التي كانت تحضّر أيّ خطاب أو درس يمكن أن يحمل وعياً سياسياً للأمة.
- التّحكّم العجيب للإمام ابن باديس في مصطلحات السياسة وألفاظها، حتّى أنّ القارئ لا يكاد يصدّق بأنّ هذا كلامه، فتجد الدّقة والدّلالة والقوّة في مصطلحاته، كما نجد لديه اطلاعاً واسعاً على أحوال السياسة في العالم بأسره.
- إنّ الإمام ابن باديس لم يمارس السياسة حبّاً في الزّعامة والظّهور، ولا سعيّاً وراء الشّهرة أو القيادة، كما أنّه لم يمارس سياسة التّن والخضوع والخنوع، أو دخل رحابها دخول البطالين والمخادعين، بل مارس ودعا إلى السياسة الشرعية، التي بها تُرفع راية الأمة وتتّحد، وما قارب ودعا الإمام إلى تفعيل هذا الميدان، إلّا لإيمانه بأنّ هذا الجانب من الإصلاح هو الضّامن لشطر كبير من مقوّمات الأمة، "من مبدئنا في الإصلاح السياسي، وهو المحافظة التّامة على جميع مقوّماتنا ومميّزاتنا كأمة لها مقوّماتها ومميّزاتها"⁽¹⁾.

لقد تجلّت مظاهر الإصلاح السياسي عند الإمام ابن باديس من عدّة جوانب أهمّها ما يلي:

الفرع الأوّل / الدّعوة إلى الوحدة والاتّحاد والتّحلي بالوطنية الإسلاميّة :

دعا الإمام إلى هذا الهدف السّامي بعدة وسائل وطرق، كما أنّ حرص الإمام على الدّعوة إلى الاتّحاد والتّشبع من الوطنية الإسلاميّة، إلّا لعلمه اليقينيّ بأنّ هذا المستعمر لن تقف الأمة أمامه إلّا متّحدة.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04 / ص: 361).

أ/ مقومات الوحدة والاتحاد عند الإمام ابن باديس: لقد أشار الإمام إلى كثير من الوسائل الحقيقية والفعالة التي يمكنها أن تحقق الاتحاد والتلاحم بين أبناء الأمة الجزائرية والإسلامية، وهنا سأشير إلى أهمها باختصار:

- الاعتقاد بوجوب الاتحاد بين أفراد الأمة: لقد نادى الإمام بوجوب الاتحاد، ونبه إلى كونه من الواجبات الأكيدة المحتمة، هذا الاتحاد الذي به تكون الحياة والقوة، وذلك عند قوله: "علينا أن نعتقد بقلوبنا أن الاتحاد واجب، أكيد محتّم علينا مع جميع المؤمنين، وأن فيه قوتنا وحياتنا، وفي تركه ضعفنا وموتنا، وأن نعلن ذلك بألستنا في كلّ مناسبة من أحاديثنا، وأن نعمل على تحقيق ذلك بالفعل باتحادنا وتعاوننا مع إخواننا في كلّ ما يقتضيه وصف الإيمان الجامع العام"⁽¹⁾.

- الحذر من مفرقات ومعوقات الاتحاد: لقد دعا الإمام إلى الاعتماد على ضابط الإيمان فقط في مقام الاتحاد، وطرح كلّ الاعتبارات الأخرى التي يمكنها أن تهدد هذا الاتحاد، وتفصم عراه، ولهذا ذهب إلى أنه يجب "أن تطرح في مقام الاتحاد والتعاون جميع المفرقات من المذاهب والمشارب، وينظر إلى وصف الإيمان فقط، فهذه المذاهب وهذه المشارب، أهلها كلّهم أهل إيمان... فمن تعامل عن وصف الإيمان الموجب للاتحاد ونظر إلى مذهب أو مشرب من موجبات الافتراق فقد عصا أبا القاسم عليه السلام وحادّ الله ورسوله، وأعرض عن دعوة الحق، وأجاب داعي الشيطان"⁽²⁾.

- على التوحيد يكون الاتحاد: إنّ الإمام ابن باديس لم يدعُ إلى الاتحاد على الباطل، بل دعا إلى الاتحاد على الحق والكتاب والسنة النبوية، لكون هذا الأخير هو الوحيد القادر على الوقوف أمام العدو الفرنسي، وقد "صدق رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فقد وقع الاختلاف، وقد دعونا الناس إلى المخرج، وهو كتاب الله وسنة رسوله المبيّنة له... وقد أوصل الجهل بكتاب الله بعض أدعياء العلم إلى أن جعلوا الدعوة إلى توحيد الله ونبد ضروب الشرك طريقة خاصة بابن تيمية... ولو نظروا في كتاب الله وتأملوه لوجدوا جلّ آياته دعوة إلى التوحيد ونبد الشرك"⁽³⁾.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس الذكر من حديث البشير النذير، (ص: 102).

(2): المصدر نفسه، (ص: 101).

(3): المصدر نفسه، (ص: 205).

- اجتناب الكلمات المفرقة: والحذر من كل العبارات المهددة للاتحاد، أو التي يمكن أن تحدث الشقاق والصّـدع في صفوف الأمة، والتي يجب أن تُقوّى لِحمتها، وتُشدَّ أزمّتُها، و"ليحذر المسلم من كل كلمة مفرقة من كل ما يثير عصبية للباطل وحمية جاهلية، لا يدعو بها ولا يجيب من دعا إليها فإنّ بلاء كثيرا حلّ بنا وفننة كثيرة أصابتنا من تلك الكلمات المفرقة"⁽¹⁾.

- الدّعوة والنّداء في الأمة بالكلمات الجامعة: إذا كانت الكلمات المفرقة يجب أن تحارب وتجتنب، فهناك كلمات حثّ الإمام على نشرها والدّعوة بها، وذلك لما فيها من معاني الوحدة والائتلاف، ولا يخفى ما للكلمة من دور مهمّ، وأثر في النّفس كبير، قال الإمام حاثّاً على نشرها: "ولتكن دعوته -إذا دعا- بالكلمات الجامعة التي تشعر بالأخوة العامّة وتبعث على القيام بالواجب بأيّد متشابكة وقلوب متّحدة، حتّى إذا دعا جماعة خاصّة يعلم منه نفعاً خاصّاً في مكان خاصّ، فليكن بما يفهمهم أنّه على الحقّ دعاهم، وعلى القيام به استعان بهم"⁽²⁾.

- العلاقة بين النّظام والاتّحاد: لقد أبان الإمام عن العلاقة بين الاتّحاد والنّظام، وأظهر التّلازم والترابط بينهما، وقد قال مبيناً: "النّظام والاتّحاد لا سعادة ولا هناء للأُمم إلّا بهما، لذا قرّرها الإسلام بالقول والعمل، فالصّلاة جماعة -وهي أعظم عمل ديني- مظهر جليّ للنّظام والاتّحاد، لكنّنا نحن المسلمين... بعيدون عنها... وكلّ مظهر من جماعتنا، تجد الفرق الظّاهر بيننا وبين ديننا، ولما هذا؟ لأنّنا أخذنا الدّين كرسوم وحركات مجرّدة من كلّ معنى، وأهمّلنا التّفكير فيه والتخلّق بمبادئه"⁽³⁾.

- استثمار الحديث النّبوي في الدّعوة للاتّحاد والتّعاون: لقد استغلّ الإمام درسه الحديثي في الدّعوة إلى الاتّحاد بين أفراد الأمة، والتّعاون على الخير، "وكان نشاطه في هذه المرحلة مركّزا على الدّروس في المساجد، وكثيرا ما يتناول تفسير آية أو شرح حديث يجعله مدخلا للدّعوة إلى الوحدة والتّعاون على البرّ والنّهوض بالواجب تجاه الدّين والوطن"⁽⁴⁾.

(1): المصدر نفسه، (ص: 94).

(2): المصدر نفسه.

(3): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 06 / ص: 347).

(4): عمار بن مزوز، المصدر السّابق، (ص: 206).

- ما وحدته يد الله تعالى لا تفرقه يد الشيطان: فإذا بنيت وحدة الأمة على شرع الله تعالى، فإنّ عَراه ستقوى، وسيكون لها من المتانة والقوة ما سيضمن لها البقاء والاستمرارية، ولهذا نجد الإمام ابن باديس والمصلحين قد " اهتمّوا بالتركيبة الحاضرة للشّعب الجزائريّ بقطع النظر عن الأنساب البعيدة، وحكموا أنّ (الشّعب) قد تكوّن عبر الزمن واندمج في بعضه وتلاحم وأصبح عجينة واحدة وعروة وثقى لا انفصام لها، وقد قال ابن باديس قولته الشهيرة: « إنّ ما وحدته يد الله لا تفرّقه يد الشيطان » وفي هذا المعنى قال الشاعر محمد العيد: « فصار ابن مازيغ أخا لابن وائل »⁽¹⁾.

- أثر اللغة في توحيد الأمة: لقد " جاهد الإمام عبد الحميد في سبيل أن تكون العربية في مكانها في الجزائر، إذ هي لسان دينها، ووعاء قرآنها، وكان يرى أنّ اللغة أقوى في توحيد الأمة من العرق والدّم"⁽²⁾، ولعلم الإمام بمحاولات الاستعمار وسعيه الحثيث للعب على هذا الوتر في تفكيك وحدة الأمة الجزائرية، وذلك بإيجاد وتشجيع ضرائر للغة العربية.

- تقديم مصلحة الأمة فوق كلّ مصلحة: وذلك بتقديم خدمة البلاد ونفعها على كلّ اعتبار آخر مهما سما أو علا، وذلك بأن يستحضر المرء بأنّ الجزائر قبل كلّ شيء، " ولعلّ الشعار الذي اتّخذه الرئيس محمّد بوضياف رحمه الله خلال رئاسته للدولة « L'Algérie avant tous » أي الجزائر قبل كلّ شيء، مأخوذ من شعار الإمام الذي صرّح به منذ أكثر من 80 سنة "⁽³⁾.

- الاختلاف الفقهي ووحدة الأمة: لقد أدرك الإمام دور الفقه في توحيد الأمة، وأثر الاختلاف المتعصّب في تهديد هذا الاختلاف وصدعه، " فالمصلحة العامة للأمة الإسلامية لا تتقدّمها أيّ مصلحة مذهبية، أو طائفية، أو قطرية، والعمل الدؤوب من أجل لمرّشّات المسلمين، ورصّ صفوفهم، ومحاربة مظاهر الفرقة بينهم هي المقصد الأسمى للدين بعد التّوحيد، ذلك أنّ الإسلام دين يقوم على كلمة التّوحيد، وكذا توحيد الكلمة"⁽⁴⁾، ولا يخفى على ذي لبّ مدى حاجة الأمة إلى مثل هذه المعاني العزيزة حتّى في مثل يوم الناس هذا، فما زال الدّاء والمرض هو نفسه.

(1) د/ سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، (مج 7 / ص: 322).

(2) محمد الصالح الصديق، نماذج للاقتداء، (ص: 21).

(3) د/ عبد العزيز فيلاي، البيت الباديسي مسيرة علم ودين وسياسة، (ص: 09).

(4) د/ محمد الدراجي، الاختلاف الفقهي ووحدة الأمة الإسلامية عند ابن باديس، مجلّة الوعي، (ص: 63).

ب/ مقومات الوطنية الإسلامية عند الإمام ابن باديس: لقد دعا الإمام الأمة إلى تقوية شعورها الوطني، لكون هذا الأخير هو المحفز والدافع للاستيقاظ ومنازلة المستعمر الغاشم، وقد تميّز مفهوم الوطنية عند الإمام بالعمق والتنوع والغنى، وذلك من الجوانب التالية:

- مفهوم الوطنية البناءة عند الإمام ابن باديس: يرى الإمام بأنّ الوطنية الحقيقية الدافعة والمنتجة لها ضوابط واعتبارات، واحترازات دقيقة، تبعدها عن التعصب القطري الحادّ، وذلك إذا جعلت هذه الوطنية "الإنسان يجد صورته وخيره وسعادته في بيته ووطنه الصّغير، وكذلك يجدها في أمّته ووطنه الكبير ويجدها في الإنسانية كلّها ووطنه الأكبر، وهذا الرّابع هو الوطنية الإسلامية العادلة، إذ هي التي تحافظ على الأسرة بجميع مكوناتها وعلى الأمة بجميع مقوماتها وتحترم الإنسانية في جميع أجناسها وأديانها"⁽¹⁾.

- مفهوم حبّ الوطن عند الإمام ابن باديس: إنّ حبّ الوطن عند الإمام لا يعني أن يحبّ الإنسان وطنه (الضيق)، ويسعى لخيره وفائده ولو كان على حساب الأمم والأوطان الأخرى، بل هو عنده قائم على حبّ الإنسانية كلّ، "نحبّ الإنسانية ونعتبرها كلّاً، ونحبّ وطننا ونعتبره منها جزءاً، ونحبّ من يحبّ الإنسانية ويخدمها، ونبغض من يبغضها ويظلمها"⁽²⁾.

بل وذهب الإمام إلى أبعد من هذا؛ عندما اعتبر حبّ الوطن أو عكسه من علامات الولاء والبراء، وذلك عند قوله: "وبالأحرى نحبّ من يحبّ وطننا ويخدمه، ونبغض من يبغضه ويظلمه، ولهذا نبذل غاية الجهد في خدمة وطننا الجزائريّ وتحبيب بنيه فيه، ونخلص لكلّ من يخلص له، ونناوئ كلّ من يناوئه من بنيه ومن غير بنيه"⁽³⁾.

- الوطنية المغاربية عند الإمام ابن باديس: لقد جزم الإمام بأنّ حديثه عن الوطن الجزائريّ ليس تخندقاً في بقعة من بقاع الأرض يوالي ويعادي في سبيلها، بل أشار إلى الواجب عليه عند الحديث على الأوطان حين قال: "وأنا أحبّ أن يكون الحديث عن عموم المغرب العربيّ لأني أومن بأنّ هذا

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03 / ص: 368).

(2): المصدر نفسه، (مج 03 / ص: 278).

(3): المصدر نفسه.

الشمال الإفريقي لا ينهض إلا بتضامنه مع بعضه بعضا، لكن إذا تحدّثت عن الجزائر فإنّما أتحدّث عن جزء من كلّ، وأذكر عن الأخ ما يسرّ إخوانه"⁽¹⁾، ولا يخفى ما في هذا النصّ من التعبير الدقيق والموزون، والذي تمكّن في جملة القصيرة من إعطاء هذه القضية حقّها.

- موقع الوطن عند الإمام ابن باديس: يرى الإمام ابن باديس بأنّ الوطن عند المسلم لا بدّ أن يكون قبل كلّ شيء، فلا مصلحة تعلوا على مصلحة الوطن أو تدانيها، وجعله شعارا له ولكلّ مسلم جزائريّ، " (الحقّ فوق كلّ أحد والوطن قبل كلّ شيء) وسرنا على مقتضاها إلى اليوم في كلّ ما قلنا وكتبنا وسنبقى عليها -ككلّ مسلم جزائريّ- حتّى نلقى الله إن شاء الله "⁽²⁾.

- الشموليّة في مفهوم الوطنيّة عند الإمام ابن باديس: الوطن عند الإمام ابن باديس خاصّ وعامّ على الإنسان أن يحرص على خدمته جميعا، " إنّ لنا وراء هذا الوطن الخاصّ أوطانا أخرى عزيزة علينا هي دائما منّا على بال، ونحن فيما نعمل لوطننا الخاصّ نعتقد أنّه لا بدّ أن نكون قد خدمناها، وأوصلنا إليها النّفع والخير من طريق خدمتنا لوطننا الخاصّ... فنحن إذا كنّا نخدم الجزائر فلسنا نخدمها على حساب غيرها ولا للإضرار بسواها -معاذًا بالله- ولكن لننفعها وننفع ما اتّصل بها من أوطان الأقرب فالأقرب "⁽³⁾.

- غرس بذور الوطنيّة في الأمتة الجزائرية: لقد استطاع الإمام بحنكته وفطنته أن يكون " مربّي جيلين كاملين على الهداية القرآنيّة والهدي المحمّدي، وعلى التّفكير الصّحيح، ومحيي دوارس العلم بدروسه الحيّة... وغارس بذور الوطنيّة الصّحيحة، وملقّن مبادئها "⁽⁴⁾، وقد صدق هنا الدّكتور سعد الله حين اعتبر بذرة الوطنيّة التي غرسها الإمام؛ صادقة وصحيحة، وذلك لكون الإمام كان يسعى لتحرير أمتة، وتخليصها من خطاياها التي قيّدها عن النهوض لاستقلالها، كما لخصّ لنا علاقة الإمام بالسياسة البناءة، وما هي المقوّمات التي مكّنته من خوضها، وذلك حين قال: " فإنّ شخصيّة ابن باديس... كانت تتوفّر على كثير من عناصر القدرة والذكاء والتّجربة والطّموح، وهي جميعا من

(1): المصدر نفسه، (مج 04 / ص: 331).

(2): المصدر نفسه، (مج 03 / ص: 368).

(3): المصدر نفسه، (مج 03 / ص: 236-237).

(4): أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، (مج 03 / ص: 89).

مقومات رجل السياسة" ⁽¹⁾.

- فكرة الكيان الجزائري المستقل: لقد كان الإمام ابن باديس منذ بداية جهاده ضدّ عوامل التّخلف المزمّن، ساعياً إلى تذكير الأُمّة إلى أنّ لها وطنًا غير فرنسا، ولغة غير لغتها، ومقومات غير مقوماتها، " وفكرة الكيان الجزائري قد طرحها ابن باديس خلال الثلاثينات، فبالرّغم من أن معظم الكتّاب متفقون على أنّ العلماء كانوا بعيدين عن السياسة، فإنّهم متفقون أيضاً على أنّ هدف العلماء البعيد كان سياسياً سواء أرادوا ذلك صراحة أو لم يريدوه" ⁽²⁾.

- المساهمة في الوحدة العربيّة والجامعة الإسلاميّة: هاتين القضيتين اللتين كان يخشاها المستعمر أشدّ الخشية، خاصّة الثانية منهما، وذلك لكون الجامعة الإسلاميّة أكبر وعاء من حيث المساحة والسّكان، وقد ساهم الإمام بقسط كبير في مجال الدّعوة إليها، "ولكن نتيجة لاعتبارات استعماريّة وقلة المعلومات، فإنّ دور الجزائريّين في هاتين الحركتين قد أهمله الكتّاب" ⁽³⁾، والإمام -من خلال ما سبق- لم يدعُ إلى قوميّة جوفاء، أو وحدة عرجاء، بل سعى لتكون هذه الوحدة مبنيّة على شرع الله تعالى، يجمع فيها الإسلام بين أبناءه في مختلف جهاتهم وأعراقهم.

- فتح أبواب جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين: لقد دعا الإمام ابن باديس الأُمّة إلى الانخراط في جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين، كما بيّن للمشكّكين والمتخوّفين " أنّ الجمعيّة للجميع وأنّها ليست ضدّاً لأحد لا للزّوايا ولا لغيرها، وإنّ غرضها هو نشر العلم والفضيلة بين الجميع" ⁽⁴⁾.

وبعد هذا التّداء العامّ؛ وجّه الإمام نداءً خاصّاً إلى أكثر من ناصب الجمعيّة العداء، وهاجمها، وكال لها التّهم الثّقيلة، وهم شيوخ الزّوايا، فقد نادى الإمام فيهم " شيوخ الزّوايا الذين لهم رغبة في نشر العلم وهداية النّاس وسعة صدر في سماع الحقّ وأدلّته" ⁽⁵⁾، فهؤلاء سيكون لهم فضل وإضافة ومساهمة في العمل الإصلاحيّ الذي تسعى له الجمعيّة برجالها.

(1): المصدر نفسه.

(2): المصدر نفسه، (مج 03 / ص: 86).

(3): المصدر نفسه، (مج 02 / ص: 416).

(4): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04 / ص: 318).

(5): المصدر نفسه، (مج 04 / ص: 310).

الفرع الثاني / الدعوة إلى التحرير والجهاد في سبيل الله تعالى :

إنّ الإمام ابن باديس ما دعا للوحدة والاتحاد، وما حارب كلّ المفرقات والمعوقات عن تحقيق هذا الهدف، إلّا لغاية واحدة؛ هي قيادة الأمة إلى سيادة نفسها ووطنها، وذلك لن يكون إلّا بجهاد شامل ضدّ هذا المستعمر، وتحرير الإنسان والأرض من قيوده المادية منها والمعنوية، وقد تجلّى دور الإمام في الدعوة إلى التحرير والاستقلال في عدّة صور منها:

- الدعوة إلى الاستقلال والتحرّر: لقد دافع ورافع الإمام عن عديد القضايا والمسائل التي كانت الأمة في حاجة إليها، لكن " أصبحت قضية الاستقلال والحرية في مقدّمة القضايا التي سعى لها وجاهد في سبيلها باعتبارها الغاية القصوى"⁽¹⁾، وقد تنوّعت أساليب الإمام في الدعوة إلى الاستقلال بين التصريح والإشارة، وذلك حسب الأوضاع والمراحل التي كانت تعيشها الأمة، كما أنّ هذا الاتجاه في الدعوة إلى التحرر والاستقلال كان يزداد وضوحاً وقوّة في السنوات الأخيرة من حياته، ابتداء من منتصف الثلاثينيات.

هنا سنأخذ نصّين من كلام الإمام نجد فيهما الدعوة صريحة إلى الاستقلال والتحرر، مع كثير من الوعيد والتّهديد للذين لا يجرؤ عليهما غيره في ذلك الوقت، أمّا النصّ الأوّل فهو قوله -عند حديثه عن الاستقلال-: " وأيّ إنسان يا سادة لا يحبّ الاستقلال؟ إنّ البهيمة تحنّ إلى الاستقلال الذي هو أمر طبيعيّ في وضعيّة الأمم... والخلاصة أنّنا قلنا نحن لنا ثقة في الواجهة الشّعبيّة ولا زلنا نقول ذلك، وقلنا ننتظر وها نحن ننتظر، ولكن للانتظار حدّ محدود، وإذا خاب أمل الأمة الجزائرية فإنّها لا تخيب وحدها بل تخيب معها فرنسا أيضا "⁽²⁾.

أمّا النصّ الثاني فقد جنح فيه الإمام إلى التصريح والتّوضيح الجليين الذين لا يمكنهما أن يتركا مجالاً للمناقشة أو الرّدّ، بل وضع المستعمر من خلاله أمام حقيقة مرّة، وهي وجوب الاعتراف بهذا المجتمع الذي لا تجمععه مع فرنسا أيّ رابطة عدا رابطة الإنسانيّة، ورابطة معاملة النّدّ للنّدّ، وليس معاملة السيّد للعبد، وذلك عند قوله: " أمّا اليوم فقد شعرت الأمة بذاتيّتها وعرفت هذه القطعة من

(1): د/ عبد الحميد درويش النّساج، المصدر السابق، (ج 01، ص: 20).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04 / ص: 334).

الأرض التي خلقها الله منها ومنحها لها، وأنها هي ربّتها وصاحبة الحقّ الشرعي والطبيعي فيها، سواء اعترف لها به من اعترف أم جحد من جحد، وأصبحت كلمة (الوطن) إذا رنت في الآذان حرّكت أوتار القلوب، وهزّت النفس هزّا... ومطالبتها بإنصافها قبل أن تنصفها الأيام وقبل أن تحلّ نقمة الله الذي جرت سنّته بالانتقام من الظالم للمظلوم ولو طال الزّمان"⁽¹⁾.

- أصالة الفكر الثوري الباديسي: إنّ الدّعوة إلى الاستقلال والتحرر لدى الإمام ابن باديس لم يكن ناشئا عن فكرة عرضيّة، أو تأثرا بمرحلة أو حادثة، بل كان هذا الفكر ثابتا في فكر الإمام وعقله، وعكف عليه يغذّيه وينميّه ويشحذه، إلى أن يأتي اليوم الذي يُعلن فيه الثورة والنّفير، " ومجمل القول، لقد بعث الله للأمة الجزائرية، من يعمل على توعيتها وتعليمها وإحياء دينها ولغتها والدّفاع عنها من كيد الاستعمار ومخططاته، فكان الشيخ الإمام هو رجل تلك المرحلة... وسياسيا ثورياً أصّح ورّم في مدّة لا تزيد عن 27 سنة، ما أفسدته يد الاستعمار وآلته وعقله في الجزائر خلال (110) مائة وعشر سنوات كاملة"⁽²⁾.

- دور الإمام ابن باديس في تفجير الثورة التّحريرية: صدعا بالحقّ " وإنصافا للتّاريخ أيضا نقول أنّه لولا أولئك الفتية الذين آمنوا برّبهم ووطنهم، وكوّنوا أنفسهم في الخفاء، واجتمعوا وتجاوبوا وقرّروا الثورة، لكانت الجزائر بدون جمعيّة العلماء كريشة في مهبّ الرّيح سنة 1954... ويبقى أن نعرف مستقبلا كم من الذين فجّروا ثورة 1954... كانوا من خريجي مدارس جمعيّة العلماء"⁽³⁾.

بل يذهب بعض الباحثين إلى أبعد من هذا الاتجاه، وذلك بأن يتجاوز دور الإمام في الحركة الوطنية الجزائرية، و" يرجع لابن باديس فضل إذكاء روح التّحرير والاستقلال لدى الشّعوب الإفريقيّة وإلى دوره وآرائه يرجع البعض معظم الثّورات التّحريرية في إفريقيا"⁽⁴⁾، والحقيقة أنّ هذا الطّرح والاتّجاه الأخير يحتاج إلى البحث والتّنقيب لتحديد نسبته العلميّة الحقيقيّة، وذلك اجتنابا للوقوع في المزايدات العلميّة الخالية من البرهان والدّليل المعتبر.

(1): المصدر نفسه، (مج 04 / ص: 334-366).

(2): د/ عبد العزيز فيلاي، الشيخ الإمام عبد الحميد ابن باديس (أصالة فكر سياسي ثوري)، مجلّة الوعي، (ص: 40).

(3): د/ سعد الله، أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، (مج 4 / ص: 148).

(4): د/ عبد الحميد درويش النّساج، المصدر السابق، (ج 02، ص: 159).

- دور معهد الإمام ابن باديس⁽¹⁾ في الثورة التحريرية: لقد ساهم هذا المعهد التعليمي التربوي مساهمة فعّالة وواسعة في الجهاد الجزائري، هذه المساهمة والمشاركة القويّة التي يريد الكثير إلغائها، أو التشكيك فيها، أو في مدى فعاليتها وأثرها، وقد "ارتبطت طلبة معهد عبد الحميد بن باديس بالثورة التحريرية في وقت مبكر قبل الإضراب العام للطلاب في 19 ماي 1956م، وكان لهم مساهمات وأدوار فاعلة في دعم ومساندة الثورة التحريرية، امتدت من التجنيد في صفوفها والدعوة للتضامن معها، ومن تولّى مختلف المسؤوليات السياسية والعسكرية إلى قيادة أجهزة الثورة"⁽²⁾. إن طلبة هذا المعهد الإسلامي الباديسي لم يلتحقوا بالثورة التحاقا هشا، أو اصطفوا في صفوف العجزة وضعاف النفوس، فما على هذا حيي الإمام ابن باديس ولا مات، بل كانت أفواج تلاميذه وطلابه "سبّاقة للتضحية من أجل تجسيد ثوابت الشخصية الوطنية والتحرر الوطني"⁽³⁾. كما أنّ أفواج النور والنار تلك، لم تكن مهمتها في استعمال القوة والعنف -على أهميتها- فقط، حتى لا يقال بأنهم أناس انطلقوا بدافع عقيدة الكره إلى القيام بالأعمال ذات طابع لا يحتاج للتفكير والنبوغ، بقدر ما يحتاج للعنف والقوة، بل "أسهم هؤلاء الطلاب بدور هام في صفوف جيش التحرير أو في مهمات سياسية وإعلامية وإدارية لجهة التحرير الوطني"⁽⁴⁾. وهكذا خاضت الأمة الجزائرية جهادها ضدّ المستعمر الفرنسي لتحرير الأرض، واستمرت معركة

(1): معهد عبد الحميد ابن باديس (1947-1957م): "قلعة من قلاع العروبة في الشمال الإفريقي، ومركز إشعاع ثقافي، يقع في بناية تعود لعائلة لفقون المشهورة بقسنطينة، يقع مقرّه بالمدينة القديمة (ساحة البطحاء)، يرجع تاريخ التفكير والتخطيط له إلى سنة 1936م، فتح أبوابه في 01 ديسمبر 1947م، وقد أعتد فرعاً للجامع الزيتونة، بهدف توحيد التعليم في المعاهد الإسلامية الكبرى، تتألف إدارته من ثلاث هيئات متضامنة (الهيئة العلمية/ الهيئة المالية/ هيئة المراقبة والضبط). جندت الجمعية خيرة أساتذتها من أمثال: العربي التبسي، أحمد حماني، نعيم النعيمي، وغيرهم كثير، تمّ غلق المعهد على خلفية اكتشاف فرنسا لحليّة المعهد الثورية، وبمقتضى المرسوم رقم 572، 372، وتاريخ 03 سبتمبر 1957م غلق معهد ابن باديس، وفي عام 1960م تحوّل إلى ثكنة عسكرية فرنسية، ولم يردّ له الاعتبار إلّا في سنة 2004م، حيث صار معهداً وطنياً للقراءات".

أنظر: د/ عبد الله مقلاتي، إسهام شيوخ معهد عبد الحميد بن باديس وطلابه في الثورة التحريرية، (ص: 31-50).

(2): المصدر نفسه، (ص: 93).

(3): المصدر نفسه، (ص: 167).

(4): المصدر نفسه، (ص: 168).

تحرير الإنسان والضمير، واستمرّ في هذا المجال " أبناء باريس يحاربون أبناء باديس"⁽¹⁾، كلّ منهما يسعى لفرض مقوماته ومبادئه على هذه الأمة المقهورة المسلوقة، وسيبقى هذا الصراع بينهما إلى أن يقضي الله تعالى بين الفريقين.

لقد أراد الإمام من خلال ما ذهب إليه أن يكون المواطن المسلم الصحيح، الذي "تربطه بوطنه أواصر وذكريات وآمال، وإنّ لهذا الارتباط تكاليفه وواجباته، وإلاّ كان المواطن موجودا بلا وجود كالمسلم بلا إسلام، والعربيّ بلا عروبة"⁽²⁾.

كما كان الإمام يتعهد الإصلاح السياسي بالتفقد والمعاينة، وقيس مبلغه من العمل والجهد الذي بذله، ففي 17 مارس 1937م صرّح الإمام بحجم العمل السياسي الذي حقّقه مع إخوانه المصلحين، وذلك عند قوله: "وبلغنا -والحمد لله- من النجاح في الإصلاح السياسي أن أصبح أمر المحافظة على شخصيتنا أمرا اجتماعيًا حتّى ممن كان لا يباليه أو لا يشعر به، ومعتزًا به -رسميًا- شيئًا ضروريًا في كلّ برنامج يوضع للجزائر"⁽³⁾.

من خلال هذا النصّ نجد بأنّ الإمام قد استشر -نوعا- من النجاح السياسي استطاع الإصلاحيون تحقيقه، والإمام لم يكن من الذين يتغنون أو يفرحون بنجاح وهميّ مصطنع، بل صوّر لنا بعض مظاهر هذا النجاح وأماراته، ومنها:

- الوعي السياسي لعموم الأمة، حيث انتقل هذا الوعي من النخبة والعلماء إلى الطبقة الشعبية من الناس، ولا يخفى ما لهذا الوعي من مساهمة في إيقاظ النفوس المهزومة المهزوزة.
- استشعار الجهات الرسميّة -رغما عنها- لهذا الوعي، وإشارتها إليه في المناسبات الرسميّة، ومجرّد اعترافها بهذا الجانب يعدّ نصرًا سياسيًا للأمة الجزائرية.

(1): المصدر نفسه.

(2): محمد الصالح الصديق، نماذج للاقتداء، (ص: 24).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04 / ص: 361).

المطلب الثالث: الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي.

إنّ هذا الجانب من الإصلاح يعدّ أساسياً وضرورياً لمن جعل مقصده وهدفه شاملاً وعاماً، ذلك أنّ الأمم القويّة لا تنهض إلّا بهذه الجوانب مجتمعة، وإذا اختلّ جانب واحد منها فإنّ النهضة كلّها ستكون ناقصة ومنحرفة، كما أنّ البعض من الباحثين حاول أن ينتقص جهد الإمام من هذا الجانب، واتّهامه بحصر جهوده الإصلاحية بعيدة عن الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي.

الفرع الأوّل / الدّعوة إلى الأخذ بأسباب المدنيّة والتّطوّر:

لقد دعا وألحّ الإمام ابن باديس في دعوة الأمّة بمختلف مجموعات وطبقاتها إلى الأخذ بأسباب المدنيّة والتّطوّر، وذلك كلّ حسب قدرته ومجال نشاطه، ولعلّ سبب دعوته إلى هذا الجانب ما يلي:

- إيمان الإمام بشمول الإسلام وإحاطته بمناحي الحياة، سواء النفسية منها أو الماديّة، وإيمانه أيضاً بعموم المشكلة وشمولها لكلّ مناحي حياة الجزائريّين، ولهذا استعان بالحلّ الشّامل في معالجة المشكل الشّامل.

- إنّ أيّ دعوة لا تأتي على جوانب الحياة الإنسانية لن تكون ذات جدوى، وانحصارها في جانب معيّن فقط سيجعل منها ظرفيّة ومحدودة، ولهذا وسّع الإمام من نطاق عمله الإصلاحية، و"نزعت به الهمة إلى أن يباشر نشاطاً إصلاحياً واسع النّطاق"⁽¹⁾.

- كون الإمام ابن باديس " المثقّف الجزائريّ الوحيد في زمنه الذي قدّر آثار الوجود الفرنسي على هويّة شعبه، وقد دافع عن التّغيير دفاعاً مناسباً تجاه الجزائريّين"⁽²⁾، كما قدّر حجم الضرر الذي أحدثه هذا الوجود على الجانب المادّي والاجتماعي للجزائريّين.

- إنّ الإمام ابن باديس لم يستهدف عقل الإنسان أو قلبه أو محيطه، بل وجه جهده للعناية بالنّفس الإنسانيّة، " والعناية بالنّفس الإنسانيّة عند ابن باديس هو عناية الإنسان كشخصيّة متكاملة فكراً وعقلاً وجسماً وسلوكاً في منظومة التّفاعل والتّكامل"⁽³⁾، وهذه نظرة التّكامل.

(1): أ/ د عشراقي سليمان، المصدر السابق، (ج 01 / ص: 159).

(2): أندري ديرليك، المصدر السابق، (ص: 311).

(3): أ/ د عشراقي سليمان، المصدر السابق، (ج 02 / ص: 72).

لقد تعرّض الإمام ابن باديس لهذا الجانب الإصلاحي من عدّة جوانب، أهمّها ما يلي:

أ/ أهداف ومظاهر الإصلاح الاقتصادي عند الإمام ابن باديس: للإصلاح الاقتصادي عند

الإمام طرق ومراحل وأهداف لتحقيقه والوصول إليه، وأهمّ هذه المظاهر ما يلي:

- اقتباس كلّ ما هو حسن عند غيرنا: لقد أدرك الإمام الضعف الذي كانت فيه الأمة في المجال الماديّ، ولهذا دعا للاستفادة والأخذ عن غيرنا المتحضّر ماديّاً، مهما تنوّعت الأمم وتعدّدت ألسنة الأخذ عنها، كما دعا في نفس الوقت إلى الاستفادة منها دون التنازل عن المقومات؛ " عليكم أن تلتفتوا إلى أمتكم فتنتشلوها مما هي فيه بما عندكم من علم وما اكتسبتم من خبرة، محافظين لها على مقوماتها، سائرين بها في موكب المدينة الحقة بين الأمم... ثم لا يمنع هذا من أخذ العلم عن كلّ أمة وبأي لسان، واقتباس كل ما هو حسن ممّا عند غيرنا، ومدّ اليد إلى كلّ من يريد التعاون على الخير والسعادة والسلام"⁽¹⁾.

- الأخذ والتنويع من المعارف والعلوم: لقد جعل الإمام من تنويع المعارف والعلوم التي يجب على الإنسان أن يأخذ منها؛ طريقة من طرق حمد الله تعالى والتعرّف على نعمه المختلفة، وذهب إلى وجوب الإكثار " من حمد الله على نعمه، نعم الحلقة ونعم الهداية، فنحمده إجمالاً وتفصيلاً، ويتضمّن هذا علمنا بهذه النعم، وذلك يقتضي توسيع دائرة معلوماتنا بخلقه وبشرعه، فنتناول كلّ ما نستطيع من العلوم والمعارف التي توصلنا إلى ذلك وتدلّنا عليه"⁽²⁾.

- وجوب التّضلع في العلوم والصناعات: هذه العلوم والصناعات التي لا يمنحها الله تعالى إلا لمن أخذ بأسباب تحصيلها، سواء أكان برّاً أو فاجرّاً، وهذا إبعاداً للأمة عن التّوكل، وتذكير الإمام بأمجاد المسلمين ممّن تمكّنوا في هذه الميادين وحازوا فيها قدم السّبق، ممّا جعل الحضارة الإسلاميّة تتربّع على ذروة سنام الحضارات الإنسانيّة، وقد قال في هذا المعنى: " أسباب الحياة والعمران والتّقدّم فيهما مبذولة للخلق على السّواء، وأنّ من تمسّك بسبب بلغ - بإذن الله - إلى مسبّبه، سواء أكان برّاً أو فاجرّاً مؤمناً أو كافراً، وهذا... مشاهد في تاريخ المسلمين قديماً وحديثاً، فقد تقدّموا حتّى سادوا العالم

(1) ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 104).

(2) المصدر نفسه، (ص: 326).

ورفعوا علم المدينة الحقّة بالعلوم والصناعات، لما أخذوا بأسبابها كما يأمرهم دينهم. وقد تأخروا حتى كادوا يكونون دون الأمم كلّها بإهمال تلك الأسباب، فخسروا دنياهم وخالفوا مرضاة ربهم وعوقبوا بما هم عليه اليوم من الذل والانحطاط، ولن يعود إليهم ما كان لهم إلا إذا عادوا إلى امثال أمر ربهم في الأخذ بتلك الأسباب⁽¹⁾.

- الدعوة إلى الاعتناء بالفلاحة والصناعة والتجارة: دعا الإمام في كثير من المواضع والمناسبات إلى "الجد في أسباب الحياة من فلاحه وتجارة وصناعة... إننا نريد للمسلمين أن يبلغوا في المعارف والفلاحة والتجارة والصناعة إلى مستوى إخوانهم الفرنسيين"⁽²⁾، وقد كانت هذه الميادين التي ذكرها الإمام في قمة التأخر والانحطاط، حتى أنّها أثّرت في حياة الجزائريين ككلّ، وهو لم يسعّ للإصلاح الاقتصادي لذاته، كما أنّ الإمام لم يدع "شعب الجزائر إلى حمل السلاح لأنّه كان يرى أنّ شعبا جائعا خائفا جاهلا مريضا ضعيف الإيمان لا تقوى سواعده على حمل السلاح، فحارب هذه الأمراض جميعا بالإسلام"⁽³⁾، كلّ هذا إعدادا للقوة والعدّة التي أمر الإسلام بتحصيلها قبل مواجهة العدو.

- دعوة السنّة النبويّة للأخذ بأصول المدينة والعمران: لقد دعا الإمام في درسه الحديثي إلى الأخذ بهذا الجانب المهمّ من حياة الأمم القويّة، بل وأشار بكلّ ثقة وافتخار إلى أنّ السنّة النبويّة تحوي في كثير من نصوصها تقارير عن كميّة التخصّص والارتقاء في سلّم المدينة، وفوق هذا؛ لم تكن هذه التقارير عبارة عن إشارات خافتة، أو استنباطات متكلّفة، بل هي أصول وأسس وقواعد في هذا الميدان، "وهكذا تجد سنّة النبي ﷺ إذا تتبعتها قد قرّرت بالفعل أصولا كثيرة من أصول المدينة والعمران، ولهذا كان على قاريها أن يتناولها للفهم والاستنباط والتطبيق على الأحوال"⁽⁴⁾، فمن خلال النصّ يرجع الإمام عدم استعانتنا بهذه الأصول الواردة في السنّة النّبويّة إلى أمرين هما: إمّا عدم فهمها واستنباطها، أو عدم تطبيقها وتنزيلها على الواقع العمليّ.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 01 / ص: 212).

(2): المصدر نفسه، (مج 04 / ص: 314).

(3): مطبقاني، مازن صلاح، المصدر السابق، (ص: 182).

(4): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 73).

- الدعوة إلى استثمار رؤوس الأموال في المشاريع المربحة: لقد أدرك الإمام دور المال في النهوض بالأمم واقتصادات البلدان، وذلك أنّ المشاريع الاستثمارية، والشركات الصناعية الإنتاجية، والمؤسسات الخيرية في المجتمع، لا يمكنها أن تقوم بدورها إلاّ بالمال الذي هو عصب الحياة، ولهذا وجّه الإمام ندائه إلى الأغنياء بقوله: "أغنياء.. وأغنياء.. أغنياء الأمم الحية تسمع بأسمائهم في إعلانات الشركات، في تأسيس المشروعات، في قوائم التبرّعات.

وأغنياءونا تسمع بهم في جرائدنا في عقد زواج، في نيل وسام، في ازدياد مولود، في رزية بمفقود"⁽¹⁾.

- الدعوة إلى الاختراع الماديّ النافع: لقد بلغ من أمل الإمام إلى دعوة الناس للتفكير والنظر، وذلك بقصد اكتشاف الأمور الجديدة النافعة، والتي يمكنها نفع الإنسانية جمعاء، وقد عقد الإمام مقارنة بين المخترع في الأمم الحية، وبين مقابله في الأمم الميتة الأخرى، " « من المخترع؟ » كثيرا ما يتنازع العلماء من الأمم الحية على اختراع مفيد، أيهما السابق به، ونحن اليوم بـ (قسنطينة) عندنا نزاع قائم فيمن اخترع (!) أكل السموم واقتحام النار، وتشويه الأبدان بالسّفايف والمسامير"⁽²⁾.

- الدعوة لاستغلال الثروات والمصادر الطبيعية: في هذا المجال عقد الإمام ابن باديس مقارنة مؤلمة بين استغلال الأمم الحية للحديد، وبين الأمم الميتة التي أضاعت هذه المادة التي بها سادت أمم وبادت أخرى، وبين السائدة والبائدة يضعنا الإمام، وذلك عند قوله: "بينما الأمم الحية تخدم الحديد بعقولها فتستخرج منه منافع للناس وتذيق الأمم الميتة به البأس الشديد، إذ بنا نخدم الحديد ببطوننا! فنأكل المسامير لإظهار كرامة شيوخنا الذين يتبرّأون منّا...!"⁽³⁾.

- الدعوة إلى الأخذ بأسباب القوة والسيادة: لقد تراوح أسلوب الإمام في درسه الحديثي بين التفصيل والإجمال، وفي آخر هذا العنصر دعا الإمام الأمة إلى الأخذ بأسباب السيادة والقوة، والنصّ الذي سأنقله -رغم طوله- تعرّض فيه الإمام إلى أهمّ هذه الأسباب، وذلك عند قوله: "علم الله أنّ السيادة في البرّ لمن ساد في البحر... وجاء هذا الحديث يبشّر الأمة الإسلامية بما هيّء لها من أسباب

(1): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05 / ص: 109).

(2): المصدر نفسه، (مج 06 / ص: 369).

(3): المصدر نفسه، (مج 05 / ص: 29).

السيادة ويعرفها أنها أمة ملك وسلطان وقوة... يعرفها بهذا ويدعوها إليه لتعدّ له عدته وتأخذ له طريقه وتتوصّل إليه بأسبابه، إذ لا يكون ملك إلا بأسباب الملك، ولا تكون قوة إلا بأسباب القوة، ولا تكون سيادة إلا بأسباب السيادة.

وقد علمت من دينها أنّ السيادة لا تكون إلا بالملك، وأنّ الملك لا يكون إلا بالقوة: قوة الأبدان وقوة العقول وقوة الأخلاق وقوة المال، وبهذه يكون العدل الذي هو أساس الملك، وأنّ لا قوة إلا بالعلم والعمل والتّهذيب... ونبّههم على هذا التقدير المحكم الذي ارتبط بعضه ببعضه، وعلى أنّه لا سبيل إلى غايته إلا بإتيانه من بدايته، وقد فهم المسلمون هذا دهرًا فسلّكوه فأنجزهم الله وعده، وجهلوه أدهارًا فتركوه فأذاقهم الله بأسه، وما ربك بظلام للعبيد، ولئن عادوا إليه ليعودنّ إليهم ولن يخلف الله الميعاد" (1).

لابدّ من تسجيل بعض الملاحظات على هذا النصّ القيم، ولعلّ أهمّها ما يلي:

- الشجاعة الأدبية التي لاحت في هذا النصّ، وحجم المخاطرة التي حوّاها كلام الإمام، فالمصطلحات والألفاظ التي استعملها كانت تمسّ الوجود الفرنسي بشكل مباشر، وطابعها التحريضي والتعبوي كان نادرًا وثقيلًا.
- الإشارة إلى أنّ الأمة الإسلامية ما وجدت إلا لتكون أمة ملك وسلطان وقوة، وأنّ هذه الإشارة قد صدّقها الدليل والواقع التاريخي معًا.
- التّوصّل إلى القوة والسلطان لا يكون إلا بسلوك أسبابه الموصلة إليه، أي أنّ مجرد الانتساب للأمة الإسلامية لا يكتسب هذه المقوّمات، كما أنّها لا تتنقل بالوراثة، بل هي لمن أخذ بأسبابها فقط.
- مفهوم القوة التي دعا إليها الإسلام وقامت بها الحضارات؛ هي قوة الأبدان والعقول والأخلاق والمال، أو قوة العلم والعمل والتّهذيب، فهذه هي القوة البناءة الدافعة.
- تحسّر الإمام على تضييع المسلمين لهذه السيادة أدهارًا عديدة بعد أن تمتّعوا بها دهرًا، ليختم الإمام كلامه بأمل الرجوع إلى هذا المجد العتيق.
- في اختيار الإمام للبحر كمجال للسيادة؛ فيه إشارة واضحة للمجد الذي عاشته الجزائر لما سادت

(1): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 136).

البحار بأساطيلها، هذه الأخيرة التي كانت بها يؤدّب المعتدون، ولعلّ فرنسا من أكثر المعتدين الذين ذاقوا ضربات هذا الأسطول، فأحيا الإمام مجداً ضائعاً.

ب/ مظاهر الإصلاح المادّي للإنسان عند الإمام ابن باديس: سعى الإمام ابن باديس لإصلاح الجانب المادّي من الإنسان، ذلك أنّ نظرتَه إليه كانت نظرة ثنائية تراعي البدن والروح معاً، ولإيمانه أنّ نهضته الشاملة لا تقوم ولن تقوم إلّا على صحّة واستقامة ثنائيّة الروح والجسد، وأيّ اختلال في أحدهما سينعكس سلبيّاً على الآخر، ومن مظاهر اعتناء الإمام بإصلاح البدن ما يلي:

- الدعوة للاعتناء بالرياضات البدنيّة: قد يبدو هذا العنوان غريباً، وذلك من حيث كون الإمام ابن باديس من أئمة الإسلام، المعنيين بالعلوم الشرعيّة، ومحاربة البدع والخرافات، ومنازلة السياسيين والقبوريين، ومواجهة المستعمر الغاشم، فأنّى له أن يشير إلى مثل هذا الجانب الهامشيّ، لكن وجد للإمام نصوص تعرّض فيها للجانب البدنيّ، وذلك من الجوانب التالية:

أ/ ربط الرياضة بالعبادات الشرعيّة: مثل قوله: "المسلم أعرق الناس في الرياضة وأحقّهم أن يكون أسبقهم إليها، فإنّ الصّلاة التي يحتّمها عليه دينه خمس مرّات في اليوم، كما هي معراج روحي وتربية خلقية واجتماعية كذلك هي رياضة بدنيّة... فإلى الأمام يا شبابنا الجزائري في هذه الأعمال الرياضية التي تقوي الأبدان وتعوّدها النّظام وتكسب النفوس صفة الشّجاعة والثّبات والإقدام"⁽¹⁾، والحقيقة أنّ الإمام ما أراد من الرياضة إلّا هذه الجمل الأخيرة (النّظام/ الشّجاعة/ الثّبات/ الإقدام)، وهذه كلّها وقود للجهد الذي كان الإمام يُعدّله الأُمّة الجزائرية ضد عدوها الفرنسي.

ب/ الألعاب الرياضية رُقّي للأُمم الحيّة: فالإمام يرى بأنّه "لم تبق أُمّة راقية أو ساعية في سبيل الرّقي لم تعتن بالألعاب الرياضية لما فيها من تقوية البدن والعقل وتكوين رابطة الأخوة وإيجاد روح العمل والنّشاط والتّعاون"⁽²⁾، هنا يبيّن نوع الرياضة التي يدعوا إليها، والتي يمكنها أن تنهض بالأُمم وترقى بها؛ وهي الرياضة التي تقوّي البدن والعقل معاً في الممارس لها، كما أنّها تكون رابطة الأخوة بين الأفراد، وتساهم في إيجاد روح العمل والنّشاط والتّعاون.

(1): المصدر نفسه، (مج 05/ ص: 161).

(2): المصدر نفسه، (مج 05/ ص: 192).

فالرياضة عند الإمام ليست مجرد ممارسات بدنية، أو أفعال مجردة عن القيم والمبادئ، بل الرياضة عند الإمام قوة معنوية وروحية، وعامل للنشاط والارتقاء والسمو الروحي والبدني، ولا شك أنّ كلّ هذه القيم هدفها البعيد هو القيام للمستعمر بالجهاد والمنازلة.

ج/ الألعاب الرياضية أصل من أصول السعادة: تحدّث الإمام ابن باديس عن أصول السعادة، والتي أوردتها في خمسة أشياء، " هذه الأشياء هي الصّحة والرّجاء والأمل والعمل والوقت"⁽¹⁾، وقد أولى الصّحة البدنية اهتماما بالغاً، ذلك أنّه " لا يستطيع أحد أن ينهض بعمل جليلاً يقوم بأمر خطير أو يتلذّذ بأطيب الحياة أو ينعم بخيراتها، إلّا إذا كان متمتّعاً بنعمة الصّحة البدنية، فما قيمة أموال العالم بأسره عند من كان معوداً أو مصدوعاً؟... فيا أيها الشاب الدّاخِل في معترك الحياة! حافظ على هذه الأصول الخمسة تظفر في حياتك بالسّعادة والهناء والمستقبل العظيم"⁽²⁾.

- الدّعوة إلى العناية بأصول الحياة البدنية: لقد دعا الإمام في درسه الحديثي إلى العدل بين أصول الحياة البدنية، التي حصرها الإمام في ثلاث حسبما ورد في السّنة النبوية، وهي (الطعام/ الشّراب/ النفس)، وقد قال موصياً: " فليقف دون الشّبع ولا يملأ كلّ الملاء المعدة حتّى لا تثقل حركتها في الهضم، وحتّى لا تنتفخ في البطن فتسدّ مجاري النّفس، وبذلك يكون قد عدل بين أصول الحياة البدنية الثلاث؛ طعامه وشرابه ونفسه، فأعطى كلّ واحد الثّلاث من بطنه"⁽³⁾.

وقد أشار الإمام إلى نفسه في هذا المجال، وذلك بكلّ تواضع وهضم للنّفس، وذلك عند قوله: " ونعتقد عن تجربة أنّ الرّجل لا يهلك عن نصف قوته"⁽⁴⁾، وذلك أنّ الإمام رغم استطاعته الأخذ ممّا لذّ وطاب، إلّا أنّه كان يكتفي باليسير القليل الذي يسدّ به الرّمق فقط، ممّا هو عند عموم الأُمّة.

- العناية بتغذية البدن تربية وبقاء: لقد نبّه الإمام إلى أنّ الاعتناء بهذا الجانب ليس مجرد هو أو لغو، بل هو تربية وضامن من ضمانات البقاء للأُمم، خاصّة تلك التي حوصرت مواردها، وسلبت قدراتها، فعوض أن تستسلم للهلاك، واجبها أن تصارع وتغالب من أجل البقاء، وقد قال الإمام ابن

(1): المصدر نفسه، (مج 05 / ص: 248).

(2): المصدر نفسه، (مج 05 / ص: 248-250).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 143).

(4): المصدر نفسه.

باديس في هذا المعنى: "بهذه التربية استطعنا أن نبقي ونعيش في مثل ما عليه حالة معظم الأمة الجزائرية من الفاقة والعوز والجوع والمسغبة... وكما ربّانا الإسلام على هذه التربية من ناحية الغذاء فقد ربّانا تربية أخرى من نواحي أخرى" ⁽¹⁾.

يجب أن نشير في آخر هذه العجالة؛ إلى القيمة العلمية لهذه النصوص، لما تمثله من أدلة تؤرّخ لمرحلة تاريخية صعبة من حياة الأمة الجزائرية، ففيها إشارات قوية إلى الواقع الذي عاشته الأمة الجزائرية.

الفرع الثاني / الدعوة إلى إصلاح الأوضاع الاجتماعية :

رغم علاقة هذا الجانب من الإصلاح بالمقاصد الأخرى التي تناولها الإمام في درسه الحديثي، إلا أنه لا بأس من الإشارة إلى أهم مظاهر الإصلاح الاجتماعي، وأهمها:

أ/ أهم مظاهر الإصلاح الاجتماعي في الدرس الحديثي: سأطرق هنا لأهم المظاهر الاجتماعية التي دعا الإمام لإصلاحها، وتعاهدا بالعناية والمتابعة:

- **الدعوة لرعاية المسؤوليات في المجتمع**: لقد دعا الإمام أفراد المجتمع لتحمل مسؤولياتهم تجاه الأمة، وعدم التساهل أو التقاعس عن هذا الواجب المتعين على كلّ أحد، ولعلّ أعظم المسؤوليات هي النيابة عن الأمة، هؤلاء النّوّاب الذين دعاهم الإمام للدّفاع عن الحاجات الاجتماعية للأمة، فعند الإمام "كلّ من تولّى أمرا من أمور الأمة فهو من رعاتها المسؤولين عنها... على أي وجه كانت تلك الولاية من الوجوه التي تختلف باختلاف الأمم وأوضاعها، ومما هو من أعظم الولاية على الأمة اليوم بحسب وضعها النيابة عنها، والتكلم بلسانها من أدنى درجات تلك النيابة إلى أعلاها، فليعلم هذا من يتقدّم لهذه الولاية" ⁽²⁾.

- **الإصلاح الاجتماعي ضروري للحياة**: نبّه الإمام الاستعمار الفرنسي إلى أنّ الأمة الجزائرية ليس همّها بطنها فقط، بل تسعى لكلّ مجالات الإصلاح؛ بما فيها الإصلاح الاجتماعي، ومن ذلك قوله: "لا يا قوم إنّنا أحياء وإنّنا نريد الحياة وللحياة خلقنا، وأنّ الحياة لا تكون بالخبز وحده، فهناك ما علمتم من مطالبنا العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وكلّها ضروريات للحياة، ونحن

(1): المصدر نفسه.

(2): المصدر نفسه، (ص: 124).

نفهم جيّدا ضروريّتها للحياة... إن كنتم منصفين وللاّيام والأُمم مقدّرين، وإلّا فالله يحكم بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين"⁽¹⁾.

- الدّعوة للمحافظة على الصّحة العموميّة: لقد وصل الإمام إلى حدّ الدّعوة إلى المحافظة على الصّحة العموميّة، والحرص على التّنظيف واجتناب الأقدار، وقد دعا إلى هذا الجانب بأسلوب راقٍ، كما استطاع ربط الموضوع بالحديث الشّريف، وجعله عنواناً على التّمدّن والحضارة، وذلك عند قوله: "من أحسن المصالح التي يقوم عليها اجتماع النّاس في التّمدّن الحاضر وألزمها مصلحة التّنظيف في الإدارات البلديّة، وأنت ترى أنّ الأحاديث النّبويّة المتقدّمة قد انتظمت ذلك التّنظيف بالترّهب من التقدير وكلّ مؤذٍ، والترّغب في إزالتها، فوضع الإسلام بذلك أصل هذه المصلحة قبل أن يعرفها تمدّن اليوم، فعلى المسلم أن يلتزم ذلك كأمر دينيّ يثاب عليه عند ربّه، ليكون دافعه إلى القيام به من نفسه، ورقبيه في تنفيذه ضميره الدّيني وإيمانه"⁽²⁾، وقد خاطب الإمام هنا في الأُمّة إيمانها وامتثالها للقرآن الكريم والحديث النّبويّ، كما دعا المسلم للالتزام بدافع دينيّ مع احتساب الأجر والثّواب عند الله تعالى، واستحضار رقابة الله تعالى.

ب/ آثار المقاصد الإصلاحيّة عند الإمام ابن باديس: لا بأس أن نختم هذا المبحث بأهمّ الآثار التي وصلت إليها المساعي الإصلاحيّة للإمام ابن باديس، والمظاهر العامّة التي تميّز بها هذا الجانب:

- الجمع بين العلم والعمل، والتّطبيق والتّنظر: سعى الإمام إلى الجمع بين التّنظير والتّطبيق، ولهذا كان للإمام إضافات مهمّة في المجتمع، "وكانت إضافاته عمليّة أكثر منها نظريّة، لأنّ الإسهام الذي قدّمه ابن باديس... أكثر مما كان نتيجة تفلسف نظريّ وبحث في التجريد"⁽³⁾، وللإشارة أكثر إلى منهج الإمام في الإصلاح الاجتماعي لا بدّ من الإشارة إلى أنّه "لم يضع ابن باديس قواعد منهجه الإصلاحي في صورة نظريّة بحثة أو نسق فلسفيّ على نحو واقعي أو مثالي، بل وضع تصورا ممكنا لإصلاح الإنسان والمجتمع وكيفية الجمع بين القول والعمل في إطار الأسس العامّة للتّفكير العلمي

(1): المصدر نفسه، (ص: 144).

(2): المصدر نفسه، (ص: 148).

(3): الميلي، محمّد، المصدر السّابق، (ص: 11).

والعملي التي يجب أن تسلك لتحقيق الوعي المطلوب"⁽¹⁾، وهذا ما سمح للإمام بنقل منهجه ونشره بين عموم المجتمع، كما يرجع ذلك إلى الحكمة التي يتحلّى بها، والتي تتجلّى في قوله وفعله، أو علمه وعمله، "والعلم ثمرته العمل، والعلم والعمل مناط الفاعليّة، إذ لا سداد بلا علم، ولا حكمة بلا عمل، بل لقد كان يرى أنّ الحكمة ما هي إلّا تجسيد لمبدأ العلم والعمل"⁽²⁾.

- السعي للفاعليّة ومنازمة الزيف والمظهرية: من أهم أسباب نجاح الإصلاح الباديسيّ البحث الدائم عن الفاعليّة، حيث "كان طريق ابن باديس معاكسا لما هو زيف، متجذرا في تربة الخلوّص، يراهن على مطمح أشمل، أن تحيا الأمة"⁽³⁾، وقد تجسّدت العبقرية الباديسية في هذا الجانب، وذلك ظاهر "في اختيار الإطار الإصلاحيّ الأمثل الذي يكفل العمل المثمر وإفادة الأمة على أوسع نطاقات الإفادة في بثّ الوعي المليّ... كما تميّزت خصوصيّة اللافتة للانتباه، بكونه تجاوز صور وأشكال العمل التقليديّة ليتبع الصيغة الأقدر على التّغيير الهادئ، لأنّ الإطار الإصلاحي رجّح العامل النوعي على الكميّ، إذ بالكيف نستصلح الكمّ"⁽⁴⁾.

- إدراك الأمور على حقيقتها: وهذا مهمّ لمن أراد وصف الدّواء الصّالح والنّاجع، إذ للتّوصيف أثر كبير في تشخيص المرض، ولهذا نجد الإمام يصف المجتمع بدقّة وموضوعيّة عزيزين، ولهذا حرص أشدّ الحرص على "إدراك صفات الشيء على ما هي عليه من حسن وقبح إدراكا صحيحا والشّعور بها كذلك شعورا صادقا، والتّصوير لها تصويرا مطابقا، بالتّعبير عنها بعبارات بليغة في الإبانة والمطابقة للحال"⁽⁵⁾، لا يخفى ما في هذا الكلام من الدّقة التّعبيريّة، والقدرة على الدّلالة على المطلوب، خاصّة عند إشارته إلى قضية التّعبير عن الواقع بالعبارات البليغة، لكن شرط أن تكون هذه العبارات مطابقة للحال، بعيدة عن المبالغات والمزايدات التي يمكن أن تصير معبّرة عن أحوال نفسيّة، وليس عن ملابسات واقعيّة، وهذه هي الموضوعيّة وإلّا فلا.

(1): د/ عبد الحميد درويش النّساج، المصدر السابق، (ج 02، ص: 05).

(2): أ/ د عشراي سليمان، المصدر السابق، (ج 02 / ص: 262).

(3): المصدر نفسه، (ج 01 / ص: 17).

(4): المصدر نفسه، (ج 01 / ص: 10).

(5): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 276).

- تنوع وسائل الإصلاح الاجتماعي: حرص الإمام على تنوع وسائل الإصلاح، وقد لجأ إلى هذا التنوع حرصاً على مسّ كلّ طبقات وفئات المجتمع الجزائري، ذلك أنّ كلّ وسيلة تمسّ فئة من الفئات، وبمجموعها تمسّ كلّ المجتمع، " وهكذا كان ابن باديس لا يترك وسيلة من الوسائل ولا ميداناً من الميادين إلّا وتدخل فيه على أساس توجيهه ضدّ الاستعمار لإحباطها في كلّ الميادين"⁽¹⁾، كما لجأ الإمام إلى هذا التنوع لإدراكه أنّ " أيّ عمل إصلاحي جاد ينبغي أن يستند إلى أهداف واضحة وغايات محدّدة، إضافة إلى اعتماد وسائل ملائمة، وإلّا ضاعت الجهود وسط متاهات اللاوضوح"⁽²⁾، ووسائله معروفة مشهورة، خاصّة الصحافة المكتوبة⁽³⁾.

- العناية بالخطاب الإصلاحي وتقريبه للمجتمع: لقد اشترط الإمام على المصلح الذي يريد أن يصل إلى المجتمع ويؤثّر في أفرادهِ " أن ينظر إليهم بعين الشفقة والحنانة لا بعين الرّزية والاحتقار، فإنّ الشّفوق تدفعه شفقتَه إلى المبالغة في العناية بتتبّع الأدواء واستقصاء أنواع العلاج... تشعر نفوس الأُمّة منه بتلك الشّفقة فتقابله بمثلها، وبالامثال لما يأتيها منه لمعالجتها واثقة منه بنصحه منقادة لإرشاده راجية نيل الخير على يده... على مرشدي المسلمين أن يعانون أدواءهم بالعلاجات النّافعة... بالعبارات الرقيقة المؤثّرة، في رفق وهودة مجتنبين كل ما فيه تقنيط أو تشبيط"⁽⁴⁾، ولا يخفى ما في هذا الأسلوب من تأثير وقدرة على الوصول إلى أبعد نقاط المجتمع.

إنّ ما تمّ الإشارة إليه في هذا المبحث يمكن اعتباره بمثابة لمحات وومضات فقط، وإلّا فإنّ المقاصد الإصلاحيّة التي نحى إليها الإمام في درسه كثيرة عديدة، كما يمكن في الأخير تفنيد وإبطال كلّ المزاعم التي تحاول حصر جهود الإمام عبد الحميد ابن باديس في مقاومة البدع والخرافات فقط، بل يمكن القول بأنّ المنهج الإصلاحي الباديسيّ منهج متكامل ومتنوّع، وذلك لتنوّع وكثرة المجالات والميادين التي قصدها في درسه الحديثي بالإصلاح والتّقويم.

(1): الميلي، محمّد، المصدر السابق، (ص: 69).

(2): عمار بن مزوز، المصدر السابق، (ص: 116).

(3): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03 / ص: 281). وزروقة، عبد الرّشيد، المصدر السابق، (ص: 185).

و محمد الصالح الصديق، نماذج للاقتداء، (ص: 23).

(4): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 81).

المبحث الثاني: المقاصد والأهداف التربوية.

تعدّ المقاصد التربوية من أهمّ المقاصد التي رام إليها الإمام في درسه الحديثي، وهذا نابع من قناعتنا بأنّ جهد وجهاد الإمام ابن باديس كان شاملا ومتعدّدا، ولا يختلف اثنان أنّ أيّ سعي يهمل التربية والتعليم هو ضرب من العبث، ومضيعة للوقت والجهد لا طائل منه.

وقد "كان الجهاد العلمي التربوي الإصلاحي، هو المعتمد في خطّة ابن باديس الجهادية التغييرية، على حساب الجهاد السياسي الحزبي المعروف"⁽¹⁾، وقد أولى الإمام هذا الجانب اهتماما بالغا، بل أفنى فيه عمره وجهده، وذلك لعدّة مقاصد أهمّها:

- التربية هي أساس البناء والتشييد الحضاري للأمم، وبالتربية فقط يمكن للأمراض والأسقام أن تتعافى، ولظلمات الجهل أن تنجلي وتنقشع.
- بالتربية والتعليم تُحفظ المبادئ والقيم، وتُصان المقوّمات التي عليها وبها تقوم الشعوب والأمم، وتُبلّغ للأجيال حتّى لا تُنسى الجذور، ولا تطمس الرسوم.
- التربية أصل من أصول الإسلام، وعماد من أعمدة دعوة النبي ﷺ، فالنبي ﷺ ما بعث إلّا معلّما ومربّيا للخلق، والإمام ابن باديس اختار الطّريقة النبوية في دعوته وجهاده.
- التربية والتعليم مكافحة للفساد والرذيلة، ودعوة إلى الأخلاق والفضيلة، وبهما يُعرف الخير من الشرّ، والحقّ من الباطل، فلا يستطيع أحد أن يلبس على الأمة أمرها.
- كثير من الدّعوات الإصلاحية والمسااعي التجديدية في الإسلام؛ ما كسبت القبول والتّوفيق، وكتب لها النّجاح والانتشار، إلّا باتّخاذها للتربية والتعليم وسيلة لتحقيق أهدافها، ما يعني أنّ كلّ الوسائل الأخرى فيها نسب من النّجاح، إلّا التربية فإنّها نجاح كلّها.
- قدرة التربية والتعليم على الوصول إلى كلّ فئات الأمة وطبقاتها، وهذا هو غاية كلّ مصلح وداعية، خاصّة الناشئة منهم؛ وذلك لما لهذه الفئة من الاستعداد الفطري، والقدرة على الإدراك والاستيعاب، عكس الوسائل الأخرى ذات الانتشار المحدود، والفعالية الضّعيفة، أمّا التربية والتعليم فهما عماد الأمم، ومُبلّغا القمم، والموجّهان للنفوس والهمم.

(1): زروقة، عبد الرّشيد، المصدر السابق، (ص: 197).

المطلب الأول: تفعيل التربية الإسلامية والتعليم .

إنّ الإمام ابن باديس لم يختَر التربية والتعليم في خطّته الإصلاحية، إلّا لقناعته التامة بقدرة هذه الأخيرة على الوصول وتحقيق أهدافه ومقاصده التي كان يسعى إليها، والوسيلة التي لها القدرة والفعالية لتحقيق مقاصده هي التي لها الحقّ عند الإمام في تبوّء المكانة الرّاقية، وتقديمها على الوسائل الأخرى، فما هي المكانة والمقاصد التربوية في الدرس الحديثي عند الإمام ابن باديس؟.

الفرع الأول/ مكانة وأهداف التربية في الدرس الحديثي عند الإمام ابن باديس :

للتربية في الدرس الحديثي عند الإمام مكانة رفيعة وأهداف سامية، وهنا سنتعرّض لمكانة التربية عند الإمام، كما سنبرز أهمّ هذه الأهداف التربوية في درسه الحديثي:

أ/ مكانة التربية في الدرس الحديثي عند الإمام ابن باديس: لقد تبوّأت التربية مكانة عالية في الدرس الحديثي الباديسي، وقد تجلّى ذلك واضحاً في النّواحي التالية:

- الإمام ابن باديس المربي والمعلّم: لقد كان الإمام ابن باديس يعتزّ بانتظامه في سلك المعلّمين، بل كان يصرّح ويقول -باعتزاز وافتخار-: "عُدوني دائماً من المعلّمين، فوجودي في الأندية الأدبية والسياسية والاجتماعية الشعبية، ومجالات الدّعوة الإصلاحية والصّحافية وغيرها لا يسلبني صفة المعلم ولا يعوقني عن حبّ مهنة التربية والتعليم"⁽¹⁾، وقد ترجم الإمام هذا الحبّ عملياً بأسمى عبارات الترجمة واختار لها أبلغها وأعلاها، ولهذا "بادر ابن باديس إلى إرساء منظومة تربوية تعليمية تراعي ما هو متاح من إمكانيات ماديّة وبشريّة وتتوافق مع الأهداف المرجوة منها"⁽²⁾.

لقد شغل هذا الجانب مجالا واسعا من جهد وجهاد الإمام، وحتى لا نقع في المبالغات نجده قد قال هو عن نفسه: "إنني قصرت وقتي على التّعليم فلا شغل لي سواه"⁽³⁾، وما سلك الإمام هذا المسلك إلّا لإدراكه التّام بمدى صلاحية هذا الجانب لتحقيق مقاصده وأهدافه المسطرة، خاصّة على المدى البعيد منها، ولهذا "يعتبر جانب المعلّم والمربي، من أبرز جوانب ابن باديس وأقواها فقد وقف على

(1): محمد الصالح الصديق، نماذج للاقتداء، (ص: 18).

(2): الجيلاني ضيف، المصدر السابق، (ص: 56).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03 / ص: 520).

التربية والتعليم معظم نشاطاته، وأنشأ بقسنطينة «مدرسة التربية والتعليم» التي كان يشرف عليها، في نفس الوقت الذي كان يشرف فيه على دروس التعليم المسجدي بالجامع الأخضر⁽¹⁾، نجد في هذا المجال استعمال المصطلحات الاستغراقية، مثل: (القصر / لا شغل لي سواه/ وقف...) .

- من ملامح المعلم المصلح عند الإمام ابن باديس: إن أي عملية تعليمية لن تكون ذات جدوى إلا بصلاح طرفيها؛ المعلم والمتعلم، بل أي خلل فيها قد يجرّ إلى نتائج عكسية وخيمة، لهذا دعا الإمام المعلمين والمدرّسين إلى التضرّع بهذه المهمة النبيلة والخطيرة معًا، وقد قدّم الإمام الكثير من التوجيهات العملية والنظرية للمعلمين.

من بين التوجيهات العملية؛ حرص الإمام على التقرب من تلاميذه ومسايرتهم حسب السن والاستعدادات المعرفية، ولهذا " لم يكن الإمام ابن باديس مجرد أستاذ، بل كان أبا لكبيرهم، وأبا لصغيرهم، ورفيقا لمن قارب سنّه سنّه "⁽²⁾.

ومن القضايا التربوية؛ دعوة الإمام المعلمين لتقوية الاتصال بينهم وبين طلابهم، وأن ينفخوا فيهم من روحهم العلمية والأخلاقية، وقد قال الإمام -متحسّرًا-: "أغلب المعلمين في المعاهد الإسلامية الكبرى كالأزهر لا يتصلون بتلامذتهم إلا اتصالاً عامّاً لا يتجاوز أوقات التعليم، فيتخرج التلامذة في العلوم والفنون ولكن بدون تلك الروح الخاصة التي ينفخها المعلم في تلميذه -إذا كانت للمعلم روح- ويكون لها الأثر البارز في أعماله العلمية في سائر حياته... فعلى المعلم الذي يريد أن يكون من تلامذته رجالاً أن يشعرهم -واحداً واحداً- أنّه متّصل بكل واحد منهم اتصالاً خاصّاً زيادة على الاتصال العام "⁽³⁾.

ومن الوصايا الباديسية النادرة؛ دعوته المعلمين للتخلي بـ: «الكفالة الأبوية الروحية»، كون هذه الأخيرة يمكنها إيجاد العاطفة الصادقة في الجوّ التعليمي، وحتى لا تكون العملية التربوية جافة وجرداء، وتحقق هذه الكفالة المميزة بعناية المعلم بتلميذه "عناية خاصة في سائر نواحي حياته حتى

(1): الميلي، محمد، المصدر السابق، (ص: 129).

(2): مطبقاني، مازن صلاح، المصدر السابق، (ص: 54).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04/ ص: 202).

يشعر كل واحد منهم أنه في طور تربية وتعليم في كفالة أب روعي يعطف عليه ويعني به مثل أبيه أو أكثر⁽¹⁾.

كما دعا الإمام في درسه الحديثي المعلمين لرفع سقف الأهداف والمقاصد، بتكوين رجال ونساء يصونون الأجيال، ولن يتحقق هذا إلا بسعي المعلمين " لأبنائنا وبناتنا أن يعلموهم ويعلموهن هذه الحقائق الشرعية ليتزودوا ولتزوّدن بها، وبما يطبعهم ويطبعهن عليه من التربية الإسلامية العالية لميادين الحياة فيكونوا ويكنّ -إن شاء الله تعالى- مثال الطهر والعفاف والصّون للأجيال⁽²⁾.

- اختيار أشرف البقاع للعملية التربوية: إذا كان للتربية ميدانها ومجالها، فقد اختار الإمام لها أشرفها وأعتقها في هذا المجال: « المسجد »، وقد حاول البعض جعل هذا الاختيار أنياً وظرفياً باعتبار غياب المدارس الحديثة، لكن هذا بعيد كل البعد عن الحقيقة التي ستتجلّى في العناصر التالية:

أ/ المسجد والتعليم صنوان في الإسلام: ذلك أنّ الإمام يرى بأنّ " المسجد والتعليم صنوان في الإسلام من يوم ظهر الإسلام، فما بنى النبي -صلى الله عليه وسلّم- يوم استقرّ في دار الإسلام بيته حتّى بنى المسجد، ولما بنى المسجد كان يقيم الصلاة فيه ويجلس لتعليم أصحابه، فارتبط المسجد بالتعليم كارتباطه بالصلاة، فكما لا مسجد بدون صلاة كذلك لا مسجد بدون تعليم، وحاجة الإسلام إليه كحاجته إلى الصلاة، فلا إسلام بدون تعليم"⁽³⁾، ولهذا ليس من الدقة القول بأنّ الإمام " قام بتحويل المساجد إلى مؤسسات تربوية تعلّم أفراد المجتمع اللغة وحقائق الدين ومبادئ العلوم"⁽⁴⁾، ذلك أنّ المساجد مؤسسات تربوية أصالة، فالإمام قام باستغلالها ولم يرقم بتحويلها.

ب/ لفت انتباه الأمة إلى المساجد: حتّى يعيد الإمام المساجد إلى مهمّتها الأساسية، كان يستغلّ الفرص المتاحة للفت انتباه الأمة إلى هذه الرّباطات العلمية، والمؤسسات القومية، ومن أمثلته المعبرة قوله: " كنت أزور في الأكثر قبل كلّ شيء المسجد لأنّ البداءة به هي السنّة، ولألفت نظر الأمة إلى

(1): المصدر نفسه.

(2): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 174).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03/ ص: 225).

(4): د/ عبد الحميد درويش السّاج، المصدر السابق، (ج 02، ص: 89).

حرمة المسجد وفضله وأنه هو الأحق بأن يقصد⁽¹⁾، والبداية هنا ليست بداية فعلية ومادية فقط، بل قرأها البعض قراءة إشارية، حيث جمع بين البداية العلمية والعملية، أو النظرية والتطبيقية، وذلك عند قوله: "أمّا ابن باديس ورفاقه... فإنهم بدءوا من البداية: أي من المسجد، إذ لا بدّ من مباشرة التعليم باعتباره مطلباً عاجلاً، ريثما تتوفر الأسباب والوسائل لتشييد مدارس حرّة، واختير المسجد كأنسب مكان للقيام بمهمّة التدريس"⁽²⁾.

ج/ المسجد الأخضر: لقد كان هذا المسجد من أكثر المساجد التي درّس وعلم وربّى فيها الإمام ابن باديس، وقد كان قلعة من قلاع العلم والتربية في الجزائر، " ولم نذكر الجامعات الإسلامية كالزيتونة والقرويين والحرمين... أمّا الجامع الأخضر فإنّه شابه هذه المعاهد بروح ابن باديس وفكره... ولا تحسبنّ ما وصفنا به مدرسة ابن باديس مبالغة أو إعجاباً عاطفياً، فإنّ الطالب حين يلتحق بالمسجد الأخضر يجد نفسه في مؤسسة تعليمية تحرص عليه علمياً وأخلاقياً واجتماعياً ومادياً حرص والديه أو أكثر"⁽³⁾، كما كان هذا المسجد مركزاً من مراكز الدرس الحديثي الباديسي.

- الرجوع بالتربية والتعليم للنموذج النبوي: يرى الإمام ابن باديس بأنّ أحسن وأرقى نموذج تربويّ هو ذاك النموذج النبوي، الذي تمثّلت التربية في قلبه في أسمى صورها وأحقّها بالتقديم والامثال، وذلك أنّه " لن يصلح هذا التعليم إلّا إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله وموضوعه، في مادته وصورته، فيما كان يعلم -صلى الله عليه وآله وسلّم- وفي صورة تعليمه... فماذا كان يعلم وكيف كان يعلم؟"⁽⁴⁾.

ب/ أهداف التربية عند الإمام ابن باديس: إنّ للتربية أهدافاً وغايات كثيرة عند الإمام ابن باديس، وهذه الكثرة غير مستغربة إذا استحضرنّا مكانة التربية عنده، فلا شكّ أنّها ما قدّمت على غيرها إلّا لما كان يُرجى منها أن تحقّقه، ولعلّ أهمّ هذه الأهداف ما يلي:

- استمداد الأهداف التربوية عند الإمام ابن باديس: إنّ رسم الأهداف ليس أقلّ صعوبة من

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04 / ص: 317).

(2): د/ بوعلام بسايح، المصدر السابق، (ص: 257).

(3): مطبقاني، مازن صلاح، المصدر السابق، (ص: 53).

(4): د/ عمار طالبي، ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 01 / ص: 103).

السعي إليها، فكثيرا ما يسعى الإنسان ويجد ويكد لكن في النهاية يجد الهدف وهمياً أو هامشياً، فيضيع الجهد والوقت، وتضيع الغاية والمقصد، "إن ابن باديس يعتبر من المربين الإسلاميين، وهو يستمد أهدافه من أهداف التربية الإسلامية من ناحية، ومن الحالة الاجتماعية التي عليها المجتمع الجزائري من ناحية أخرى"⁽¹⁾، ولا يخفى ما في هذا الاتجاه من التنوع والغنى في الأهداف والمقاصد.

- **الاتجاه إلى التلاميذ والطلاب بال العناية والرعاية:** وذلك باعتبارهم أهم حلقات العملية التربوية التعليمية، وقد كان الطلبة بالنسبة للإمام "أغلى ما عنده، يجتهد لراحتهم ويشقى لأجلهم، وقد أخذ عنه خلق كثير لا يحصون"⁽²⁾، وقد تجلّت هذه العناية في كثير من الجوانب، منها ما سيذكر فيما يلي.

- **نشر التهذيب والوسطية:** لم يكن الإمام يريد مقابلة التعصب الاستعماري بتعصب آخر، بل أبان عن غايته من التربية بقوله: "إننا نريد أن نخرج من هذه المعاهد ناشئة مهذبة تعمل جهدها لكي تكون بعيدة عن هذا التعصب الممقوت"⁽³⁾، والتهذيب عند الإمام يتناوله بمفهومه الشامل، الذي يحيط بجميع جوانب الإنسان بالرعاية والتعاهد، وذلك أنه "ما من بالغ عاقل ذكراً أو أنثى إلا وقد جعل الله له شيئاً في رعايته، ولو لم يكن من ذلك إلا نفسه وعقله وبدنه، وأعظم بهما من شيء تجب رعايته"⁽⁴⁾، فترعى هذه الجوانب من المعلم والمتعلم معا.

- **الحث على بعث آلات البحث والتفكير:** هذه الآلات التي سعى المستعمر بآلات التخدير والتجهيل على تعطيلها، وإيقافها عن تأدية مهامها الضرورية للبقاء الكريم، ولهذا صرخ الإمام في طلبه العلم قائلاً: "فالتفكير التفكير يا طلبة العلم فإن القراءة بلا تفكير لا توصل إلى شيء من العلم، وإنما تربط صاحبها في صخرة الجمود والتقليد، وخير منهما الجاهل البسيط"⁽⁵⁾، وهذا حتى لا يقف الطالب عند القراءة المجرة من التفكير والنظر، هذه الأخيرة التي بمعولها تنكسر صخرة الجمود والتقليد الممقوتين.

(1): المصدر نفسه، (مج 01 / ص: 102).

(2): لحسن بن عليّة، المصدر السابق، (ص: 54).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03 / ص: 304).

(4): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 122).

(5): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04 / ص: 205).

- محاربة الجهل والأمية بين طبقات الأمة الجزائرية: لطالما تحالف الجهل والامية معاً لقتل الأمم ووأدها حية، ولكن الإمام أدرك أن هذا التحالف مهزوم ومدحور بتحالف التربية والتعليم، كما كان الإمام يرى بأنه "إذا كان يموت من أبناء الجزائريين أربعون في المائة موتاً جسدياً، فإنه يموت منهم نحو الألف في الألف موتاً فكرياً، فما نلاقه من داء الجهل أكثر مما نلاقه من داء الموت" (1).

كما تحدّث الإمام بمرارة عن داء الجهل الذي فتك بفئات واسعة من الأمة، وبأنه ما كان يدعوا في رحلاته القطرية إلا لمحاربة أسباب الجهل والامية، قال الإمام: "وما كنت أدعوهم في مجالسي إلا لتوحيد الله والتفقه في الدين، والرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله، ورفع الامية" (2).

- اجبارية التعليم ووجوبه: إذا كانت الامية والجهل موتاً للأمم وقتلاً لها، فإن العلم هو الترياق والعلاج الصحيح لهذه الآفات، وإذا عمّ الداء وطمّ، فلا بدّ من تعميم العلاج، ولهذا كان يرى الإمام أن "العلم ينبوع الحياة وأساس كلّ تقدّم، فلا تهدأ خواطرنّا ولا تطمئنّ قلوبنا حتّى نراه إجبارياً على الجزائريين، كما هو إجباري على كلّ الأجناس الأخرى من سكّان القطر" (3).

كما حرص الإمام على عدم إهمال العامة من الناس ممن فاتهم الالتحاق بالمدارس، ووجه إلى وجوب تعليمهم في دروس المساجد وتكوين طبقة من « العامة المتعلّمة »، وذلك لأهمية تعليمهم وتنقيفهم، ف"إذا كانت المساجد معمورة بدروس العلم فإنّ العامة التي تتاب تلك المساجد تكون من العلم على حظّ وافر، وتتكوّن منها طبقة مثقّفة الفكر، صحيحة العقيدة، بصيرة بالدين فتكمل هي في نفوسها ولا تهمل -وقد عرفت العلم وذائق حلاوته- تعليم أبنائها... " (4).

- ماهية التعليم المطلوب: لقد بيّن الإمام نوعيّة التعليم الذي يرمي للوصول إليه وتحقيقه، التعليم الذي يمكنه أن يحقّق الأهداف والمقاصد، ويضمن المبتغى، هو " التعليم الذي ينشر فيها الحياة، ويبعثها على العمل، ويسموا بشخصيتها في سلّم الرقي الإنساني، ويظهر كيانها بين الأمم" (5).

(1): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05 / ص: 64).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04 / ص: 297).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05 / ص: 136).

(4): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04 / ص: 252).

(5): المصدر نفسه، (مج 04 / ص: 359).

- غلق الطريق أمام المخططات الاستعمارية: لقد قصد الإمام من وراء إنشاء مدارس التربية والتعليم إلى محاربة الآفات الاستعمارية، وجعل " المدارس العربية تسدّ الطريق في وجه الاتجاه الإلحادي الفرنسي، الذي يريد أن يجعلنا قردة لا مسلمين ولا جزائريين"⁽¹⁾، وقد عملت هذه المدارس في محاربة المسخ الاستعماري، ولهذا " جعل ابن باديس من التعليم أقوى سلاح في وجه فرنسا، وإذا كان السلاح التقليدي يمكن العثور عليه ومصادرته، فإنّ سلاح العلم تتحصّسه ولا تلمسه، تخشاه ولا تراه، ومن هنا كانت خطورته التي لم تفتن إليها فرنسا إلا بعد فوات الأوان"⁽²⁾. ولن نبالغ إن قلنا بأنّ هدف الإمام من التربية والتعليم هو تحرير العقل والأرض، خاصّة بعد اقتناعه التام " من أنّ السياسة والثورة والجمهير الشعبية كلّها وسائل لا تحقّق شيئاً من التحرير الوطني، وأنّ التعليم هو وحده الذي يحقق هذه الغاية وإن استغرق من الوقت أجيالاً وأجيالاً"⁽³⁾.

الفرع الثاني / معالم وأصول التربية الإسلامية عند الإمام ابن باديس :

لم يتحدث الإمام ابن باديس عن التربية كعنوان عامّ فقط، بل رسم لها الكثير من المعالم والخطط التي يمكن أن تبث فيها الفاعليّة المطلوبة، كما أشار إلى الكثير ممّا يمكن اعتباره أصولاً للتربية الناجحة، ولهذا "يمكن القول بأنّ ابن باديس اتخذ التربية وسيلة للإصلاح الثقافي والاجتماعي والسياسي، لأنّ الأهداف التربوية عنده تشمل ذلك كلّ"⁽⁴⁾.

أ/ معالم التربية عند الإمام ابن باديس: لقد أشار الإمام إلى الكثير من معالم التربية الصحيحة، ونحن هنا سنشير إلى أهمّ هذه المعالم وأظهرها في تراثه ودرسه، ومنها:

- العناية بفئة الشباب: إنّ التربية تؤتي أكلها مع جميع فئات المجتمع، لكن الإمام تفتن إلى أنّ أكثر الفئات قابلية للاستجابة لهذه التربية هي فئة الشباب، وذلك لعدّة أسباب موضوعيّة ونفسية، ولهذا " من الواجب تلبية نداء الشباب الذي هو نتيجة الماضي وزهرة الحاضر وآمال المستقبل وعدّة

(1): توفيق المدني، أحمد، حياة كفاح مذكرات، (مج 2 / ص: 28).

(2): عمار بن مزوز، المصدر السابق، (ص: 184).

(3): د/ عبد الله شريط، منهجية في بحث الفكر السياسي عند ابن باديس ومحمد عبده، عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء

والشعراء، (ص: 56).

(4): د/ عمار طالبي، ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 01 / ص: 99).

الحياة"⁽¹⁾، ولا يخفى ما يتمتع به الشباب من الحماس والقوة والانفعال، مما يمكن أن يُستغل يوما في تحرير البلاد من آلامها وتحقيق آمالها، هذا الشباب الذي كان الإمام يعرف دوره جيدا في النهوض بأثقل المسؤوليات وأعظمها، وهذا مما صدقته التجربة، ووافقه التاريخ والواقع.

- الحرص على البناء التربوي للأفراد: إن المجتمع بمئاته وآلافه وملايينه في الحقيقة ليس سوى مجموعة من الأفراد، ذلك أن " أعظم البناء وأصعبه، وأبعده وأتعبه، بناء الأمم المتهدمة، والشعوب الدائرة، وإنما تبنى الأمم من أفرادها، وتشيّد بأبنائها، وإنما الأفراد بنفوسها وعقولها، وقلوبها وسواعدها"⁽²⁾، والحقيقة أن هذه الزوايا الأخيرة كلّها معنية بالعملية التربوية الشاملة.

- بعث الفاعلية في العملية التربوية: لقد حذر الإمام المربين من إفراغ العملية التربوية من فحواها ومحتواها، كما دعا في نفس الوقت لإعطائها كلّ الزخم المعرفي والدفع النفسي والعلمي، لأنه كان في النواحي تعليم استعماري منافس، يسعى لمسح الجزائريّ مستغلا في ذلك كلّ الوسائل النفسية والتربوية في سبيل تحقيق هذا الهدف الخسيس.

ويتجلّى هذا السعي من الإمام لتفعيل التربية الإسلامية في انتقاده للكتاتيب القرآنية المتخلّفة، فقد وُجِدَتْ " كثير من الكتاتيب القرآنية يمكث فيها الولد عامين ولا يحسن كتابة اسمه، فيضعه والده في مكتب فرنسويّ فيحسن مبادئ الكتابة في شهرين، هذا واقع مشاهد وهو فتنة للناس في تركهم تعليم أولادهم العربية وشيئا من القرآن العظيم وإثمها على الجامدين المعاندين من المكتبيين"⁽³⁾.

وقد سعى الإمام في عمله التربوي عكس الواقع السابق الذي انتقده، بل رسم لنفسه خطة محكمة ألزم بها نفسه، وسعى في تطبيقها وتوصية زملائه بأن يلتزموها حتّى تكون منهجا جماعيا، عوض أن تبقى سعيًا فرديًا، ولهذا " لم تكن التربية عند ابن باديس ملء أذهان الطلاب بالمعلومات، بل تعدّتها إلى التربية المتكاملة التي تؤدّي إلى رفع مستوى الوعي الفكري والسياسي والاجتماعي والأخلاقي"⁽⁴⁾.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04 / ص: 331).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05 / ص: 369).

(3): المصدر نفسه، (مج 06 / ص: 355).

(4): مطبقاني، مازن صلاح، المصدر السابق، (ص: 55).

- الدعوة لتعلّم اللّغات الأجنبية: رغم بذل الإمام جهده لإحياء اللغة العربيّة والدّفاع عنها، إلّا أنّ ذلك لم يمنعه من الدّعوة إلى تعلّم اللّغات الأخرى، كون هذه الأخيرة كانت لسان العلوم والمعارف الكونيّة، قال الإمام ابن باديس: "العلوم في الجزائر كما أظنّها في غيرها، منها علوم تؤخذ باللسان العربي وهي علوم الدّين واللسان، ومنها علوم تؤخذ باللسان الأجنبي وهي علوم الأكوان والعمران..."⁽¹⁾، وقد اعتبر الإمام تعلّم اللّغة الأجنبية قضيّة لا بدّ من الانتباه لها، كما أبعد اللغة عن الصّراع والصّدام الذي قد يكون بين النّاطقين بها، بل يجب النّظر إلى المصلحة التي يمكن جرّها من خلال التّمكّن في لغة هذا الآخر حتّى وإن كان عدوّاً، هذا ما كان بالنّسبة للجزائري العربيّ مع لغة المستعمر الفرنسيّ، " فنحن اليوم وقد ربطت بيننا وبين أمم أخرى مصالح، علينا أن نعرف لغتهم وخطّهم، كما عليهم هم أن يعرفوا لغتنا وخطّنا"⁽²⁾، فاللغة وسيلة للاطلاع ومعرفة الآخر.

وقد بيّن الإمام مسألة اللغة وتعرّض لها بكثير من الحذر والضّوابط الدّقيقة، وذلك سعيّاً منه لاستغلال «ازدواجيّة اللّغة» في الجزائر لمصلحة الحركة الإصلاحية وليس ضدّها، " فازدواجية اللّغة ليست فقط مجرد مفجّر، بل هي أكثر من ذلك ديناميت قذف في العالم الثّقافي، وإذا كان لم ينسف كلّ شيء فإنّ انفجاره أحدث أغرب الانشقاقات..."⁽³⁾.

- تعريف الأجيال بمآثر السّابقين الفاتحين: لقد دعا الإمام المرّيين لتعريف الأجيال بسابقيهم، وربط الخلف بصالحيتهم من السّلف، خاصّة من عُرف منهم في سيرته بالشّجاعة والإقدام، من الفاتحين والمجاهدين المؤمنين، من أولئك الذين كانوا رمزا للإباء والممانعة للظّلم والخضوع والخنوع، فقد كان الإمام يأمل في الخلف من يأخذ بلواء السّلف لمواصلة مسيرة الفتح والبناء الحضاري، وقد قال الإمام في هذا المجال: " أليس من العار الفاضح علينا أنّنا نعرف من كرامات الذين نشروا (الطّريق) في الجزائر دفاتر وسجّلات، وأكثرنا لا يعرف شيئاً من مآثر الفاتحين الذين نشروا فيه الإسلام !!؟ لكن لا عجب فإنّ أولئك تُكسب باسمهم الثّروات وطلّابهم كثير، وهؤلاء تنشر

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04 / ص: 332).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 72).

(3): بن نبي، مالك، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة: د/ بسّام بركة ود/ أحمد شعبو، (سوريّة- دمشق: دار الفكر، ط/ 07،

بذكرهم الحياة، والعارفون بقيمتها في الأمم المنحطة قليل"⁽¹⁾، ونلاحظ هنا تركيز الإمام على القادة الفاتحين، إشارة منه إلى المجد الإسلامي الضائع، واستنهاضاً للهمم، وإيقاداً للعزائم الخاملة.

ب/ من أصول العملية التربوية عند الإمام ابن باديس: لقد وضع الإمام ابن باديس الكثير من الأصول والقواعد والضوابط؛ التي يرى وجوب حضورها في العمل التربوي كضامن للنجاح والفعالية، وهنا سنشير إلى أهمها مما أمكننا الاطلاع عليه، والبداية ستكون من أصلين اعتبرهما الإمام من أصول التربية، وهما:

- مراعاة علم النفس البشرية: لقد أشار الإمام في درسه الحديثي إلى وجوب اعتناء المربين بعلم النفس البشرية، وذلك من حيث الاطلاع العلمي النظري على هذا العلم، ثم تعامل المعلم مع التلاميذ من خلال ما توصل إليه هذا المجال من الحقائق النفسية الضرورية (الجانب التطبيقي)، ومن ذلك قوله: "أصل عظيم في التربية المبنية على علم النفس البشرية، فإن النفوس عندما تشعر بحرمتها وقدرتها على الكمال تنبعث بقوة ورغبة وعزيمة لنيل المطلوب، وعندما تشعر بحقارتها وعجزها تقعد عن العمل وترجع إلى أخطأ دركات السقوط..."

وهذا الأصل العظيم... يحتاج إليه كل مربٍ سواء أكان مربياً للصغار أم الكبار، وللأفراد أم الأمم، إذ التحقير والتقنيط وقطع حبل الرجاء قتل للنفوس؛ نفوس الأفراد والجماعات وذلك ضد التربية والاحترام، والتنشيط وبعث الرجاء إحياء لها، وذلك هو غرض كل مربٍ ناصح في بيته"⁽²⁾. من خلال هذا النص نجد بأن الإمام يعتبر المربي الناجح هو الذي يحيي الأموات معرفياً، والفاشل من يميئ في المتعلم استعداداته المعرفية، فشتان بين الاثنين وبعدان ما بينهما، فالأول خير وبعث وصالح، والثاني موت وبوار وطلاح.

- الشيء إذا تكرّر تقرّر: من القضايا التربوية التي أشار إليها الإمام، واعتبرها أصلاً من أصول هذا العلم، تنبيهه للمربين على وجوب الحذر من الأخلاق المتكررة من المتعلمين، فدعا المربين إلى عدم استصغار المنكرات بعدم إنكارها، أو استصغار المكارم وعدم تثمينها واستحسانها، لما لهذه

(1): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05 / ص: 61).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 82).

الجوانب من آثار في الفرد والمجتمع ككل، ذلك " أن تكرر العمل بمقتضى خلق من الأخلاق يقوّيه ويثبتّه، وأنّ العمل على مقتضى ضده يضعفه ويزيله، وهذا أصل عظيم أيضا في التربية يعلمنا أنّ التساهل في الأعمال السيئة ولو كانت في نظرنا طفيفة يفضي بنا إلى استعصاء داء الرذيلة، وأنّ القيام بالأعمال الحسنة ولو كانت طفيفة يبلغ بنا إلى رسوخ الفضيلة"⁽¹⁾.

- الجمع بين القول والعمل: من أهم ما يجب أن يُربّى عليه الناس عند الإمام ابن باديس؛ هو الحرص على السير بشئائيه القول والعمل، والمقصود هنا هو القول العلمي الثابت، والعمل البناء الصحيح، ذلك أنّ تأخر واحد منهما سيفقد العمل والجهد استقامته وتصويبه، هذا إذا لم يؤدي إلى نتائج عكسيّة مرفوضة.

وقد كان هذا التوجيه حاضرا مع الإمام حتّى في تعامله مع القرآن الكريم، ومن ذلك إشارته إلى "فضل من جمع بين تعلّم القرآن وتعليمه لغيره وأنّه خير من غيره، وإنّما ثبت له هذه المزية لأنّ المراد من متعلّمه من حفظه وفهمه وعمل به، والمراد من معلّمه من يلقّنه غيره، ويفسّره له ويرشده إلى العمل به، وإذا كان هذا النوع الممدوح في الحديث المفضّل على غيره بشهادة الصادق المصدوق مفقودا من بيننا أو كالمفقود، فالواجب علينا السعي في تكوينه، ولهذا دعونا الكتاب إلى العناية بهذا الموضوع"⁽²⁾.

وقد ذهب الإمام إلى أبعد من هذا في درسه الحديثي عندما يقرّر عدم الجدوى من ترك العمل بما يُعلم، وذلك لكون الإمام ممّن يسعون للتغيير وليس للتّنظير فقط، ومن أمثله قوله: "المجدي على المرء هو عمله، أمّا التلاوة وحدها فإنّها لا تجدي، فالمنافق يتلو القرآن ولكنّه في الدرك الأسفل من النار... والعمل بالقرآن يقتضي فهم معانيه، فيا أيّها القراء المؤمنون تطلّبوا معاني ما تقرّأون، واعملوا بما تفهمون، كي تكونوا أترجة، ويا أيّها المؤمنون الأميّون اسألوا أهل الذكر والعلم بكتاب ربّكم وتحرّوا العمل بما دعاكم إليه كي تكونوا ثمرة"⁽³⁾.

(1): المصدر نفسه، (ص: 117).

(2): المصدر نفسه، (ص: 204).

(3): المصدر نفسه، (ص: 206).

ففي هذا النص يدعو الإمام إلى القراءة ثمّ الفهم، وبعد الفهم المسارعة إلى الامتثال والعمل، ونقل النص من النظرية إلى التطبيق والعمل، ولم يغفل الإمام عن العاجز عن القراءة بسبب الأمية، حيث وصف له ما يناسبه وهو سؤال أهل العلم والذكر.

- تعميم التربية والتعليم على الجنسين: نادى الإمام ابن باديس في عديد المحافل والمناسبات بوجوب تعميم التعليم على جميع الفئات، والتعميم هنا وارد بمفهومه العام الشامل للكبار والصغار، الرجال والنساء، ذلك أنّ التعليم ليس من الفروض الكفائية، بل هو من المتعينات العينية على كلّ واحد يرفع به الجهل عن نفسه، " وليس هذا التعلّم ممّا يتعلّمه فرد واحد فيسقط عن باقي الأسرة كالتطوع في عمل جماعي ما، بل إنّهُ تعلّم محتوم، يجب على الرجال كما يجب على النساء، وهو مفروض على الأبناء كما فرض على البنات ⁽¹⁾ .

- الاعتناء بأساليب وطرق التربية والتعليم: ركّز الإمام كثيرًا على هذا الجانب، حيث حثّ المربين على وجوب اختيار الطرق والأساليب الكفيلة بالوصول إلى الطالب، والحرص على التنوع منها، واختيار ما أثبت الواقع نجاعتها، والحذر في نفس الوقت من إهمال هذه الزاوية المهمة، كون الأسلوب هو الواسطة بين المعلم والمتعلم وفشله فشل لكل العملية التربوية، وكان الإمام أول من امتثل لهذا التوجيه التربوي المهم، فقد " كان لابن باديس أسلوبه الخاص في التعليم والتدريس، لم يكن مقتنيا فيه أثر القدامى من أقطاب المدارس التعليمية التقليدية، وكانت دروسه المرتكزة على المجهود الذهني تستثير الذكاء، وتستدعي التفكير ⁽²⁾ .

في آخر هذا المطلب لابدّ من القول بأنّ ما تمّ التطرّق إليه ليس سوى إشارة مركّزة إلى هذا الجانب الغني، أمّا الاستقصاء والتفصيل فهو ممّا يصلح في دراسات مستقلة، كما يمكن الإشارة إلى بعض الملاحظات المتعلقة بالموضوع، وأهمّها:

- نجاح جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الوصول إلى نسبة كبيرة من التغطية التعليمية التربوية في الجزائر، ويمكن اعتبار النتائج ممتازة بالنظر إلى الإمكانيات المعدومة، والعدوّ

(1): د/ محمد بهي الدين سالم، المصدر السابق، (ص: 51).

(2): د/ بوعلام بسايح، المصدر السابق، (ص: 259).

المتربص، والفئات الواسعة من الأمة التي كانت محتاجة إلى هذا الدواء، فيمكن القول -دون مبالغة- بأنّ " التجربة قد نجحت على يد ابن باديس وجمعية العلماء التي وسّعت من دائرة هذا التعليم الحرّ أو الحديث، وتبنته باسم الشعب الذي ساهم فيه بحماس كبير بعد أن رأى النتائج الإيجابية التي نافست نتائج المدرسة الفرنسية، بل فاقتها في التكوين الوطني والإسلامي "(1).

- كسب الإمام ابن باديس والجمعية لرهان النوعية والكفاءة، فقد كان الهدف هو العامل النوعي وليس الكمي، كما كان العمل سائراً وفق نظرية القليل المؤثر خير من الكثير الفارغ من الفعالية، " وحسبه من المجد التاريخي أن تلامذته اليوم هم جنود النهضة العلمية، وهم ألسنتها الخاطبة، وأقلامها الكاتبة، وهم حاملوا ألويتها "(2).

- لقد أثبت الفكر التربوي الباديسي فعاليته وكفاءته في النهوض بالمجتمع المسلم أفراداً ومؤسسات، وكان ذلك في ظروف أقلّ ما يقال عنها أنّها مستحيلة الاستجابة، لكنّ هذا الفكر التربويّ الراقى غُيِبَ في عصر الاستقلال والتحرّر، حيث يمكن له أن يوجد أضعاف ما أوجده سابقاً، " وكان يمكن أن نعتمده في صنع واقع تربويّ يفيد البلاد ويؤصل النظام المدرسي، ويخرج المدرسة من حالات التخبّط التي ورثتها عن العهد الاستعماري، وظلّت تؤثر في مسيرتها، وكان الأمل أن تلتفت الجزائر إلى أفكار ابن باديس غداة الاستقلال لتستمدّ منها ما يعينها على رسم معالم المدرسة الوطنية التي كانت حلم الأجيال، لكنّها مع الأسف لم تلتفت إلى النموذج المدرسي الذي أسسه ابن باديس، ونفّذته جمعية العلماء في مدارسها، وعاش معنا حتّى بداية الاستقلال "(3).

(1): أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (مج 03 / ص: 170).

(2): البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، (مج 01 / ص: 342).

(3): د/ عبد القادر فضيل، الفكر التربوي الباديسي الحاضر الغائب، مجلّة الوعي، (ص: 69).

المطلب الثاني: التربية الإِعدادية الشاملة للمرأة والرجل.

وجد الإمام ابن باديس أنّ أيّ جهد تربويّ لن يكون ذا أثر محمود، أو نتائج مرضية؛ إلا إذا استهدف ثنائية المجتمع والأمة (المرأة والرجل)، كون الحياة لا يمكن أن تستقيم، ولا للإحياء أن يؤتي أكله النافع، إلا إذا أخذ كلٌّ من الجنسين نصيبه، أمّا في حالة التركيز فقط على أحد طرفي القضية وإهمال الطرف الآخر، فإنّ الأثر لا محالة سيكون أعوج وأعرج، وهذا الأخير لا يمكنه أن يوصل إلى برّ الأمان والاطمئنان.

في هذا المطلب سنركّز على أهمّ مظاهر عناية الإمام ابن باديس بتربية المرأة والرجل، كما سنشير إلى أهمّ القضايا التي ركّز عليها في هذا الجانب، باعتبارها -عنده- هي الضامن للنهضة بالأمة من ناحية المرأة والرجل.

الفرع الأوّل / العلاقة بين المرأة والرجل عند الإمام ابن باديس :

كثيراً ما تُرسم العلاقة بين المرأة والرجل على أنّها علاقة صراع أو استغلال، أو أنّها علاقة منفعة مرجوة ومنتظرة، لكن الإمام بنظرته الشرعية الإسلامية هدم هذه الإشاعات وكرّر عليها، وبين زيفها ومراميها التهديمية، وفي نفس الوقت قدّم البدائل الصحيحة، والكفيلة بإعادة العلاقة التكاملية الإيجابية بينهما، ومن أظهر هذه البدائل ما يلي:

أ/ مجالات الالتقاء والاشتراك بين الرجال والنساء: أظهر الإمام جوانب الالتقاء والاشتراك بين الرجال والنساء، والتي حرص فيها على أعلاها وأسماها، وذلك حتّى يبيّن الإمام العوامل التي تجمع بينهما، ومما يمكننا هنا ذكره:

- رابطة الإسلام والوطنية بين المرأة والرجل: لا يخفى أنّ أقوى رابطة في الإسلام يمكن أن تجمع بين اثنين؛ هي رابطة الدين، ولهذا لا يتحدّث الإمام عن الرجل أو المرأة مجرّدين من الإضافة، بل نجده يقول عن الرجل: "الرجل المسلم الجزائري... فالرجل المسلم الجزائري موضوع بحوث طويلة من نواح عديدة لكنني اتكلّم عليه من نواح ثلاث: رجولته، إسلاميته، جزائريته"⁽¹⁾، أمّا المرأة فقد قال عنها نفس الأمر: "المرأة المسلمة الجزائرية... نرى حقاً علينا بعد ما تكلمنا على الرجل

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 03 / ص: 364-365).

المسلم الجزائري أن نتكلم شيئاً عن المرأة المسلمة الجزائرية من نواحيها الثلاث أيضاً⁽¹⁾، فمن خلال هذا النصّ يُظهر الإمام لكلا الجنسين أنّ بينهما عوامل وروابط هي من أقوى الروابط تجمع بينهما، فكما جمعت بينهما المبادئ لابدّ أن تجمع بينهما الغايات والأهداف في هذه الحياة.

- لا قيام للحياة إلا على الجنسين: يرى الإمام بأنّه لا قيام للحياة إلا على وجود الرجل والمرأة، وهنا لا يقصد الإمام بالوجود الوجود المادّي المعروف، بل يقصد الوجود المعنويّ المؤثّر، كون هذا الأخير هو الضامن للحياة الإنسانيّة الحقيقيّة، حياة العزّة والكرامة والراحة والنّهضة، أمّا الحياة البهيميّة الماديّة فلا حاجة للتنبيه عليها لأنّ الفطر تدعوا إليها، إذ " لا تقوم الحياة إلا على النوعين اللذين يتوقف العمران عليهما، وهما الرجال والنساء... فلن ينهض المسلمون نهضة حقيقية إسلاميّة إلا إذا شاركهم المسلمات في نهضتهم في نطاق عملهنّ الذي حدّده الإسلام وعلى ما فرضه عليهنّ من صون واحتشام... وكانت في ذلك (سُميّة) أحسن قدوة - لا لخصوص النسوة - بل لأهل الرجولة والقوّة"⁽²⁾.

- النساء شقائق الرجال: قال الإمام ابن باديس: " النساء شقائق الرجال في التّكليف، فمن الواجب تعليمهنّ وتعلمهنّ، وقد علّمهنّ ﷺ وأقرهنّ على طلب التّعلّم واعتزّ بهنّ وتفقدن..."⁽³⁾، وحتى لا يفهم كلام الإمام خطأً أتبع هذا الإطلاق بتقييدات شرعيّة تحدّد العلاقة والمسافة التي يجب أن تكون بين المرأة والرجل، وبعض الضوابط الشرعية التي يجب أن يُشار إليها، وذلك عند قوله: " لا يجوز اختلاط النساء بالرجال في التّعلّم، فإمّا أن يُفردن بيوم... وإمّا أن يتأخرن عن صفوف الرجال، يجعل لتعليم النساء يوم خاص بهنّ ويتكرّر هذا اليوم بقدر الحاجة، ولما كانت الحاجة دائمة فاليوم مثلها..."⁽⁴⁾، فهذه هي الحدود بين المرأة والرجل في العملية التّعليميّة.

- تعميم الدّروس بين الرجال والنساء: لقد عمل الإمام على جعل دروسه عامّة وشاملة للجنسين، فأتى على هذا المنهج دعوة وعملاً، " وتطوّر الاهتمام بالمرأة بعد الحرب العالميّة الأولى

(1): المصدر نفسه، (مج 03 / ص: 368).

(2): المصدر نفسه، (مج 04 / ص: 117).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 158).

(4): المصدر نفسه.

أيضا بتطور الأفكار، فقد انتشر التعليم بين الجنسين، واهتمت الحركة الإصلاحية بالمرأة باعتبارها ظلت مهملة، وباعتبارها عضوا أساسيا في إصلاح المجتمع، وكانت دروس ابن باديس العامة منذ البداية موزعة بين الرجال والنساء، وقد أعطى هو المثل والقُدوة في ذلك⁽¹⁾، خاصة وأن العقليات التي كانت منتشرة في ذلك الوقت كانت تمنع المرأة من الاتجاه إلى الدراسة، ولعل أكثر ما كان يؤلم الإمام هو نسبة هذا الأمر إلى الدين واعتباره من صلب الشرع الإسلامي.

- تعليم الرجال والنساء إلى أقصى ما يمكن: لم يستغ الإمام الاتجاه الذي كان يحدّد المستوى الذي يجب أو يُسمح للمرأة أن تبلغه في التعليم، والذي يُمنع عليها تجاوزه وتعدّيه، وقد صرخ فيهم الإمام منكرًا: "سيرًا على ما استفاض في تاريخ الأمة، من العلمات الكاتبات الكثيرات، علينا أن ننشر العلم بالقلم في أبنائنا وبناتنا، في رجالنا ونسائنا على أساس ديننا وقوميتنا إلى أقصى ما يمكننا أن نصل إليه من العلم الذي هو تراث البشرية جمعاء، وثمار جهادها في أحقاب التاريخ المتطوّلة، وبذلك نستحق أن ننبؤ منزلتنا اللائقة بنا والتي كانت لنا بين الأمم"⁽²⁾، نلاحظ في هذا النص الإمام يستنهض الهمم ويحيي أجداد النساء المسلمات في عصور الإسلام الزاهرة.

- اقتسام مجالات الحياة بين الرجال والنساء: لقد حدّد الإمام مجال كلّ من المرأة والرجل، حيث جعلها مجالين اثنين مختلفين لكنّهما متكاملين، وقد خلق الله تعالى كلّاً منهما حسب المجال الذي حدّد له، وأيّ تبادل أو تداخل سيحدث الاختلال والضرر، لكنّهما معا يصنعان التكامل المرغوب، وقد قال الإمام -مؤصّلاً-: "إنّ الكمال الإنساني متوقّف على قوّة العلم وقوّة الإرادة وقوّة العمل، فهي أسس الخلق الكريم، والسلوك الحميد، الذين ينهض بهما بجلال الأعمال، ويبلغ بهما إلى أسمى غايات الشرف والكمال، والمرأة لما خلقت لقسم الحياة الداخلي أعطيت من القوى الثلاث القدر الذي تحتاج إليه منها، وهو دون ما يحتاج إليه الرجل الذي خلق للقيام بقسم الحياة الخارجي...

وتقسيم وظيف الحياة بين الرجل والمرأة، وإعطاء كلّ واحد منهما القدر الذي يحتاج إليه في وظيفه من بديع صنع الحكيم الخبير، فلو لم يعط الرجل ما أعطي من كمال القوى لما استطاع القيام بالأعمال

(1): أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (مج 03 / ص: 170).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (ص: 161).

الكبيرة في قسمه، ولو أعطيت المرأة مثل ما أعطي لما صبرت على البقاء في قسمها فأخلته فاختل النظام فحصل الفساد"⁽¹⁾.

لا يخفى ما في هذا الكلام من التّأصيل والتّحديد النّادرين، وما ذلك إلّا لاستحكام الملكات لديه.

- اشترك النّساء مع الرّجال في بناء حياة الأُمّة: ذهب الإمام إلى وجوب إشراك النّساء في مهام حياتنا، وإقامة مصالحنا، ووجوب قيام كلّ منهما بقسطه ونصيبه، كلّ ذلك بضوابطه وحدوده الشرعيّة، ولهذا علينا " أن نشرك معنا نساءنا فيما نقوم به من مهام مصالحنا ليقمن بقسطهنّ مما يليق بهنّ في الحياة على ما يفرضه عليهنّ الإسلام من صون وعدم زينة وعدم اختلاط، ولن تكمل حياة الأُمّة إلّا بحياة شطريها: الذّكر والأنثى... "⁽²⁾.

ب/ الضوابط والحدود الشرعية بين الرّجال والنّساء: إنّ دعوة الإمام المرأة للوقوف بجانب الرّجل للكفاح من أجل الحياة، لم تكن دعوة عشوائيّة، بل أحاطها الإمام بقيود شرعيّة تضمن الوصول للمرغوب، واجتناب المرهوب، ومن أهمّ هذه الضوابط:

- التّحذير من اختلاط النّساء بالرّجال: ذلك أنّ الإمام دعا المرأة للقيام بواجباتها الشرعية، هذا الأخير يفرض عليها وعلى الرّجل أن يلتزم كلّ منهما المجال المخصّص له، وكلّ تجاوز لهذه المجالات سيأتي -حتما- بنتائج عكسيّة غير مرغوبة، وقد ذكّر الإمام بأنّ " الشريعة الإسلاميّة -شريعة التّقدّم والإخاء والإنسانيّة- لا تمنع البنات من الاختلاط بالبنات، وإنّما تمنع اختلاط النّساء بالرّجال وتبرّج المرأة وخلوة الرّجل الأجنبيّ بها "⁽³⁾.

- تخصيص المرأة بحفظ النّسل والأسرة: نبّه الإمام المرأة إلى أنّ لها مهمّة خاصّة تتمثّل في حفظ النّسل ورعاية الأسرة، ولا يخفى ما لهذه المهمّة من خطورة كون الأسرة هي الخلية الأولى للمجتمع، فصلاحتها صلاح للمجتمع، وفسادها فساد له، وهذا يستلزم -حسب الإمام- تكوين المرأة وتنشئتها حسب المهمّة التي تنتظرها، ف" لا بقاء لأُمّة من الأمم إلّا بانتظام أسرها وحفظ نسلها، وقد

⁽¹⁾: المصدر نفسه، (ص: 166).

⁽²⁾: ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04 / ص: 115).

⁽³⁾: ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05 / ص: 70).

خصّص الله المرأة للقيام بهذين الأمرين العظيمين، وزوّدها من الرّحمة والشفقة ما يعينها عليها⁽¹⁾. ونلاحظ هنا كيف يقوم الإمام بتوعية المرأة بأنّها برعايتها للأسرة ترعى الأمّة ككلّ، عكس من يوهّم المرأة بأنّها ببقائها في بيتها قد حرمت الأمّة من العطاء والخدمة، وما ذلك إلّا لإخراجها من رباطها.

- مراعاة خصوصيّة المرأة في العمليّة التربويّة: يرى الإمام في درسه الحديثي وجوب مراعاة الخصوصيّة النفسيّة والعاطفيّة للمرأة، وذلك أثناء تعليمها وتربيتها، لأنّ إهمال هذا الجانب سينحرف بها عن مهمّتها التي خلقها الله تعالى لها، قال الإمام في هذا الجانب -مستعينا بالحديث النبويّ-: "يبين لنا هذا الحديث الشريف ما خلقت له المرأة من العمل العظيم في الحياة ويرشدنا بذلك لوجوب القيام عليها وتهيتها لذلك بالتربية والتّعليم فتكون تربيتنا وتعليمنا لها بما يقوّي فيها هذه الصّفات... وكلّ زيادة على هذه -بعد تهذيب أخلاقها، وتصحيح دينها، وتحبيسها في قومها- فهي ضارّة بها، أو مخرجة لها عن مهمّتها العظيمة، ملحقّة الضرر بقومها"⁽²⁾.

إنّ تكييف التّعليم حسب خصوصيّات المرأة ليس استخفافا بها، بل قد يكون هذا التّكييف من أصعب ما يمكن على المربيّ مراعاته، ولأنّ المرأة لا يمكنها أن تؤدّي واجبها إلّا في إطار أنوثتها وكونها امرأة، وأيّ إخراج لها عن خلقتها سيصيرها مسخّا يعيث في الأرض فسادا، فالإمام يريد للرجل أن يبقى رجلا وللمرأة أن تبقى امرأة.

من هنا نجد أنّ الإمام "يركّز على التّعليم المناسب للجنس اللطيف، لقد خلق الله الرّجال والنّساء ليكمّل بعضهم بعضا في رأي عبد الحميد بن باديس، وكان هدف الدّين والشّريعة تفعيل هذا التّوافق بين الجنسين"⁽³⁾.

- الوصاية بالنّساء والمحافظة عليهنّ: ينبّه الإمام الأمّة إلى أنّ المرأة لا يمكنها القيام بواجبها إلّا وهي محاطة بالرّعاية والعناية، كما أنّ هذه الإحاطة النفسيّة للمرأة نابع من الوصايا النبويّة ما يعطيها الشّريعة، ويدرجها في خانة الامتثال والاحتساب، وقد أخذ الإمام حديثا شرحه " وفيه التّنبية على

(1): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 164).

(2): المصدر نفسه، (ص: 164).

(3): أندري ديرليك، المصدر السابق، (ص: 253).

المحافظة على قلوبهنّ وعواطفهنّ ليدوم ودهنّ وسلامتهنّ ويدوم الهناء معهنّ والاستمتاع بهنّ لأنهنّ ضعيفات القلوب رقيقات العواطف، شديداً الإحسان، يصبرن على كلّ شيء من الرجل إلا على كسر قلوبهنّ ومسّ عواطفهنّ، فهذا الحديث الشريف من الأحاديث الكثيرة التي جاءت في الوصاية بالنساء والمحافظة عليهنّ، ومراعاة جانبهنّ، ويمتاز هذا الحديث بما فيه من ذكر السبب الذي يوجب ذلك ويقتضيه، على أبين تصوير وأبلغه، فليكن دائماً على بالنا في معاملتنا للنساء وحياتنا معهنّ والله المستعان⁽¹⁾.

- التحذير من عواقب انحطاط المرأة: حذر الإمام من عواقب انحطاط المرأة وعدم النهوض بها وتعليمها، وبأنّه بانحطاطها ستنحطّ فئات أخرى معها، ما يعني أنّ إهمالها إهمال لفئات كثيرة من المجتمع، " لقد تمّ تقويض دور المرأة في المجتمع، في العصور الماضية بسبب التساهل العام في الواجبات الدينيّة، فإنّ انحطاط المرأة رافق انحطاط الرجل، لقد اتّصفت معتقداتهم بالجهل والخرافات، والأخطر في حالتها أنّ دورهما في تربية الأطفال قد هبط إلى درجة الصفر⁽²⁾."

الفرع الثاني/ تربية وتعليم المرأة عند الإمام ابن باديس:

لقد أظهر الإمام حرصاً كبيراً لتعليم المرأة وتثقيفها، وفي درسه الحديثي تجلّى هذا الجانب بكثرة ودقّة وتنوّع، ولعلّ ذلك لعدّة أسباب أهمّها:

- قناعته التامة ومعرفته الراسخة بمدى الخلل والكساد الذي أصاب الأمة من جانب المرأة، والانحطاط الكبير الذي آلت إليه أوضاعها من جميع جهاتها الماديّة منها والنفسية.
- إدراك الإمام بأنّ أيّ جهد تربويّ أو تعليميّ يستثني المرأة من خطّته؛ فسيكون مجرد عبث لا غاية منه ولا مصلحة، وفي أفضل الحالات لن يولّد لنا سوى حركة عرجاء لا يمكنها أن تنهض بالمجتمع، وذلك كون المرأة شطر الأمة كلّها.
- قصّد الإمام إلى تعليم المرأة وتربيتها لكونها هي الخليّة الأولى في المجتمع، وتنشئتها في الحقيقة ليست تنشئة لفرد فقط، بل هي تنشئة وإعداد لكلّ من هم تحت رعايتها وتربيتها.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (ص: 277).

(2): أندري ديرليك، المصدر السابق، (ص: 252).

أ/ تربية المرأة في البيت الأسري: هذا العنوان - في الحقيقة - له معنيان كلاهما مقصود، فقد يفهم منه تربية المرأة باعتبارها هي من وقع عليها الفعل، كما قد يفهم منه بأن المرأة هي من تقوم بالعملية التربوية، وبين المعنيين تلازم واستلزام، فالمرأة التي تربت هي التي تُربي، أما الفاقدة للتربية فلا يمكنها أن تنفق مما ليس لديها.

نبه الإمام إلى أن ميادين التربية ليست فقط في المدارس والأماكن العمومية كما يعتقد الكثير، بل حرص على تلقي المرأة للمبادئ والقيم السامية من أول ميدان من ميادين التربية والإعداد المِلِّي؛ وهي: (الأسرة)، والحرص على أخذ المرأة أو البنت نصيبها وافيًا من البيت قبل الخارج، وقد تجلّى هذا الجانب عند الإمام ابن باديس في عدّة قضايا منها:

- لا بقاء للأمة إلا بانتظام الأسرة: والبقاء المقصود هنا ليس البقاء المادي الظاهري، بل هو البقاء الحقيقي الذي يجمع بين الجانب النفسي والمادي، ولعلّ هذا ما جعل الإمام يهتم في درسه بالأسرة والمرأة، ذلك أن جهده لإحياء الأمة لا يرى له أثرا إلا إذا انطلق من الأسرة عموما، ومن المرأة خصوصا، وقد قال الإمام في هذا الصدد: " لا بقاء لأمة من الأمم إلا بانتظام أسرها وحفظ نسلها، وقد خصّص الله المرأة للقيام بهذين الأمرين العظيمين، وزوّدها من الرحمة والشفقة ما يعينها عليهما، وإنّما تقوم بهما إذا جمعت ما بين العفة في نفسها، والاقتصاد في نفقتها، والتفرّغ للقيام بأولادها"⁽¹⁾.

لا يخفى ما في هذا النصّ من التّحديد والحصر العبريّين من الإمام، وذلك حين نجد بأن المرأة في الأسرة مكلفة برعاية الجانب المادي والمعنوي فيها، وهذا ما لم يكن معروفا، ذلك أن المرأة لا يمكنها التّدخل في الجانب المادي للأسرة، باعتباره من اختصاص الرّجل فقط، فنبه الإمام إلى أن المرأة تصون ثلاثة أمور في بيتها؛ وهي: (عفة نفسها/ تربية أولادها/ الاقتصاد في نفقة أسرتها)، وسيعجب الإنسان - حتّى في زماننا - إذا وجد بأنّ الأمة ما رزئت إلا من هذه الجوانب الثلاث.

- اختيار المرأة التي تبني الأسرة: يرى الإمام بأنّ أول خطوة نحو تحقيق هذا المطلب العزيز والخطير؛ هو اختيار المرأة المناسبة (الزّوجة) التي تستحقّ أن تتربّع على عرش الأسرة، وذلك بالحرص على اختيار صاحبة الدّين والخلق والمعدن الصّافي، وذلك لقناعته بأنّ البنت تتأثر بوالدتها،

(1): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (ص: 164).

والإمام يرى بأنّ هذا " دليل على ما ينبغي من اختيار المرأة المتصفة بمثل هذا الوصف، ودليل ما ينبغي أن يتخيّر من معادن النساء في بيوتهنّ وأقوامهنّ فإنّ الأخلاق تتوارث، والبنات متأثرات بالأمّهات في الغالب "⁽¹⁾، وعدم اعتبار هذا الجانب قد يجعل من المرأة معول هدم لا بناء.

-تكملة المرأة في الجانب الديني: يرى الإمام وجوب تنشئة المرأة وتغذية الجانب الديني والشرعي لديها، وحتى لا يستصعب المربون هذا المسعى أو يظنّوا استحالة؛ قدّم الإمام في درسه الحديثي نماذج لنساء " قد كملن في الدين، فمنهنّ أمّ نبيّ، ومنهنّ زوجة نبيّ، ومنهنّ منقذة نبيّ، فعلينا أن نكمّل النساء تكميلاً دينياً يهيئهنّ للنّهوض بالقسم الداخلي من الحياة وإعداد الكاملين، ومساعدتهم للنّهوض بالقسم الخارجي منها "⁽²⁾.

من خلال هذا النص نجد إشارة مهمّة، وذلك أنّ الإمام قد خرج عمّا سبق وحدّده للمرأة، من كونها مهيةً للجانب الداخلي للأسرة، أمّا الجانب الخارجي فهو للرجل، لكنّه هنا ذهب إلى إمكانية مساعدة المرأة للرجل في النّهوض بالقسم الخارجي، وهذا ليس تناقضاً من الإمام أو اضطراباً، بل هو من التدرّج والتقييد، حيث اعتبر المرأة التي يمكنها المساعدة في القسم الخارجي هي المرأة التي تكوّنت في الجانب الديني والشرعي، كون هذه الأخيرة ستكون على دراية بحدودها وضوابطها في القسم الخارجي فلا تؤذي ولا تتأذى.

أمّا النتيجة والغاية من تكميل هذا الجانب الجوهري في المرأة، فقد اعتبر الإمام الوصول إلى هذا الهدف والمقصد خطوة هامة للنّهوض بالأمة، " وبذلك تتنظم الحياة انتظاماً طبيعياً تبلغ به الإنسانية سعادتها وكمالها "⁽³⁾.

وقد ركّز الإمام كثيراً على تربية المرأة التربية الإسلامية الصحيحة القويمة، وذلك إذا " أردنا أن نكون رجالاً فعلينا أن نكون أمّهات دينيات، ولا سبيل لذلك إلّا بتعليم البنات تعليماً دينياً وتربيتهنّ تربية إسلامية، وإذا تركناهنّ على ما هنّ عليه من الجهل بالدين فمحال أن نرجو منهنّ أن يكون لنا

(1): المصدر نفسه.

(2): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (ص: 166).

(3): المصدر نفسه.

عظماء الرجال، وشر من تركهن جاهلات بالدين إلقاءهن حيث يربين تربية تنفرن من الدين أو تحقره في أعينهن فيصبحن ممسوخات لا يلدن إلا مثلهن، ولئن تكون الأم جاهلة بالدين محبة له بالفطرة تلد للأمة من يمكن تعليمه وتداركه خير بكثير من أن تكون محتقرة للدين تلد على الأمة من يكون بلاء عليها وحرباً لدينها"⁽¹⁾، فالتربية الإسلامية للمرأة ضروري لبناء الأسرة.

ب/ تعليم المرأة ورفع الجهل عنها: لقد أكرم الإمام ابن باديس ما كان يراه من الحالة المنحطة والباءة التي صارت إليها المرأة الجزائرية المسلمة، حيث ابتعدت عن التعليم وصارت إلى مهن وأعمال تضع من مكانتها، وتعيقها عن مهمتها، ومن صوره " ما نراهن من أسراهن خاديات عند الأجانب -لكننا ويا للأسف- لا نرى المتعلّات إلا قليلا جداً، ثم إنهن يتعلّمن حيث تسليخ منهن روحهن القومية سلخا، ويخلقن خلقا آخر"⁽²⁾.

لم يقف الإمام عند حدّ التصوير والحسرة والألم فقط، بل " تحمّس ابن باديس إلى تعليم المرأة الجزائرية من وجهة نظر الشرع الإسلامي لها ولوظيفتها في المجتمع، ودورها في الحياة، لأن المرأة الجزائرية في عصر ابن باديس لا تخلوا من أحد أمرين:

الأمر الأول / محرومة نهائيا من التعليم بحيث لا تعرف قراءة ولا كتابة.

الأمر الثاني/ متعلّمة تعليما أجنبيا سطحيا يعمل على استخفافها بعروبته وإسلامها وتقاليدها الاجتماعية، فتصبح بالتالي متنكرة لأصلها وعروبته وإسلامها"⁽³⁾، ولهذا كيف الإمام خطته التعليمية لاستصلاح كلتا الفئتين، وذلك بتعليم الأولى للقراءة والكتابة والخروج بها من الأمية والجهل، أما الفئة الثانية فيتم التركيز على كيفية إرجاعها -بتعليمها ومعارفها- إلى حظيرة الأمة المسلمة، وذلك بجعلها تعتزّ بإسلامها وعروبته وانتهاها، ولا يخفى ما في المسعّين من الصعوبة.

-الاهتمام بترقية البنت: إنّ المرأة قبل أن تكون كذلك كانت بنتاً، ولهذا " اهتم ابن باديس وهو لا يفتأ يفتنّ في برنامجه التعليمي ويطوّره ويحسنه، اهتماما خاصاً بترقية البنت باعتبارها الزوجة والأم في

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04 / ص: 201).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 06 / ص: 357).

(3): د/ محمد بهي الدين سالم، المصدر السابق، (ص: 108).

المستقبل"⁽¹⁾، كما لا يخفى دور السنّ المبكر في الاستيعاب وقبول التّشئة المتلقاة من المربّين. كما ظهر هذا الاهتمام وتجلّى في تقرير الإمام لمجانّة التعليم بالنسبة للبنات، حتّى "ولو كانت وسائل أوليائهنّ الماديّة تسمح لهم بدفع أجر تعليمهنّ، وكان ذلك منه تشجيعا على ارتياد المدارس، وحثّا على التّعلّم"⁽²⁾، ولا يخفى ما في هذه الخطوة من التّشجيع للبنات وأوليائهنّ على الالتحاق بمراكز التعليم وميادينه.

- حثّ الأولياء على إرسال بناتهم للتّعليم: أدرك الإمام أنّه بدون إقناع الأولياء بضرورة إرسال بناتهم إلى التّعليم لا يمكن لمشروعه أن يكتب له النّجاح، وأنّ الأمر متوقّف على اقتناع الآباء بالموضوع، ولهذا كان الإمام "يتصل شخصيا بالمواطنين يحثّهم على إرسال بناتهم إلى مدرسة جمعيّة التّربية والتّعليم، وكان يفعل ذلك أثناء جولاته في أنحاء القطر، ويطلب من زملائه العلماء الدّعوة إلى تعليم المرأة"⁽³⁾.

لقد كان هذا المسعى من الإمام وزملائه العلماء ذا أثر في إدراك الآباء لأهميّة التعليم لبناتهم، كما أدركوا دورهم الكبير في إنجاح هذا المشروع النهضوي؛ بإرسالهم لبناتهم إلى مدارس الجمعيّة.

- حقّ النساء في التّعلّم: نبّه الإمام إلى أنّ تعليم المرأة ليس من التّوافل والمستحبات، بل جعله من الفروض والواجبات المحتّمات، وألحّ على "حقّ النساء في التّعلّم... فلم يجد الشيخ ابن باديس فرصة مواتية للدّعوة إلى تغيير هذا الواقع البئيس أحسن من الاستناد إلى سنّة النّبي ﷺ"⁽⁴⁾، ولم يحصر هذا الوجوب على البنات فقط، بل عمّمه ليشمل النساء الكبيرات في السنّ ممّن لا يمكنهنّ الالتحاق بالمدارس، "فقد خصّص دروسا للنساء في المسجد الأخضر وغيره من مساجد قسنطينة"⁽⁵⁾.

إنّ الظّهور المألّف لهذا الاتجاه في مقاصد الإمام من درسه الحديثي؛ يجعلنا ندرك عظيم الأمل الذي كان يتوخّاه الإمام من تعليم المرأة، "لأنّ الإصلاح الاجتماعي يتوقّف على إصلاح الفرد سواء كان

(1): د/ بوعلام بسايح، المصدر السابق، (ص: 262).

(2): المصدر نفسه.

(3): مطبقاني، مازن صلاح، المصدر السابق، (ص: 62).

(4): د/ محمد الدّراجي، الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفيّة والتّجديد، (ص: 111).

(5): مطبقاني، مازن صلاح، المصدر السابق.

رجلا أم امرأة، والمرأة لها دورها في الإصلاح لأنها جزء من هذا الفرد"⁽¹⁾.

-فتح المدارس والأقسام التربوية: اتجه الإمام إلى توفير أماكن لائقة بتعليم البنات المقبلات على التربية الإسلامية، وحاول جهده لجعل هذا التعليم حديث الوسائل، " وفي نهاية 1918 أنشأ ابن باديس المدرسة الأولى للبنات في قسنطينة بحي سيدي بومعزة، وعلم فيها الشيخ الميلي، وعندما أقبل عليها عدد كبير من التلميذات أضاف إليها ابن باديس النظام الداخلي"⁽²⁾، وكل هذا حرصا على أخذ البنات لأكبر قدر ممكن من المعارف والتربية الإسلامية الصحيحة، والحقيقة أنّ هذه الخطوة جاءت في مرحلة متقدمة، بعد أن حصل الإمام بعض الوسائل التي تمكنه من الانطلاق في التعليم الحديث، فقد " كان ابن باديس ورجال جمعية العلماء قد اتبعوا منهج الوعظ والإرشاد وتعليم المرأة أيضا بالطريقة الشفوية، ثم فتحو المدارس أيضا لتعليم البنات بالطريقة الحديثة"⁽³⁾.

-البداية في تعليم المرأة: يعتقد الإمام بأنّ أخطر مراحل تعليم المرأة هي المرحلة الأولى للتلقّي، والفشل في هذه المرحلة فشل في العملية ككل، ولهذا لا بدّ أن تكون " البداية في التعليم بما تشدّ إليه حاجة المتعلّم، فإنّ حنان النساء وضعفهنّ يحملانهم على الجزع الشديد... وفيه ما ينبغي من تهيئة القلوب وتحضير النفوس لتلقّي التكاليف الشرعية لتشرح لها الصدور وتنشط فيها الجوارح، ولذا قدّم الوعظ على الأمر"⁽⁴⁾، ولا يخفى ما في هذا الاتجاه والتأصيل من تحبيب للعلم الشرعي وغرس له في النفوس.

-إرسال البعثات العلمية النسائية إلى الخارج: وذلك لمواصلة التعليم والتدرّج فيه إلى أعلى مراحل ومراتبه، فقد كان الإمام يرى بأنّ المرأة بعد أن تكمل تعليمها في مدارس الجمعية وتتفوّق وتتخرّج منها، لا بدّ من إرسالها إلى معاهد ومدارس أخرى (عالية) خارج الجزائر لتكمل تكوينها العلمي، كما كان مع الرجال الذين يلتحقون بالزيتونة والأزهر، وحتى لا يُظنّ بالإمام سوءا فلا بدّ من أنّه كان سيحيط هذه العملية (الحساسة) بكلّ الضوابط والشروط الشرعية لمثل هذه الهجرات.

(1): د/ عبد الحميد درويش النّساج، المصدر السابق، (ج 02، ص: 92).

(2): د/ أبو عمران الشّيش وفريق من الأساتذة، معجم مشاهير المغاربة، (ص: 54).

(3): أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (مج 06 / ص: 340).

(4): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 158).

من الجانب العملي التطبيقي " وفي آخر الثلاثينات علم عن طريق الصحافة أن هناك مدرسة خاصة بالبنات المسلمات في سوريا تابعة لجمعية دوحة الأدب تشرف على إدارتها سيّدة من حفيدات الأمير عبد القادر، فكتب رئيسة الجمعية في الموضوع... وتلقّى الإجابة بالقبول، وبدأت الاستعدادات لإرسال البعثة التي كانت تضمّ عشر طالبات، لكنّ بؤادر الحرب العالميّة حالت دون تحقيق هذه الرغبة" ⁽¹⁾.

والرسالة التي أرسلها الإمام ابن باديس شخصياً إلى رئيسة جمعية دوحة الأدب موجودة صورتها في ملاحق آثار الإمام ⁽²⁾.

من خلال هذا العرض الموجز لجهود ومقاصد الإمام إلى النهوض بالمرأة المسلمة الجزائرية، نجد الكثير من المميّزات والخصائص للنّهضة الباديسية، لعلّ أهمّها باختصار ما يلي:

- التّأصيل لهذه النّهضة من كلّ جوانبها العلميّة منها والعملية، وانطلاقه الشخصي لامثال خططه النظرية التي بثّها في عموم المشتغلين بالإصلاح.
- المعرفة العجيبة والتّوصيف الدّقيق والعميق لعوامل الانحطاط وسبل النّهوض، فكان بذلك كحال الطّبيب الحكيم الذي يصف المرض بكلّ جوانبه وحيثيّاته، ثم يصف الدّواء الشّافي.
- حرص الإمام على شرعيّة كلّ أعماله وخطواته، والتّأصيل لها من كتاب الله تعالى أو من سنة النبي ﷺ، فلم تحمله العجلة على سلوك طرق مختصرة غير مشروعة كما يحدث لكثير من مدّعي الإصلاح، وذلك ليقينه التّام بأنّ الحلّ والدّواء في كتاب الله تعالى وما صحّ من السّنة.
- اهتمام الإمام الشّمولي والممتدّ بالمرأة ⁽³⁾، فلم يكن اهتمامه جانبياً وظرفياً، فلم يسعى لتكوين المرأة تكويناً مواجهاً مرحليّة، بل رسم لها خطة للنّهوض بها نهضة باتّمت ما تعنيه الكلمة من الاستمراريّة والفعاليّة والتّأثير، وإعداد مثل هذه البرامج وفي تلك الظروف ليس بالأمر الهين ولا السّهل، وهذا جانب آخر من جوانب العبقرية والتّميّز المستحقّين للإمام.

(1): د/ عبد القادر فضيل، أ/ محمد الصالح رمضان، المصدر السابق، (ص: 218). وانظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (مج 03/ ص: 258). ولحسن بن علجية، المصدر السابق، (ص: 43).

(2): أنظر: ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 06/ ص: 443).

(3): أنظر: د/ حجّية شيدخ، عناية الإمام ابن باديس بقضايا المرأة وجهوده في النّهوض بها، مجلّة الوعي، (ص: 78).

المطلب الثالث: بحث الأخلاق الإسلامية في الأمة.

من أهم المقاصد التربوية للدرس الحديثي للإمام ابن باديس؛ إعادة بعث وإحياء ما اندرس من الأخلاق الإسلامية في الأمة، وذلك يقينا منه بدور الأخلاق في النهوض بعموم الأمة نهضة نفسية ومادية صحيحة، ولكون هذه الأخيرة من أهم مظاهر التربية الإسلامية الموقفة، فالتربية الصحيحة لا يمكنها أن تؤدي سوى للأخلاق الفاضلة.

كما ينبع حرص الإمام على هذا الجانب المهم؛ من حرص السنة على الدعوة إلى التحلي بالأخلاق الحسنة وإشاعة قيمها في الأمة، وما يترتب على ذلك من الأجور العظيمة، والثواب الجزيل، والمنزلة الرفيعة في الجنة، كما أن النبي ﷺ هو سيد المتخلقين، وخير من امثل خلقاً وعمل به، فهو القدوة والأسوة لكل مقتدٍ.

ويمكن التعرّض لهذا الجانب بتركيز واختصار، وذلك من الجوانب التالية:

الفرع الأول/ وجوب الدعوة إلى الأخلاق الإسلامية:

لقد حثّ الإمام المؤمنين -كل من موضعه- وبخاصة العلماء منهم والمتصدّرين للتوجيه والإرشاد؛ إلى وجوب الدعوة إلى الأخلاق الإسلامية الرفيعة السامية، دون إغفال الإمام توصية هؤلاء الدعاة إلى وجوب امتثالهم هم أولاً لما يدعون الناس إليه، ومن مظاهر هذه الصيحة من الإمام ما يلي:

أ/ تضمن الدروس العلمية للتوجيهات الأخلاقية: وذلك بإبعادها عن الجفاف العلمي، والتحذير من تفرغها من الوصايا والتوجيهات الأخلاقية، وفي هذا السبيل سلك الإمام عديد المسالك في درسه، ومنها:

- الدرس الباديسي درس أخلاقي: لقد كانت كل دروس الإمام ابن باديس دروساً أخلاقية بكل ما تعنيه الكلمة، وهذا بشهادة الإمام نفسه؛ والذي قال عن مضمون دروسه -بما فيها درسه الحديثي-: " كانت الدروس كلها حثاً على الفضائل وتنفيراً من الرذائل وبياناً لحقائق الدين التي بمعرفتها يكمل الإنسان في إسلامه وفي إنسانيته، ودعوة للتوحيد والاتحاد والإحسان إلى جميع العباد وحثاً على التألف والتعاون "⁽¹⁾.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04 / ص: 318).

وما وصف به الإمام دروسه من المفروض أن يكون هو الوصف المنطبق على جميع الدروس الإسلامية، وأن تحوي كل القضايا التي أشار إليها الإمام وضمّنها دروسه.

-الرحمة والإحسان في الدعوة: لم يسر الإمام إلى هدفه بعنف وقوة، بل سار ودعا إلى توجيه الناس بالرحمة والإحسان، لأنّه بالرفق واللين يمكن الوصول إلى الجماهير والتأثير فيها وإقناعها، وحملها على الامتثال، كما كان هذا منهج النبي ﷺ في الدعوة إلى الله تعالى، وقد قال الإمام: "ندعوا إلى ما دعا إليه الإسلام، وما بيناه منه من الأحكام بالكتاب والسنة، وهدي السلف الصالح من الأئمة، مع الرحمة والإحسان، دون عداوة أو عدوان"⁽¹⁾.

-الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وذلك بالأمر بالأخلاق الفاضلة والنهي عن المنكرات والآفات الخلقية التي كانت قد تفشّت في الأمة بمختلف صورها ومظاهرها وآثارها، كما نبّه الإمام على أثر الأخلاق في الفرد والمجتمع، فبالترّبية يُزرع الخلق الحسن في الفرد، ويُستأصل منه القبيح الفاحش، "هذا في الأفراد ومثلها في الأمم، فالأمة التي تقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتضرب على يد سفهائها وأهل الفساد منها، وتهجرهم وتنبذهم من مجتمعتها، تسلم من الشرور والبلايا، وتقلّ أو تنعدم منها المفسدات والمنكرات، والأمة التي تسكت عن سفهائها وأهل الشر من كبرائها، وتدعهم يتجَاهرون فيها بالفواحش والقبائح هي أمة هالكة، متحمّلة جريرة المجاهرة بالمعاصي بالهلاك في الدين والعذاب في الآخرة"⁽²⁾.

فبالأخلاق الإسلامية تحيا الأمم وتبقى البقاء المشرف، وبفقدانها تهلك الأمم وتموت، وقد توعّد الإمام المتسبّين أو الساكتين عن هذا المنكر بالعذاب والإثم في الدنيا والآخرة، كلّ هذا حتّى يُشعر المعيّنين بعظم المسؤولية وخطورتها، وعظيم أثرها على المجتمع.

-الدعوة إلى تنمية الأخلاق الفطرية: دعا الإمام المربّين إلى استثمار الأخلاق الفطرية التي تكون في الإنسان، والحرص على الانطلاق منها، وبهذا يمكن الوصول إلى إقناع الفرد بسلاسة ويسر، و"الأخلاق الفاضلة التي هي موجودة في فطرة الإنسان بأصولها تنموا بحسن التربية، وتنطمس

(1): ابن باديس، عبد الحميد، العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، (ص: 19).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 127).

بالإهمال - قد حفظها الله تعالى علينا بما وفقنا إليه من الإسلام، وما علّمنا من آداب، وما شرعه لنا من أعمال، ومما ينمي تلك الأخلاق ويقوّيها المداومة على الأعمال التي تنشأ عنها ⁽¹⁾، فهذه الأخلاق الفطرية إما أن تُنمى بالتربية والتعليم؛ فتتموا وتسموا وتزيد، وإما أن تنطمس وتندثر بسبب الإهمال وعدم الاعتبار.

ب/ أهمية الأخلاق في تزكية النفس: إن للأخلاق الفاضلة أهمية بالغة في تزكية النفس الإنسانية ورفع همّتها، والسمو بآمالها وأهدافها، ولا يخفى على ذي بصر مدى حاجة الأمة إلى هذا المستوى من الشعور، ذلك أن النفس الزاكية لا يمكنها أن ترضى بالذلّ و الهوان، أو تنحني للاستغلال الاستعماري، وبهذه النفوس فقط يمكن مواجهة قوى الطّغيان والاستعباد الاستعماريّ.

- تزكية النفس وتقويم الأخلاق: ذهب الإمام ابن باديس إلى قبول التّصوّف إذا كان من باب التّزكية والأخلاق، وكانت أسسه قائمة على الكتاب والسنة الصحيحة، فما "كان من باب تزكية النفس وتقويم الأخلاق والتّحقّق بالعبادة والإخلاص فيها فهو التّصوّف المقبول، وكلام أئمّته فيه ككلام سائر أئمّة الإسلام في علوم الإسلام لا بدّ من بنائه على الدلائل الصحيحة من الكتاب والسنة ⁽²⁾، فالعبرة عند الإمام بالحقائق العلميّة ومدى متانة الأساس الذي بُنيت عليه هذه الحقيقة، وليست العبرة بالأسماء والألقاب.

- بين خصال البرّ وخصال الشرّ: دلّ الإمام المربّين على العلاقة الدّقيقة بين الأخلاق الصّحيحة منها والخطئة، وكيفية استثمار الاثنين معاً في إيجاد الأخلاق الحسنة، وذلك أن " بين الخصال خصال البرّ وخصال الشرّ تناسبا وتوالدا، وهذا أصل يحتاج إليها في تهذيب الأخلاق وتزكية النفوس علاج أدوائها، فإنّ من عرف المرض الأصلي الذي نشأت منه أمراض أخرى سهل عليه إذا عالجها أن يقتلع - بإذن الله - الباقي، ومن عرف أصل الخير سهل عليه إذا تمسّك به أن يحصل على فروعه ⁽³⁾، وقد صدق الإمام هنا في وصفه لما أجاد به ب: (أصل)، وذلك أن هذا التّأصيل قاعدة من قواعد التّهذيب

(1): ابن باديس، عبد الحميد، المصدر السابق، (ص: 131).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04 / ص: 319).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 117).

والتركية، وليست مجرد فائدة عابرة، أو استنتاج فرعي، ولا يخفى ما في هذا التّأصيل من الدّقة والعمق الظّاهرين والعزیزين في الوقت نفسه.

-أهمیة القيم في نهوض الأمم: أيقن الإمام بدور القيم والأخلاق في النهوض بالأمم والتّقدّم بها في ميادين الحياة، وأثرها العظيم والمؤثّر في كلّ مجالات الحياة المختلفة، كما " عرف الإمام أنّ الأمم بقيمها الأخلاقية، وأنّ الأُمّة بلا قيم وأخلاق جسم بلا روح، ومصباح بلا ضوء، وأنّ مستقبل الأمم مرهون بأخلاقها "⁽¹⁾، فبالتّالي نجد بأنّ للأخلاق أثرها البالغ ومكانتها السّامية في ازدهار الأمم واستقامة سيرها على درب التّطور والمدنيّة، وهو تزكية للأفراد والمجتمعات.

-البعد عن البغض والحقد: إنّ التحلي بالأخلاق والقيم لا يمكن أن يتمّ إلّا بالتّخلي عن الرّذائل ومساوئ الأخلاق، إذ لا يجتمعان في موضع واحد، ولهذا حثّ الإمام على وجوب السّير في طريق الدّعوة والإرشاد دون حقد أو بغض، وتغليب نقيض هذه الأخيرة؛ من حبّ وشفقة وحلم، " ونحن لا نضمر -والله يشهد- لأحد من المسلمين بغضا ولا حقدا، بل لا ننطوي لهم إلّا على الحبّ والشفقة والإخلاص ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحشر: 10) "⁽²⁾، وقد أشهد الإمام الله تعالى على قوله، وذلك حتّى لا يفهم كلامه على أنّه مجرد مزايدات قوليّة، أو ادّعاءات فارغة جوفاء.

-امتثال الإمام لما يدعوا إليه من الأخلاق: أجمع الذين أحاطوا بالإمام وخبروه على أنّه كان نعم من امتثل لما دعا إليه وحثّ عليه، فشهد له بذلك القريب والبعيد، والعدوّ والصّديق، فكان بذلك بلا شكّ " مدرسة أخلاقيّة بما حباه الله تعالى به من مواهب فطريّة عالية، وأخلاق كريمة سامية، وقد تأثّر به نفسيا وسلوكيا كلّ من أخذ عنه أو كان له به اتّصال... ومن هنا فإنّ كلّ من تتلمذ عليه عاد إلى أهله بحظّ إن لم يكن علما فهو خلق قويم، واتّجاه في الحياة سليم "⁽³⁾، ففي كلّ الحالات فإنّ المتّصل به لا بدّ وأن ينال شيئا ممّا ينفعه ويستفيد منه، علما كان أو خلقا، أو ينالهما معًا فيفلاح ويفوز.

(1): محمد الصالح الصديق، نماذج للاقتداء، (ص: 28).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05 / ص: 327).

(3): محمد الصالح الصديق، المصدر السّابق، (ص: 29).

الفرع الثاني / من أخلاق وقيم الدرس الحديثي:

دعا الإمام في درسه الحديثي إلى الكثير من الأخلاق والقيم التي كان يرى ضرورة وجودها في المجتمع، ويمكن تقسيم الأخلاق التي دعا الإمام إليها إلى قسمين؛ أخلاق معنوية يتخلّق بها الإنسان فتكون دافعا ومانعا؛ دافعا للمكارم والفضائل، ورادعا عن الرذائل والقبائح، أمّا الأخلاق العملية؛ فهي تلك التي تكون في شكل أفعال تولّد آثارا حميدة ونافعة، وسنشير في هذا العنصر إلى أهمّها وروداً في درسه:

أ/ الأخلاق ذات الأثر المعنوي: أهمّ هذه الأخلاق وأظهرها ما يلي:

-التحلّي بالسّماحة والسّجاجة⁽¹⁾: دعا الإمام إلى التحلّي بالسّماحة والسّجاجة واللين، والاقتداء في ذلك بالنبي ﷺ والصّحابة رضي الله عنهم، والحذر من اليبوسة والخشونة، خاصّة إذا كان المتصف بهما من أهل الدين والالتزام، فيُظنّ أنّ ما هو عليه من صلب الدين ولُبه، فيُنفر منه ومن دينه، ولهذا لما تحدّث الإمام عن أخلاق الصّحابة رضي الله عنهم قال: " هؤلاء هم خيار الأُمّة، وهم أهل الصّدق والجدّ، وذوو القوّة في الحقّ والصّلابة في العقيدة، وهكذا كانوا أهل سماحة وسهولة وسجاجة ولين في الحالة الاعتيادية، حتّى ينفق بينهم مثل هذا الظّرف والمزح والدّعابة، فإذا الجدّ فهمهم هم، فالتزّمت والعبوس خشونة ويبوسة في الخلقة، أو تكلف ورياء، وحسبك بهما من شرّين..."⁽²⁾.

أمام الأوضاع التي كانت تمرّ بها الأُمّة الجزائرية المسلمة لم يكن من بدّ إلا أن يتحلّى الناس باللين والسّماحة، ويتجاوز البعض عن زلّات بعضهم، وبذلك يفوّتون الفرصة على المتربّصين بالأُمّة لتفريقها ونقض عراها، والنّيل من وحدتهم، وتفريق صفّهم.

-سلوك طرق التّربية والتّهذيب: لا بدّ أن يمسّ التّهذيب كلّ المجالات النّفسية للإنسان، والحرص على العمل والجهد الشّمولي والابتعاد عن الجزئية، ذلك أنّ الظّروف التي كانت تعيشها الأُمّة لم تكن تسمح بالحلول الجزئية، بل كانت تتطلّب عكس ذلك ونقيضه ممّا يمكنه تقويم

(1): السّجاجة: من اللّين والسّهولة، وخلق سجيح: أي لين سهل. أنظر: الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: د/ حسين نصّار، (الكويت: مطبعة حكومة الكويت، ط/01، 1269هـ-1969م)، (مج 06/ص:

454). وابن منظور، لسان العرب، (مصر-القاهرة: دار المعارف، د/ط/ت)، (مج 02/ص: 1939).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04/ص: 121).

الأعوجاج، واستدراك الخلل، ولهذا فمن " المعلوم أنه لا يكون تهذيب إلا بإزالة العقول، وتقويم الأخلاق، وتطهير العقائد "⁽¹⁾، فنجد من خلال كلام الإمام بأن التهذيب لابد أن يمسّ العقول بتنويرها، والأخلاق بتقويمها، والعقائد بتطهيرها، وبهذا فقط يسير المرء على بيّنة من أمره.

-اختيار الصّاحب والرّفيق النّاصح : بما أنّ المجتمع الجزائريّ لم يكن مجتمعاً إسلامياً خالصاً، بحكم المستدمر الوافد عليه، هذا الوافد المتطفّل الذي كان يسعى جهده لطمس هويّة الجزائري المسلم، أضف إليه من أبناء الأمّة ممّن اختاروا الانحراف عن الحقّ ومجانبته، والارتقاء في أحضان الطّمس والتّغريب، أو الشّعوزة والتّشغيب، ولهذا نبّه الإمام إلى وجوب اختيار الصّاحب الصّالح المصلح، والابتعاد عن كلّ فاسد مفسد، " فحقّ على المسلم أن يختار من يصاحب من رفقة، أو يجالس من جماعة، أو يكثر من سواد قوم، فإنّه محاسب على أعماله، ومن أعماله مجرّد حضور بدنه "⁽²⁾. وبمفهوم المخالفة يفهم من كلام الإمام وجوب تكثير سواد المؤمنين، والجماعات العاملة بالحقّ وللحقّ، وذلك تقوية لشوكة المؤمنين، وإغاضة للكافرين المفسدين، واستعدادا للمواجهة المحتومة بين أنصار الحقّ وأنصار الباطل.

-مدافعة الشّيطان عن القلب والنّفس : يذكر الإمام الأمّة بالعداوة القديمة بين الشّيطان وحزبه من جهة، وبين المؤمنين وحزبهم من جهة أخرى، وذلك حتّى لا يغفل المرء عن مدافعته ومواجهته بما أوصى به الشّرع من سلاح، " وهذه المدافعة للشّيطان وحماية القلوب منه من أعظم الجهاد وأوجهه وألزمه، بل هي أصل الجهاد كلّ، فإنّه هو أصل البلاء كلّ، فالسلامة منه هي السّلامة من كلّ سوء، والتّمكّن من نيل كلّ خير والفوز بكلّ سعادة في الدّنيا والآخرة "⁽³⁾.

فالشّيطان من أكبر الأعداء للإنسان، وأولاهم بالحيلة والحذر منه ومن دسائسه، ولعلّ القلب أوّل جارحة يجب أن تحفظ من الشّيطان، ذلك أنّ صلاحه صلاح للجسد كلّ، وفساده والنّيل منه فساد للجسد كلّ، ولا يخفى ما في هذا التّوجيه الباديسيّ من الدّقة والإيجاز، مع الإصابة للمبتغى.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05 / ص: 168).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 90).

(3): نفس المصدر، (ص: 184).

ب/ الأخلاق ذات الأثر العملي: من الأخلاق والقيم ما يكون لها أثر عملي في الأمة والمجتمع، وقد حث الإمام على مثل هذه الأخلاق ودعا إليها، وذلك لما كان يرجوه منها أن تُحدثه وتتركه من أثر، ولعل أهمها ورودا في درسه ما يلي:

- الحث على خلق البذل والعطاء: حث الإمام ابن باديس في درسه الحديثي على خلق البذل والإنفاق، وجعله " من أعظم تلك الأخلاق وأدخلها في باب النهوض بجلال الأعمال، وحفظ سعادة الاجتماع خلق البذل... فيكون البذل من الجميع علما، والسّخاء بينهم مشتركا، وآثارهم عليه ظاهرة، فينموا خلقه بذلك في الأمة كلّها، وترسخ أصوله في نفوسها، فتصبح وهي أمة سخيّة بما عندها في سبيل ما ينفعها، متعاونة بالبذل في مهمّاتها، مشتركة بجميع طبقاتها في كلّ مشروع خيريّ من مشاريعها، وإذا تربّت الأمة على هذه الصّفة، وتدرّجت إلى الكمال فيها، فذلك عنوان نجاحها وفوزها وبلوغها غاية آمالها، وسعادتها في الدارين ⁽¹⁾، من خلال هذا النصّ نجد الإمام ينظر إلى البذل على أنّه كالتّالي:

- البذل والإنفاق من أعظم الأخلاق وأظهرها عند الإمام، ولعلّ عظمة هذا الخلق راجعة إلى عظمة الأثر الذي يمكن أن يؤدّي إليه على مستوى الأفراد والجماعات.

- البذل المقصود بالإشادة عند الإمام، هو البذل الذي ينهض بجلال الأعمال وأعظمها، والذي يظهر في شكل مشاريع خيريّة اجتماعيّة وجماعيّة، وكلّما مسّ المشروع أكبر عدد ممكن من الأشخاص، كلّما كان المشروع ذا فعالية وجدوى أكبر.

- وجوب تربية الأمة على هذا الخلق العظيم، وجعله من الأخلاق الفطريّة للمجتمع، بأن يصير فعلا عفويّا ومستمرّا، وبالتالي إخراجهم من دائرة النّزعات الفرديّة والمساهمات المعزولة.

- شيوع خلق البذل في المجتمع علامة من العلامات الصّحيّة، وعنوان من عناوين النّجاح للأمة، وسبب من أسباب الرّخاء والعيش الرّغيد للأفراد باختلاف مستوياتهم وقدراتهم.

لا يخفى على ذي لبّ العلاقة بين تركيز الإمام على هذا الخلق؛ ونداءاته المتواصلة للأمة بالمساهمة في بناء وتمويل مدارس التّربية والتّعليم التّابعة لعلماء الإصلاح، هذا المشروع التّربويّ الذي كان نجاحه

(¹): نفس المصدر، (ص: 131).

مرتبطا بمدى الدعم المادي الذي يتلقاه من الجزائريين، وذلك عن طريق الإنفاق والتبرع المالي لهذا المشروع الإسلامي النهضوي، هذا المشروع الذي كان يحمل في أحشائه ميلاد الأمة الجزائرية المسلمة من جديد، وبالتالي فكل ما ينفق في سبيله رخيص وخسيس.

- مشاركة الفقراء للأغنياء في الإنفاق: بما أن المشروع الذي دعا الإمام إليه كان مشروع الأمة الجزائرية كلها، فإنه دعا الأمة كلها فقيرها وغنيها للمساهمة فيه، والمشاركة في تشييده، وذلك لحاجة المشروع إلى كل المساهمات صغيرها وكبيرها، ولهذا نادى الإمام حتى في الفقراء يحثهم على البذل والإنفاق بقوله: "ليشارك فقيرنا غنيًا بقليله، فيكون من السابقين إلى الأجر الكثير" ⁽¹⁾.

- اقتسام أهل القدرة أهل العجز عند الضرورة: كان الإمام على دراية تامة بالأوضاع المادية التي كان يعيشها الأكثرية من الجزائريين، كل ذلك بسبب التضييق والسياسات الاستعمارية المجحفة، ولهذا دعا الإمام أهل اليسر والمال إلى مساعدة إخوانهم من الفقراء إذا دعت الضرورة إلى ذلك، و"اقتسام أهل القدرة أهل العجز عند الضرورة والشدة" ⁽²⁾.

- الاستعانة بالروايات في علاج الآفات: لقد كان الإمام لا يمانع في القيام بروايات تربوية، خاصة إذا كانت تحوي رسالة أخلاقية، أو تعالج آفة من الآفات والمفاسد الاجتماعية، بل كان يحضرها إذا تيسر له ذلك، مثلما حصل عندما حضر لرواية بعنوان: (عاقبة القمار والجهل)، "وكان للرواية هدف اجتماعي وتعليمي وسياسي واضح، فقد حضرها ابن باديس، وخطب في نهاية التمثيل وألقى نشيده المعروف: اشهدي يا سماء" ⁽³⁾.

⁽¹⁾: نفس المصدر، (ص: 130).

⁽²⁾: نفس المصدر، (ص: 85).

⁽³⁾: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (مج 08 / ص: 139).

المبحث الثالث : المقاصد العلمية والمعرفية.

ضمّن الإمام درسه الحديثي الكثير من الغايات والأهداف العلمية التي كان يرى ضرورة إحيائها، والتّنبية عليها والدّعوة إليها، وذلك لقناعة الإمام بأهميّة ذلك وضرورته للأمة، ويمكن إيراد أهمّ الدّوافع التي ساهمت في توجّهه إلى معالجة هذا الجانب من الأمة:

- إدراك الإمام بأنّ كلّ خطأ عمليّ وزلل في التّطبيق؛ إنّما أصله ومرجعه إلى خطأ في التّصوّر واعوجاج في التّنظير، وبالتالي إذا كان أصل الأخطاء علميّا نظريّا فلا بدّ أن يماثله العلاج بأنّ يمسّ محلّ الخطأ وموضعه بدقّة، ولهذا كثيرا ما فشلت الأمة في علاج انحرافات الفكرية، وذلك بمواجهة الانحراف الفكري بالعلاج المادي، فلا يزيد الأمر إلّا تعقيدا.

- كثيرا ما كان الاتجاه للجانب العلميّ مختصرا للوقت والجهد، فعوض أن يعكف المرء على الفروع يصحّحها ويقوّمها كلّ منها على انفراد، فإنّه يتّجه إلى الأصل العلميّ لها يقوّمه، فتجده بتبيين أصل واحد تبيّن الكثير من الفروع دفعة واحدة، فيربح الجهد والوقت بذلك، وبعبارة أخرى؛ بتقويم أصل واحد تتقوّم الكثير من الفروع، وقد كان الإمام كثيرا ما يعمل ويؤجّد هذا الاتجاه في دروسه.

- الاتجاه الشّمولي والمتكامل للإمام في جهاده ضدّ عوامل الانحطاط، هذه الشّمولية التي كانت تفرض عليه أن يظهر علميّا وعمليّا، وقد وُفق الإمام في الجمع بين الاثنين، فكان عاملا بما علّم، كما كان يُعلّم النّاس بما يعمل، فاجتمع بذلك العلم والعمل وتآزرا، وأنعم به من منهج وسبيل.

ارتأيت تقسيم هذا المبحث إلى ثلاث مطالب متكاملة، الأوّل منها سيكون في أمل الإمام ومبتغاه من العلم والعلماء باعتبارهم عنوان العلم ودعاته وأوعيته، أمّا المطلب الثّاني فسيضمّن الجانب العلمي والنّظري للحديث رواية ودراية عند الإمام ابن باديس في درسه الحديثي، وأهمّ مميزات هذا الجانب وخصائصه المعرفية، لأختتم هذه المطالب بواحد أخير؛ أشير فيه لأهم الآثار والتّأثير الذي تركه الإمام في السّاحة العلمية للأمة، وسأحرص على أن يكون التّنال باختصار وتركيز شديدين يؤدّيان المطلوب، ويوصلان إلى المرغوب.

المطلب الأول: إرجاع العلماء إلى مكانتهم ودورهم الشرعي.

لم يتألم الإمام لما آلت إليه أوضاع عامة الناس مثلما آلمه ما وصلت إليه صفوة الأمة وخيارها من العلماء والوجهاء ممن تصدّروا للتوجيه والإرشاد الإسلامي، هذا الألم الذي ترجمه الإمام في كثير من النصوص والنداءات، ولعلّ هذا الحرص من الإمام راجع إلى عدّة اعتبارات منها ما يلي:

- إدراك الإمام بأنّ الانحطاط لو كان محصورا في العامة فقط فإنّ الأمر سهل ميسور، فتكفي قومة العلماء ونهضتهم للنهوض بهم، لكن إذا بلغ الورم والمرض إلى الأطباء أنفسهم، فمَنْ للأمة يداويها ويشفي أسقامها؟.

- استشعار الإمام لخطورة « التنظير للفساد » وتسويغه، ذلك أنّ الفساد إذا كان على المستوى العملي سهل علاجه، لكن إذا سبق بالتنظير له فإنّ العلاج سيكون صعباً ومستعصياً، خاصّة إذا كان المتلقّي جاهلاً وأميّاً لا يمكنه النّظر والتّفريق بين الحقّ والباطل، لتعطّل آلات المقارنة عنده وفسادها.

- كون العلماء متبوعين ومطاعين، خاصّة في بقعة مثل الجزائر، ففسادهم فساد للأمة وصالحهم صلاح لها، ومحلّهم من الأمة كمحلّ القلب من الجسد.

ولا يفوتني هنا التّنبية إلى أنّ تناول هذا المطلب سيتمّ التّركيز والسّعي فيه إلى جمع شتات هذا الموضوع من تراث الإمام، وذلك من أهمّ جوانبه وزواياه، مع الاستدلال وإقامة الحجّة من كلام الإمام على كلّ ادّعاء أدّعيه.

الفرع الأوّل / العلماء عند الإمام عبد الحميد ابن باديس:

إنّ هذا العنوان الإشكالي يمكن اعتباره إشكالية مرحليّة أمّلتها طبيعة المطلب وغاياته، وذلك لكونه من الضّروري معرفة صفات العالم عند الإمام ابن باديس ومعاله، والتّعرّف على أهمّ الشّروط التي كان الإمام يتوسّم وجودها وتوفّرها لمن حمّل أو حمّل هذا اللّقب (عالم)، بكلّ ما لهذا الأخير من دلالات شرعيّة، ووزن في الأمة والمجتمع.

كما سنعرف من خلال سقف هذه الشّروط وحدودها، هل كان الإمام في ذلك متساهلاً ومتغاضياً الطّرف في إطلاق لقب العالم؟، أم أنّ شروطه قويّة وصارمة حتّى في مثل تلك الظّروف؟.

أ/ صفات العلماء المصلحين عند الإمام ابن باديس: للعلماء الربانيين عند الإمام صفات كثيرة لا بد أن تتوفر فيهم، وذلك لكونها علامات وأمارات على الصلاح والتوفيق للقيام بالدعوة، والخوض في ميادين الإصلاح، ومن أهم هذه الصفات ما يلي:

- الإيمان والتقوى: من أهم الصفات التي يجب أن تتوفر في كل مسلم، لكنّها لدى المتصدّرين للإرشاد أولى من غيرهم، وذلك لما لهاتين الصفتين من سلطان وأثر يحمل صاحبه على التحرّي فيما يقول ويرشد إليه، خاصّة فيما يدّعيه من شرع الله تعالى، " فالإيمان والتقوى هما العلاج الوحيد لنا من حالتنا لأننا إذا التزمناهما نكون قد أقلعنا عن أسباب العذاب، ولا ننهض بهذا العلاج العظيم إلّا إذا قمنا متعاونين أفراداً وجماعات، فجعل كلّ واحد ذلك نصب عينيه وبدأ به في نفسه، ثم من يليه من عشيرته وقومه ثم جميع أهل ملّته، فمن جعل هذا من همّه وأعطاه ما قدر عليه من سعيه كان خليقاً أن يصل إلى غايته أو يقرب منها"⁽¹⁾، وليس أقدر على هذا من العلماء والدعاة.

- الرجوع إلى القرآن الكريم والسنة النبوية وأقوال العلماء الراسخين: فالعلماء هم أعرف الناس بقدر هذه المصادر ومنزلتها، وعظيم النفع والخير الذي فيها، فهم خير من يرجع إليها ويصونها، وشرّ من يهجرها ويتعد عنها، ولهذا " لا نجاة لنا من هذا التّيه الذي نحن فيه، والعذاب المنوع الذي ندوقه ونقاسيه إلّا بالرجوع إلى القرآن؛ إلى علمه، وهديه، وبناء العقائد والأحكام والآداب عليه، والتفقه فيه وفي السنة النبوية، شرحه وبيانه، والاستعانة على ذلك بإخلاص القصد وصحة الفهم والاعتضاد بأنظار العلماء الراسخين والاهتداء بهديهم في الفهم عن ربّ العالمين"⁽²⁾.

إن رجوع العلماء إلى الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة؛ هو النّجاة والرّشاد عند الإمام، وذلك ليقين الإمام بأنّه ما التمس منها ملتمس إلّا وصلح وأصلح، ونجا وأنجى.

- الجمع بين العلم والعمل: وهذه من أهم الصفات التي كان الإمام يحرص على وجوب توفرها في العلماء والمتصدّرين للإصلاح، وقد أخذت حيّزاً كبيراً من توجيهاته في درسه، وذلك لما كان يراه ويعايشه من أدعياء العلم، والمتشدّقين الذين نسبوا أنفسهم إلى ساحة العلماء زوراً وبهتاناً.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 01 / ص: 300).

(2): نفس المصدر، (مج 01 / ص: 410).

لقد أشار الإمام إلى هذه القضية بعدة طرق وعبارات، منها:

1/ العلماء العاملون هم ورثة الأنبياء: قيّد الإمام في درسه الحديثي وصف العلماء الذين يرثون ميراث النبوة، وذلك بزيادة قيد (العاملين) رغم عدم وروده في لفظ الحديث، وذلك حتى لا يغترّ به المدّعون المتطفّلون على هذا الوصف، " فالأنبياء والمرسلون -عليهم الصّلاة والسّلام- هم أولوا هذا المقام الجليل، مقام التّذكير، ثمّ من بعدهم ورثتهم من العلماء العاملين ⁽¹⁾، فالعاملون من العلماء فقط من لهم الحقّ في اعتلاء منابر التّذكير والإرشاد.

2/ العلماء يدعون بالسّمت قبل القول: نبّه الإمام العلماء إلى وجوب التّحليّ بالسّمت الصّالح، وذلك لكونه يقوم مقام القول البليغ، " وقد يقوم الفعل والسّمت والهدي مقام القول فيسمّى تذكيرا مجازا وتوسّعا، ويجمع الثلاثة قولك: عباد الله الصّالحون يذكّرون الخلق بالخالق بأقوالهم وأعمالهم وسمتهم ⁽²⁾، والله درّ الإمام ما أبلغ قوله، وما أعمق لحظه.

-التمكّن من العلم والأخذ بأزمته: لفت الإمام الانتباه إلى وجوب التمكنّ من العلم الشرعيّ الضّروري لمن أراد التصدّر، وقد أشار في درسه الحديثي إلى أمرين مهمّين؛ " أحدهما: وجوب طلب العلم، وثانيهما: عدم اعتبار المشقّة في طلبه مانعا من وجوبه، بلغت المشقّة ما بلغت ⁽³⁾، وهنا يفهم من كلامه بأنّ العلم الصّحيح لابدّ من المشقّة في طلبه وتحصيله.

إنّ هذه المشقّة عاقبتها مشرقة مشرّفة، ذلك أنّ من لم يخض هذا المجال سيقع لا محالة في الزّلل، إذ أنّ " العلم قبل العمل؛ ومن دخل في العمل بغير علم فلا يأمن على نفسه من الضّلال ولا على عبادته من مداخل الفساد والاختلال، وربّما اغترّ به الجهال فسألوه فاغترّ هو بنفسه فتكلّم بما لا يعلم فضلّ وأضلّ ⁽⁴⁾، فضرر المتصدّر بغير زاد علمي سيضرّ نفسه وغيره، ولا يخفى ما في الضّرر المتعدّي من أثر على ضحاياه، عكس الضّرر اللازم، ولهذا زلّة العالم قد تزلّ بها أمم بأكملها، وفي عهد الإمام وبيئته كان هذا الصّنف قد انتشر ضررهم وفشا فشوا أتى على الأخضر واليابس.

(1): نفس المصدر، (مج 01/ ص: 126).

(2): نفس المصدر، (مج 01/ ص: 125).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 196).

(4): نفس المصدر، (ص: 107).

لقد فصل الإمام ما كان قد أجمله من حيث مضمون العلم الذي يجب أن يتمكن فيه طالبه حتى يصير عالماً، و"إنّ العالم لا يكون إماماً في الإسلام حتى يكون إماماً في فقه العربيّة، إماماً في فقه القرآن، إماماً في فقه السنّة، إذ بدون هذه لا يفقه الإسلام، فتلك لغته التي بها أنزل، وذلك كتابه الذي عليه يعوّل، وتلك بيانه ممن به أرسل، وإنّ العلماء الذين بلغوا هذه الذروة في الثلاثة في كلّ عصر ومصر قليلون وفي درجات هاته المنزلة متفاوتون"⁽¹⁾، فهذه هي الثلاثية التي كان الإمام يشترط توافرها في العلماء.

أمّا من لم تتوفر فيه هذه الشّروط -على كثرتهم- فقد نصّحهم الإمام بالسّكوت وعدم التّكلّم في شرع الله تعالى والخوض في دينه، وذلك عند قوله: "فحذار من التّقصير في العلم اللاّزم للعبادة، وحذار من الكلام في دين الله، والإفتاء للنّاس بغير علم مؤهل لذلك، وحذار من صرف النّاس عن العلم وأهله إذا رأيتمهم قد افتتنوا بك"⁽²⁾.

-العلماء بعيدون عن مواطن الشّبهة والتّهمة: يوصي الإمام المسلمين عموماً والعلماء خصوصاً على وجوب الابتعاد عن مواضع التّهمة، وحيث يمكن أن يناله سوء الظنّ، "فلا ينبغي للمسلم أن يُرى حيث تقع في أمره شبهة وتتوجّه عليه تهمة ولو كان عند نفسه بريئاً، وعمّا يرمى به بعيداً، فليس الإنسان يعيش في هذه الدّنيا لنفسه، بل يعيش لنفسه ولإخوانه... وإذا وقف الإنسان موقفاً مشروعاً وخاف أن تتطّرق إليه في خواطر النّاس شبهة كان عليه أن يبادر للتّصريح بحقيقة حاله والتّعريف بمشروعيّة موقفه...

ذو المنزلة أحقّ بالتّبيين والتّصريح لعظيم حاجة النّاس إلى بقاء ثقتهم به، وتوقّف استفادتهم منه، وقيامه بما ينفعهم على تلك الثّقة"⁽³⁾.

ولعلّ أخطر المواطن التي نبّه الإمام العلماء لاجتنابها، والحذر من الحضور فيها، أو إقرار النّاس عليها؛ مواطن الشّرك والبدع المغلّظة، لأنّ في ذلك استئناساً للنّاس، ونيلاً من فضلهم ومكانتهم.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 04/ ص: 128).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 108).

(3): نفس المصدر، (ص: 182).

ب/ من وظائف العلماء المصلحين عند الإمام ابن باديس: للعلماء الربانيين مهام جسيمة، ووظائف عظيمة، لا تقوم للإصلاح قائمة إلا على أساسها، ولا تقدّم لمشروع النهضة إلا بتوافرها، وقد أشار الإمام في درسه الحديثي إلى الكثير منها، وسنكتفي منها بالأهم فقط؛ وهي:

-الدعوة إلى الكتاب والسنة: ممّا يميّز به العلماء الحقيقيّون؛ الدعوة إلى الوحيين على نور وفهم السابقين، وهي من أهمّ ما يميّز به المصلحون عن الجامدين، وقد قسّم الإمام العلماء في وقته إلى طائفتين اثنتين، وذلك حين قال: " في العالم الإسلامي كلّ اليوم طائفتان من المؤمنين تتنازعان خطّة الهداية والنّذارة والتذكير، ولكلّ منهما في سلوكها للقيام بتلك الخطّة سبيل، وكلّ منهما تدّعي أنّها هي التي على صواب، وأنها الأحقّ والأولى بنفع العباد، فرأينا أن نطبّق فصل الفرقان عليهما وننظر كيف يفرّق ما بينهما وبين المصيبة من المخطئة منهما... "

الطائفة الأولى: يذكرون من يدعونهم بغير القرآن بأحزاب وأوراد من وضعهم لا ممّا ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلّم إلا قليلا... "

والطائفة الثانية: يذكرون الناس بالقرآن فيأمروهم بقراءته وتدبّره ويبينون لهم معانيه ويحثّونهم على التمسك به والرجوع إليه، ويدعونهم إلى الأذكار النبويّة الثابتة في الكتب الصّحاح...⁽¹⁾، فهذا هو الفرق والفاصل بين دعاة الحقّ والهداية، وبين أنصار الباطل والغواية.

فأعظم ما يشتغل به المصلح؛ الدعوة إلى الكتاب والسنة، وذلك أنّه ما من خير وصلاح إلا بهما، وأمّا التّلبس والتّغريب بالنّاس " إنّما يجرّ إليه الغلوّ وقلة الفقه في الدّين في الكتاب والسنة وما كان عليه هدى السابقين الأوّلين "⁽²⁾.

-الصّلاح والإصلاح: أهاب الإمام بالعلماء أن يصلحوا أنفسهم وأحوالهم، لعلاقة هذا الأخير بصلاح الأمّة وتقويم اعوجاجها، فصلاح أفرادهم صلاح للجماعات، و" لن يصلح المسلمون حتّى يصلح علماءهم، فإنّما العلماء من الأمّة بمثابة القلب؛ إذا صلح صلح الجسد كلّّه وإذا فسد فسد الجسد كلّّه، وصلاح المسلمين إنّما هو بفقههم الإسلام وعملهم به، وإنّما يصل إليهم هذا

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 01 / ص: 380-381).

(2): نفس المصدر، (مج 01 / ص: 445).

على يد علمائهم، فإذا كان علماءؤهم أهل جمود في العلم وابتداع في العمل فكذلك المسلمون يكونون، فإذا أردنا إصلاح المسلمين فلنصلح علماءهم"⁽¹⁾، ولعلّ هذا ما حمل الإمام أن يكرّر على علماء الجمود والجمود لعلّه يوقظهم من غفلتهم، وينبّههم من رقتهم، لقناعته بأن قيامهم قيام للأمة.

-التآلف والاتحاد بين العلماء: إنّ جهد علماء الإصلاح لن يكون ذا جدوى وفعالية؛ إلا إذا اتّحدت الجهود وتضافرت، فوجب على العلماء أن ينسقوا ويتوحدوا بينهم، وقد كان هذا المطلب من الضرورات التي كانت تقتضيها طبيعة المواجهة، وقد نادى الإمام في العلماء بقوله: "أيها العلماء المصلحون المنتشرون بالقطر الجزائري إنّ التعارف أساس التآلف، والاتحاد شرط النجاح، فهلمّوا إلى التعارف والاتحاد... غايته تطهير الدين ممّا ألصقه به الجاهلون من الخرافات والأوهام والرجوع به إلى أصلي الكتاب والسنة وما كان عليه في عهد القرون الثلاثة"⁽²⁾.

كثيرا ما كان غياب هذا الجانب سببا في ضياع الجهود وتشتتها، أو موت الحركات الإصلاحية بموت أصحابها، ولهذا كان الإمام خير من امثل لهذا النداء وطبقه، كما نجد من خلال كلامه اشتراطه للوحدة والاتحاد على الحق والأصل (الكتاب والسنة)، ولم يكن يسعى للتجميع والحشد الخالي من معايير التّجاعة والقبول، وهذا القيد الذي أضفته ليس إملاء من هوى أو ليّ لكلامه، بل هو التفصيل الذي يبيّن به ما أجمله هنا، وذلك حين بيّن الإمام نوع الالتحام والاتحاد الذي نادى به، وذلك حين قال: "لو سكت الأنبياء والمصلحون عن كلمة الحقّ رغبة في (الالتحام) لما كانت أديان ولما حصل رقيّ في الفكر ولا في الخلق ولا في العمل لنوع الإنسان، فليس الأمر في (الالتحام) التحام غفل الأغنام، بل الأمر كلّ الأمر الذي يحتاج إلى شجاعة وصراحة وتضحية في ترقية الأفكار عن حضيض الخرافات والأوهام... ولا بدّ لهذا من معركة قلمية بين المصلحين والجامدين"⁽³⁾.

-الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: من وظائف العلماء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على ما يلاقه في سبيل هذا الأمر العظيم، فعلى العلماء الانتصار لدين ربّهم، والذبّ عن

(1): نفس المصدر، (مج 03 / ص: 217).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05 / ص: 22).

(3): نفس المصدر، (مج 05 / ص: 25).

حياضه وحوزته، " وهكذا كل مسلم غيور على الإسلام والكتاب والسنة يسمع من أهل الإسلام التكذيب بهما أو التعدي عليهما أو المعارضة لهما بالرأي والهوى، أو تحريفهما عن مواضعهما كذلك، فإنه لا يملك نفسه أن يدافع عنهما، وقد يملكه الغضب لله فيكون منه بعض ما ليس من عادته أن يصدر منه من قول "⁽¹⁾، كل ذلك غضبا لدين الله تعالى وانتصارا لحدود دينه التي يُراد انتهاكها، وهذه غضبة يجازي المرء عنها ويثاب.

أما السّاكتون عن الصّدد بالحقّ أو المعاند فيه؛ سواء كان مDAHنة أو خوفاً من العواقب التي تعقبه، فقد دعا الإمام عليهم بالموّت والهلاك، وذلك حين قال: " أسكت الله نامة كلّ ساكت عن الحقّ ومعاند فيه "⁽²⁾.

-منازلة المخالفين بالمناظرات العلميّة: ودعوته لسلوك هذه الطّريقة في الدّعوة لقناعته بفعاليتها وأثرها في إفحام المعاندين وإلجامهم لجام الحقّ، وكفّهم عن التّقوّل بالباطل والصّدد بالحقّ، كما أنّ " المناظرة في العلم والدين والمحااجة بالحقّ من الأصول الشرعية والكمالات الانسانية، لا يتعالى عنها كبير لكبره، ولا يحتقر فيها صغير لصغره، فالحقّ هو الحقّ على أيّ لسان ظهر، والحجة هي الحجة من أيّ ناحية قامت "⁽³⁾، فمن ظهر له الحقّ اتّبعه، ومن قوي برهانه فهو هو، مهما كانت رتبته ومنزلته.

ولمزيد من التعمّق فقد ذكر الإمام في درسه الحديثي بعض أصول المناظرة والمحااجة، وما يجب على المتناظرين أثناء المناظرة وبعدها، فمن " حقّ المناظر أن يذكر كلّ ما يراه من الحجة الحقّة لإثبات قوله ولو كان فيه ثقل على خصمه... ومن الواجب على من لاح له الحقّ في حجة خصمه أن يسكت ويسلّم، فقد علّمنا... كيف يعتمد على الحجة في البداية وكيف يخضع لها في النهاية "⁽⁴⁾، وبهذا يظهر الحقّ والإذعان له ولسلطانه، كما ستراجع المتشدّدون ممّن حسبوا السّاحة خالية من المدافعين عن الحقّ، والمنافحين عن حياضه وحدوده.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 176).

(2): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05 / ص: 30).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 77).

(4): نفس المصدر.

-الصبر على الأذى في سبيل الدعوة: إنَّ كلَّ ما سبق ذكره -على قلته- ممَّا يصعب في الميدان أمثاله، وفي الواقع استحضاره وتنفيذه، وذلك لضعف النفس وقوَّة الخصم وأنصاره وأعوانه، لكنَّ الإمام نادى في العلماء ثقتهم بالله تعالى وما أوصاهم به من الاستعانة بالصبر، وذلك " أنَّ علماء الدِّين المرشدين كانوا من قديم الزَّمان يعانون متاعب في الإرشاد ويتحمَّلون إذايات المفسدين، ويتلقَّون اعتراضات من أدعياء العلم المفتونين... تلك المتاعب والإذايات والاعتراضات لا تسقط عن العالم فريضة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، ولا تنجيه من تبعة الكتمان الثابتة"⁽¹⁾.

كما نبَّه الإمام العلماء بأنَّ نشرهم للعلم ليس نافلة من القول، أو تطوُّعا وزيادة من الأفعال، بل أوصاهم بالصبر والمصابرة، والحرص على تأدية الأمانة التي وكلت إليهم، ذلك " أنَّ العلم أمانة عند العلماء، وهم مكلفون بأدائها لمستحقِّيها، وليس العلم ملكا لهم يستغلُّونه فيكتمونه إن رأوا الكتمان أوفق بمصالحهم الشخصية، وينشرون منه ما لا يصادم أهواء العامة، بل يزيدهم جاها لديهم، ولا أبخس صفقة ممَّن اشترى الحياة الدُّنيا بالآخرة"⁽²⁾، وقدَّم رضا الله تعالى على رضا نفسه والنَّاس.

الفرع الثاني/ سمات العالم الجزائري عند الإمام ابن باديس:

إنَّ كلَّ ما سبق ذكره يمكن إدراجه في باب العموم، لكنَّ لابدَّ من تخصيص جانبٍ لنظرة الإمام إلى العالم الجزائري؛ واقعه وطبيعة نشاطه ونوعه، وما الذي كان يُرتجى منه من جلائل الأعمال والمساهمات، وهذا من باب الانتقال من العامِّ إلى الخاصِّ، ولعلَّ أهمَّ خصائص هذا الجانب ما يلي:

أ/ موقف الإمام ابن باديس من العلماء الجزائريين في عصره: أشار الإمام إلى بعض الجوانب التي استطاع العلماء الجزائريين تداركها بالدَّواء والبلسم الشافي، فأثنى عليهم في ذلك واستبشر، كما نبَّههم على مواطن النقص والخلل لتداركها واستدراكها.

-تثييت العلماء الذين هم في الواجهة: وهؤلاء ممَّن كانوا في جبهات المواجهة، خاصَّة بعدما حمي الوطيس بين علماء الإصلاح ودعاة الجمود، وبعدها لاقى المخلصون من أصناف العنت ما لاقوا، نادى فيهم الإمام مثبِّتا ومبشِّرا بقوله: " بشارة لدعاة الحقِّ وأنصار السنَّة ومرشدي الأمم

(1): المصدر نفسه، (ص: 195).

(2): المصدر نفسه.

عندما يقومون بدعوة القرآن في عشائهم ويلقون منهم النّفور والإعراض والبغض والإنكار، ويجدون أنفسهم غرباء بينهم، يعاديهم من كانوا أحبابهم ويقاطعهم أقرب النّاس قرابة إليهم، ويصبح يؤذيهم من كان يحميهم ويدافع عنهم... تلك الحالة لا تدوم وأتّهم سيكون لهم على كلمة الحقّ مؤيّدون، وفي الله محبّون، وسيكون لهم ودّ في القلوب ممن يعرفون ومن لا يعرفون...⁽¹⁾.

في هذا النصّ صورة حيّة على ما كان يلاقيه المصلحون في الجزائر من مقاومة وإيذاء ومعاندة، كما نلمس فيه -بما لا يدع مجالا للشكّ- تلك الثّقة الصّلبة، واليقين الكبير من نصر الله تعالى وتأييده، وأنّ العاقبة للمتقين، ممّن نصرنا كتاب الله وسنته؛ فانتصروا وما خابوا وما خسروا.

-ظهور هداية القرآن والسنة: استبشر الإمام ابن باديس بالثمرات الأولى للحركة الإصلاحية، وذلك لما بدأ يظهر من يانع الثمرات، فقد "كان النّاس منذ زمن قريب لا يسمعون ولا يسمع منهم لفظ الاهتداء بهداية القرآن العظيم والافتداء بهدي الرّسول الكريم -صلى الله عليه وآله وسلم- والسّير بسيرة السّلف الصّالح في النهوض بأعباء الدّنيا والدّين، وهم -إلا قليلا- عن هذا غافلون، أمّا اليوم بعد أن نهض العلماء المصلحون بواجبهم ونشروا دعوة الحقّ في قومهم، فقد أصبح ذلك معروفا عند أكثر النّاس... وإنا لنرجو من فضل الله المزيد، ونشاهد ذلك -والحمد لله- كلّ يوم يزيد فالحمد لله"⁽²⁾، وفي هذا النصّ نلاحظ المتابعة المستمرة للإمام لما وصلت إليه الأمور، كما نراه يرجع الفضل كلّّه؛ أوّله وآخره لله تعالى.

-قيام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: من أعظم مظاهر التّلاحم والاتّحاد بين علماء الإصلاح الجزائريين؛ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، هذه الجمعية التي وجدت كمنقذ وأمل للأمة الجزائرية، ولطالما اعتزّ الإمام بها وبجهودها، وامتدادها في الوطن، واحتواء طبقات الأمة لها بالتمويل والتّشجيع، والوقوف خلف شيوخها وأعضائها، وقد قال الإمام عنها الكثير، ولعلّ من أهمّ ما قاله ما يلي: "لم تقم في أمة إسلاميّة هيئة علميّة منظّمة تعلن الدّعوة إعلانا عاما وتصدد للمقاومة غير مبالية بما يؤيّد البدع والضّلالات من سلطان ديني وسلطان دنيوي؛ غير الأمة

(1): ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، (مج 01 / ص: 342).

(2): المصدر نفسه، (مج 02 / ص: 73).

الجزائريّة فكان من علمائها... الذين نهضوا بالدعوة الإصلاحية منذ بضع عشرة سنة وجاهدوا فيها لله وصابروا وأسسوا لها أعظم مؤسسة دينية -جمعية العلماء المسلمين الجزائريين- حتى أصبحت الدعوة الإصلاحية- والفضل لله والحمد لله- ثابتة الأركان مشيدة البنيان، بأسقة الأفنان، دانية الثمار وارفة الظلال- لا على الجزائر وحدها بل على الشمال الإفريقيّ كلّهُ⁽¹⁾، فكانت بذلك خير ما قام به العلماء، وبفضلها صار الإصلاح في مؤسسة وليس في فرد، ولا يخفى ما في هذا الأخير من خطر اندثار كلّ شيء بذهاب الفرد، لكنّ المؤسسة ضمان للاستمرارية والتواصل.

-عيشهم في سبيل حياة الأمة ونهوضها: دعا الإمام ابن باديس العلماء من خلال نفسه إلى بذل الغالي والرخيص، والعزیز والنّفيس في سبيل إحياء الأمة، ومداواتها من أمراضها وآفاتِها، والجود بالوقت والجهد للوصول لهذه الغاية العزیزة، والتي يهون في سبيلها كلّ غال، وقد قال الإمام في هذه المسألة: "ما فتئت أعلن عن فكري التي أعيش لها، وغايتي التي أسعى إليها في كلّ مناسبة، واليوم... رأيت من الواجب أن ألقى عليكم هذا البيان مختصراً في سؤال وجواب..."

س: لمن أعيش أنا؟ ج: أعيش للإسلام والجزائر...⁽²⁾، فمن خلال هذا النصّ يبيّن الإمام بأنّه كان يعيش للجزائر، وتعبيره هنا ب: (العيش) نصّ ودليل على فنائه وانصرافه الكليّ لتحقيق هذه الغاية، كما بيّن الهدف الأسمى؛ وهو العمل لإسلام الجزائر، وجزائر الإسلام، وهذا حتّى لا أُعبر بأسلمة الجزائر، كما عبّر هنا عن نفسه إشارة وحثاً لغيره من علماء الإصلاح على سلوك هذا الطريق إن رأوا صوابه، خاصّة بعد أن شرح الفكرة وبينّها تبيناً شافياً.

-الخطب الحية والخطب الميتة: أشار الإمام إلى أنّه في وقته كانت خطب الوعظ والإرشاد والتّوجيه الإسلاميّ في الجزائر؛ كانت على صنفين ونوعين، واختلافها راجع إلى اختلاف الخطباء، فمن "الخطباء من هم خطباء حقيقة، يخطبون الخطب الحية فيما يرون ويسمعون، وهؤلاء علماء شأنهم عدم الخروج عن سنّة القرآن الذي ينهى عن كلّ تعصّب ذميم، ومن الخطباء من قعد بهم قصورهم أو تقصيرهم عن إنشاء الخطب فهم يسردون في كلّ جمعة أوراقاً محفوظة مرّت عليها أجيال

(1): المصدر نفسه، (مج 03 / ص: 67).

(2): المصدر نفسه، (مج 03 / ص: 233-234).

وقرون" ⁽¹⁾، فروح الخطبة ممّا ينفخه فيها الخطيب، وإشارة الإمام إلى الخطب الشرعية لقناعته بمدى الدور الذي تلعبه في إيصال أفكار الإصلاح إلى الناس، والقدرة على التغيير والوصول إلى قلوب وعقول المخاطبين.

-سعي العلماء للأوسمة والألقاب: تألم الإمام لما كان يراه من سعي بعض المندسين في صفوف العلماء إلى الألقاب والتكريمات والأوسمة، وذلك كون هذه الأخيرة لم يكن يقابلها عمل وجهد تُنال بسببه، أو تعليم وتوجيه وإرشاد استحقّ الوسام لأجله، فطغت المظاهر والشكليات على اللب والأثر، حيث " لو كان عندنا من العلماء بقدر حاملي وسام العلم لكنّا من أعلم الأمم، ولو كان عندنا من الفلاحين بقدر حاملي وسام الفلاحة لكنّا من أغنى الأمم، ولو كان عندنا من يُحترم بقدر حاملي وسام الاحترام لكنّا من أوجه الأمم، ولكن! ولكن! ولكن! " ⁽²⁾.

لقد أدرك الإمام في وقته سعي المفسدين من المستعمر وأذيله إلى تفرغ كل مظهر وشكل محترم من محتواه، فيصير شكلا بلا مضمون، ووعاء بلا محتوى، ومظهرا بلا جوهر، وذلك في كلّ المجالات؛ المادية منها والمعنوية، فما أشبه اليوم بالبارحة.

-وقوف بعض العلماء على الجمود والتقليد: لقد نال أهل الجمود والتقليد والتقديس الحظّ الأوفر من انتقاد الإمام وإنكاره، وذلك لإدراكه مدى الأذى والأثر الذي سبّوه للأمة الأمية، ولكون هؤلاء أكبر وأعتى وأشدّ العقبات التي واجهت زحوف المصلحين، وقد بشر الإمام المصلحين وتوعّد الجامدين بأنّ " الحياة بطبيعتها قاضية بالتحوّل، وما نسّميه ثباتا واستمرارا إنّما هو بحسب ما يظهر لنا، وفي الواقع هو تحوّل بطيء، فالجامدون إذا يعملون على عكس الطبيعة ولا بدّ أن يندحروا " ⁽³⁾.

وقد فصل الإمام في نصوص أخرى ما أجمله في هذا النصّ، وبيّن المقصود من حديثه عن معاكسة الجامدين للطبيعة، وأظهر مضمون هذه الطبيعة وفحواها، وذلك عند قوله: " للعلم أطوار لا يزال

(1): ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، (مج 05 / ص: 80).

(2): المصدر نفسه، (مج 05 / ص: 86).

(3): المصدر نفسه، (مج 06 / ص: 355).

يجتازها من قديم إلى جديد، ولكل جديد حالات خاصة يمتاز بها عن القديم، للحياة فيه فكر خاص غير الفكر التقليدي القديم، ومن لم يعمل بهذا الناموس من الأمم أو الأفراد، فإنه مقضي عليه بالبوار، وإن أملى له الزمان، فمتى يفقه هذا ساداتنا الجامدون ؟" (1).

وقد تبرأ الإمام من هذا المنهج واستل نفسه وإخوانه المصلحين منهم كما تستل الشعرة من العجين، وذلك عندما قال: "لسنا ممن يفتخر بالعظم الرميم أو بالأتكال على المجد القديم" (2).

ب/ من وصايا الإمام ابن باديس للعلماء والمصلحين: في آخر هذا المطلب يمكن الإشارة لأهم الوصايا والتوجيهات العلمية والمعرفية التي أسداها الإمام في درسه الحديثي لمن أراد إشاعة العلوم، وإحياء دوارس المعارف الشرعية منها والكونية، ولعل أهمها ما يلي:

-الحرص على الوعظ والتذكير بين الاستقصاء والتقصير: وذلك عند الإمام واجب على العلماء والمرشدين، فعوض أن يغرقوا في الحشو والتطويل، أو الإشارة والتقصير، لابد عليهم أن يتجهوا إلى " ما فيه تبصرة للعقول أو تهذيب للنفوس من تفسير آية كريمة، أو حديث شريف، أو توضيح لمسألة في أصول العقائد أو أصول الأعمال، معترضين بأنظار أئمة السلف الذين لا يرتاب في رسوخ علمهم وكمال إيمانهم، وأئمة الخلف الذين درجوا على هديهم في نمط وسط بين الاستقصاء والتقصير" (3)، ففي هذا النص يحدد الإمام المادة والمدة اللازمة للدرس الناجح.

-إمام ومرجع العلماء المبلغين: نبه الإمام في درسه الحديثي للأساس والإمام والحجة والبرهان الذي يجب على العلماء الاستعانة به، وتقديمه أمام كل أمر آخر، وإعطائه المكانة والمنزلة الشرعية اللائقة به، " فعلى الناشرين لهدايته والمبلغين لدعوته أن يجعلوا القرآن إمامهم وحببتهم ومرجعهم، فإنه هو كتاب الدعوة ومنشور الهداية ومظهر الحجة، وأتباع النبي ﷺ هم أتباع القرآن وخلفاؤه في التبليغ، وورثته في العلم هم الذين يبلغون القرآن ويتلون القرآن، ويندرون بالقرآن كما هو ﷺ كذلك" (4)، فهكذا جمع بين الكتاب والسنة النبوية.

(1): المصدر نفسه، (مج 06 / ص: 351).

(2): المصدر نفسه، (مج 05 / ص: 67).

(3): ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 27).

(4): المصدر نفسه، (ص: 37).

- تحرير المسائل وتمييز الأصل من الدخيل: دعا الإمام العلماء إلى الخوض العلمي في المسائل التي يكثر فيها الكلام والخصام والجدال، والتعرض لها بالتحليل والتحرير، ولهذا كان الإمام في درسه الحديثي بعد أن يدرس المسائل ويحررها يقول: "وقد من الله بتحريرها على هذا الوجه الذي لم أره لغيري، وقد كنت في تحريرها -علم الله- باحثا منصفاً متجرداً، فما كان فيها من حق وصواب فهو من الله، وما كان فيها -عياذاً بالله- من باطل وخطأ فهو مني، واستغفر الله والخير قصدت وحسبنا الله ونعم الوكيل"⁽¹⁾، نجد الإمام بعد أن عبر عن ثقته وقناعته بما وصل وتوصل إليه؛ يشهد بالفضل لله تعالى، وبالخلل والتقصير لنفسه وجهده، وذلك تواضعاً وهضماً للنفس.

- التحذير من الإخلال بقيود الشارع أو تقييد مطلقاته: حذر الإمام من إهمال قيود الشرع والتقييد لما ورد فيه مطلقاً، وذلك لكون هذه المسألة مدخلاً لكثير من المخالفات والتجاوزات التي تقع في دين الله تعالى، "ولنحذر كل الحذر من الإخلال بقيود الشارع أو التقييد لمطلقاته، ففي ذلك استظهار عليه، وقلة أدب معه، وتبديل لوضعه، واختيار عليه، وإنما الخيرة لله ولرسوله، لا لأحد من الناس، وإن الغالب على الناس أنهم لا يتعمدون الإخلال بالقيود، وإنما يتعمدون التقييد للمطلقات بأنواع الالتزامات، مع أنهما في المخالفة سواء، فلنحذر من الوقوع في مثل هذا على الخصوص"⁽²⁾.

- التسليم للدليل والحجة الشرعية: حث الإمام الأمة عموماً والعلماء خصوصاً على وجوب التسليم والخضوع للدليل الملزم من كتاب الله، أو سنة النبي ﷺ، "فحذار إذا سمعت حكماً شرعياً ونصاً قرآنياً أو حديثاً صحيحاً نبوياً أن تقابل بالخلاف أو تضرر الخلاف، بل انشرح بذلك صدراً، ولا يكن في صدرك من حرج مما قضى الله ورسوله وسلم تسليمًا"⁽³⁾، والخضوع لهذين الأصلين الشرعيين سيوحد المرجع والمصدر الذي يلتمس منه العلماء، ويأخذ منه المرشدون، ويتحاكم إليه المتخاصمون في قضية من القضايا، أو مسألة من المسائل التي يحصل فيها الخلاف، وأول التوحد التوحد في الأصول والمراجع التي حاد عنها الكثير ممن زاغوا عن الوحيين.

(1): المصدر نفسه، (ص: 47).

(2): المصدر نفسه، (ص: 59).

(3): المصدر نفسه، (ص: 177).

-الحث على نشر العلم ومحاربة الجهل: ومن أعظم ما يجارب به الجهل؛ حديث الرسول ﷺ،
ففيه ما يزيل غشاوة الجهل ويجليها، وهو خير وسيلة ومعين في هذا، ولهذا كان الإمام بعد أن يشرح
حديثاً يقول: "فحق على من قرأ هذا الحديث أن يعلمه للناس وينشره فيهم ويحث نفسه وإياهم على
العمل به والسير على أدبه، ولا يستعظم ما يراه من جهل فإنه ما جاء إلا من قلة نشر العلم، فإذا
نشر العلم -ولو كان في أوله قليلاً- فإنه لا يلبث بإذن الله أن يصير كثيراً" (1).

-شرف الانتساب إلى النبي ﷺ بسنته: إن الاشتغال بالسنة النبوية علماً وعملاً من أعظم
الوسائل التي بها تُنال أخوة النبي ﷺ، "فنحن من إخوانه -صلى الله عليه وآله وسلم- وكفى بهذه
النسبة شرفاً، فما على المسلم إلا أن يعمل بسنة نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- حتى تتحقق فيه هذه
النسبة، وليس من الأدب ولا من الإيمان أن يستضعف المسلم هذه النسبة ويحاول تقويتها بنسبة
أخرى إلى شخص آخر... " (2)، ثم بين الإمام المستحقين لهذا الشرف العظيم، والبعيد عن في
المقابل، وذلك عند قوله: "إن عنايته -صلى الله عليه وآله وسلم- بأمته في الآخرة خاصة بالثابتين
على سنته منهم، فأما المبتدعون الذين بدلوا سنته وأحلوا محلها بدعتهم، فإنه -صلى الله عليه وآله وسلم-
يبيدهم عنه بقوله: (فسحقاً، فسحقاً، فسحقاً) " (3)، فالخير في الاتباع والشرف في الابتداء.

-التثبت في الحقائق الشرعية: والرجوع إلى صاحب الشرع في فهم الشريعة، "فيا أيها
المسلمون تثبتوا في الحقائق الشرعية واطلبوا تفسيرها من صاحب الشريعة أو ممن قرب زمنه من
زمنه، ولا تعتمدوا في فهم حقائق دينكم على عرفكم وعادتكم فإن الجهل بالسنة وخروج أمر العامة
من يد العاملين بها مما ابتليت به الأمة الإسلامية قديماً" (4) وحديثاً، وجرت إليها الكثير من الأثر.

في آخر المطلب يمكن القول بأنه "لم تكن النزعة العلمية في منهج الإمام ابن باديس كلاماً يلاك في
الخطب أو يُسرد في الدروس، بل واقعاً متجسداً من خلال مواقفه العملية وآرائه العلمية" (5).

(1): المصدر نفسه، (ص: 179).

(2): المصدر نفسه، (ص: 198).

(3): المصدر نفسه، (ص: 199).

(4): المصدر نفسه، (ص: 202). وانظر: المصدر نفسه، (ص: 327 / 328).

(5): عمار بن مزوز، المصدر السابق، (ص: 88).

المطلب الثاني: المقاصد الحديثية من درس الإمام ابن باديس

سأتناول في هذا المطلب أهم المقاصد والمطالب الحديثية التي حواها درس الإمام ابن باديس، وهذا مع اجتناب تكرار ما سبق التّعرّض إليه في الفصل الثاني، ولهذا سأتطرق للخدمة التي أسداها الإمام للحديث النبوي، وأهم الملاحظات التي يمكن تسجيلها على درسه الحديثي، ولعل أهمها وأظهرها للمفتش في تراثه ما يلي:

الفرع الأول/ حجم ونوعية الحديث النبوي في درس الإمام ابن باديس وتراثه:

بعد البحث والاستقصاء والاستقراء لأهم تراث الإمام ابن باديس المتوفّر والمطبوع؛ والتنقيب عن الأحاديث التي دّعم بها الإمام درسه يمكن إظهار النتائج التالية:

أ/ حجم الحديث النبوي في درس الإمام ابن باديس وتراثه: إنّ الحجم المراد قياسه والتّطرق إليه في هذا العنوان ليس هو الحجم المادي المعروف، بل هو استعراض للكمّ والمكوّن الحديثي في درس الإمام، وذلك للأسباب التالية:

- معرفة حجم الحديث في درس الإمام يبيّن لنا مدى استعانة الإمام بالحديث النبوي، باعتبار هذا الأخير مصدراً من مصادر التشريع الأساسية والأصلية، وبالتالي الاطلاع على مكوّن من مكوّنات القوّة والفعاليّة في درس الإمام وخطابه وخطبه.
- محاكمة الإمام عملياً لما ألزم به نفسه علمياً ونظرياً، فقد سبقت نصوص كثيرة أعلن فيها الإمام إقامة جهاده على أساس كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ، بفهم سلف الأئمة المعبرين.
- معرفة حجم الحديث في درسه يخبرنا بما لا يدع مجالاً للشك بمكانة الحديث وموقعه عنده في الخطاب، هل الحديث أصل من الأصول، وأساس من الأسس يأخذ موقع السّنام من الأمر، أم أنّه يستعين به من حين إلى آخر فقط؟.
- النّظر في توزيع هذه الأحاديث على المجالات التي خاضها الإمام، وتحليل هذا التّوزيع لمعرفة العلوم والمعارف التي كان الإمام يغنيها بالحديث، والمجالات التي كان لا يكثر من إيراد الحديث فيها، أم أنّه كان يستعين بالحديث في جميع العلوم التي كان يخوض في مسائلها وقضاياها؟.

إن الوصول إلى هذه الغاية لابد لها من سلوك طريق التتبع والاستقراء لتراث الإمام ومؤلفاته، وهذا ما أدعي القيام به -على ما قد يكون فيه من الزلل والخلل- فقد جمعت الأحاديث التي أوردها الإمام فيما كتبه ودوّنه أو نُقل عنه، وقد شمل هذا الاستقراء والجمع للأحاديث الكتب التالية:

- آثار ابن باديس، 04 مجلدات، عدد الصفحات المعنية بالبحث: 1680 صفحة.
 - الإمام عبد الحميد ابن باديس حياته وآثاره، المجلدين: 05/06، عدد الصفحات المعنية بالبحث: 800 صفحة.
 - العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، عدد الصفحات المعنية بالبحث: 120 صفحة.
 - مجالس التذكير من حديث البشير النذير، عدد الصفحات المعنية بالبحث: 300 صفحة.
 - مبادئ الأصول إملاء الإمام عبد الحميد بن باديس، عدد الصفحات المعنية بالبحث: 42 صفحة.
- فهذه هي المصادر التي جمعت منها الأحاديث التي استعان بها الإمام ابن باديس، وقد بلغ عدد ما اطلعت عليه: أكثر من 460 حديثاً، ومما يمكن الإشارة والتنبيه عليه في هذا المقام ما يلي:
- يشمل هذا العدد الأحاديث التي استقل بها الإمام دراسة وتحليلاً كما في مجالس التذكير من حديث البشير النذير مثلاً، أو التي جاءت في معرض الاستدلال والاستشهاد كما في دروس التفسير على سبيل المثال.
 - دخول بعض الأحاديث التي أوردها الإمام بالمعنى لظهورها واشتغال لفظها، كما وردت القليل من الآثار الموقوفة، وهي قليلة جداً بالمقارنة مع الأحاديث الصريحة الواضحة.
 - ألحقت بآخر الرسالة ملحقة علمياً مختصرة، أوردت فيه مواضع هذه الأحاديث من دروس الإمام ابن باديس، وذلك إقامة للدليل، وتيسيراً لمن أراد الرجوع إليها لدراستها والنظر فيها، ويعلم الله تعالى ما بذلته من الجهد والمشقة في سبيل هذا العمل الضروري، وقد اكتفيت بذكر جزء من الحديث؛ سواء من طرفه أو أثناءه، وذلك تيسيراً للرجوع إليها، ثم الدلالة عليه في موضعه بذكر عنوان الكتاب ورقم الصفحة من الطبعة المعتمدة.

إن وجود أكثر من 460 حديثاً وأثرًا في قرابة 2900 صفحة يعدُّ دليلاً واضحاً وظاهراً على الحضور القويّ والّلافت للحديث النبويّ في دروس الإمام وجهاده العلميّ، ومن خلال هذا الاستقراء والجمع يمكن الإجابة عن النقاط التي طرحناها قريباً؛ فنقول:

- التزام الإمام ابن باديس بما ألزم به نفسه، فقد مكّن الحديث النبوي من سنام درسه، وأنزله منزلته الشرعية المطلوبة، فكان يبنّي عليه الأحكام، ويستنبط منه الحكم، ويعتزّ به ويحتفي بإيراده والاستدلال به.

- توزيع الإمام للحديث النبوي على كلّ العلوم والمعارف التي كان يخوضها، فنجدّه في تفسير القرآن الكريم، وفي أصول الفقه الإسلاميّ، وتقرير العقائد الإسلاميّة، فلم يحصر الحديث في فنّه وعلمه فقط، والدليل على هذا التوزيع ما سبق إيراده من كتب الإمام كالآتي:

آثار ابن باديس: 1680 صفحة / 282 حديثاً.

الإمام عبد الحميد ابن باديس حياته وآثاره، المجلدّين: 05 / 06 : 800 صفحة / 09 أحاديث.

العقائد الإسلاميّة من الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة: 120 صفحة / 35 حديثاً.

مجالس التذكير من حديث البشير النذير: 300 صفحة / 117 حديثاً.

مبادئ الأصول إملاء الإمام عبد الحميد بن باديس: 42 صفحة / 22 حديثاً.

لكنّ أستاذتنا الدكتورّة عقيلة حسين نقلت إحصاء آخر حيث قالت: "لقد أحصيت عدد الأحاديث التي وردت في آثار ابن باديس -والتي وصلت إلينا- بثلاث وأربعين حديثاً وحوالي سبعة عشر أثراً... وكانت الأحاديث المجموعة في كتاب «مجالس التذكير»... وعددها 39 حديثاً...

أمّا كتاب ابن باديس حياته وآثاره فقد احتوى الجزء الثّاني المخصّص في معظمه للحديث على 43 حديثاً و17 أثراً... وسأتناول هذه الأحاديث والآثار بالدراسة والتحليل وبيان منهجه"⁽¹⁾.

يمكن اتباع هذا الكلام بالملاحظات العلميّة التّالية:

1/ ما حملني على إيراد هذه القضية إلّا لكون الكلام متعلّقاً بتراث الإمام ابن باديس الحديثي، الذي يجب إظهاره على حقيقته، ولكون البوّن شاسعاً، والفارق سحيقاً، ولأنّ بحث الأستاذة قدّم في

(1): د/ عقيلة حسين، المصدر السّابق، (ص: 295-296).

مؤتمر دولي، ما يعني أنه قد فوتنا على أنفسنا فرصة للتعريف بالتراث الحديثي الحقيقي للإمام.

2/ الفارق الكبير بين ما توصلت إليه الدكتوراة عقيلة حسين، وبين ما ادّعي بلوغه، وذلك أن جميع ما أحصته الدكتوراة لا يبلغ 100 حديث وأثر، أمّا ما أحصيته فقد تجاوز 460 حديثاً وأثراً، وبين الأمرين فارق لافت.

3/ اعتقاد الدكتوراة بكفاية تلك الأحاديث المحصورة في الجزء الثاني من آثاره، ومجالس التذكير؛ في معرفة وتبيين منهج الإمام في الحديث النبوي، ولا يخفى ما في هذا التناول والتحديد من الجزئية والنقصان، وذلك لكون المنطلق قد أهمل أكثر من ثلاثة أرباع تراثه الحديثي، وهذا كثير؟.

- إعادة الإمام ابن باديس للحديث النبوي إلى مكانته الشرعية اللائقة، فبعد أن دعا نظرياً للرجوع إلى الحديث النبوي، أحيا هذا النداء بالعمل والتطبيق، فرأى كلّ الملتزمين من خلال كتاباته كيف تكون الكتابة الإسلامية الحية، وكيف يتمّ توظيف الحديث التوظيف الصحيح، فاقترن القول بالعمل، وعاد للحديث مكانه بعد طول غياب وتغيب.

يبقى التنبيه على اختلاف طريقة الإمام في إيراد الحديث النبوي في هذه الكتب، وذلك لاختلاف علومها واختصاصاتها، فطريقة ورود الأحاديث في تفسيره للقرآن ليست هي نفسها في شرح الحديث، أو في تقرير العقائد، أو تأصيل أصول الفقه الإسلامي، ورغم عدم القصد إلى التفصيل والتحليل في هذا المجال لكن لا بأس بالإشارة إلى أهمّ الملاحظات بتركيز واختصار:

- في تفسير القرآن الكريم: يأتي الإمام بالحديث إذا كان فيه سبب نزول الآية، أو لبيان معانيها وغاياتها، أو لتبيين مجمل، أو إظهار مبهم، أو لدفع وهم أو اضطراب في الفهم، ما يعني أن الحديث في التفسير توضيح وبيان للقرآن الكريم.

- في العقائد: يأتي الإمام بالأحاديث النبوية بعد الآيات القرآنية لتقرير العقائد الإسلامية، ويلاحظ عليه هنا إيراد الأحاديث دون شرحها أو التعليق عليها، وذلك لعدة أسباب؛ منها صياغة الإمام لها في سياق يجعلها مبيّنة ومُبيّنة بما قبلها وما بعدها بالآيات أو السياقات أو التعليقات الخفيفة على أصل الموضوع، وقد يرجع سبب عدم شرحه وتعليقه على الأحاديث في تقريره للعقائد راجعاً إلى قناعته بوضوحها وجلالتها وبساطتها ببساطة العقيدة الإسلامية.

- في أصول الفقه: لقد جاءت الأحاديث التي استعان بها الإمام في إملائه الأصولي تميز بالاختصار والإيجاز، مع استعانتها بها في مقام الاستدلال والاستشهاد على ما كان يؤصله ويقرّره من القواعد والضوابط، حتّى يكون تأصيله مبنياً على الدليل الشرعي المعتمد.
- في شرح الحديث: هذا الجانب تمّ التطرق إليه في الفصل الثاني، لكن تكملة للقسمه يمكن القول بأنّ الحديث هنا يختلف عن المجالات السابقة في كونه كان هو الأصل والمنطلق والبدائية، حيث يأتي بالحديث ثمّ يعكف عليه بالشرح والتحليل والدراسة.
- ب/ نوعية الحديث النبوي في درس الإمام ابن باديس وتراثه: بعد الاطلاع على حجم الحديث في درس الإمام وكمّيته، لابدّ من التعرّض إلى نوعية ومرتبة الحديث الذي كان الإمام يوظفه، والإشارة إلى أهمّ الملاحظات في هذا الجانب.
- يجب الانتباه إلى أنّ أحاديث الإمام ابن باديس التي في تراثه ليست كلّها للاحتجاج والاستدلال، بل هي أنواع عديدة، منها:
- 1/ أحاديث للاستدلال والاستشهاد؛ وهي المعنية في هذا العنوان والتي يمكن محاكمة الإمام إليها، وذلك بتخريجها ومعرفة مرتبتها من الصّحة والضعف، وهذه أكثرها عند الإمام من الصّحيح المعتمد، أو الحسن.
- 2/ أحاديث للشواهد والاعتبارات؛ وهي التي يأتي بها لتقوية ومساندة أصول صحيحة، سواء كانت آيات قرآنية أو أحاديث صحيحة، خاصّة إذا كانت فيها زيادات يرى الإمام الحاجة إليها مع عدم ورود هذه الزيادات في الأصول الصّحيحة.
- في هذا النوع من الأحاديث يمكن أن نجد بعض الضّعيف ضعفاً غير شديد ممّا سبق للإمام أن اختار قبوله بالشروط السابقة، كما نجد فيه القليل النادر ممّا لا يقبل الاحتجاج به.
- 3/ أحاديث للنقد والدراسة؛ هذه أحاديث في الغالب ضعيفة أو موضوعة أو منكّرة؛ جاء بها الإمام لدراستها وإظهار عللها، وأسباب عدم قبولها، خاصّة تلك التي يتعلّق بها الناس في تقرير عقائد باطلة، أو التعبد بعبادات زائفة، والتي يكون في نقضها نقض لأصول الفساد وأعمدته، حتّى لا يترك لهم متعلّقاً يسوّغون به مذهبهم.

لهذا إذا وجد القارئ في ملحق الأحاديث حديثا ضعيفا أو موضوعا، فلا يسارع لاتهام الإمام به، بل لابد له من الرجوع إلى الأصل والنظر في سياق وروده، لمعرفة إن كان في معرض الاستدلال والاستشهاد، أو إنه أوردته للتحذير منه وإظهار زيفه وبطلانه.

- لقد كان الإمام يسعى جهده للالتزام بالصحة التي أراد ونادى بوجوب تحريها في الحديث الذي يستدل به، وبمنظرة على الأحاديث التي في تراثه -مما جاء به في معرض الاستدلال والاستشهاد- وجدت بأن أكثر الأحاديث التي يوردها في درسه هي في مرتبة الصحيح أو الحسن، خاصة من الصحيحين.

- تختلف درجة الحرص والتحري لدى الإمام في اختيار الحديث باختلاف المجال الذي يستدل فيه، فنجد الأحاديث التي استعان بها في تفسير آيات القرآن الكريم ليست في نفس درجة ومرتبة الأحاديث التي أوردتها في تقرير العقائد، أو تأصيل مباحث أصول الفقه، وذلك لعدة أسباب؛ منها ورود أكثر الأحاديث في درس التفسير في مقام التقوية لمعاني الآية وبيانها وتجليه معانيها، أما في كتاب العقائد -مثلا- فقد كانت ترد الأحاديث كأصول تُبنى عليها العقائد، وتُشيد عليها الأصول، فكان لزاما عليه التحري والتدقيق في هذه الأخيرة أكثر من غيرها.

نجد الأحاديث التي استدل بها في كتاب العقائد 35 حديثا مقسمة ومصنفة كالتالي:
منها: 13 حديثا في الصحيحين، و 03 عند البخاري، و 16 حديثا عند مسلم، و 03 أحاديث (صحيحة) في غير الصحيحين.

أما كتاب مبادئ الأصول فقد حوى في صفحاته اليسيرة 22 حديثا موزعة ومرتبة كالتالي:
منها: 10 أحاديث في الصحيحين، و 05 عند البخاري، و 05 أحاديث عند مسلم، و 02 حديثين (صحيحين) في غير الصحيحين.

كقراءة إجمالية لأحاديث هذين السّفرين الجليلين يمكن القول بأنّ في هذا التصنيف السريع نجد بما لا يدع مجالا للشكّ بأنّ كلّ أحاديث هذين الكتابين صحيحة، بل نصفها متفق على صحتها بين

البخاري ومسلم، و 91٪ منها في الصحيحين، وخمسة منها فقط في غير الصحيحين، وهي رغم ذلك عند أهل الصناعة صحيحة.

كما يلفت انتباهنا عدد الأحاديث التي تفرّد بها البخاري ومسلم كلّ منهما عن الآخر، وذلك أنّ التي تفرّد بها مسلم عن البخاري قرابة ثلاثة أضعاف ما تفرّد به البخاري عن مسلم، وربّما في هذا دليل لتقديم الإمام ابن باديس لألفاظ مسلم ورواياته على ألفاظ البخاري، لكون روايات مسلم أجمع وأوفى من روايات البخاري التي تتوزّع أطرافها في كتابه، فلا تناسب مقصد الاختصار والتركيز اللذين كان الإمام يرمي ويقصد إليهما في درسه.

إنّ هذه الأرقام والحسابات اليسيرة ليست لتسويد الصفّحات وإثقال الأسفار، ولكنها شواهد ناطقة على تلك العبقرية الفذة، والملكة الحديثية المتمكّنة لدى الإمام ابن باديس، في زمن كانت فيه بضاعة الحديث مزجاة، وكتب السنّة مهجورة، والنّاس عن الحديث منصرفون، وراجت الآراء والأهواء، واستحكمت البدع والضّلالات، ودُسّت الموضوعات والمناكير والأقوال الباطلة في الكتب على أنّها من كلام النبي ﷺ.

في وسط هذا الموج الظلامي المتلاطم نجد إماما في قسنطينة الجزائر يؤلّف أسفارا في العقائد والأصول أحاديثها كلّها صحيحة بلا استثناء، رجل استطاع تمييز المقبول من المردود، رجل ألزم نفسه فالتمزم، ففعل ما لا يفعله إلا القليل -من الكبار-، بل يعجز عنه الكثيرون حتّى في زماننا، فتجد الكتب والمؤلّفات ذات الأوزان والأثقال ولكن ليس فيها إلا المتردّية والنّطيحة وما أكل سبّع النّكارة والوضع.

ولولا خوف التّطويل والإكثار لقمنا بهذا العمل مع كلّ المؤلّفات الأخرى، لكن في هذين المثالين كفاية للملتزمين والباحثين عن مرتبة الأحاديث التي كانت تعمر درس الإمام ابن باديس، ولكون الخوض في هذه المجال سيخرج بنا عن مقصد الرّسالة، ويبقى هذا المجال رحبا وواسعا للباحثين لمن أراد دراسة أحاديث التّراث الباديي، والحكم عليها وتبيين مرتبتها، وهنا أقصد العمل والجهد الأكاديمي الذي ترعاه الجهات العلميّة في البلاد، ويعرض للدراسة والنّقد والتّمحيص، وذلك حتّى يحوز وتناله أيدي التّنقيح والتّصحيح، فيخرج عملا محكّما يستفيد منه قراء التّراث الباديي.

الفرع الثاني / عناية الإمام ابن باديس بالحديث النبوي:

إن توجيه العناية والرعاية للحديث النبوي من أعظم المقاصد والأهداف التي كان الإمام ابن باديس يرهاها في درسه، وقد اعتنى ودعا الإمام للاعتناء بالحديث، وذلك حرصاً منه على الجمع بين القول والعمل، وتعليماً منه لمن أراد الامتثال كيف يكون الاعتناء العملي التطبيقي.

أشارت الدكتورة عقيلة حسين إلى الكثير من مظاهر عناية الإمام ابن باديس بالسنة النبوية، وسعيه الحثيث إلى إعادة بعث هذا العلم رواية ودراية، وذلك بعد أن كادت تنطمس معالمه وتندرس رسومه، وأحصت منها (08 علامات)⁽¹⁾ أهمها الجهود والأمارات الآتية:

1/ إنشاء صحيفة السنة النبوية المحمدية: وهي صحيفة تصدر يوم الاثنين من كل أسبوع، وقد صدر منها 13 عددا فقط، قبل أن يوقف المستدمر صدورها، وكان تاريخ صدور أول عدد يوم الاثنين 08 ذي الحجة 1351 هـ، الموافق لـ: 03 أبريل 1933 م، أما آخر عدد فقد صدر بتاريخ: 10 ربيع الأول 1352 هـ، الموافق لـ: 03 جويلية 1933 م.

لا يخفى ما في تخصيص الإمام للسنة بجريدة مستقلة من الاحتفاء والاحتفال بالسنة النبوية والحديث الشريف، وقد قال الإمام كلاماً دقيقاً ومعبراً في بداية هذه الجريدة، بين فيه الغرض والغاية من تأسيسه لهذه الصحيفة، ومن ذلك قوله: " رأينا كما يرى كل مبصر ما نحن عليه معشر المسلمين من انحطاط في الخلق وفساد في العقيدة، وجمود في الفكر، وقعود عن العمل، وانحلال في الوحدة، وتعاكس في الوجهة، وافتراق في السير، حتى خارت النفوس القويّة، وفترت العزائم المتّقدة، وماتت الهمم الوثابة، ودفنت الآمال في صدور الرجال... فأخذنا على أنفسنا دعوة الناس إلى السنة النبوية المحمدية وتخصيصها بالتقديم والأرجحية... وقد زدنا من فضل الله أن أسسنا هذه الصحيفة الزكية، وأسميناها « السنة النبوية المحمدية » لتشر على الناس ما كان عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سيرته العظمى، وسلوكه القويم وهديه العظيم... وفيها وحدها ما يرفع أخلاقنا من وهدة الانحطاط، ويظهر عقيدتنا من الزيغ والفساد، ويبعث عقولنا على النظر والتفكير، ويدفعنا إلى كل عمل صالح، ويربط وحدتنا برباط الأخوة واليقين، ويسير بنا في طريق واحد مستقيم، ويوجهنا

(1): د/ عقيلة حسين، المصدر السابق، (ص: 280-294).

وجهة واحدة في الحق والخير، ويحيي من النفوس والهمم والعزائم، ويثير كوامن الآمال، ويرفع عنا الإصر والأغلال، ويصيرنا -حقاً- خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله" (1).

في هذا النص بدأ الإمام بوصف مظاهر الانحطاط العام، الذي أتى بآفاته على كل جوانب حياة الأمة الجزائرية؛ المعنوية منها والمادية، وآثار هذه المظاهر على كل جوانب الحياة، ثم وصف الإمام السنة كدواء وبلسم شاف لكل هذه الأمراض، "على هذا القصد وعلى هذه النية: عملنا نشر السنة النبوية المحمدية وحماتها من كل ما يمسها بأذية، وخطتنا الأخذ بالثابت عند أهل النقل الموثوق بهم، والاهتداء بفهم الأئمة المعتمد عليهم، ودعوة المسلمين كافة إلى السنة النبوية المحمدية... وغایتنا أن يكون المسلمون مهتدين بهدي نبيهم في الأقوال والأفعال والسير والأحوال..." (2).

2/ تخصيص باب في الصفحات الأولى من جرائد الجمعية للأحاديث والآثار: والصّحف كلّها لا تخصّص صفحتها الأولى إلاّ للمهمّ والأهمّ من مادّتها، ولهذا كانت جرائد وصحف ومجلات الجمعية تُصدّر بأبواب عن آيات الكتاب العزيز والحديث النبوي، "وقد سارت صحيفة الشّهاب والسنة والبصائر ومجلة الشّهاب وغيرها من صحف الجمعية على هذا المنوال بعد وفاة ابن باديس" (3).

فكان الكاتب يفتح الكتابة بالحديث النبوي، والقارئ يستفتح القراءة بحديث النبي ﷺ، فحريّ على ما قدّم في الكلام والقول أن يُقدّم في العمل والامتثال.

3/ التخطيط لإنشاء كلية للقرآن الكريم والسنة النبوية في الجزائر: وقد أراد الإمام من هذه الكلية أن تكون مقرّاً للدراسات العليا، وذلك بعد أن يتدرّج الطّالب في مدارس الجمعية، وأراد الإمام لهذه الكلية أن تضاهي قلاع العلم في العالم الإسلامي، كما في الزيتونة في تونس والأزهر في مصر، ولكونه لم يكن راضياً تمام الرضا عن برامج وطرق التدريس في هذه المؤسسات.

(1): ابن باديس، عبد الحميد، بواعثنا - عملنا - خطتنا - غايتنا، السنة النبوية المحمدية، لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، (لبنان-بيروت: دار الغرب الإسلامي، د/ ط، 2003م)، (العدد: 01، 08 ذي الحجة 1351هـ، 03 أفريل 1932م، ص:

(2): المصدر نفسه، (ص: 08).

(3): د/ عقيلة حسين، المصدر السابق، (ص: 284).

4 / الإملاء في مصطلح الحديث: هو سفر صغير الحجم، قليل الورقات، أملاه الإمام ابن باديس على طلابه في قسنطينة، وقد بدأت بوادر دراسته وشرحه وتفكيك ألفاظه في الآونة الأخيرة، وذلك بعد أن طبعت دار تالة بالجزائر العاصمة بتحقيق الدكتور عمّار طالبي، الذي أخرج له للوجود للعلمي سنة 2004م، ومُن شرحه؛ الشيخ محفوظ بن عامر في « نيل المنح »، بتقديم الدكتور محمد علي فركوس، كما شرحه أبو إبراهيم ملياني الزواوي في « مراتب التأسيس في شرح إملاء ابن باديس »، وهذا الأخير بتقديم أبي محمد أكرم زيادة.

لا عجب أن تُنال هذه الرسالة بالبحث والشرح والدراسة، ولهذا فلا بأس من تسجيل أهم الملاحظات العلمية على هذا الإملاء العلمي الهام؛ وهي:

- الاختصار والتركيز، فرغم اتّساع المجال في هذا العلم (مصطلح الحديث) وكثرة مادّته، وإمكان الإمام أن يتوسّع فيه ويُبعد، فيلمع نجمه، ويرتفع اسمه، لقلّة المؤلّفين في هذا العلم في وقته، لكنّ الإمام أعرض عن كلّ هذا، وبقي وفياً لمبدئه الذي يقوم على مجانية التّطوير والإكثار، والقصد إلى التّركيز والاختصار، والاقتصار على الأهمّ فقط.
- تعرّض الإمام وتطرّقه في هذا الإملاء إلى أغلب وأهمّ أنواع الحديث ومباحث المصطلح، فقد تعرّض لمفهوم مصطلح الحديث، وأنواعه، ومراتبه، وغيره من مباحث علم مصطلح الحديث.
- خبرة الإمام بمصطلحات هذا العلم وألفاظه، فالمطلّع على هذا الإملاء يحسبه -بلا مبالغة- قد كتب في القرون الأولى، وذلك لعتاقتها وقدمها، وهذا راجع إلى المتون والكتب التي كوّن الإمام عليها ملكته الحديثية.
- إعراضه عن التّعقيدات اللفظية في التّعاريف، واكتفائه بالمهمّ الموصل إلى الغاية والمرغوب، وعدم الخوض في التّفريعات اللّغوية للتّعاريف.
- حسن التّرتيب والتّنسيق بين أنواع الحديث التي أوردتها، فرغم أنّه إملاء إلاّ أنّه صاغه صياغة بديعة محكمة، تنمّ عن تحكّم الإمام في هذا العلم الدّقيق.
- عدم إشارة الإمام للعلماء للذين رجّح أقوالهم، لكون المعنيين بالإملاء ليسوا أهلاً لذلك.

المطلب الثالث: أهم آثار الإمام ابن باديس في السّاحة العلميّة للأمة .

لكون هذا المطلب هو آخر مطلب في هذه الرسالة (العجالة) سأعرض فيه لأهم آثار الإمام ابن باديس في السّاحة العلميّة للأمة، ولا يخفى ما في هذا العنوان من المجازفة، لكونه يُحمّل هذا المطلب من الحمل ما لا يطيق، لكن؛ ما لا يدرك كلّ لا يترك بعضه، ولهذا سأشير إلى هذا الجانب باختصار وتركيز، لأحاول في الأخير التّطفّل للإجابة عن إشكالية فحواها ومحتواها: هل الإمام عبد الحميد ابن باديس محدّث؟.

الفرع الأوّل/ تأثير الإمام ابن باديس في الأمة:

لقد استطاع الإمام ابن باديس بما حباه به الله تعالى من العلم والحكمة، والقدرة على التّكيّف، والصّبر والمصابرة في سبيل تحقيق المراد، والوصول إلى الغاية الشرعيّة النبيلة؛ أن يُعطي للأمة الكثير وفي المقابل لم ينل إلّا النّزر القليل اليسير، لكنّ في هذه البلاد من البررة والغيورين من يسعون يوما بعد يوما لنفض الغبار عن تراثه، وردّ الاعتبار لجهد وجهاده.

-التأثير الباديسيّ العابر للحدود الزّمانية والمكانيّة: لقد كان تأثير الإمام -وما زال- عابراً للمكان والزّمان، فدليل الأوّل احتفاء عقلاء العالم به وبآثاره، فما من بقعة إلّا وفيها من كتّب عنه ولو القليل اليسير، أمّا الزّمان؛ فتلك الصّلاحية للاستعمال والاقْتباس، فما زالت أفكاره وآراؤه غضة طريّة كأنّها قيلت اليوم، وما ذلك إلّا لأنّه قد أسّس بنيانه على أساسين ثابتين هما الكتاب والسّنة. لهذا " لم يؤثّر ابن باديس في حقبة من تاريخنا فحسب، تلك التي تمتدّ من الحرب العالميّة الأولى إلى بدايات الحرب العالميّة الثّانية، بل أثّر أيضا في تلك الحقبة التي بوأت الجزائر مكانة مرموقة في عصر النّهضة العربيّة الإسلاميّة "⁽¹⁾، وخرجت بها من مستنقع المسخ والتّشويه إلى برّ الأمان.

وقد آتت جهود الإمام ثمارها في وقته وزمانه، و" أدّت دورها في حياته وقامت بمهمّتها أحسن قيام، وفعلت في النفوس سابقا وما يزال لها تأثيرها، وسيبقى لها شأنها كما أنّ الأجيال الواعية ستقدّر ابن باديس تقديرا عميقا كرجل عاش للجزائر من أجل إصلاح شعب وأمة، وتربية جيل "⁽²⁾.

(¹): د/ بوعلام بسايح، المصدر السّابق، (ص: 245).

(²): د/ محمّد هبيّ الدّين سالم، المصدر السّابق، (ص: 201).

- العلم والعمل في جهاد الإمام ابن باديس: لقد تجلّى لنا ممّا سبق بأنّ الإمام كان حريصاً على التطبيق العمليّ لما كان ينظره علمياً، ولهذا فإنّ "أحسن صفة يوصف بها عبد الحميد بن باديس، أنّه كان رجل فعل"⁽¹⁾، حتّى إنّ الباحث ليتحير في أيّ المجالين كان أسبق وأكثر؛ أي قوله أم فعله؟. ويمكن القول بأنّ "آثار ابن باديس آثار عمليّة قبل أن تكون نظريّة في كتاب أو مؤلّف... وقليل من المصلحين في العصر الحديث من أتاحت لهم فرص التطبيق العمليّ لمبادئهم كما أتاحت لابن باديس، فرشيد رضا كان يحلم بمدرسة للدعاة، ولكنّ حلمه لم يتحقّق"⁽²⁾، أمّا الإمام فقد سعى لأهدافه سعيها؛ فتحققت على أحسن صورة.

- ابن باديس رجل أيقظ أمة: وذلك بأن نفخ فيها من روح الإصلاح الإسلاميّ الصحيح، فأحيا بذلك موات القلوب والنفوس، وبعث في الأمة بواعث الخير والعمل والصّلاح، وذلك بعد طول اندراس وغياب، فكان بحقّ ذلك "الرجل الذي أيقظ أمة، وأنشأ جيلان وربط بين ماضي الوطن وحاضره، وهياً له مستقبله في ميدان العلم والشرف، فكان شخصه الكريم نقطة الاتصال بين الجزائر الغابرة الماجدة، والجزائر الحاضرة المجاهدة، والجزائر المقبلة الخالدة"⁽³⁾، فاتّصلت واجتمعت بذلك أسباب النهوض والاستيقاظ، واكتملت شروط النّصر والقيام، وزالت غشاوة الطّمس والتّشكيك عن عيون العامّة، وتأكّد الانتماء وتوثّق، وظهر الزّيف والباطل ظاهراً جليّاً في شكل مسخ استعماري بغض.

"فعملُ ابن باديس انطلاقا من هذا المعنى ليس تجميل صورة بإضافة لمسات فنيّة عليها، أو تخليص واقع من شوائب شوّهته، بل تغيير حال من حال إلى حال؛ من الموت إلى الحياة، ومن العدم إلى الوجود، ومن الضّعف إلى القوّة، ومن التّيه إلى الرّشاد"⁽⁴⁾.

- ابن باديس من خير النّماذج للاقتداء: إنّ النّماذج التي تصلح للاقتداء والتّأسيّ بآثارها وسيرها قليلة في عصرنا ومصرنا، وقد ولدت هذه البلاد أفراداً منهم عبر العصور، لكن الإمام قد

(1): أندري ديرليك، المصدر السابق، (ص: 167).

(2): محمّد هشام بلقاضي، المصدر السابق، (ص: 135).

(3): توفيق المدني، أحمد، ردّ أديب على حملة أكاذيب، (ص: 101).

(4): بن مزوز، عمار، المصدر السابق، (ص: 133).

حاز قدم السبق والتقديم بينهم في هذا العصر المتأخر، وما كان له ذلك إلا لعظيم المساهمة التي ساهم بها في إحياء هذه الأمة، ولم ينله لنسب ولا لشرف متوارثين، " فابن باديس خير أنموذج يحتذيه شباب الجزائر في الحاضر والمستقبل، كما عبّر عن ذلك شاعر النهضة الجزائرية الحديثة؛ محمد العيد آل خليفة -رحمه الله- في مناجاته لروح الإمام الرائد إذ يقول:

عبد الحميد لعلّ ذكرك خالدٌ ولعلّ نُزلك جنةٌ وحريراً.
ولعلّ غرسك في القرائح مثمرٌ ولعلّ وريّك للعقول منيرٌ.
نمّ هادئاً فالشعب بعدك راشدٌ يختطّ نهجك في الهدى ويسيرٌ.
لا تخش ضيعةً ما تركت لنا سدًى فالوارثون لما تركت كثيرٌ.⁽¹⁾

وبمناسبة ذكر هذه الأبيات في الإمام ابن باديس؛ لابدّ من الإشارة إلى أنّه قد قيل فيه الكثير من الشعر المتن، و" لا نجد الشعراء قالوا في زعماء الأحزاب شعرا، مثل مصالي الحاج وفرحات عباس والدكتور ابن جلّول، بينما حظي ابن باديس والإبراهيمي بقسط كبير من ذلك "⁽²⁾، وما ذلك التخصيص لهذين الرجلين بالمدح والثناء الزائد إلا لكون جهادهما وأثرهما من أعظم الآثار، وأكثرها ظهورا ونفعا للأمة الجزائرية.

-ابن باديس والجماهير التائهة الملتزمة: إنّ أهمّ سبب سمح للإمام وجهوده أن تثمر النجاح، وتصل ظلالها إلى كلّ العناصر المختلفة والمتنوعة للأمة؛ هو نجاحه وقدرته على الوصول إلى كلّ هذه الفئات، ومخاطبة كلّ ضمير بلغّته التي يفهمها ويحيدها، " فكان بحقّ رجل (الجماهير) الصّابر عليها، العامل معها ووسطها مهما كانت المكانة الرفيعة له ولأسرته بينها، وقد جاء نشاطه في جماعته صورة لطاقته الحركية الجماهيرية النشطة، وكفايته التنظيمية البناءة، إلى جانب عقلية الحكيمة المدبرة، وبديته الثاقبة في الوقت نفسه "⁽³⁾، فلم يبق الإمام في أبراج عالية ينادي من شاهق صوامعها على أمة بالكاد تسمع الصّراخ همسا خافتاً، بل جال في الميادين مرشداً، ومشى بين الصّفوف موقظاً للهمم.

(1): شيبان، عبد الرحمن، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (ص: 20).

(2): د/ سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، (مج 08 / ص: 262).

(3): د/ محمد هبي الدين سالم، المصدر السابق، (ص: 88).

- الأثر المادي والمعنوي للإمام ابن باديس: سبقت الإشارة إلى كون الإمام قد مسّ بحركته الإصلاحية جميع مجالات الحياة المادية منها والمعنوية، ولو استكمل مشروعه لرأت الأمة عجباً، ولهذا ليس من المجازفة القول بأن " لعبد الحميد ابن باديس منّة على كلّ من يحمل بين جنبيه روحاً جديدة أو فكرة سديدة من أبناء الجزائر أينما كانوا، لا فرق في ذلك بين طلاب العلم، وبين غيرهم من طلاب الحياة في جميع فروعها "⁽¹⁾، هذه الجوانب التي نادى الإمام بوجوب تطويرها والتّمكن من أزمتها وعلومها، فلم تنحصر دعوته في الجانب الديني فقط، أو بمعنى أدقّ وأصحّ؛ لأنّ الدين نفسه يدعوا للأخذ بأسباب المدنية والعمران، وتوفير أسباب القوّة والعزّة.

- الشخصية الغنيّة للإمام ابن باديس: إنّ تعدّد الجوانب التي خاضها الإمام تبين لنا الوضعية والصورة الحقيقية التي يجب على علماء الإسلام أن يكونوا عليها، أو قريباً منها، فقد أخذ الإمام من كلّ حقل معرفيّ زهرة، ومن كلّ حقبة عبرة، فكانت بذلك "شخصية الشيخ تجمع في طياتها جوانب بلغت من التّنوع والغنى مبلغاً يجعل في قدرة الباحث -دوماً- أن يتطرق إلى دراستها من زاوية تحرّر الفكر من الظروف العرضية النسبية "⁽²⁾.

وهذا ما جعل منه النموذج المعاصر الأمثل للملتزمين والمسترشدين؛ ممّن يبحثون عن أمثلة للجهاد والكفاح الإسلاميّ الصحيح، " والواقع أنّ شخصية الإمام ابن باديس نموذج فريد للمفكر والمصلح الذي يعي دوره ورسالته في وطنه، وخاصّة حين تعتركه -الوطن- البلايا والمحن من كلّ جانب "⁽³⁾، وفي هذه الظروف يتميّز الخبيث من الطيّب، ويظهر الصّحيح من الزّيف، ويتجلّى الحقّ من الباطل.

- الإسلام والإمام : إنّ العلاقة بين الإمام ابن باديس والإسلام؛ علاقة متبادلة ومترابطة، فقد بنى الإمام بالإسلام نفسه وغيره، فأحكامه وعى، وإليه دعا، وبه سعى، فأخذ بالوحيين، ونازل الحيين (الاستعمار والطّرقية)، فقوي بذلك سلاحه واشتدّ، وأصاب في المقاتل رمية واستدّ، فلا

(1): د/ توفيق محمد شاهين ومحمد الصالح رمضان، المصدر السابق، (ص: 11).

(2): ابن نبي، مالك، آثار ابن باديس، (مج 01 / ص: 09).

(3): د/ أحمد محمود الجزار، المصدر السابق، (ص: 08).

عجب ولاريب " إذا كان الإسلام قد عمل عمله في ابن باديس، روحا وتقليدا، ومعملا وخلقا، فإن ابن باديس قد عكس كل ذلك بعمق على جهاده طوال حياته، وكان بذلك تفسيرا للإسلام، ومثالا عمليا على أن الإنسان إذا صح إيمانه وصدق إسلامه، كان قوة... تغلب ولا تغلب، وتهزم ولا تهزم، مهية للنصر دائما، قادرة على البناء وصنع التاريخ، مهما كانت الظروف والأحوال" ⁽¹⁾.

- الجانب الحيوي في الإمام ابن باديس : إن هذا الجانب كان طاغيا على الإمام في كل مظاهر نشاطه العلمي، وكان ظاهرا ظهورا واضحا للعيان، رغم أن الواقع لم يكن يبعث أو يحث عليه، لكن الإمام لم يكتثر للأمر، مما بعث في نفوس إخوانه مثل هذه القوة الحيوية، فكان ميلا للأمل مغلبا له، بعيدا عن القنوط واليأس، والأمثلة على هذه الحيوية كثيرة جدا، " ولنقتصر على إيراد مثالين اثنين يتجلّى لنا فيهما طغيان هذا الجانب الحيوي الروحي على هذا « الرجل العظيم » :
الأول : هجره للسعادة الزوجية التي هي أجمل حلم للإنسان...

والمثال الثاني: هو أنه لما بلغه أن تلميذه المأسوف عليه الأستاذ الميلي ألف كتابا في التاريخ سماه « تاريخ الجزائر في القديم والحديث » بعث إليه برسالة تمت فيها لو يغير المؤلف عنوان الكتاب فيسميه بدل التسمية الأولى « حياة الجزائر » ⁽²⁾، وما ذلك إلا لميله لكل ما فيه الحياة والنبض، وبعده عن كل ما يوحى إلى الجمود والبكاء على الأطلال ونعي الماضي إلى اللارجوع.

- نجاح الإمام ابن باديس في تطهير الإسلام من العوالق : فقد ميز الإمام بين أهم ما كان الناس ينسبونه إلى الإسلام زورا وبهتانا، وذلك سواء في العبادات أو في العقائد، كل ذلك بالدليل والبرهان، والحجة والبيان، مما لا تقوم أمامه الحجج الواهية، ولا التأويلات المتكلفة، ولا الأعداء القبيحة، و" إنني لن أبالغ في القول إذا قلت أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قد استطاعت أن تحقق أهداف الدعوة السلفية التي لم يستطع أقطاب هذه الدعوة أن يحققوها ببلدان الشرق من حيث تطهير الإسلام وتخليص الدين من سيطرة أهل الطرق ودعاة التصوف المزيف" ⁽³⁾.

(1): محمد الهادي الحسني، جهاد ومواقف، المصدر السابق، (ص: 164).

(2): شيبان عبد الرحمن، الجانب الحيوي في شخص ابن باديس، عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء، (ص: 128).

(3): د/ بوشتي الريفي، السلفية بين الأمس واليوم، الحركة السلفية في المغرب العربي، (ص: 317).

- مكانة العلم في منهج الإمام ابن باديس: لقد انطلق الإمام من العلم المؤصل سواء أثناء مرحلة التَّحَمُّل، أو أثناء مرحلة الأداء، فمن العلم تزوّد ومنه زوّد، فكان التَّكْوِين متيناً بمعنيّه (تكوين الذات / تكوين الغير)، " فعلى العلم بنى ابن باديس منهجه في الإصلاح، وعلى العلم أنشأ تلاميذه، وعلى العلم قاد سفينة التَّغْيِير إلى برِّ الأمان، وهذا ما حدا بالشاعر محمّد العيد آل خليفة أن يقول فيه⁽¹⁾:

بمثلك تعتزّ البلاد وتفخر وتزهر بالعلم المنير وتزخر.
طبعت على العلوم نواشئاً بمخبر صدق لا يدانيه مخبر.
نهجت لها في العلم نهج بلاغة ونهج مفاداة كأنك حيدر.⁽²⁾

- مراعاة الخصائص الزمانية والمكانية في دراسة الجهد الباديي: لا يختلف الدارسون في كون التّراث الباديي قد اخترق الحدود المكانية إلى العالمية، كما تخطّى الحدود الزمانية إلى البقاء وعدم الانطفاء، ولهذا مازال هذا التّراث مرجعاً للملتزمين، فتقتبس نصوصه غضة طريّة كأنها قد كتبت البارحة فقط.

لكن رغم هذا تبقى بعض النصوص والمداخلات الباديية في بعض قضايا عصره ترتبط في بعض جوانبها وزواياها بالعصر الذي كان يعالجه، ولهذا فإنّ " تقييم كتابات ابن باديس ومواقفه يجب - لكي يكون سليماً - أن يكون مصحوباً بتحليل شامل للعصر الذي قيلت فيه، لأنّه بدون ذلك لا نستطيع أن نفهم الكثير منها، وقد يؤدّي بنا الأمر إلى عدم إنصافه "⁽³⁾، بل قد يؤدّي إلى إجحافه وغمطه لحقه، ومحاكمته إلى ظروف غير ظروفه التي أصدر فيها هذه الأحكام، وهنا تحيد الأحكام عن الحقّ والصّواب، وذلك لإهمال بعض الدارسين للملابسات المحيطة بهذه النصوص الباديية، أضف إليها ما قد يجتمع من سوء القصد، ورغبة في تحميله من الأحمال ما لا يحتمله، وذلك رغبة في تقرير رأي، أو نصرة فكرة لا تتضمّننها ولا تشير إليها النصوص الصريحة.

(1): د/ أبو القاسم سعد الله، شاعر الجزائر محمّد العيد آل خليفة، تصدير: الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، (الجزائر: دار الرائد

للكتاب، ط/ 05، 2007م)، (ص: 259).

(2): بن مزوز، عمار، المصدر السابق، (ص: 85).

(3): الملي، محمّد، المصدر السابق، (ص: 31).

كما أدّت وتؤدّي مثل هذه القراءات الجزئية الناقصة إلى ادّعاء الكثير من الحركات والجماعات نسبتها واستمدادها من فكر الإمام ابن باديس وجمعيّته، ومن بين هذه الادّعاءات الجزافية ما ذهب إليه البعض من كون " آراء جمعيّة العلماء في الجزائر منذ ابن باديس وحتى الإبراهيمي الجذور الفكرية لجهة الإنقاذ من حيث الرجوع إلى الكتاب والسنة ونهج السلف الصّالح "⁽¹⁾.

لا يخفى ما في هذا الادّعاء من الخلل والزّلل الظّاهرين، الذين مردّهما إلى قلة الدّراسة والبحث والتّقيب، أضف إليه السّطحية والظّاهرية والجزئية في النّظر إلى تراث الإمام ابن باديس وصحبه، كما يظهر من هذا الادّعاء العيوب التّالية:

- الجهل أو التّغافل عن النّظر في مدى التّطابق من عدمه بين جمعيّة العلماء والجهة؛ من حيث المنطلق والغاية والوسائل والأهداف المرسومة المرجوة، ولا يخفى أنّهما مختلفان من كلّ هذه النّواحي اختلافا متباينا.

- اختلاف الخطاب واللّغة والأسلوب للجهتين، فنجد لغة القوّة والعنف والتّجيش، وفي مقابلها لغة الحلم والعلم والرحمة واللين.

- لو كان مصدر ومنبع الدّعوتين واحداً لأدّت لنفس التّائج والغايات، لكن شتّان وبعدان ما بين النّتيجتين والثمرتين.

- تمكين الإمام ابن باديس من مكانته المستحقّة: رغم استحقاق الإمام لمكانة مرموقة رفيعة على المستوى العلميّ والعمليّ، إلّا أنّه لم ينل حظّه من التّكريم والاحتفاء، " وسيبقى على الجزائريّين ذات يوم أن يكافئوا عبد الحميد بن باديس بتوليته المكانة الصّحيحة ضمن عظمائهم "⁽²⁾، ولا نقصد هنا التّكريم الاحتفالي المناسب؛ الذي -غالبا- ما يكون مغايرا ومعاكسا كليّة لما كان الإمام يسعى إليه، وأفضل مظاهر هذا التّكريم؛ العكوف على تراثه بالبحث والدّراسة، وإحياء اجتهاداته وخططه العلميّة منها والتّربويّة، وإزالة اللّبس عن الجوانب الغامضة في حياته العمليّة والتّعليميّة، والسّعي لإحياء الجوانب التي يمكن الاستعانة بها في قطرنا وعصرنا.

(1): الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف: د/ مانع بن حماد الجهني، (مج 01 / ص: 245).

(2): أندري ديرليك، المصدر السابق، (ص: 336).

الفرع الثاني / الإمام عبد الحميد ابن باديس محدثاً:

لقد استوقفني ولفت نظري أثناء التّقليب في الكتب والدّراسات التي كتبت عن الإمام ابن باديس؛ إطلاق الكثير من الباحثين للقب المحدث على الإمام ابن باديس، وقد تميّزت هذه الإطلاقات التي أطلعت عليها بالخصائص التالية:

- ورود هذا اللقب بصيغة التّأكيد والجزم، مقروناً بأوصاف أخرى تؤكّد كلّها بأنّ الإمام محدّث بصير، وبالحديث النبويّ خير.
- إطلاق هذا اللفظ على الإمام من باحثين من بلدان وبقاع وأقطار متباعدة، فلو كان من باحثين جزائريين فقط، أو من المحسوبين على جمعيّة العلماء المسلمين؛ لربّما اعتبرنا هذا الإطلاق مجرد مزايدة أو إطراء زائد.
- تنوّع المؤلّفات والكتب التي وجدت فيها هذا الوصف، ففيها الدّراسات الشّخصيّة المستقلّة، ومنها الدّراسات الأكاديميّة المحكّمة، فيبعد على كلّ هؤلاء أن يُجمعوا ويجتمعوا على الخطأ والزّلل، أو أن يتواطؤوا على وصف واحد.
- سأورد بعض من وصف الإمام بالمحدث، مكتفياً بإيراد محلّ الشّاهد فقط، والذين أطلعت عليهم خمسة هم كالآتي:

1/ د/ عَمّار طالبي: لقد وصف الخبير بتراث الإمام ابن باديس هذا الأخير بقوله: " وهو محدّث من الطّراز العالي؛ لا يستشهد إلّا بالأحاديث الصّحيحة المسندة إلى الصّحاح الستّ، إلى البخاري أو مسلم أو الموطأ الذي اهتمّ به، واعتبر منهجه في الاستدلال خير المناهج ... " ⁽¹⁾.

2/ د/ توفيق محمّد شاهين، ومحمّد الصّالح رمضان: جاء في مقدّمتها لتفسير الإمام ابن باديس قولها: " وهو محدّث بصير، شرح موطأ مالك رضي الله عنه كلّ... وهذا يشهد له بطول الباع، والفهم التّام لسنة الرّسول ﷺ " ⁽²⁾، لا بأس من الإشارة هنا إلى أنّ الدّكتور محمد توفيق شاهين من أساتذة الأزهر، أمّا الأستاذ محمد الصّالح رمضان فهو من تلاميذ الإمام ابن باديس.

(1): د/ عَمّار طالبي، نفس المصدر، (مج 01/ ص: 91).

(2): د/ توفيق محمد شاهين، محمد الصّالح رمضان، المصدر السّابق، (ص: 09).

3/ د/ محمد بهي الدين سالم: لقد أشار الدكتور محمد بهي الدين سالم المصري في كتابه: « ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير » الذي صدر بتقديم الدكتور: مصطفى الشريف؛ سفير الجزائر بالقاهرة والمندوب الدائم لدى الجامعة العربية، وزير التعليم العالي بالجزائر سابقا، حيث قال: " وابن باديس محدث بصير "(1).

4/ د/ تركي رابح عمامرة: قال هذا الباحث الذي سبر الكثير من أغوار التراث الباديسي عن الإمام ابن باديس -في الجانب الحديثي-: "... وهو محدث له اطلاع واسع على أحاديث الرسول ﷺ فهم لها -عارف بصحيحها- من فاسدها، لا يستدل إلا بما ورد في كتب الصحاح المعروفة بصحة الرواية -وصدق الرواة- وقد درس كتاب الموطأ في الحديث للإمام مالك بن أنس رحمه الله وختمه في بضع عشرة سنة "(2).

5/ أ/ عامر علي عرابي: ذكر الشيخ في كتابه الذي هو رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير بجامعة أم القرى؛ « الإمام عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة من خلال آثاره في التفسير والحديث »، حيث قال: " وكان في شرحه للحديث محدثا بصيرا، شرح موطأ مالك رضي الله عنه كله، حتى أكمله في مدة خمس عشرة سنة "(3).

من خلال هذه النصوص المختصرة نجد الإجماع على وصف الإمام ابن باديس بالمحدث البصير، ومن الطراز العالي، كما نجد في ثناياها أهم الأسباب التي جعلتهم يصفونه ويلقبونه بالمحدث، وأهم هذه المؤهلات العلمية ما يلي:

- لا يستشهد الإمام إلا بالأحاديث الصحيحة مما هو موصول السند إلى الكتب الستة والموطأ، واختياره لأحسن مناهج الاستدلال في هذا الميدان والمجال.
- طول الباع وسعة الاطلاع لدى الإمام في مجال السنة النبوية، وفهمه التام والمتين لحديث الرسول ﷺ، وتمرسه بكتب الحديث والمصطلح.

(1): د/ محمد بهي الدين سالم، المصدر السابق، (ص: 38).

(2): د/ تركي، رابح عمامرة، المصدر السابق، (ص: 178).

(3): عامر، علي عرابي، المصدر السابق، (ص: 36).

- طول النفس وغزارة العلم الحديثي لدى الإمام، ومن أدلته وشواهده في هذا المجال شرحه لموطأ الإمام مالك، وذلك في سنين طويلة لبضع عشرة سنة، شهد له الحاضرون بتميز هذا الشرح وثقله العلمي.
- كما يمكن إضافة أسباب وعوامل أخرى تؤهل الإمام لاستحقاق هذا الوصف واللقب الشريف العزيز، ومن أهمها:
- أخذ الإمام للحديث النبوي وتمكّنه من هذا العلم أثناء مرحلة التلقي، وتحمّله إياه عن أربابه من العلماء المتمكّنين فيه، وجمعه إياه من مشارق الأرض ومغاربها، وتمكّنه من حفظ وشرح أشهر وأهمّ متون هذا العلم.
- اتّصاله بأشهر الأسانيد والأثبات لعلماء عصره، وتشرفه بالاتّصال بأئمة هذا الفنّ بالأسانيد المتّصلة العزيزة، وذلك عن طريق الإجازات التي دبّجها له شيوخه.
- اغتنام الإمام لكل مناسبة من المناسبات مهما دقت أو صغرت للتذكير بمنزلة السنّة ومكانتها في الإسلام، ودعوته النّاس للرجوع إليها لالتماس الشّفاء والعلاج للآفات والأمراض التي تعيشها البلاد في كلّ المجالات والميادين.
- المعرفة والدّراية بمصادر الحديث وموارده، سواء ما تعلّق بمتون الحديث أو مصطلحه، واحتفائه في هذا المجال بالعتيق القديم منها، ذات الوزن والمكانة العلميّة العالية.
- خوضه في الحديث خوض العلماء الخبيرين بمكنوناته وأسراره، وتميّزه فيه سواء من جانب الرّواية أو الدّراية معاً، ولا يخفى صعوبة وندرة اجتماعهما في رجل واحد.
- تناوله للأحاديث بالدّراسة والنّقد، سواء من جانب الأسانيد أو المتون؛ وذلك بدراسة روائها وأحوالهم وتراجمهم وأحكام الأئمّة فيهم، والحكم على الحديث بالحكم الذي أوصله إليه بحثه وتنقيبه.
- شرحه وتدرّيسه لأهمّ كتب الحديث، وتعرّضه لشرحها على مدى سنين طويلة مديدة، ممّا يدلّ على تمكّنه وثقل زاده في هذا العلم العظيم، ولو صادف الإمام طلبة متمكّنين لأظهر العجب العجاب في شرحه، لكنّه كان يراعي مستويات المستمعين.

لابأس في آخر هذا الجزء أن نشير إلى بعض أقوال أهل العلم في شروط المحدث، وسأتي بأمثلة عن بعض المتقدمين والمتأخرين، ثم نربط بين ما وصفوا به المحدث وبين ما اتّصف به الإمام، أو إسقاط هذه الأوصاف على الإمام والنظر في مدى تطابقها عليه من عدمها.

من جهة المتقدمين فقد احتاطوا في إطلاق لفظ المحدث على المشتغل بهذا العلم الجليل، وذلك صيانة لجناحه من المتطفلين والمندسين، ولكون زمنهم زمن التدوين والتّحصيل للحديث، فقد "سئل الشيخ أبو الفتح بن سيّد الناس عن حدّ المحدث والحافظ فأجاب: بأنّ المحدث في عصرنا هو من اشتغل بالحديث رواية ودراية وكتابة، واطّلع على كثير من الرواة والروايات في عصره وتبصر بذلك حتّى حفظه..."⁽¹⁾، والحق أنّ هذه الشروط تختلف من زمن إلى آخر، فما يشترط في المحدث في عصور التدوين ليس هو نفس ما يشترط في الأزمنة المتأخّرة، "وأما يحكى عن بعض المتقدمين من قولهم: «كنا لا نعدّ صاحب حديث من لم يكتب عشرين ألف حديث في الإملاء»، فذلك بحسب أزمنتهم"⁽²⁾.

أمّا المتأخرون، وبعد أن استقرّ هذا العلم وكُمّل بنيانه، وظهر أربابه، وتجلّت علومه ومباحثه، فقد استقرّوا على شروط أخفّ وألين، وعندهم "المحدث: من تحمّل الحديث رواية، واعتنى به دراية بأن يحفظ المتن ويكون عنده علم بالرجال وتواريخهم وجرحهم وتعديلهم"⁽³⁾، بقدر ما يميّز بين المقبول والمردود، كما يمكن الإشارة في هذا المقام إلى "أبرز ما ينبغي أن يتحلّى به المحدث:

- أ- تصحيح النية وإخلاصها، وتطهير القلب من أغراض الدّنيا، كحبّ الرئاسة أو الشهرة.
- ب- أن يكون أكبر همّه نشر الحديث، والتّبليغ عن رسول الله ﷺ مبتغيا نيل الأجر.
- ج- ألا يحدث بحضرة من هو أولى منه، لسنّه أو علمه.
- د- أن يرشد من سأل عن شيء من الحديث -وهو يعلم أنّه موجود عند غيره- إلى ذلك الغير.
- هـ- ألا يمتنع من تحديث أحد لكونه غير صحيح النية، فإنّه يُرجى له صحتها.

(1): الزركشي، بدر الدين أبي عبد الله (ت: 794هـ)، المصدر السابق، (مج 01 / ص: 53).

(2): السيوطي، جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر، المصدر السابق، (مج 01 / ص: 52).

(3): د/ أبو شهبه محمد، الوسيط في علوم ومصطلح الحديث، (ص: 20).

و- أن يعقد مجلسا لإملاء الحديث وتعليمه إذا كان أهلا لذلك، فإن ذلك أعلى مراتب الرواية⁽¹⁾.
إنّ الناظر في هذه الشروط والآداب التي يجب توفرها في المحدث يجد بأنّها قد اجتمعت في الإمام ابن باديس كما لم تجتمع في غيره من أهل ذاك الزمن وهذا القطر، وحتى لا نعيد ما سبق ذكره، يمكن القول بأنّ الدليل على صحّة هذا الوصف وانطباقه التّام على الإمام؛ هو كلّ ما سبق في هذه الرّسالة، وذلك بدءا من الترجمة الخاصّة بالإمام، ختاماً بالمطلب الأخير من هذا الفصل، مروراً على منهجه في تناول الحديث بالشرح والدّراسة.

قد يستكثر البعض علي الألقاب على أهل المغرب من العلماء العاملين المتمكنين بأزمنة العلوم، فيما تجده يجود بها على من كان من أبعد النّاس عنها ممّن لم يكن من بلاد المغرب، لكنّ الإمام -كما نرى- من العلماء المغاربة -القليين- في هذا العصر ممّن وقع عليهم الإجماع من علماء الإسلام شرقا وغربا، وما ذلك إلّا لسطوع نجمه سطوعا لا يمكن أن يُنكره إلّا من هيا نفسه لثهم بالجنون والعمى العلميّ المقنوت.

(1): د/ محمود الطّحان، المصدر السّابق، (ص: 136).

بعد أن تطرّقنا في ثانيا هذا الفصل لأهم وأظهر المقاصد التي كان ينطق بها الدرس الحديثي للإمام ابن باديس، هذه المقاصد التي تناولناها بكثير من الإجمال والاختصار، وذلك لما كان يتميز به درس الإمام من العمق المعرفي، والثقل المصطلحي، فلو تتبّع المرء كلامه بالتحليل والتعليق لأفنى الجهود والأعمار، ولثقلت الكتب والأسفار، لكن في الإشارة كفاية في هذا المقام.

يمكننا في خاتمة هذا الفصل أن نشير لأهم المحطّات المعرفية التي تطرّقنا لها في هذا الفصل الختامي، والتي يمكن إجمالها في النقاط التالية:

- تنوّع المقاصد والمرامي الإصلاحية في الدرس الحديثي للإمام ابن باديس، التي كانت تستهدف الكثير من المجالات والميادين المعرفية منها والمادية للأمة، فقد خاض ميدان الإصلاح الديني بهدم المفاهيم والمعتقدات الباطلة، ثمّ بنى محلّها عقيدة صحيحة متينة.

كما حرص الإمام على خوض الإصلاح السياسي والاجتماعي والاقتصادي؛ داعيا في ذلك إلى الوحدة والتّوحد والاتّحاد في إطار الوطنية الإسلامية الرّاسخة، ثمّ السّير بخطى ثابتة نحو معركة التّحرير والجهاد في سبيل الله تعالى، ولم يتوقّف الإمام عند هذا الحدّ؛ بل انطلق من يقينه وإيمانه من نصر الله تعالى يدعوا الأمة إلى الأخذ بأسباب المدنية والتّطور، وإصلاح الأوضاع الاجتماعية، وذلك لاستكمال البناء القويّ للأمة الجزائرية من كلّ جوانب حياتها.

- المقاصد والأهداف التربوية السّامية التي كان الإمام يدعوا ويعمل للوصول إليها، وذلك من خلال تفعيل وإحياء التربية الإسلامية والتعليم الفعّال، ولهذا بيّن الإمام مكانة وأهداف التربية في درسه الحديثي، كما أشار إلى المعالم والأصول الصحيحة والمتينة للتربية التي يمكنها النهوض بالمجتمعات، والسّير بها نحو ميادين الأمم المتمدّنة العظيمة.

كما لم يغفل الإمام عن أسّ التربية وأساسها؛ فقد نادى بملء فيه إلى التربية الإعدادية الشّاملة لكلّ أفراد المجتمع ومكوّناته، مبدّيا في نفس الوقت حرصا خاصّا بالمرأة باعتبار هذه الأخيرة المكوّن والعنصر الأكثر حرمانا في المجتمع من فرص التعليم، ولعلّ أكثر ما انتفض الإمام إليه يكذّبه وينقضه؛ نسبة هذا الحرمان إلى الدين الإسلامي ووحّيه.

- تمثل الإمام ابن باديس للأخلاق الإسلامية في أعظم صورها، وأبهى هيئاتها، فكان بذلك من الدعاة بالقول والعمل، فقد نادى الإمام بوجوب وضرورة إحياء الأخلاق الإسلامية التي اندرست تحت وطأة التجهيل والاستعمار والتغريب الفرنسي الماكر، وما ذلك إلا لكونها من صلب الإسلام، ولدورها في الحفاظ على مقومات الأمة من الضياع والانحلال، وللحاجة إليها في قومة الأمة ضد الاستعباد والإذلال الذي كان يعيشه في كل جوانب الحياة.
- لم يغفل الإمام عن المقاصد العلمية والمعرفية في درسه الحديثي، بل أشار إلى الكثير منها بكثير من التأصيل والتفصيل العزيزين إيجادهما عند غيره، ومن أهم هذه الجوانب؛ دعوته إلى وجوب رجوع العلماء المسلمين إلى أماكنهم كقادة ومرشدين وموجهين للأمة، على أساس من كتاب الله تعالى، وما صحّ من سنة المصطفى ﷺ، مشيرا أثناء ذلك إلى أهم سمات ومعالر العالم الصالح المصلح، وذلك لقناعة الإمام بأن الخطّة التي رسمها -لشمولها وبعدها مداها الزماني والمكاني- كانت أكبر منه كفرد واحد، فقد كانت تستلزم فرقة وطائفة من العلماء المصلحين المخلصين.
- كما أشرنا في ختام هذا الفصل إلى أهم الخصائص والمميزات العلمية للحديث النبوي، وذلك من ناحية الحجم الحديثي في تراثه الذي تمكّنّا من الاطلاع عليه، وأهداف الإمام من توظيفه للحديث توظيفاً عملياً عزيزاً في وقته، حيث تحرّى فيه المقبول والمعتبر في الاستدلال للمسائل والأحكام الشرعية.
- في الأخير يمكن القول بأن الإمام ابن باديس من أولئك القلة من العلماء الذي تصدّوا للإصلاح بأدواته ووسائله وأساليبه وطرقه الفعّالة، ولم يألُ في ذلك جهداً أو عزيزاً أو نفيساً، بل نهض يخاطب الأمة في دروسه خطاباً ثقيلاً في مراميه، غنياً في معانيه، فتمكّن بتوفيق من الله تعالى من بلوغ الأسع على بّعدها، والقلوب على غفلتها، والأمة على اختلاف أفرادها وتنوّعها، وبما أنّه قد سلك الأمر من بابه؛ فقد بلغ أقصى المقاصد والغايات.
- فالدّرس الحديثي للإمام ابن باديس لم يكن مجرد استعراض معرفي فارغ أجوف يسعى من وراءه للمجد والذكر، بل كان درسه الحديثي وعاءً سُقيت منه الأمة كلّها -إلا من أبى- بلسم الشفاء.



خاتمة



تناولت في هذا البحث منهج الإمام ابن باديس في درسه الحديثي، وطريقته في شرح الحديث النبوي، معرّجا في ذلك على أهم المحطّات العلميّة، والمواقف المعرفيّة، باذلا الجهد والوسع في تحليل النتائج، واستجلاء العبر والدروس، لأشير كذلك إلى أهم المقاصد والأهداف التي كان الإمام يقصد إلى تحقيقها من خلال درسه الحديثي.

بعد الفراغ من تحرير الموضوع، واستكمال فصول البحث، والانتهاء من تحرير الإجابات والتّوجيهات على الإشكالات المطروحة في البحث؛ يمكن الإشارة في ختام هذه المذكرة إلى أهم النتائج التي خرجت بها في الأخير، وأهمّها ما يأتي:

01 / الإمام عبد الحميد ابن باديس مصلح نشأ وترعرع وسط بيئة كلّها أمراض وآفات، أتت على كلّ جوانب الأُمّة الجزائرية، وقد كان الإمام على دراية بكلّ هذه المالبسات، كما كان يصفها ويشير إليها بدقّة وخبرة عزيزين.

02 / حياة الإمام ابن باديس ونشأته كانت تتجلّى فيها معالم النّبوغ والتّميّز ظاهرة للعيان، وذلك بدءً بنسبه وأصله، وانتهاء بتنوّع الهجرات العلميّة وكثرتها، والتي كان المقصد فيها إلى شتّى البقاع والحواضر العلميّة في عصره، وإطلاعه فيها على مدارس الإصلاح الإسلاميّ.

03 / بُعد الإمام ابن باديس عن المداينة والمسألة للمستعمر والمفسدين، وسلوكه لطريق الجهاد، وحرصه على الصّدع بالحقّ، وتقديمه لمصلحة الإسلام والأُمّة على كلّ مصلحة أخرى.

04 / تصدّي الإمام ابن باديس للمستعمر وأعوانه بالتّربية والتّعليم، وبذله في ذلك كلّ غال ونفيس، وذلك بإنشاء المدارس للبنين والبنات، ووضع المناهج التعليميّة المناسبة، وإرسال البعثات، والتّفكير في إنشاء معاهد وكليّات للتّعليم العالي.

05 / الثقل والتنوّع الذي تميّز به الزّاد الحديثي الذي تزوّد به الإمام ابن باديس لجهاده التّربويّ، وأخذه لهذا العلم من منابعه القطريّة، ومصادره المعرفيّة الرّفيعة، وذلك بمن اتّصل بهم من سادات علماء العالم الإسلامي في عصره.

06 / ما تمّ التّوصّل إليه من ناحية الجانب الحديثي لدى الإمام لا يمثّل سوى الظّاهر المعروف، وما خفي أكبر، بالنّظر إلى الإجازات الشفوية التي لم يمكننا الوصول إليها، والاطلاع على ما فيها،

أضف إلى ذلك المخطوطات، والكتب، والمؤلفات الحديثية، التي اطلع عليها الإمام ودرسها، في حياته العلمية، وهو الذي كان شغوفاً، ومحباً، وحريصاً على المدارس والمطالعة.

07/ كان الإمام ابن باديس يسلك منهجاً وطريقة مميزة في شرح الحديث النبوي ودراسته، وقد تجلّى هذا المنهج وبان من خلال تراثه وآثاره العلمية والعملية، كما ظهر الإمام يشرح بطول نفس، وقدرة على التحليل المركز، والتركيب المحكم، كلّ ذلك بمصطلحات هذا الفن وضوابطه.

08/ احتفاء الإمام ابن باديس بالسنة النبوية، واعتباره إياها كفيلة بإحياء الأمة من موتها، وبعثها من أمراضها وآفاتهما.

09/ تنوع وغنى مصادر وموارد الإمام ابن باديس، ولم ينحصر هذا التنوع والغنى في عددها وعدتها فقط، بل تجلّى أكثر في استعمال وتوظيف الإمام لها، ممّا يدلّ على تمرسه وإطلاعه عليها، ونظراً للوزن العلمي والثقّل المعرفي الذي كانت تتمتع به هذه المصادر، فقد كانت تتميز بقدّمها وحجّيتها في مجالاتها وفنونها.

10/ تقديم الإمام ابن باديس لعلماء المغاربة والسادة المالكية، واعتماده على شروحاتهم، كالإمام ابن عبد البر وابن العربي، وحرصه على الاقتباس والأخذ عن المعروفين منهم بتمسكه بالسنة النبوية، والمشهورين بالثورة على الجُمُود والجمود.

11/ مراعاة الإمام للمرحلية والتدرّج في شرح الحديث النبوي، فكان يتنقل من مرحلة إلى أخرى بكلّ سلاسة، وبعد دراسة متأنية ودقيقة، ويتخيّر العناوين والمصطلحات، ليستنبط في الأخير أهمّ الدروس والعبر البليغة.

12/ ميل الإمام في درسه الحديثي إلى الاختصار والتركيز وعدم الإطالة، واختلاف التناول عنده باعتبار موضوع الحديث والأثر الذي يمكن أن يتركه في الأمة، وحرصه على الاستعانة بكلّ الوسائل المشروعة، والفعالة، والمساهمة في إضفاء القوّة لدرسه، ولعلّ أهمّ هذه الوسائل؛ المسجد والصّحافة.

13/ الموهبة الخطابية، والقدرة اللغوية، واللّمسات الأسلوبية، التي كان يتمتع بها الإمام، والتي استغلّها جميعها في درسه الحديثي، هذا الأسلوب الذي نال فيه المتعلّم بُعَيْته، كما وجد فيه المواطن البسيط الأُمّي غاية، فاستطاع به أن ينفذ إلى القلوب والعقول.

14/ تنوّع المقاصد والأهداف الإصلاحية في الدّرس الحديثي للإمام ابن باديس، فقد حرص الإمام على خوض الإصلاح السياسي والاجتماعي والاقتصادي؛ داعيا في أثناء ذلك إلى الوحدة والتّوحد والاتّحاد في إطار الوطنيّة الإسلاميّة، ثمّ السّير بخطى ثابتة نحو معركة التّحرير والجهاد في سبيل الله تعالى، ولم يتوقّف الإمام عند هذا الحدّ؛ بل انطلق يدعوا الأُمّة إلى الأخذ بأسباب المدنيّة والتّطوّر، وإصلاح الأوضاع الاجتماعيّة، وذلك لاستكمال البناء الميّ للامّة الجزائريّة من كلّ جوانب وجودها.

15/ قصد الإمام لأسمى الأهداف والمرامي التّربويّة السّامية، وذلك من خلال إحياء وتفعيل التّربية الإسلاميّة، والتّعليم الفعّالين، ولهذا أبرز الإمام أهداف التّربية في درسه الحديثي، كما أشار إلى معالم وأصول التّربية الصّحيحة، التي يمكنها النهوض بفئات الأُمّة، والسّير بها نحو مصافّ الأُمم الرّاقية.

16/ حرص الإمام واعتناؤه بالمرأة، باعتبار هذه الأخيرة المكوّن والعنصر الأكثر حرمانا في المجتمع من فرص التّعليم، وسعيه لتعليمها وتثقيفها، ومناداته في الأُمّة لإرسال بناتهم إلى مدارس جمعيّة العلماء المسلمين لتأخذ حقّها ونصيبها من التّعليم، وذلك حتّى تقوم بنصيبها من الواجب تجاه النهوض بالتّربية، وذلك بالشّكل الصّحيح والمطلوب.

17/ لم يغفل الإمام عن المقاصد العلميّة والمعرفيّة في درسه الحديثي، بل أشار إلى الكثير منها بكثير من التّأصيل والتّفصيل العزيزين إيجادهما عند غيره، ومن أهمّ هذه الجوانب؛ دعوته إلى وجوب رجوع العلماء المسلمين إلى رباطاتهم كقادة ومرشدين للامّة، وذلك على أساس من كتاب الله تعالى، وما صحّ من سنّة المصطفى ﷺ، مشيرا أثناء ذلك إلى أهمّ سمات العالم الصّالح المصلح، وذلك لقناعة الإمام بأنّ الخطّة التي رسمها تستلزم فرقة وطائفة من العلماء المصلحين المخلصين، يتوحّدون ضدّ الجهل والخرافة.

18/ الخصائص والمميّزات العلميّة للدّرس الحديثي الباديي، وذلك من ناحية الحجم الحديثي في تراثه الذي تمكّنّا من الاطّلاع عليه، وأهداف الإمام من توظيفه للحديث توظيفا عمليّا عزيزا في وقته، حيث تحرّى فيه المقبول والمعتبر في الاستدلال للمسائل والأحكام الشرعية.

19/ الإمام ابن باديس من أولئك القلة من العلماء الذي قاموا للإصلاح من بابه، وخاضوه بأدواته ووسائله، وأساليبه وطرقه الفعالة، و نهض يخاطب الأمة في دروسه خطابا ثقيلا في مراميه، غنيا في معانيه، فتمكّن بتوفيق من الله تعالى من بلوغ الأسعاع على بعدها، والقلوب على غفلتها، والأمة على اختلاف أفرادها وتنوعها، وبذلك بلغ أقصى المقاصد والغايات.

20/ غنى كتابات الإمام ابن باديس ومؤلفاته بالأحاديث النبوية، وحرصه على الاستدلال بالسنة النبوية بجوار القرآن الكريم.

21/ حرص الإمام ابن باديس على الاستدلال بالحديث المقبول، الصالح للاعتبار، وسلوكه في ذلك لطريق المتقدمين، وذلك من خلال دراسة الأسانيد، والنظر في المتون، والحكم على الحديث بالحكم المناسب له.

لعل هذه هي أهم النتائج التي يمكن الإشارة إليها، بالإضافة إلى تلك التي سبق التّعرض إليها في خاتمة كلّ فصل من الفصول الثلاث السابقة، لنختتم الكلام هنا بأهم التوصيات التي يمكن الخروج بها من هذا البحث:

- العكوف والانكباب على تراث الإمام عبد الحميد ابن باديس بالبحث والدراسة والتّقيب، واستخلاص أهمّ النتائج والعبر، والبحث عن الجديد في ذلك، وعدم الاكتفاء باجترار ما سبق الإشارة إليه، من تلك الجوانب التي أشتعت بحثا ونظرا.
- إنّ الجانب الحديثي من تراث الإمام ابن باديس لا يزال بكرا وخصبا، لمن قصد من الباحثين الولوج إليه، ودراسته من جوانب يمكن تحديدها، مثل تخريج هذه الأحاديث والحكم عليها، أو تخريج الاختيارات الحديثية للإمام ابن باديس، ومعرفة مذاهبه فيها، وسلفه في اختياراته.
- الاعتراف بجهود الإمام عبد الحميد ابن باديس في خدمة السنة النبوية، وإحيائه لأجداد علماء المغاربة في خدمة الحديث النبوي، ممّا يحدو بنا في أيّامنا هذه إلى إكمال المسيرة العلمية للإمام ابن باديس.
- وجوب سعي المؤسسات الرسمية والجمعوية في الجزائر إلى إحياء الدّرس الحديثي في هذه

البلاد، وعقد المجالس والحلقات العلميّة، وشرح الكتب والمصنّفات الحديثيّة، التي يمكنها أن تترك أثرها في الأمّة، وبذلك نعود بالنّاس والعامة إلى منابع الوحي في الإسلام، وإقرار شرح الحديث النبوي في الدّروس والخطب المسجديّة.

- طبع الكتب والمؤلّفات الحديثيّة المخطوطة، خاصّة تلك التي هي لعلماء ومؤلّفين مغاربة عموماً، وجزائريّين خصوصاً، واستنфар المخابر العلميّة على مستوى المعاهد والجامعات، والمجموعات البحثيّة، وذلك ليتّم التّبني الرّسمي لهذه المشاريع، وبذلك تنال قبولاً ووزناً علمياً أكثر.

في الأخير؛ أرجو أن أكون قد وفّيت هذا الموضوع بعض حقّه من النّظر والبحث والتحليل، وأن أكون قد أجبّت على الإشكاليات المطروحة في البحث، كما أرجو أن أكون قد التزمت بأهمّ معالم وقوانين المنهجيّة العلميّة الأكاديميّة في مثل هذه المذكرات الجامعيّة.

وصلّى الله وسلّم على نبينا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.



مُلحق



بعد استقراء ما أمكنني الوصول إليه من تراث الإمام عبد الحميد ابن باديس المطبوع، رأيت من الضروري (ضرورة علمية) أن ألحق بآخر هذه المذكرة ملحقاً علمياً، يكون مضمونه ومحتواه؛ فهرساً للأحاديث والآثار التي وردت في تراث الإمام، وذلك إقامة للحجة والدليل على الحجم الحقيقي للزاد الحديثي في درس الإمام ابن باديس، وإشارة لموضعها الدقيقة من تراثه، كما يمكن أن يكون هذا الملحق خدمة وجهدا يستفيد منه الباحثون والدارسون، ممن يريدون اقتحام هذا الميدان البكر من جهود الإمام عبد الحميد ابن باديس.

لقد قصدت في هذا الملحق الإشارة والاختصار، وذلك بالاكْتفاء بذكر طرف الحديث أو الأثر، أو ذكر جزء من المتن ولو لم يكن من طرفه، سواء أكان في أثناء المتن، أو في نهايته، ثم أشير إلى موضعه بذكر الجزء ورقم الصفحة، وذلك بعد الإشارة إلى الطبّعات التي اعتمدت عليها، وهي كالآتي:

- ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، إعداد وتصنيف: أ.د/ عمار طالبي، (الجزائر- برج الكيفان: دار الأمانة، د/ ط، 2009م).
- ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، إعداد: أ.د/ عمار طالبي، (الجزائر- المحمدية: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط/ 01، 2014م)، (المجلدين: 05/ 06).
- ابن باديس، عبد الحميد، إملاء العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، تعليق وتحقيق: محمد الحسن فضلاء، (الجزائر- قسنطينة: دار البعث، ط/ 01، 1406هـ- 1985م).
- ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (الجزائر- قسنطينة: مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، ط/ 01، 1403هـ- 1983م).
- ابن باديس، عبد الحميد، مبادئ الأصول إملاء الإمام عبد الحميد بن باديس، تح: د/ عمار طالبي، (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ط/ 02، 1988م).

01 / ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، إعداد وتصنيف: أ.د/ عمار طالبي،
(الجزائر - برج الكيفان: دار الأئمة، د/ ط، 2009م).

الرقم:	المتن:	ملاحظات	الموضع:
01 / 02	كان خلقه القرآن.		(1 / 126 - 168 - 379).
04	كان يتخول الناس بالموعظة.	بالمعنى.	(1 / 128).
05	..فليقل خيرا أو ليصمت..		(1 / 130).
06	ألا أخبركم بخير أعمالكم..		(1 / 132).
07	ما عمل ابن آدم من عمل..		(1 / 132).
08	طلب الصمت عند جلبة..	الحديث.	(1 / 133).
09	لمال بلغ في حجته المشعر..	بالمعنى.	(1 / 134).
10	دائم الفكرة لا يتكلم..	الشئائل.	(1 / 135).
11	كان سكوته على أربع..	الشئائل.	(1 / 135).
12	لا يجلس ولا يقوم إلا..	الشئائل.	(1 / 135).
13	إنه ليغان على قلبي فأستغفر..		(1 / 138).
14	نافق حنظلة..		(1 / 139).
15	من قرأ حرفا من كتاب الله..		(1 / 140).
16	ما تقرب العبد إلى الله..		(1 / 141).
17	إن استطعت أن تتقرب إلى الله.. من كلامه.	حكم المرفوع	(1 / 141).
18	من شغله قراءة القرآن عن..		(1 / 141).
19	قراءة القرآن في الصلاة..		(1 / 141).
20	أي الأعمال أفضل عند الله..		(1 / 141).
21	اقرأ في كل سبع ليال مرة..		(1 / 144).

22	لا يفقه القرآن في أقل من..	(144 / 1).
24 / 23	رُبَّ تال للقرآن والقرآن..	(148-145 / 1).
25	(تحسبه العامة حديثاً، بل هو قول أنس).	(144 / 3).
27 / 26	إنّ القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد..	(146 / 1) (145 / 3).
28	ما من امرئ يقرأ القرآن..	(147 / 1).
29	استذكروا القرآن فإنه..	(147 / 1).
30	من لم يدع قول الزور والعمل به..	(148 / 1).
32 / 31	من باع الخمر فليشقص الخنازير..	(148 / 1) (146 / 3).
33	اللهم اجعل في قلبي نوراً..	(169 / 1).
34	وأيم الله لقد تركتكم على مثل..	(175 / 1).
34	لا فضل لأسود على أحمر..	(175 / 1).
35	ما شاء الله وشاء فلان..	(180 / 1). بالمعنى.
36	إنّ من الشعر لحكمة.	(184 / 1).
37	كاد أن يسلم..	(184 / 1).
38	أصدق كلمة قالها شاعر..	(184 / 1).
39	وعظنا رسول الله ﷺ..	(185 / 1).
40	..احمرّت عيناه وانتفخت أوداجه..	(188 / 1).
41	ما ضلّ قوم بعد هدي كانوا عليه..	(191 / 1).
42	إنّ أبغض الرّجال إلى الله..	(192 / 1).
43	إنّ أوّل الناس يقضى..	(205 / 1).
44	أنا أغنى الشركاء..	(205 / 1).

45	سئل النبي ﷺ .. لا أجر له ..	(1 / 205).
46 / 47	نرجوا رحمتك ونخشى عذابك ..	(1 / 204 - 206)
48 / 49		219 - 445
50 / 50		(452) (3 / 492).
52	في بضع أحدكم صدقة ..	(1 / 207).
53	إن الله كتب الإحسان على كل شيء ..	(1 / 211).
54	إن في الجنة مائة درجة ..	(1 / 213).
55	إن أهل الجنة ..	(1 / 213).
56 / 57	.. أليس كانوا إذا حرّموا عليهم شيئاً ..	(1 / 220 - 471).
58	إذا سألت فسل الله ..	(1 / 221).
59 / 60	الدعاء هو العبادة.	(1 / 221 - 289)
61 / 62		(470) (2 / 99)
63		(4 / 319).
64 / 65	الدعاء مع العبادة.	(1 / 221 - 366)
66 / 67		(470) (4 / 319).
68	ألا أخبركم بأكبر الكبائر ..	(1 / 223).
69	قدمت عليّ أمي .. نعم صلي أمك ..	(1 / 224).
70	من أحقّ الناس بحسن صحابتي ..	(1 / 224).
71	لا طاعة لأحد في معصية الله ..	(1 / 225).
72	لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ..	(1 / 225).
73	أحيي والداك .. ففيهما فجاهد ..	(1 / 225).
74	فارجع إلى والديك فأحسن ..	(1 / 225).
75	فارجع إليهما فاستأذنها ..	(1 / 225).

76	..على لسان رسوله أنّه يرّحم الرّاحمين..	بالمعنى.	(229 / 1).
77	إنّ من أكبر الكبائر..		(229 / 1).
78	هل بقي من برّ أبويّ شيء؟..		(230 / 1).
79	إنّ أبرّ البرّ صلة الولد..		(230 / 1).
80	ألا وإنّ في الجسد مضغة..		(232 / 1).
81	التقوى ههنا..		(235 / 1).
82	..وابداً بمن تعول..		(242 / 1).
83	إنّ أحدكم يجمع خلقه في بطن أمّه..		(251 / 1).
84	الملائكة خلقوا من النّور..		(251 / 1).
85	..أن تجعل لله نداً وهو خلقك..		(254 / 1).
86	..كتب على ابن آدم نصيبه من الزّنا..		(255 / 1).
87	لا يحلّ دم امرئ مسلم إلّا بإحدى ثلاث..		(256 / 1).
88	..فإنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم..		(259 / 1).
89	الدينار بالدينار، والدّرههم بالدّرههم..		(261 / 1).
90	..هذه غدره فلان..		(262 / 1).
91	كفى بالمرء كذباً أن يحدث..		(270 / 1).
92	..إلّا كان عليهم فتنة..	بالمعنى.	(270 / 1).
94 / 93	رھط من اليهود.. السام عليكم..		(440-283 / 1).
95	الكلمة الطيّبة صدقة..		(284 / 1).
97 / 96	المسلم أخ المسلم..		(284 / 1) (339 / 5).
98	..تفضل صلاة الجميع صلاة أحدكم..		(310 / 1).
99	يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل..		(310 / 1).

100	خمس صلوات كتبهنّ الله..	(311 / 1).
101	أرأيتم لو أنّ نهرا بباب أحدكم..	(311 / 1).
102	بين الرجل وبين الشرك..	(311 / 1).
103	العهد الذي بيننا وبينهم..	(311 / 1).
104	كان ﷺ إذا آوى إلى منزله..	(312 / 1).
105	..كان ينام ثم يقوم..	سنة عملية. (315 / 1).
106	إنّ الله افترض قيام الليل..	(316 / 1).
107	قام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه..	(316 / 1).
108	..فيتدافع الشفاعة أولئك الرّسل..	بالمعنى. (317 / 1).
109	أنا سيد الناس يوم القيامة..	(318 / 1).
110	..المقام المحمود بمقام الشفاعة..	بالمعنى. (318 / 1).
111	من قال حين يسمع النداء..	(318 / 1).
112	جاء الحقّ وزهق الباطل..	(324 / 1).
113	ما أنزل الله داء إلّا..	(331 / 1).
114	لكلّ داء دواء..	(331 / 1).
115	داوى وتداوى..	(331 / 1).
116	..إذا آوى إلى فراشه نفث..	(331 / 1).
117	..وما يدريك أنّها رقية..	(331 / 1).
118	إنّ الله إذا أحبّ عبدا..	(331 / 1).
119	كان الله ولم يكن شيء..	(351 / 1).
120	لقد كان من قبلكم يمشط بمشاط الحديد..	(354 / 1).
121	لترين الضعينة ترحل من الحيرة..	(354 / 1).
122	أيّها النّاس إنّ الله طيّب..	(366 / 1).

123	من عمل عملاً ليس عليه أمرنا..	(1/374)
124	..لن تضلّوا بعدي كتاب الله..	(1/376)
125	تكون فتن فيكثر المال..	(1/409)
126	كيف يحشر الكافر على وجهه؟..	(1/423)
127	أعطيت خمسا لم يعطهنّ..	(1/426)
128	من نام عن حزبه..	(1/433)
129	..حرّم على النّار كلّ هينّ لينّ سهل..	(1/436)
130	لا تميتوا علينا ديننا أمّا تكلم الله..	(1/438)
131 / 132	أقرب ما يكون العبد من ربّه..	(1/442)
133	ما كان يزيد في رمضان على..	(1/443-452)
134	حديث ابن عبّاس / حديث زيد بن خالد..	(1/443)
135	أعددت لعبادي الصّالحين ما لا عين رأت..	(1/449)
136	..وأما السّجود فادعوا فيه..	(1/452)
137	إذا أتيت مضجعك فتوضّأ..	(1/452)
138	..أعوذ برضاك من سخطك..	(1/453)
139	اللهم إنّني أعوذ بك من عذاب جهنّم..	(1/453)
140	..يا أبا موسى هل يسرّك إسلامنا..	(1/454)
141	إنّ أحبّ أموالي..	(1/460)
142	والله إنّني لأستغفر الله وأتوب إليه..	(1/461)
143	..أن تعبد الله كأنك تراه..	(1/462)
144	..أن تدعو لله ندّاً..	(1/467)
145	..نزلت هذه الآية بمكة..	(1/475)
146	قصة الثلاثة الذين خلفوا..	(1/477)

147	يخرج من النار من قال لا إله إلا الله..	(1 / 478).
148	رواه الشيخان وغيرهما أنه لا توبة له..	(1 / 478).
149	لا يقفن أحدكم موقفا يقتل..	(1 / 485).
150	لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين..	(1 / 485).
151	ألا أنبئكم بأكبر الكبائر..	(1 / 485).
152	..إنما نقتدي بمن قبلنا..	(1 / 496).
153	الكيس من دان نفسه..	(1 / 498).
154	إن أهل الجنة ليرءون..	(1 / 500).
155	خمس قد مضين..	(1 / 503).
156	والله إنني أرجو أن أكون أخشاكم..	(1 / 504).
157	والله إنني لأتقاكم لله وأعلمكم بحدوده..	(1 / 504).
158	..أن يجبس أبا سفيان عند خطم الجبل..	(2 / 14).
159	..خير من أن يكون نبيا ملكا..	(2 / 15).
160	إننا معاشر الأنبياء لا نورث..	(2 / 20).
161	..من يزع السلطان أكثر ممن يزع القرآن..	غريب. (2 / 26).
162	لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة..	(2 / 43).
163	من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه..	(2 / 68).
164	اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئا..	(2 / 70).
165	..إن أبي وأباك في النار..	(2 / 72).
166	من سنّ في الإسلام سنة حسنة..	(2 / 87).
167	من دعا إلى هدى كان له من الأجر..	(2 / 87).
168	..كل بدعة ضلالة..	(2 / 88).
169	نفر من قدر الله إلى قدر الله..	أثر. (2 / 98).

170	إنّ الله جعل رزقي تحت ظلّ رحمي	(98 / 2).
171	..تغدوا خماسا وتروح بطانا..	(98 / 2).
172	..لا ملجأ ولا منجأ منك إلّا إليك..	(99 / 2).
173	..إذا حزبه أمر صلى وفزع للصلاة..	(100 / 2).
174	..ألم تر آيات أنزلت الليلة..	(107 / 2).
175	ألا أخبرك بأفضل ما يتعوذ به..	(100 / 2).
177 / 176	كان ينفث عن نفسه بالمعوذات..	(116-109 / 2).
178	..كان يفعل ذلك إذا مرض أحد أهله.	(116 / 2).
179	بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا..	(117 / 2).
180	..لا تنقضي عجائبه..	(117 / 2).
181	لكلّ إنسان قرين من الجنّ..	(127 / 2).
182	من ادّعى إلى غير أبيه..	(14 / 3).
183	..فأمسك يده على فم النبي ﷺ..	(17 / 3).
184	..وإذا سألت فاسأل الله..	(36 / 3).
185	من حلف بغير الله فقد أشرك..	(36 / 3).
186	حديث الأعمى.. جواز التوسل بالنبي ﷺ..	(36 / 3).
187	..لا تزال ظاهرة لا يضرّها من خالفها..	(47 / 3).
188	أمّا بعد؛ فإنّ خير الحديث كتاب الله..	(79 / 3).
189	من دعا إلى هدى كان له من الأجر..	(79 / 3).
190	من رغب عن سنتي فليس مني..	(80 / 3).
191	..تكلمي فإنّ هذا لا يحلّ..	(80 / 3).
192	..مروه فليتكلم وليستظلّ وليجلس..	(81 / 3).
193	من نذر أن يطيع الله فليطعه..	(81 / 3).

194	..أما إنَّها ليعذبَّان، وما يعذبَّان في كبير..	(87 / 3).
195	..لعمّ الفساد وغرقت السفينة..	(91 / 3).
196	اقرأوا يس على موتاكم..	(110 / 3).
197	لكنوا موتاكم لا إله إلا الله..	(111 / 3).
198	ما من ميت يموت..	(111 / 3).
199	اقرأوا القرآن واعملوا به..	(113 / 3).
200	إنَّ أحقَّ ما أخذتم عليه أجرا..	(113 / 3).
201	خير القرون قرني..	(137 / 3).
202	يجاء بالرجل يوم القيامة وبين يديه راية..	(139 / 3).
203	ما من امرئ يقرأ القرآن ثم ينساه..	(145 / 3).
204	استذكروا القرآن فإنَّه أشدّ..	(145 / 3).
205	من لم يدع قول الزور والعمل به..	(145 / 3).
207 / 206	بعث النبي ﷺ معلماً..	بالمعنى. (217-146 / 3).
208	ترك فينا ما إن تمسكنا به لن نضل أبدا..	بالمعنى. (146 / 3).
209	..هذا جبريل جاء ليعلّم الناس دينهم..	(217 / 3).
210	من سلك طريقا يلتمس فيه علماً..	(230 / 3).
211	الدال على الخير كفاعله.	(230 / 3).
212	..والله في عون العبد ما كان العبد..	(230 / 3).
213	المسلم من سلم المسلمون..	(466 / 3).
215 / 214	لا يؤمن أحدكم حتّى يحبَّ لأخيه..	(466 / 3).
		(84 / 4).
216	لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ..	(590 / 3).
217	اللهم اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون..	(512 / 3).

218	..يا عمّ؛ والله لو وضعوا الشمس عن يميني..	(512 / 3).
219	..كن أبا خيثة..	(519 / 3).
220	أرأيتم لو أخبركم أن خيلا تخرج..	(14 / 4).
221	ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم..	(19 / 4).
222	بارك الله لك في أهلك ومالك..	(83 / 4).
223	..لا عذر لهم عند الله..	(84 / 4).
224	إنّه لا بدّ لي يا رسول الله..	(87 / 4).
225	قصة إسلام أبي ذر..	(89 / 4).
226	..أتوجّه حيث يوجّهني ربي..	(92 / 4).
227	فلا يمسك من المال ما يزيد على ما لا بد..	(93 / 4).
228	ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء..	(93 / 4).
229	..جعلهم الله من تحت أيديكم..	(96 / 4).
230	..إنك امرؤ فيك جاهليّة..	(96 / 4).
231	..يا أبا ذر إنك ضعيف وإنّها أمانة..	(96 / 4).
232	ليس فيما دون خمس أواق صدقة..	(98 / 4).
233	ما يسرّني أن لي أحدا ذهابا..	(99 / 4).
234	وأُمّه (بلال) حمامة..	(105 / 4).
235	كان أوّل من أظهر إسلامه سبعة..	(105 / 4).
236	..دخل الجنّة وسمع خشف نعلي بلال..	(108 / 4).
237	..سبقك بها عكاشة..	(110 / 4).
238	..قاتل بهذا يا عكاشة..	(111 / 4).
239	أعطى قضيبا لعكاشة ليقصّ لنفسه..	(111 / 4).
240	..وفينا نبي يعلم ما في غد..	(113 / 4).

241	صبرا آل ياسر..	(116 / 4).
242	..وهل تزني الحرّة وتسرق..	(118 / 4).
243	..خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك..	(119 / 4).
244	أعط هذا ثمن متاعه..	(120 / 4).
245	..ألا تتعاونن معي غلاما..	(120 / 4).
246	..وجده دخل دار ضباعة بنت الزبير..	(121 / 4).
247	..إنّه يحبّ الله ورسوله..	(122 / 4).
248	ألا تعلّمين هذه رقية النملة..	(123 / 4).
249	لا تنزلوهنّ الغرف ولا تعلموهنّ..	(123 / 4).
250	..هيه يا خنيس، ويومئ بيده..	(224 / 4).
251	يرحم الله أمّ إسماعيل لو تركت ماء زمزم..	(227 / 4).
252	..بل هو الرأي والحرب والمكيدة..	(261 / 4).
253	من قرية الرّجل الصّالح يونس بن متى..	(264 / 4).
254	ما بعث الله نبياّ إلا رعى الغنم..	(267 / 4).
255	خلوا بيني وبين ناقتي..	(268 / 4).
256	..من يمنعك مني؟، فقال: الله..	(270 / 4).
257	..فأشار بيده إلى حلقه..	(274 / 4).
258	..فقال: كلا كما قتله.	(276 / 4).
259	..يا محمّد إنّّي أرقى من هذه..	(283 / 4).
260	لضرس أحدكم في النّار يوم القيامة أعظم..	(285 / 4).
261	الدين النصيحة.	(301 / 4).
262	من لا يرحم لا يرحم.	(338 / 4).
263	إذا دعي أحدكم لطعام فليجب..	(376 / 4).

264	لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد..	(376 / 4).
265	اللهم صل على آل أبي أوفى.	(377 / 4).
266	من صلى عليّ صلاة صلّت عليه الملائكة..	(377 / 4).
267	إذا صلى أحدكم ثمّ جلس في مصلاه..	(377 / 4).
268	..ذكرته في ملاً خير منه.	(378 / 4).
269	..يا رسول الله قد علمنا السلام فكيف..	(380 / 4).
270	استقيموا ولن تحصوا..	(384 / 4).
271	سدّدوا وقاربوا.	(384 / 4).
272	اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته..	(387 / 4).
273	اللهم صل على محمد وآل محمد.. / أبو حميد	(387 / 4).
274	اللهم صل على محمد وآل محمد.. / أبو مسعود	(387 / 4).
275	اللهم صل على محمد عبدك ورسولك..	(388 / 4).
276	إنّ الصّدقة لا تحل لآل محمد..	(391 / 4).
277	لا يقولن أحدكم عبي..	(397 / 4).
278	لا طاعة لأحد في معصية الله.	(398 / 4).
279	..أنا سيد ولد آدم ولا فخر..	(398 / 4).
280	لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق..	(398 / 4).
281	إنّما أنا عبد آكل كما يأكل العبد..	(399 / 4).
282	لا تطروني كما أطرت النصارى..	(399 / 4).
283	لا يدخل الجنّة صاحب مكس..	(414 / 4).
284	يا ابن آدم مرضت فلم تعدني..	(422 / 4).
285	لعن الرّجل يلبس لبس المرأة.	(423 / 4).
286	..المتشبهات من النساء بالرّجال..	(423 / 4).

287	تذكر الموت والآخرة	بالمعنى.	(26 / 5).
288	خروج النبي ﷺ لأهل البقيع..	بالمعنى.	(26 / 5).
289	أفضل الأعمال جلوسك بين يدي ولي.	موضوع.	(98 / 5).
290	لي خمسة أسماء..		(80 / 6).
291	إنما العلم بالتعلم..		(113 / 6).
292	إنما بعثت معلما..		(113 / 6).

02 / ابن باديس، عبد الحميد، إملاء العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية،

تعليق وتحقيق: محمد الحسن فضلاء، (الجزائر-قسنطينة: دار البعث، ط / 01، 1406 هـ-1985 م).

الرقم:	المتن:	ملاحظات	الموضع:
293	بني الإسلام على خمس..		21.
294	.. لا يسمع بي أحد من هذه الأمة..		25.
295	إنك تأتي قوما أهل كتاب..		25.
296	لما حضرت أبا طالب الوفاة..		26.
297	أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا..		26.
298	بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد..		27.
299	إني أسألك فمشدد عليك في المسألة..		29.
300	يأتي الشيطان.. من خلق كذا وكذا..		33.
302 / 301	.. أخبرني عن الإسلام.. (حديث جبريل).		84 / 55 / 40 / 37
304 / 303			
305	.. إني أعطي الرجل وغيره..		38.
306	يدخل أهل الجنة الجنة..		39.

307	..وأن تؤدّوا خمسا من المغنم..	41.
308	الإيمان بضع وسبعون شعبة..	44.
309	من رأى منكم منكرا فليغيره بيده..	45.
310	من نفس عن مؤمن كربة..	46.
311	نافق حنظلة..	47.
312	إذا التقى المسلمين بسيفيهما..	51.
313	فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه..	62.
314	..لا أحصي ثناء عليك..	64.
315	اللهم إني عبدك ابن عبدك..	64.
316	..إنما تدعون سميعا بصيرا قريبا..	68.
317	..لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت..	71.
318	إذا سألت فاسأل الله..	73.
319	كتب الله مقادير الأشياء..	85.
320	..عدل في قضاؤك..	85.
321	..اعملوا فكلّ ميسر لما خلق له..	87.
322	المؤمن القويّ خير وأحبّ..	87.
323	خلقت الملائكة من نور..	89.
324	..وقد تركت فيكم ما لم تضلّوا بعده..	95.
325	ما من الأنبياء نبيّ إلا أعطي..	109.
326	أتدرون من المفلس؟..	116.
327	يخرج من النار من قال لا إله إلا الله..	118.

03 / ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (الجزائر-قسنطينة:

مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، ط / 01، 1403هـ-1983م).

الرقم:	المتن:	ملاحظات	الموضع:
328	ما من الأنبياء إلا أعطي من الآيات..		.33
329	والذي نفس محمد بيده..		.36
330	..الله إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك..		.38
331	من سألكم بالله فأعطوه..		.40
332	عزمت عليك بما لي عليك من الحق..		.40
333	الدعاء هو العبادة.		.42
334	..أن يدعو لأنس خادمه فدعا له..		.42
335	..أشركنا يا أخي في دعائك ولا تنسنا..		.42
336	أسألك بكل اسم هو لك..		.44
337	..دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به..		.44
338	إني أسألك بعلمك الغيب..		.44
339	اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله..		.44
340	حديث الثلاثة الذين آووا إلى الغار..		.45
341	حديث سارة زوج إبراهيم..		.45
342	حديث استسقاء عمر بالعبّاس..		.45
343	عن ابن عمر أنه كان يذهب إلى القبر النبوي..		.46
344	..فأعني على نفسك بكثرة السجود..		.48
345	..وإذا سألت فاسأل الله..		.52
346	لا يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها..		.50

347	من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال..	.54
348	..اجلس حتى تفصل بين فرضك ونفلك..	.57
349	إنما الأعمال بالنيات..	.60
350	..أما أحدكم فأوى إلى الله..	.67
351	إذا سمعت الرجل يقول هلك الناس..	.78
352	والله ما أدري وأنا رسول الله..	.83
353	وضع عمر على سريره..	.86
354	من رغب عن سنتي فليس مني..	.78
355	من كثر سواد قوم فهو منهم..	.88
356	..من المسلمين كانوا مع المشركين..	.88
357	هم القوم لا يشقى بهم جليسهم..	.89
358	دعوها فإنها منتنة..	.91
359	أي عباس ناد أصحاب السمرة..	.94
360	لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل..	.95
361	المؤمن للمؤمن كالبنیان..	.99
363 / 362	مثل المؤمنين في توادهم وتراحيمهم..	.103 / 100
364	رجل قتل تسعا وتسعين نفسا..	.105
365	فقيه واحد أشد على الشيطان..	.108
366	قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد..	.109
367	..فلا يقل ما شاء الله وشئت..	.113
368	لأن يهدي الله بك رجلا واحدا..	.114
369	عليكم بالصدق، فإن الصدق..	.115
370	كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع..	.119

371	يكون في آخر الزّمان دجالون..	119.
372	ما من عبد يسترعيه الله رعية..	121.
373	كل أمتي معافى إلا المجاهرين..	125.
374	اجتنبوا هذه القاذورات..	128.
375	سبق درهم مائة ألف درهم..	129.
376	حديث أمّ حرام: غزو البحر..	132.
377	من قتل في سبيل الله فهو شهيد..	135.
378	نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس..	137.
379	إذا مرض العبد أو سافر كتب له..	139.
380	ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب..	139.
381	إذا خرج يسعى على ولده..	140.
382	ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطن..	141.
383	اللهم الرفيق الأعلى..	141.
384	اتّقوا اللعائين..	146.
385	اعزل الأذى عن طريق المسلمين..	148.
386	..غصن شوك على الطريق فأخّره..	148.
387 / 388	..بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه..	149 / 154.
389	..أنّ ودا وسواع ويغوث ويعوق..	150.
390	..ألا فلا تتخذوا القبور مساجد..	150.
391	لعن الله اليهود والنصارى..	152.
392	نهى رسول الله ﷺ أن يحصّص القبر..	153.
393	إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل..	155.
394	..ولولا ذلك لأبرز قبره..	156.

395	ما منكن امرأة تقدّم ثلاثة من..	157.
396	..فوعظهنّ وأمرهنّ بالصدقة..	158.
397	ألا تعلّمين هذه المرأة رقية النملة..	159.
398	خير نساء ركن الإبل نساء قريش.	162.
399	إنّ فضل عائشة على سائر النساء..	166.
400	خير نسائها مريم بنت عمران..	168.
401	كنّا نخمّر وجوهنا ونحن محرمات..	170.
402	كان الركبان يمرون بنا ونحن..	170.
403	..فجاءت امرأة من خثعم تستفتيه..	172.
404	..واستفته جارية شابة من خثعم..	172.
405	الحمو الموت.	178.
406	..على رسلكما إنّما هي صفيّة..	180.
407	وجدنا علم الناس كلّ في أربع..	187.
408	فضل المؤمن العالم على المؤمن العابد..	187.
409	يبعث الله العالم والعابد..	187.
410	لموت ألف عابد قائم الليل..	187.
411	من عمل في غير علم..	188.
412	وعظنا رسول الله موعظة..	188.
413	إنّ أفضل الهدي هدي محمد..	188.
414	سيكون في أمّتي دجالون كذابون..	188.
415	إنّ الرّجل لا يولد عالماً..	191.
416	من جاءه أجله وهو يطلب علماً..	191.
417	..واحتاج الناس إليّ، فيقول كنت أعقل..	191.

418	..اللهم علّمه الحكمة وعلمّه..	192.
419	..إذا كان يوم القيامة توضع حسنات..	192.
420	تعلّم العلم فإنّ تعليمه لله خشية..	192.
421	أوحى الله إلى موسى تعلّم الخير..	193.
422	..سألت ابن عباس عن الجهاد..	193.
423	من غدا إلى المسجد لا يريد..	193.
424	ارحموا من الناس ثلاثة..	194.
425	اللهم إليك نشكو هذا الغشاء..	194.
426	من سئل علما فكتمه..	195.
427	اطلبوا العلم ولو بالصين..	196.
428	وددت أنّي قد رأيت إخواننا..	197.
429	إنّ الله يذكر من ذكره..	200.
430	من أطاع الله فقد ذكر الله..	200.
431	..فالذكر طاعة الله..	200.
432	..اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي..	202.
433	إذا ذكر الله هذا ذكره الله بلغته..	202.
434	خيركم من تعلّم القرآن وعلمّه..	203.
435	..فيه نبأ من كان قبلكم..	204.
436	المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به..	206.
437	تعلّموا القرآن واسألوا الله به قبل أن يتعلّمه..	207.
438	أنول عليهم القرآن ليعملوا به..	208.
439	العمل في ليلة القدر والصدقة والصلاة..	211.
440	من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا..	211.

441	اللهم إنك عفو تحب العفو..	211.
442	..ليلة سمحة طلقة، لا حارّة ولا باردة..	212.
443	ويحك يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير..	274.
444	لي خمسة أسماء...	315.
445	..وأنا العاقب الذي لا نبي بعده.	323.

04 / ابن باديس، عبد الحميد، مبادئ الأصول إملاء الإمام عبد الحميد بن باديس، تح: د/ عمار طالبي، (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ط / 02، 1988م).

الرقم:	المتن:	ملاحظات	الموضع:
446	..تكتب له بكل خطوة حسنة..		19.
447	لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث..		20.
448	..أليس إذا حاضت المرأة لم تصل..		20.
449	من عمل عملا ليس عليه أمرنا..		22.
450	لعن الله الواشمات والمستوشمات..		28.
451	..فإذا أمرتكم بشيء فخذوا منه..		32.
452	إنما الولاء لمن أعتق.		35.
453	من أحيا أرضا ميتة فهي له..		38.
454	ما أبقت السهام فلاولى عصبة ذكر..		38.
455	لا زكاة في مال حتى يحول عليه الحول..		39.
456	من آذى ذمبا كنت خصمه يوم القيامة..		39.
457	صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع..		39.
458	لا تبغوا الطعام بالطعام إلا بسواء..		41.

4 5 9	فيما سقت السماء العشر.	. 4 1
4 6 0	ليس فيما دون النصاب صدقة.	. 4 1
4 6 1	لا يقبل الله صلاة أحدكم حتى يتوضّأ.	. 4 2
4 6 2	لا يرث المسلم الكافر..	. 4 2
4 6 3	تحريمها التكبير..	. 4 3
4 6 4	أنزل عشر رضعات معلومات..	. 4 6
4 6 5	..بخمسة معلومات.	. 4 6
4 6 6	كنت نهيتكم عن زيارة القبور..	. 4 7
4 6 7	لا وصية لوارث.	. 4 7

الفهارس العلميّة.

- فهرس الآيات القرآنيّة.
- فهرس الأحاديث والآثار.
- فهرس الأشعار.
- فهرس أهمّ الأعلام والشخصيّات.
- فهرس أهمّ الأماكن والبلدان.
- فهرس أهمّ المؤسسات العلميّة.
- فهرس أهمّ المصطلحات.
- فهرس المصادر والمراجع.
- فهرس موضوعات البحث.

فهرس الآيات القرآنية.

السورة:	رقم الآية:	طرف الآية:	الصفحة:
البقرة	180	﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُنْفِقِينَ ﴾ (١٨٠)	126
البقرة	216	﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾	34
آل عمران	19	﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾	121
آل عمران	31	﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾	116
آل عمران	85	﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٨٥)	121
النساء	11	﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ﴾	125
النساء	59	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾	116
النساء	61	﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾ (٦١)	116
النساء	101	﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾	126
الأنفال	30	﴿ وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ (٣٠)	66
النحل	44	﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾	123
النحل	64	﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾	124
النحل	128	﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (١٢٨)	101
الإسراء	36	﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (٣٦)	100
الأنبياء	105	﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (١٠٥)	118

الفهارس الملصقة .

116	﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّى فِرْقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤٧)	47	النور
116	﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلْغُ الْمُبِينِ ﴾ (٥٤)	54	النور
116	﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٦٣)	63	النور
70	﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾	23	الأحزاب
116	﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾	36	الأحزاب
183	﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٨) ﴿ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (٩)	09 / 08	الفتح
119	﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ (٢) ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (٤)	04 / 30	النجم
123 / 116 124 /	﴿ وَمَا ءَانَكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾	07	الحشر
291	﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾	10	الحشر
33	﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (٤)	04	الجمعة

فهرس الأحاديث والآثار.

رقم الصّفحة:	طرف الحديث:
199	باسم الله، تربة أرضنا، بريقة بعضنا...
126	لا وصيّة لوارث
125	لا يرث المسلم الكافر...
124	لعن الله الواشحات والمستوشحات والنامصات والمتنمصات...
هـ/ 146	لن يُفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة

فهرس الأشعار.

الرّويّ:	شطر البيت:	الصّفحة:
ا	بصاحبك الذي لا تصبحينا.	20
ر	ولعلّ نُزْلُك جَنَّةٌ وحريّرُ.	323
ل	فصار ابن مازيغ أخا لابن وائل.	243

فهرس أهمّ الأعلام والشخصيات.

- أ -

- إبراهيم بن الحسن اللقاني: 97 / 90.
- إبليس: 233.
- أبو إبراهيم ملياني الزواوي: 320.
- أبو الحسن علي الونيسي: 77.
- أبو داود: 166 / 95.
- أبو الفتح بن سيد الناس: 331.
- أبو الفضل الجيزاوي: 106 / 102 / 94 / 83 / 74.
- أبو القاسم الحفناوي: 72.
- أبو القاسم سعد الله: 245 / 166 / 46.
- أبو محمد أكرم زيادة: 320.
- أبو يعلى الزواوي: 184.
- الأبي: 97 / 90.
- أحمد شاكر: 155.
- أرزقي الشرفاوي الأزهري: 68.
- الإمام مالك: 72 / 78 / 88 / 93 / 135 / 149 / 150 / 151 / 152 / 153 / 154 / 155 / 156 / 158 / 160 / 161 / 162 / 163 / 164 / 169 / 181 / 195 / 207 / 211 / 328 / 329 / 330.
- الأمير عبد القادر: 287 / 34.
- أندري ديرليك: 16.
- أنس بن مالك: 187 / 150.
- أنس الشابي: 58.

- ب -

- البخاري: 77/81/89/90/93/94/117/126/129/130/135/154/161/166/167/177/180/181/195/212/221/316/317/328.
- البشير الإبراهيمي: ج / 60/62/72/78/80/82/323/327.
- البشير صفر: 49/56/86/87.
- ابن أبي حاتم: 177.
- ابن تيمية: 241.
- ابن جلول، الدكتور: 323.
- ابن عبد البر: 162/170/171/177/223/337.
- ابن العربي، أبو بكر: 163/168/170/177/223/337.
- ابن عساكر: 177.
- ابن كثير: 154/181.
- ابن ماجة: 95/166.
- ابن مريم الشريف التلمساني: 72.
- البيهقي: 177.

- ت -

- تركي راح عمامرة، الدكتور: 329.
- الترمذي: 81/90/95/146/166/169/181.
- توفيق محمد شاهين، الدكتور: 328.
- توفيق المدني: 31/40/74/218.

- ج -

- الجلال: 89.
- جورج كاترو، اللواء: 13.

- ح -

- الحاج أحمد البوعوني: 69.
- الحاج القرشي: 59.
- حافظ إبراهيم: 49.
- حافظ ثناء الله الزاهدي: 92.
- الحاكم: 176.
- حذيفة: 188.
- حمدان الونيسي: 24 / 45 / 46 / 47 / 52 / 53 / 60 / 73 / 77 / 78 / 79 / 87 / 94 / 95 / 99 / 103 / 104 / 105 / 106.

- د -

- دي بورمون، الجنرال: 21 / 07.
- الدلمي: 177.

- ذ -

- الذهبي: 176.

- ر -

- رشيد رضا: 322 / 50 / ذ.
- رضا كحالة: 39.
- ريش، مستشرق هولندي: 92.

- ز -

- الزرقاني، محمد بن عبد الباقي: 92 / 90 / 89 / 88.
- الزركلي: 39.
- زكريا بن محمد الأنصاري: 96 / 91.
- زهيرة بنت محمد بن جلول: 37.
- زين الدين العراقي: 96 / 91.

- س -

- سليمان عشراقي، الدكتور: 44.
سمية: 277.
السيوطي: 177.

- ش -

- شارل العاشر: 06.
شارل سان كالبر: 46.
الشافعي: 154.
الشهاب الخفاجي: 90.
شهاب الدين بن فرح الإشبيلي: 92.

- ص -

- صالح بن مهنا: 23 / 22
صالح المالقي: 92 / 81

- ط -

- الطاهر بن عاشور: 87 / 84 / 73 / 55 / 54 / ذ
الطاهر بن العبيدي: 72
طاهر الجزائري: 50
الطبراني: 186 / 177
طه بن محمد بن فتوح البيقوني: 135 / 92
الطيب العقبي: 78

- ع -

- عائشة: 199
عامر علي عرابي: 329 / ذ
عبد بن حميد: 177

- عبد الحق ابن باديس: 39.
- عبد الرحمن شيبان: 157.
- عبد الرحمن البناني: 92 / 82.
- عبد السلام سلطاني: 72.
- عبد العزيز فيلاي: 89 / 82 / 52.
- عبد الله بن مسعود: 124.
- عبد الملك مرتاض: 215.
- عبد الهادي نجا الأبياري: 91.
- عبد إسماعيل: 45 / 39.
- عز الدين بن جماعة: 92.
- عقيلة حسين: 318 / 313 / 167 / 158.
- علي الشابي: 56 / 55.
- عمار طالبي: 328 / 320 / 126 / 72 / 71.

- ف -

- فرحات عباس: 323.
- الفيض آبادي: 162 / 105 / 101 / 95 / 93 / 80 / 73.

- ق -

- القاضي عياض: 177 / 165 / 90 / 58.
- القسطلاني: 91 / 90 / 89 / 81.

- ك -

- كعب الأخبار: 176.

- ل -

- لحسن بن علجية: 103 / 84 / 83 / 82 / 77.

- م -

- مارشال بيجو: 09.
- مالك بن نبي: 218 / 74.
- المجاوي، عبد القادر: 77 / 58 / 24 / 22.
- محفوظ بن عامر: 320.
- المحلّي، جلال الدين: 89.
- محمد بخيت المطيعي: 106 / 105 / 104 / 99 / 94 / 93 / 84 / 83.
- محمد بن أبي شنب: 72.
- محمد بن عبد الله التليدي: 167.
- محمد بن المنور بن عيسى التلمساني: 92.
- محمد بن مصطفى بن الخوجة: 23.
- محمد بن يوسف التونسي: 106 / 102 / 89 / 81.
- محمد بهي الدين سالم: 329 / 219.
- محمد بوضياف: 243.
- محمد حبيب الله مايابي الجكني الشنقيطي: 79.
- محمد دراجي: 124 / ر.
- محمد عبده: 216 / 49 / 45 / 44 / 23 / ذ.
- محمد علي فركوس: 320.
- محمد الصادق بن القاضي: 90.
- محمد الحسن فضلاء: 72.
- محمد الخضر حسين النفطي: 86 / 85.
- محمد الصالح رمضان: 328 / 72 / 58.
- محمد العربي التباني الجزائري: 82.
- محمد العزيز الوزير التونسي: 106 / 102 / 101 / 84 / 82.
- محمد العيد آل خليفة: 326 / 323 / 243.

محمد المداسي: 51 / 43 .
 محمد المصطفى بن المكي: 100 / 36 .
 محمد النخلي: 470 / 89 / 87 / 86 / 80 / 79 / 55 / 54 .
 مسلم: 80 / 90 / 95 / 117 / 130 / 154 / 162 / 166 / 167 / 177 / 180 / 181 / 186 / 195 /
 328 / 317 / 316 / 213 / 199 /

المسيح: 12 .
 مصالي الحاج: 323 .
 مصطفى باش تارزي: 72 .
 مصطفى الشريف، الدكتور: 329 .
 معاذ: 200 / 182 .
 المعز بن باديس: 42 .
 موتيلانسكي، المفتش: 46 .
 المنذري: 177 .
 المولود بن الموهوب: 105 / 60 / 59 / 24 .
 الملي، مبارك: 325 / 286 .

- ن -

نابليون: 07 .
 النسائي: 181 / 166 / 95 .

- و -

وهب بن منبه: 176 .

- ي -

يامنة بنت بوبكر بن باديس: 39 .
 يحي بن شرف النووي: 90 .

فهرس الأماكن والبلدان.

- أ -

- أسيوط (محافظة): 83.
- الإسكندرية: 102 / 83 / 60.
- أمازيغ: 35.
- أمريكا: 10.
- أم البواقي: 77.
- أم القرى: 329.
- الأوراس: 37.

- ب -

- باريس: 250 / 44 / 08.
- بسكرة: 85.
- البتيج: 151.
- بني معافي: 37.
- بور سعيد: 84.
- بيروت: 92 / 60.

- ت -

- تركيا: 30.
- تلكاتة (قبيلة): 36.
- تونس: 20 / 38 / 39 / 49 / 52 / 53 / 55 / 56 / 57 / 58 / 67 / 79 / 80 / 81 / 82 / 84 / 85
- 319 / 165 / 109 / 107 / 102 / 100 / 96 / 87 / 86
- تيمور (مقبرة): 86.

-ج-

الجزائر: ج/ح/د/ص/ 04/06/08/09/10/11/14/17/18/19/20/21/22/23/
24/25/27/29/31/32/33/34/35/36/41/43/44/56/57/58/60/61/62/
63/67/71/72/80/85/99/102/104/129/140/156/179/206/213/
214/217/231/233/236/238/244/245/248/250/253/255/266/267/
271/274/275/286/297/305/306/317/319/320/321/322/323/324/
325/327/329/336/339.

الجيزة (محافظة):83.

-ح-

الحجاز:109/107/87/78.

-د-

دمشق:60.

-ز-

زغوان (التونسية):82.

الزلاج:85.

-س-

سوريا:287.

سوسة:86/56.

السويس:84.

سيدي بومعزة (حي):286.

سيدي قموش:39.

سيدي ونيس (قرية):77.

-ش-

الشام:109.

- ص -

صنهاجة: 36 / 35.

- ط -

طرابلس: 20.

طولقة: 85.

- ع -

العالم الإسلامي: ر / 04 / 20 / 24 / 29 / 30 / 31 / 32 / 51 / 55 / 60 / 67 / 75 / 96 / 140 /
319 / 301 / 206.

- ف -

فاس: 20.

فرنسا: 07 / 08 / 09 / 10 / 11 / 12 / 17 / 31 / 49 / 57 / 63 / 69 / 86 / 215 / 246 / 247 /
269 / 256.

- ق -

القاهرة: 329 / 222 / 91 / 90 / 60.

القسنطينية: 81.

قسنطينة: 04 / 22 / 23 / 24 / 33 / 35 / 36 / 37 / 38 / 41 / 43 / 44 / 45 / 46 / 47 / 51 / 52 /
136 / 108 / 105 / 104 / 103 / 100 / 95 / 87 / 78 / 77 / 72 / 68 / 67 / 61 / 59 / 58 / 53 /
320 / 317 / 286 / 285 / 264 / 254 / 222 / 213 / 156 /

القليوبية: 84.

القيروان: 80 / 79.

- ل -

ليدن: 92.

- م -

الفهارس الخلفيّة.

- مالطة (جزيرة): 80.
- المدينة المنورة (النبوية): 101 / 100 / 82 / 80 / 79 / 78 / 60 / 52.
- المطبعة (بلدة): 83.
- مصر: 319 / 109 / 107 / 105 / 90 / 87 / 81 / 75 / 60 / 30 / 20.
- المغرب الأقصى: 57 / 56 / 20.
- المغرب العربي: 244 / 84 / 04.
- مليانة: 129.
- المنيا: 84.
- ن -
- نجد: 29.
- نفطة: 85.
- ه -
- الهند: 107 / 106 / 101 / 80.
- و -
- وراق الحضرة (قرية): 83.
- ي -
- اليمن: 29.

فهرس المؤسسات العلميّة، والجرائد والمجلات.

- أ -

الأزهر:.....20 / 49 / 75 / 83 / 85 / 87 / 102 / 106 / 129 / 134 / 264 / 286 / 319 / 328.

- ب -

البصائر:.....319.

بيت الله الحرام:.....75 / 100.

- ج -

الجامع الأخضر:.....61 / 62 / 156 / 193 / 213 / 264 / 266 / 285.

الجامع الأعظم:.....99.

جامع سيدي عبد المؤمن:.....47 / 61 / 62.

جامع سيدي محمد النجار:.....46 / 47.

الجامع الكبير (قسنطينة):.....43 / 45 / 52 / 61.

جريدة الحاضرة:.....86.

جريدة المشير:.....57.

جمعية الأوقاف:.....86.

جمعية التربية والتعليم الإسلاميّة:.....62 / 264 / 285.

الجمعية الخيريّة:.....62.

جمعية دوحه الأدب:.....287.

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: ج / ح / د / 32 / 62 / 63 / 64 / 246 / 248 / 274 / 275 /

286 / 305 / 306 / 319 / 325 / 326 / 327 / 328 / 338.

- ح -

الحرمين:.....106 / 266.

- د -

دار تالة: 320.

- ز -

الزاوية العثمانية: 85.

الزوايا: 246 / 238 / 214.

الزيتونة: 20 / 52 / 53 / 54 / 55 / 56 / 57 / 75 / 79 / 81 / 82 / 84 / 85 / 86 / 87 / 88 / 89

90 / 91 / 92 / 93 / 96 / 97 / 106 / 222 / 266 / 286 / 319.

- ص -

الصحافة: 337 / 224 / 213.

صحيفة السنة النبوية المحمدية: 319 / 318.

- ق -

القرويين: 266 / 222 / 20.

- ك -

كتاب الزاوية القادرية: 61.

كتاب سيدي فتح الله: 61.

الكتاتيب: 270 / 61 / 20.

- م -

مؤسسة الشيخ عبد الحميد ابن باديس: 98 / 71.

مجلة السعادة العظمى: 85.

مجلة الشهاب: 319 / 238 / 217 / 210 / 192 / 191 / 157.

المدرسة: 224 / 213 / 20 / 17.

المدرسة الخلدونية: 85 / 79.

المدرسة الصادقية: 86 / 85 / 84 / 79.

مدرسة النخلة: 54.

الفهارس الخلفيّة.

- المدرسة اليوسفيّة:.....54.
- المسجد:.....17/20/152/192/213/214/233/234/242/265/266/268/337.
- مسجد سيدي بومعزة:.....61/62.
- مسجد سيدي قموش:.....61/62.
- المسجد النبوي:.....61/78/80/101/162.
- معهد عبد الحميد ابن باديس:.....249.
- المكتب العربي:.....62.

- ن -

- النادي:.....213.
- نادي الترقّي:.....63.

فهرس أهم المصطلحات.

- أ -

- إباضية:.....63 / 41.
- إجازة:.....هـ: 98 / 99 / 100 / 101 / 102 / 103 / 104 / 105 / 106 / 107.
- إجماع:.....117 / 116.
- الإسرائيليات:.....176 / 148.
- الإقتصاد:.....18.
- إلحاق الجزائر بفرنسا (قانون):.....06.
- الأمر الرئاسي:.....08.
- الأملاك الوقفية:.....21 / 09.
- الانتخابات:.....08.
- الأهالي (قانون):.....07.

- ب -

- البدع: 16 / 21 / 36 / 114 / 115 / 121 / 216 / 230 / 235 / 256 / 261 / 300 / 310 / 317.
- البربر:.....35.
- البلديات:.....08.

- ت -

- تأميم الأراضي والممتلكات:.....09.
- التجارة:.....19.
- التخريب:.....201 / 196 / 190 / 189 / 188 / 180 / 179.
- التنصير:.....20 / 15 / 13 / 12 / 11.

-ج-

الجامعة الإسلامية:.....246.

الجهل:.....338 / 310 / 283 / 281 / 268 / 267 / 236 / 109 / 25 / 21 / 14.

-ح-

الحديث الغريب:.....147.

حرب صليبية:.....68 / 11.

الحركة الوطنية الجزائرية:.....ص / 248.

-خ-

الخرافة:14 / 22 / 25 / 109 / 230 / 232 / 233 / 236 / 239 / 256 / 261 / 281 / 301 /

338.

-د-

الدستور:.....08.

-س-

الساناتوس كنولت (قرار):.....07.

السجاجة:.....292.

السند (أسانيد):178 / 179 / 182 / 183 / 184 / 185 / 186 / 188 / 189 / 190 / 191 / 196 /

330 /

-ش-

الشرك:.....300 / 241 / 233 / 230 / 21.

-ص-

الصوفية:.....325 / 290 / 239 / 231 / 230 / 47 / 31 / 28.

-ط-

الطريقة:25 / 26 / 27 / 28 / 31 / 41 / 63 / 230 / 231 / 233 / 238 / 239 / 271 / 324 /

325.

الفهارس الملصقة.

طريقة الخلوتية:.....72.

- ف -

الفاثيكان:.....12 / 11.

فرسان سان جون:.....12.

الفقر:.....14.

- ك -

الكاردينالات:.....12.

الكنيسة:.....11.

- ل -

اللائكية:.....30.

- م -

مالكية:.....337 / 223 / 211 / 162 / 114 / 97 / 82 / 63 / 41.

المبشرين:.....13 / 11.

المتن:.....330 / 208 / 201 / 200 / 198 / 191 / 186 / 185 / 178.

مجلس الأمة:.....30.

المعمرين:.....08.

- ن -

النصرانية (التصاري):.....41 / 15 / 11.

- و -

الوطنية الإسلامية:.....338 / 333 / 244 / 240.

الوظيف:.....22.

- ي -

اليهود:.....41.

فهرس المصـادر والمراجع.

- 01-: الأبي، أبي عبد الله محمد بن خلفه، إكمال إكمال المعلم، (لبنان-بيروت: دار الكتب العلمية، د/ ط/ ت).
- 02-: أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، سنن أبي داود، تعليق: عزّت عبيد الدّعاس وعادل السيد، (بيروت-لبنان: دار ابن حزم، ط/ 01، 1418هـ-1998م).
- 03-: أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة أو القصة الكاملة للسطو بالإمام الرئيس عبد الحميد بن باديس، (الجزائر- قسنطينة: دار البعث، د/ ط/ ت).
- 04-: أحمد محمد شاكر، الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، (لبنان-بيروت: دار الكتب العلمية، د/ ط/ ت).
- 05-: أ/ د البهي، محمد، المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، (مصر-القاهرة: مطبعة الأزهر د/ ت، ط).
- 06-: أ/ د عشراقي سليمان، ابن باديس رؤى وقراءات في تفاصيل المسيرة، (الجزائر-عين الدفلى: دار ألف للنشر والتوزيع، د/ ط، 2013م).
- 07-: أ.د/ محمد علي فركوس، إمتاع المجلس شرح عقائد الإيمان للإمام ابن باديس ومنهجه في تقرير أسماء الله وصفاته، (الجزائر- القبة: دار العواصم، ط/ 01، 1433هـ-2012م).
- 08-: إسماعيل باشا، إيضاح المكنون في الذّيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، (لبنان- بيروت: دار إحياء التراث العربي، د/ ط/ ت).
- 09-: أعمال الملتقى الدولي حول الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس 18-19 ماي 2012م قسنطينة، تقديم وتنسيق: د/ عبد العزيز فيلاي، (الجزائر-عين مليلة: دار الهدى، د/ ط، 2013م).
- 10-: الألباني، محمد ناصر الدين، إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، (دمشق-سوريا: المكتب الإسلامي، ط/ 01، 1399هـ-1979م).

- 11-: الألباني، محمد ناصر الدين، خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يُعَلِّمُها أصحابه، (سورية- دمشق: المكتب الإسلامي، ط / 04، 1400 هـ).
- 12-: الألباني، محمد ناصر الدين، علوم الحديث، جمع: عصام موسى هادي، (لبنان- بيروت: دار ابن حزم، ط / 01، 1424 هـ-2003 م).
- 13-: أندري ديرليك، عبد الحميد بن باديس مفكر الإصلاح وزعيم القومية الجزائرية، تقديم وترجمة: مازن بن صلاح مطبقاني، (الجزائر-المحمدية: عالم الأفكار، د / ط، 2013 م).
- 14-: البخاري، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تحقيق: محب الدين الخطيب، (مصر-القاهرة: المكتبة السلفية، ط / 01، 1400 هـ).
- 15-: البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، (لبنان- بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط / 01، 1427 هـ-2006 م).
- 16-: ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، إعداد وتصنيف: أ.د / عمار طالبي، (الجزائر- برج الكيفان: دار الأمانة، د / ط، 2009 م).
- 17-: ابن باديس، عبد الحميد، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، إعداد: أ.د / عمار طالبي، (الجزائر-المحمدية: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط / 01، 2014 م).
- 18-: ابن باديس، عبد الحميد، إملاء العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، تعليق وتحقيق: محمد الحسن فضلاء، (الجزائر-قسنطينة: دار البعث، ط / 01، 1406 هـ-1985 م).
- 19-: ابن باديس، عبد الحميد، مبادئ الأصول إملاء الإمام عبد الحميد بن باديس، تح: د / عمار طالبي، (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ط / 02، 1988 م).
- 20-: ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، (الجزائر-قسنطينة: مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، ط / 01، 1403 هـ-1983 م).
- 21-: بن خلدون، عبد الرحمن، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، (بيروت-لبنان: دار الفكر، د / ط، 1431 هـ-2000 م).
- 22-: بن خلّكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء

أبناء الزمان، تحقيق: د/ إحسان عباس، (لبنان- بيروت: دار صادر، د/ ط/ ت).

-23-: ابن الصّلاح، أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن، علوم الحديث، وشرحه التقييد والإيضاح لما أطلق وأغلق من مقدمة ابن الصّلاح، للحافظ زين الدين عبد الرحيم بن حسين العراقي، (سورية- حلب: المطبعة العلمية، ط/ 01، 1350هـ- 1931م).

-24-: ابن العماد، شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد الحنبلي الدمشقي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، (لبنان- بيروت: دار ابن كثير، ط/ 01، 1408هـ- 1988م).

-25-: ابن فرحون المالكي، القاضي إبراهيم بن نور الدين، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق: مأمون بن محيي الدين الجنّان، (لبنان- بيروت: دار الكتب العلمية، ط/ 01، 1417هـ- 1996م).

-26-: ابن كثير، أبي الفداء إسماعيل ابن عمر القرشي الدمشقي، البداية والنهاية، تحقيق: د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، (مصر-جيزة: هجر للطباعة والنشر، ط/ 01، 1418هـ- 1998م).

-27-: ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد، سنن ابن ماجه، اعتناء: فريق بيت الأفكار الدولية، (الرياض-المملكة العربية السعودية: د/ ط/ ت).

-28-: بن مزوز، عمار، عبد الحميد ابن باديس ومنهجه في الدّعوة والإصلاح، (الجزائر- تيزي وزو: دار الأمل، د/ ط، 2010م).

-29-: ابن منظور، لسان العرب، (مصر-القاهرة: دار المعارف، د/ ط/ ت).

-30-: بن نبي، مالك، تأملات، (سورية-دمشق: دار الفكر، ط/ 09، 1430هـ- 2009م).

-31-: بن نبي، مالك، شروط التّهضة، ترجمة: عمر كامل مسقاوي وعبد الصّبور شاهين، (سورية-دمشق: دار الفكر، ط/ 06، 1427هـ- 2006م).

-32-: بن نبي، مالك، القضايا الكبرى، (سورية- دمشق: دار الفكر، ط/ 06، 1428هـ- 2007م).

-33-: بن نبي، مالك، مذكرات شاهد للقرن، (سورية- دمشق: دار الفكر، ط/ 02، 1404هـ- 1984م).

- 34-: بن نبي، مالك، مشكلات الحضارة من أجل التغيير، (سورية-دمشق: دار الفكر، ط/ 04، 1426هـ-2005م).
- 35-: بن نبي، مالك، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة: د/ بسام بركة ود/ أحمد شعبو، (سورية-دمشق: دار الفكر، ط/ 07، 1427هـ-2006م).
- 36-: بن نبي، مالك، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، (سورية-دمشق: دار الفكر، ط/ 06، 1427هـ-2006م).
- 37-: الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، (القاهرة-مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، د/ ط/ ت).
- 38-: التليدي، محمد بن عبد الله، تراث المغاربة في الحديث النبوي وعلومه، (لبنان - بيروت: دار البشائر الإسلامية، ط/ 01، 1416هـ-1995م).
- 39-: توفيق المدني، أحمد، حياة كفاح مذكرات، (الجزائر-حسين داي: دار البصائر، د/ ط، 2009م).
- 40-: توفيق المدني، أحمد، ردّ أديب على حملة أكاذيب، (الجزائر-حسين داي: دار البصائر، د/ ط، 2009م).
- 41-: توفيق المدني، أحمد، هذه هي الجزائر، (مصر-القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، د/ ت/ ط).
- 42-: الجيلاني ضيف، بناء المجد عبد الحميد بن باديس، (الجزائر-الجلفة: دار الخليل العلمية، ط/ خاصة، 2013م).
- 43-: حبنكة الميداني، عبد الرحمن حسن، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، التبشير-الاستشراق-الاستعمار دراسة وتحليل وتوجيه، (سورية-دمشق: دار القلم، ط/ 08، 1420هـ-2000م).
- 44-: الحركة السلفية في المغرب العربي، أيام دراسية بمشاركة أساتذة ومفكرين من المغرب العربي، (المغرب-الرباط: منشورات دار الأمان، ط/ 02، 1431هـ-2010م).
- 45-: الحفناوي، أبي القاسم محمد، كتاب تعريف الخلف برجال السلف، (الجزائر-الجزائر: مطبعة بيب فونتانة الشرقية، د/ ط، 1324هـ-1906م).

- 46-: خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1871، 1830 (الجزائر: منشورات دحلب، د/ط، 1977م).
- 47-: د/ أبو شهبة، محمد بن محمد، الوسيط في علوم ومصطلح الحديث، (السعودية - جدة: عالم المعرفة، د/ط/ت).
- 48-: د/ أبو عمران الشيخ، وفريق من الأساتذة، معجم مشاهير المغاربة، (الجزائر: منشورات دحلب، د/ط، 2007م).
- 49-: د/ أحمد بن عبد العزيز القصير، عقيدة الصوفية وحدة الوجود الخفية، (السعودية- الرياض: مكتبة الرشد، ط/01، 1424هـ - 2003م).
- 50-: د/ أحمد محمود الجزار، الإمام المجدد ابن باديس والتصوف، (مصر-الإسكندرية: منشأة المعارف، ط/01، 1999م).
- 51-: د/ بكر بن عبد الله أبو زيد، التأصيل لأصول التّخريج وقواعد الجرح والتّعديل، (السعودية- الرياض: دار العاصمة، ط/01، 1413هـ).
- 52-: د/ البهي محمد، الإسلام في مواجهة المذاهب الهدامة، (مصر-القاهرة: مكتبة وهبة، ط/01، 1401هـ - 1981م).
- 53-: د/ بوعلام بسايح، أعلام المقاومة الجزائرية ضدّ الاحتلال الفرنسي بالسيف والقلم 1830 - 1954م، (الجزائر: الطبعة الشعبية للجيش، د/ط، 2007م).
- 54-: د/ تركي، رابح عمامرة، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، (الجزائر-روبية: المؤسسة الوطنية للاتصال النشر والإشهار، ط/05، 1422هـ - 2001م).
- 55-: د/ توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، تع وتخ: أحمد شمس الدين، (لبنان-بيروت: دار الكتب العلمية، ط/02، 1424هـ - 2003م).
- 56-: د/ رمزي نعناعة، الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير، (لبنان-بيروت: دار الضياء، سورية- دمشق: دار القلم، ط/01، 1390هـ، 1970م).

- 57-: د/ جمال عبد الهادي محمد مسعود، أ/ علي لبن، المجتمع الإسلامي المعاصر (ب) أفريقيا، (القاهرة- مصر، د/ ط، 1994م).
- 58-: د/ خير الدين شترة، إسهامات النخبة الجزائرية في الحياة السياسية والفكرية التونسية 1900-1939م، (الجزائر- حسين داي: دار البصائر، ط/ خاصة، 2009م).
- 59-: د/ خير الدين شترة، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة 1900-1956م، (الجزائر- حسين داي: دار البصائر، ط/ خاصة، 2009م).
- 60-: د/ الدراجي محمد، الإمام عبد الحميد بن باديس وجهوده في تجديد العقيدة الإسلامية، (الجزائر- عين مليلة: دار الهدى، د/ ط، 2012م).
- 61-: د/ الدراجي محمد، الشيخ عبد الحميد ابن باديس السلفية والتجديد، (الجزائر- عين مليلة: دار الهدى، د/ ط، 2012م).
- 62-: د/ الدراجي محمد، عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء ، تقديم وتنسيق: عبد العزيز فيلاي، (الجزائر- عين مليلة: دار الهدى، د/ ط، 2014م).
- 63-: د/ الدراجي محمد، مواقف الإمام الإبراهيمي عبد الحميد ابن باديس، (الجزائر-المحمدية: عالم الأفكار، ط/ 01، 2007م).
- 64-: د/ سعد بن عبد الله آل حميد، طرق تخريج الحديث، (السعودية- الرياض: دار علوم السنة للنشر، ط/ 01، 1420هـ-2000م).
- 65-: د/ سعد الله، أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، (الجزائر- حسين داي: دار البصائر، ط/ خاصة، 2007م).
- 66-: د/ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (الجزائر-حسين داي: ط/ خاصة، 2007م).
- 67-: د/ سعد الله، أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، (الجزائر-حسين داي: دار البصائر، ط/ خاصة، 2007م).
- 68-: د/ سعد الله، أبو القاسم، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، تصدير: الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، (الجزائر: دار الرائد للكتاب، ط/ 05، 2007م).

- 69-: د/ الطحان، محمود، تيسير مصطلح الحديث، (مصر-الإسكندرية: مركز الهدى للدراسات، ط/ 07، 1415هـ).
- 70-: د/ الطحان، محمود، أصول التّخريج ودراسة الأسانيد، (لبنان- بيروت: دار القرآن الكريم، ط/ 03، 1401هـ-1981م).
- 71-: د/ طعيمة، صابر عبد الرحمن، الإلحاد الديني في مجتمعات المسلمين، (لبنان- بيروت: دار الجيل، ط/ 01، 1425هـ-2004م).
- 72-: د/ عبد الحميد درويش النّساج، عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية بين النظرية والتطبيق، (مصر-القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ط/ 01، 1431هـ-2010م).
- 73-: د/ عبد الرحمن بن صالح بن سليمان الدهش، الأقوال الشّاذة في التّفسير نشأتها وأسبابها وآثارها، (مانشستر- بريطانيا: إصدارات الحكمة، ط/ 01، 1425هـ-2004م).
- 74-: د: عبد العزيز فيلاي، د: أحمد صاري، د: طاهر بونابي، البيت الباديبي مسيرة علم ودين وسياسة، (الجزائر- عين مليلة: دار الهدى، د/ ط، 2012م).
- 75-: د/ عبد العزيز فيلاي، عبد الحميد بن باديس مرحلة التحصيل والتكوين، (الجزائر- عين مليلة: دار الهدى، د/ ط، 2014م).
- 76-: د/ عبد العزيز فيلاي، وثائق جديدة عن جوانب خفيّة في حياة ابن باديس الدراسية، (الجزائر- عين مليلة: دار الهدى، د/ ط، 2012م).
- 77-: د/ عبد القادر فضيل، أ/ محمد الصالح رمضان، إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، (الجزائر- برج الكيفان: دار الأمانة، ط/ 01، 2007م).
- 78-: د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، موسوعة شروح الموطأ للإمام مالك بن أنس، (القاهرة - مصر: مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، ط/ 01، 1426هـ-2005م).
- 79-: د/ عبد الله مقلاتي، إسهام شيوخ معهد عبد الحميد بن باديس وطلابه في الثورة التحريرية، (الجزائر- عين مليلة: دار الهدى، د/ ط، 2014م).
- 80-: د/ عبد الملك مرتاض، معجم الشّعراء الجزائريّين في القرن العشرين، (الجزائر: دار هومه،

د/ ط، 2007م).

- 81- د/ عقيلة حسين، جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في خدمة الحديث الشريف، (الجزائر - روية: دار الوعي، ط/ 01، 1434هـ - 2012م).
- 82- د/ عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962م، (لبنان - بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط/ 01، 1997م).
- 83- د/ عميرة، عبد الرحمن، الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وضلال الاستشراق، (لبنان - بيروت: دار الجيل، د/ ط/ ت).
- 84- د/ فؤاد صالح السيد، موسوعة أعلام القرن العشرين في العالمين العربي والإسلامي، (لبنان - بيروت: مكتبة حسن العصرية، ط/ 01، 1434هـ - 2013م).
- 85- د/ مانع بن حماد الجهني، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، (السعودية - الرياض: دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط/ 04، 1420هـ).
- 86- د/ محمد بهي الدين سالم، ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير، (مصر - القاهرة: دار الشروق، ط/ 01، 1420هـ - 1999م).
- 87- د/ محمد رجب البيومي، النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، (سورية - دمشق: دار القلم، ط/ 01، 1415هـ - 1995م).
- 88- د/ محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، (مصر - القاهرة: مكتبة وهبة، د/ ط/ ت).
- 89- د/ محمد محمد أبو شهبه، في رحاب السنة الكتب الصحاح الستة، سلسلة البحوث الإسلامية، السنة السادسة والعشرون، الكتاب الثالث، (مصر - القاهرة: مجمع البحوث الإسلامية، د/ ط، 1415هـ - 1995م).
- 90- د/ محمد محمود بكّار، علم تخريج الأحاديث (أصوله. طرائقه. مناهجه)، (السعودية - الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط/ 03، 1418هـ - 1997م).
- 91- د/ المرعشلي، يوسف بن عبد الرحمن، مصادر الدراسات الإسلامية ونظام المكتبات والمعلومات، (لبنان - بيروت: شركة دار البشائر الإسلامية، ط/ 01، 1427هـ - 2006م).
- 92- د/ مصطفى خالدي، د/ عمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، (لبنان -

بيروت: منشورات المكتبة العصرية، ط / 03، 1372 هـ - 1953 م).

-93- د/ نبيل أحمد بلاسي، الاتجاه العربي والإسلامي ودوره في تحرير الجزائر، (مصر-القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د/ ط، 1990 م).

-94- د/ نور الدين عتر، منهج النقد في علوم الحديث، (سورية- دمشق: دار الفكر، ط / 03، 1408 هـ - 1988 م).

-95- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، (بيروت- لبنان: مؤسسة الرسالة، ط / 02، 1402 هـ - 1982 م).

-96- الرّاهرمزي، الحسن بن عبد الرّحمن (ت: 360 هـ)، المحدث الفاصل بين الرّاي والواعي، تحقيق: د/ محمد عجّاج الخطيب، (لبنان- بيروت: دار الفكر، ط / 01، 1391 هـ، 1771 م).

-97- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: د/ حسين نصّار، (الكويت: مطبعة حكومة الكويت، ط / 01، 1269 هـ - 1969 م).

-98- الزرقاني، محمد بن عبد الباقي بن يوسف، شرح الموطأ، (مصر-القاهرة: المطبعة الخيرية، د/ ط، 1310 هـ).

-99- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: أبي الفضل الدمياطي، (مصر- القاهرة: دار الحديث، د/ ط، 1427 هـ - 2006 م).

-100- الزركشي، بدر الدين أبي عبد الله (ت: 794 هـ)، النكت على مقدمة ابن الصلاح، تحقيق: د/ زين العابدين بن محمد بلا فريج، (السعودية-الرياض: مكتبة أضواء السلف، ط / 01، 1419 هـ - 1998 م).

-101- الزركلي، خير الدين، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، (لبنان- بيروت: دار العلم للملايين، د/ ط/ ت).

-102- زروقة، عبد الرّشيد، جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر (1913/ 1940)، (لبنان- بيروت: دار الشهاب، ط / 01، 1420 هـ - 1999 م).

-103- السخاوي، أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن (ت: 902 هـ)، فتح المغيث بشرح ألفية

- الحديث للعراقي، تحقيق: علي حسن الحلبي، (دار الإمام الطبري، ط / 02، 1412 هـ، 1992 م).
- 104-: سمير القاضي، تحقيق: مناهل الصّفا في تخريج أحاديث الشّفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، تخريج: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، (لبنان- بيروت: دار الجنان ومؤسسة الكتب الثقافية، ط / 01، 1408 هـ- 1988 م).
- 105-: السنّة النبوية المحمّدية، لسان حال جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين، (لبنان- بيروت: دار الغرب الإسلاميّ، د/ ط، 2003 م)، (العدد: 01، 08 ذي الحجة 1351 هـ، 03 أفريل 1932 م).
- 106-: السيوطي، أبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، (السعودية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، د/ ط، 1426 هـ).
- 107-: السيوطي، أبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر، التحرير في علم التفسير، تحقيق ودراسة: زهير عثمان علي نور، رسالة لنيل درجة الماجستير في الكتاب والسنة، (السعودية- مكة: جامعة أم القرى، د/ ط، 1404 هـ- 1983 م).
- 108-: السيوطي، جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر، تدريب الراوي في شرح تقريب التّواوي، تحقيق: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، (السعودية- الرياض: دار العاصمة، ط / 01، 1424 هـ- 2003 م).
- 109-: الصنعاني، أبي إبراهيم محمد بن إسماعيل (ت: 1182 هـ)، توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار، (لبنان- بيروت: دار الكتب العلمية، ط / 01، 1417 هـ- 1997 م).
- 110-: صالح عوض، معركة الإسلام والصّليبيّة في الجزائر، (الجزائر: الزيتونة للإعلام والنشر، د/ ط، 1989 م).
- 111-: الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، (القاهرة-مصر: مكتبة ابن تيمية، د/ ط / ت).
- 112-: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، (لبنان- بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية، ط / 02، 1400 هـ- 1980 م).

- 113-: عاطف عيد، قصة وتاريخ الحضارات العربية، موسوعة 22/21 تونس الجزائر، (لبنان-بيروت: Edito Creps Int، د/ ط 1998م-1999م).
- 114-: عامر، علي عرابي، الإمام عبد الحميد ابن باديس ومنهجه في الدعوة من خلال آثاره في التفسير والحديث، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، (السعودية-مكة: كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، د/ ط/ ت، 1408هـ-1409هـ).
- 115-: عبد العزيز الكحلوت، التنصير والاستعمار في إفريقيا السوداء، (ليبيا-طرابلس: منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ط/ 02، 1412هـ-1992م).
- 116-: عبد الكريم بن عبد الله بن عبد الرحمن الخضير، الحديث الضعيف وحكم الاحتجاج به، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، (السعودية: جامعة محمد بن سعود الإسلامية، د/ ط، 1401هـ-1402هـ).
- 117-: العسقلاني، ابن حجر، النكت على كتاب ابن الصلاح، تحقيق: د/ ربيع بن هادي عمير، (السعودية-الرياض: دار الرؤية، ط/ 03، 1994م-1415هـ).
- 118-: علي بن عبد الله الصيّا، يعقوب بن شبة السدوسي، آثاره، ومنهجه في الجرح والتعديل، تحقيق ودراسة، رسالة لنيل درجة الماجستير، (السعودية: جامعة الملك سعود، د/ ط، 1417هـ).
- 119-: علي محمد البجاوي، تحقيق: الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عيّا، (لبنان-بيروت: دار الكتاب العربي، د/ ط، 1404هـ-1984م).
- 120-: القسطلاني، شهاب الدين أحمد بن محمد الخطيب، إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري، (مصر-القاهرة: المطبعة الكبرى الأميرية، د/ 07، 1323هـ).
- 121-: القنوجي، أبي الطيب السيد صديق حسن خان، الحطة في ذكر الصحاح الستة " البخاري-مسلم-الترمذي-أبو داود-النسائي-ابن ماجه " بالإضافة إلى مسند أحمد وموطأ مالك ودراسات شاملة للعلوم الحديثية، دراسة وتحقيق: علي حسن الحلبي، (لبنان-بيروت: دار الجيل، د/ ط/ ت).
- 122-: كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين تراجم مصنفى الكتب العربية، (لبنان-بيروت:

مؤسسة الرسالة، ط / 01، 1414 هـ - 1993 م).

123-: لحسن بن علجية، الدرّ النفيس في إجازات ومرويات الإمام عبد الحميد بن باديس، (لبنان-بيروت: دار ابن حزم، ط / 01، 1435 هـ - 2014 م).

124-: لورا فيشيا فاقلييري، تقديم: إيماويل باتاي، ترجمة: حميد عبد القادر، أرشيف الفاتيكان السري حول غزو الجزائر من قبل القوات الفرنسية لشارل العاشر أو الحرب الصليبية المجهولة، (الجزائر-المحمدية: عالم الأفكار، د / ط، 2013 م).

125-: مجلة الوعي، (الجزائر-روبية: دار الوعي، ع 01، رجب / شعبان 1431 هـ جويلية 2010 م).

126-: محمد بن محفوظ ابن المختار فال الشنقيطي، جواهر الدرر في نظم مبادئ أصول ابن باديس الأبرّ، (لبنان-بيروت: دار ابن حزم، ط / 01، 1426 هـ - 2005 م).

127-: محمد الصالح الصديق، أعلام من المغرب العربي، (الجزائر: دار موفم، د / ط، 2003 م).

128-: محمد الصالح الصديق، نماذج للاقتداء، (الجزائر- بوزريعة: دار هومه، د / ط، 2013 م).

129-: محمد الطاهر فضلاء، من أعلام الإصلاح في الجزائر، (الجزائر: دون دار النشر، د / ط، 2009 م).

130-: محمد هشام بالقاضي، معجم علماء الدين والإصلاح في الوطن العربي (الجزائر)، (الجزائر: منشورات بن سنان، ط / 01، 2011 م).

131-: المزي، جمال الدين أبي الحجاج يوسف، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق: د / بشار عوّاد معروف، (لبنان - بيروت: مؤسسة الرسالة، ط / 01، 1413 هـ - 1992 م).

132-: مسلم، أبي الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، (السعودية-الرياض: بيت الأفكار الدولية، د / ط، 1419 هـ - 1998 م).

133-: مطبقاني، مازن صلاح، عبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي، (سورية-دمشق: دار القلم، ط / 02، 1420 هـ، 1999 م).

134-: المقرّي، أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: د /

الفهارس الملصقة.

إحسان عباس، (لبنان - بيروت: دار صادر، د/ ط، 1408 هـ - 1988 م).

- 135: موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، جمع وضبط: المحامي علي الرضا

الحسيني، (سورية: دار النوادر، ط/ 01، 1431 هـ - 2010 م).

- 136: الملي، مبارك بن محمد، ابن باديس وعروبة الجزائر، (الجزائر: إصدار وزارة الثقافة

بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، د/ ط، 2007 م).

- 137: الملي، مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، (الجزائر: مكتبة النهضة،

د/ ط، 1964 م).

- 138: النوي، أبو زكريا محيي الدين بن شرف، تهذيب الأسماء واللغات، (لبنان - بيروت:

دار الكتب العلميّة، د/ ط/ ت).

- 139: مجلة دعوة الحق، (المغرب - الرباط: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية

بالمملكة المغربية، ع: 9/ 10، السنة: 12، 1389 هـ - 1969 م).

فهرس موضوعات البحث.

مقدمة.....	أ.
الفصل الأول: الإمام ابن باديس؛ عصره، ونشأته.....	01.
مقدمة الفصل.....	02.
المبحث الأول: عصر وواقع الإمام عبد الحميد ابن باديس.....	03.
<u>المطلب الأول: الحالة السياسية.....</u>	04.
الفرع الأول/ القضاء على مقومات السيادة الوطنية.....	04.
الفرع الثاني/ سياسة الاستيطان.....	09.
الفرع الثالث/ سياسة التنصير.....	11.
<u>المطلب الثاني: الحالة الاجتماعية والاقتصادية.....</u>	14.
الفرع الأول/ الأوضاع الاجتماعية.....	14.
الفرع الثاني/ الأوضاع الأخلاقية.....	16.
الفرع الثالث/ الأوضاع الاقتصادية.....	18.
<u>المطلب الثالث: الحالة العلمية والعلمية.....</u>	20.
الفرع الأول/ حالة التعليم.....	20.
الفرع الثاني/ حالة النخبة والمثقفين.....	22.
الفرع الثالث/ الحالة الدينية.....	24.
<u>المطلب الرابع: موقف الإمام ابن باديس من واقع عصره، وأثر هذا الواقع فيه.....</u>	29.
الفرع الأول/ موقف الإمام عبد الحميد ابن باديس من أهم الأحداث.....	29.
الفرع الثاني/ أثر واقع الإمام ابن باديس في اتجاهه الإصلاحية.....	32.
المبحث الثاني: ترجمة مختصرة للإمام عبد الحميد ابن باديس.....	35.
<u>المطلب الأول: الإمام عبد الحميد ابن باديس، نسبه، أسرته ومولده.....</u>	35.

- الفرع الأول/ نسب الإمام ابن باديس وأسرته.....35.
- الفرع الثاني/ مولده، زواجه وذريته.....38.
- الفرع الثالث/ أثر البيت البادي في شخصية الإمام ابن باديس.....37.
- المطلب الثاني: موجز الحياة العلمية للإمام ابن باديس قبل الهجرة**.....43.
- الفرع الأول/ حفظ القرآن الكريم.....43.
- الفرع الثاني/ زيارة محمد عبده للجزائر.....44.
- الفرع الثالث/ التحاق الإمام ابن باديس بشيخه حمدان الويسي، وأثره فيه.....45.
- المطلب الثالث: موجز الحياة العلمية للإمام ابن باديس أثناء الهجرة وبعدها**.....52.
- الفرع الأول/ الإمام ابن باديس في الزيتونة.....54.
- الفرع الثاني/ الهجرة الثانية إلى المشرق.....60.
- الفرع الثالث/ بداية المشروع البادي التربوي الإصلاحي.....61.
- المطلب الرابع: وفاته، وآثاره، وثناء العلماء عليه**.....65.
- الفرع الأول/ أخلاق الإمام ابن باديس، وشخصيته.....65.
- الفرع الثاني/ مرض الإمام ابن باديس، ووفاته.....67.
- الفرع الثالث/ أهم آثار الإمام ابن باديس، وأقوال العلماء فيه.....70.
- المبحث الثالث: الجانب الحديثي في الحياة الدراسية للإمام عبد الحميد ابن باديس**.....76.
- المطلب الأول: أشهر شيوخ الإمام عبد الحميد ابن باديس في الحديث**.....76.
- المطلب الثاني: الزاد الحديثي للإمام ابن باديس أثناء مرحلة التحمل والتلقي**.....88.
- الفرع الأول/ الزاد الحديثي المتحمل من الزيتونة.....88.
- الفرع الثاني/ الزاد الحديثي المتحمل خارج الزيتونة.....93.
- الفرع الثالث/ من خصائص الزاد الحديثي للإمام عبد الحميد ابن باديس.....96.
- المطلب الثالث: الإجازات الحديثية للإمام عبد الحميد ابن باديس**.....98.
- الفرع الأول/ إجازات الإمام عبد الحميد ابن باديس الحديثية.....99.

الفرع الثاني/ خصائص إجازات الإمام عبد الحميد ابن باديس الحديثية.....	103.
خاتمة الفصل.....	108.
الْقَصْدُ الثَّانِي : منهج الإمام ابن باديس في تناول الحديث النبوي.....	111.
مقدمة الفصل.....	112.
الْمَبْنِيَّةُ الْأُولَى : مكانة الحديث النبوي عند الإمام ابن باديس.....	113.
المطلب الأول : مفهوم السنة النبوية عند الإمام ابن باديس.....	113.
الفرع الأول/ تعريف السنة النبوية.....	113.
الفرع الثاني/ حكم السنة النبوية ومجالاتها.....	116.
المطلب الثاني : علاقة السنة النبوية بالقرآن الكريم.....	118.
الفرع الأول/ مجالات اجتماع السنة النبوية بالقرآن الكريم.....	118.
الفرع الثاني/ مجالات خصوصية السنة النبوية.....	122.
المطلب الثالث : دور الحديث النبوي في العمل الإصلاحي.....	127.
الفرع الأول/ دور الحديث النبوي في الإصلاح.....	127.
الفرع الثاني/ دور الحديث النبوي في البرامج الإصلاحية.....	134.
الْمَبْنِيَّةُ الثَّانِيَّة : مصادر الدرس الحديثي عند الإمام ابن باديس.....	138.
المطلب الأول : مصدرية الحديث النبوي في الدرس الحديثي.....	139.
الفرع الأول/ اعتماد الإمام ابن باديس على الحديث النبوي.....	140.
الفرع الثاني/ مفهوم الحديث النبوي عند الإمام ابن باديس.....	142.
المطلب الثاني : مؤلف الإمام مالك في الدرس الحديثي.....	149.
الفرع الأول/ المكانة العلمية للموطأ وخصائصه المعرفية.....	149.
الفرع الثاني/ مصدرية الموطأ في الدرس الحديثي للإمام ابن باديس.....	156.
المطلب الثالث : المصادر الواردة في الدرس الحديثي للإمام ابن باديس.....	164.

الفرع الأول/ المصادر الأساسية في الدرس الحديثي.....	164.
الفرع الثاني/ سرد لأهم مصادر الدرس الحديثي المتبقية.....	172.
المبحث الثالث: منهجية الإمام ابن باديس في شرح الحديث النبوي.....	178.
<u>المطلب الأول: منهجية الإمام ابن باديس في التّخريج ودراسة الأسانيد</u>	179.
الفرع الأول/ منهج الإمام ابن باديس في تخريج الحديث النبوي.....	179.
الفرع الثاني/ دعوة الإمام ابن باديس إلى دراسة الأسانيد.....	183.
الفرع الثالث/ عناية الإمام ابن باديس بكشف أحوال الأسانيد ومنتهاتها.....	186.
<u>المطلب الثاني: منهج الإمام ابن باديس في تحليل المتن</u>	191.
الفرع الأول/ ملامح الدرس الحديثي عند الإمام ابن باديس.....	191.
الفرع الثاني/ طريقة الإمام ابن باديس في شرح الحديث.....	198.
<u>المطلب الثالث: أسلوب الإمام ابن باديس في التدريس</u>	212.
الفرع الأول/ وسائل الإمام ابن باديس في درسه.....	212.
الفرع الثاني/ أسلوب ومزاج الإمام ابن باديس في التدريس.....	216.
خاتمة الفصل.....	222.
إلخّصار المآلث: مقاصد وأهداف الدرس الحديثي عند الإمام ابن باديس.....	225.
مقدمة الفصل.....	226.
المبحث الأول: المقاصد والمرامي الإصلاحية.....	227.
<u>المطلب الأول: الإصلاح الديني</u>	228.
الفرع الأول/ مرحلة هدم المفاهيم والمعتقدات الباطلة.....	229.
الفرع الثاني/ مرحلة بناء المفاهيم والعقائد الصحيحة.....	236.
<u>المطلب الثاني: الإصلاح السياسي</u>	240.
الفرع الأول/ الدعوة إلى الوحدة والاتحاد والتّحلي بالوطنية الإسلامية.....	240.

- الفرع الثاني/ الدعوة إلى التحرير والجهاد في سبيل الله تعالى.....247.
- المطلب الثالث: الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي**.....251.
- الفرع الأول/ الدعوة إلى الأخذ بأسباب المدنية والتطور.....251.
- الفرع الثاني/ الدعوة إلى إصلاح الأوضاع الاجتماعية.....258.
- المبحث الثاني: المقاصد والأهداف التربوية**.....262.
- المطلب الأول: تفعيل التربية الإسلامية والتعليم**.....263.
- الفرع الأول/ مكانة وأهداف التربية في الدرس الحديثي عند الإمام ابن باديس.....263.
- الفرع الثاني/ معالم وأصول التربية الإسلامية عند الإمام ابن باديس.....269.
- المطلب الثاني: التربية الإعدادية الشاملة للمرأة والرجل**.....276.
- الفرع الأول/ العلاقة بين المرأة والرجل عند الإمام ابن باديس.....276.
- الفرع الثاني/ تربية وتعليم المرأة عند الإمام ابن باديس.....281.
- المطلب الثالث: بحث الأخلاق الإسلامية في الأمة**.....288.
- الفرع الأول/ وجوب الدعوة إلى الأخلاق الإسلامية.....288.
- الفرع الثاني/ من أخلاق وقيم الدرس الحديثي.....291.
- المبحث الثالث: المقاصد العلمية والمعرفية**.....296.
- المطلب الأول: إرجاع العلماء إلى مكانتهم ودورهم الشرعي**.....297.
- الفرع الأول/ من هم العلماء عند الإمام عبد الحميد ابن باديس؟.....297.
- الفرع الثاني/ سمات العالم الجزائري عند الإمام ابن باديس.....304.
- المطلب الثاني: المقاصد الحديثية من درس الإمام ابن باديس**.....311.
- الفرع الأول/ حجم ونوعية الحديث النبوي في درس الإمام ابن باديس وتراثه.....311.
- الفرع الثاني/ عناية الإمام ابن باديس بالحديث النبوي.....318.
- المطلب الثالث: أهم آثار الإمام ابن باديس في الساحة العلمية للأمة**.....321.
- الفرع الأول/ أثر وتأثير الإمام ابن باديس في الأمة.....321.

الفرع الثاني/ الإمام عبد الحميد ابن باديس محدّثاً.....	328.
خاتمة الفصل.....	333.
جائزته.....	335.
ملحق علمي.....	341.
الفهارس العلميّة.....	364.
فهرس الآيات القرآنية.....	365.
فهرس الأحاديث والآثار.....	367.
فهرس الأشعار.....	368.
فهرس أهمّ الأعلام والشّخصيات.....	369.
فهرس الأماكن والبلدان.....	376.
فهرس المؤسسات العلميّة، والجرائد والمجلّات.....	380.
فهرس أهمّ المصطلحات.....	383.
فهرس المصادر والمراجع.....	386.
فهرس موضوعات البحث.....	399.

ملخص المذكرة:

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن اقتفى أثره واهتدى بهداه إلى يوم الدين.

وبعد: إن هذه الرسالة العلمية عبارة عن جهد أكاديمي، وعمل علمي، يسعى الباحث من خلاله إلى الإجابة عن إشكالات معرفية، حيزها وإطارها البحثي ضمن فلك التراث الحديثي للإمام عبد الحميد ابن باديس رحمه الله، هذا المجال الذي لم تطله الجهود بالبحث والتنقيب، فبقي مُشاعاً تتناوشه البحوث والدراسات العامة، التي لم تقصد إلى التخصص والإفراد، رغم ما يتميز به هذا الميدان من الخصوبة والغنى الكبيرين.

لقد حاول هذا البحث الإجابة عن أهم الإشكالات التي يمكن لها أن تشيد لنا بناء متكاملًا، يُجَلِّي لنا هذا الجانب الظلّ من الجهود العلمية للإمام ابن باديس، ولهذا جاءت هذه المذكرة الجامعية في شكلها الخارجي متكوّنة من العناصر التحريرية التالية: مقدمة، وثلاثة فصول، وخاتمة، مع ما يتبع هذه الأخيرة من ضروريات الكتابات الأكاديمية؛ مثل: الملاحق العلمية، والفهارس، وكذا العناوين الفرعية الأخرى، مثل المباحث، والمطالب، والفروع.

أمّا من ناحية المحتوى والمضمون؛ فقد تعرّضت الرسالة للإجابة عن الإشكالية من خلال ثلاثة جوانب أساسية، ظهرت بجلاء في العنوان الرئيسي للبحث، وهي:

- الدرس الحديثي عند الإمام ابن باديس: وفيه إجابة عن الإشكالية الأولى التي تتساءل عن علاقة الإمام ابن باديس بالحديث والسنة النبوية، والعموم الملاحظ في هذا الشطر متعمّد ومقصود، وذلك لخصوصية الحديث، وكونه يُدرس دائماً من خلال ناحيتين؛ هما: ناحية التلقّي، وناحية الأداء، وهذا المُعَبَّر عنه في شطر العنوان يجمع كلا النوعين معاً، كما يمكنه أن يجمع بين الإلقاء، والإملاء، والكتابة.

كما أنّي تحاشيت استعمال مصطلحات توحى بالنتيجة، مثل: اهتمام، أو عناية...، وتركت هذه الأحكام أو ضدها إلى موضعها من البحث، ذلك أنّ النتائج إنّما يتوصّل إليها بعد التقلب والنظر، عكس من يرسم النتائج أولاً، ثم يسعى جهده للتدليل والانتصار لها.

- منهجه: في هذا الجزء نسعى لكشف المنهج الباديي في دراسة الحديث النبوي، والتعرض لطريقته التي ارتضاها في درسه، وإقامة الدليل من تراثه على كل القضايا والتتائج التي يتم ادّعاؤها، واختيار الأحكام والإطلاقات التي قام الدليل عليها، وذلك دون زيادة أو مجازفة، يمكنها أن تبعدنا عن المقصود، وتنوء بنا عن المنشود من الموضوعية والدقة، ولعلّ أهمّ الجوانب التي يُسعى إلى الكشف عنها، ما يلي:

- منهج الإمام ابن باديس في اختيار مصادره الحديثية.
- منهجه في اختيار الأحاديث التي يعرض لها بالشرح والبيان.
- منهجه في قبول أو ردّ الحديث النبوي، وأهمّ قواعده في هذا الجانب، ممّا أمكن الوصول إليه.
- منهجه في عرض الحديث وتحليله، وسبر أغواره، واستنباط معانيه وحكمه.
- مقاصده: إجابة على الإشكالية الأخيرة حول مقاصد الشيخ وأهدافه من الدّرس الحديثي، وهنا اخترت مصطلح: المقاصد، عوض الآثار و التّائج، ليكون أوفى لحقّ البحث، كون محاكمة الشّخص أو المنهج إلى التّائج أو الآثار، غير دقيق غالبا، لأنّ التّيجة أو الأثر قد تكون استجابة جزئية فقط لجهد الرّجل، وليس نتيجة مطابقة له، لذا دراسة الجهد أوفى من دراسة أثره.

أدرجت هذا الجهد ضمن إطار الخطّة العلميّة المختارة، ولعلّ أهمّ معالمها ومعالمها مايلي:
أمّا المقدّمة؛ فقد حوت أهمّ العناصر التي يمكن التّقديم بها للبحث، مثل الإشكالية، وأهميّة الموضوع، والمنهج والمنهجية المتّبعة.

أمّا الفصل الأوّل فقد كان بعنوان: الإمام عبد الحميد ابن باديس؛ عصره ونشأته، وتحت هذا العنوان ثلاث مباحث؛ تناولت في الأوّل؛ عصر وواقع الإمام عبد الحميد ابن باديس، أمّا المبحث الثّاني، فهو ترجمة مختصرة لأهمّ مراحل حياته وهجراته، لأختمه بالإشارة إلى الجانب الحديثي في الحياة الدّراسية للإمام عبد الحميد ابن باديس.

أمّا الفصل الثّاني فقد تعرّضت فيه لمنهج الإمام ابن باديس في تناول الحديث النبويّ، وذلك من ناحية مكانة الحديث النبوي عنده، ثمّ مصادر وموارد الإمام في درس الحديثي، لأفرغ منه بمبحث جوهرّيّ وأساسيّ عن منهجيّة الإمام في شرح الحديث النبوي وتدرّسه.

أمّا الفصل الثّالث؛ فقد حوى مقاصد وأهداف الدّرس الحديثي عند الإمام ابن باديس، والتي تمّ حصرها في ثلاثة مقاصد أساسيّة وهي: المقاصد الإصلاحيّة، والأهداف التّربويّة، والمرامي العلميّة والمعرفيّة، وتحت هذه الفصول مباحث ومطالب، حسب موضوع كلّ بحث ومحتواه.

لأختتم البحث بخاتمة ضمّنتها أهمّ التّائج العلميّة، والتّوصيات النّهائيّة.

وقد سعت جهدي في هذه الرّسالة للالتزام بالمنهجيّة العلميّة الأكاديميّة في مثل هذه الرّسائل الجامعيّة، والتي لا يمكن الوصول فيها إلى التّائج المقبولة إلّا بسلوك هذا المسلك الدّقيق، الذي تعدّ الموضوعيّة والتّدقيق، والتركيز والتّحليل أحد أهمّ ركائزه ومظاهره الصّوريّة.

بعد الفراغ من تحرير الموضوع، واستكمال فصول البحث، والانتهاء من تحرير الإجابات والتّوجيهات على الإشكالات المطروحة في البحث، والانتهاء من سلوك الخطّة المرسومة؛ يمكن الإشارة إلى أهمّ:

- احتفاء الإمام ابن باديس بالسنة النبويّة، واعتباره إيّاها كفيلة بإحياء الأمّة من موتها، وبعثها من أمراضها وآفاتّها، وعلاج أسقامها التي أعيتها.
- للإمام ابن باديس منهج وطريقة مميّزة في شرح الحديث النبويّ ودراسته، وقد تجلّى هذا المنهج وبان من خلال تراثه وآثاره العلميّة والعملية، كما ظهر الإمام يشرح بطول نفّس، وقدرة على التّحليل المركّز، والتركيب المحكم، كلّ ذلك بمصطلحات هذا الفنّ وضوابطه.

- نبوغ الإمام ابن باديس وتميّزه من كلّ الجوانب والجهات، وذلك ظاهر وجليّ في اختياراته الحديثيّة، وكذا في أسلوبه وطريقته في الشّرح والتّدرّس، مرورا على موهبته الخطّابية الفدّة، التي استطاع من خلالها النّفوذ إلى قلوب الجزائريّين.

- تنوّع المقاصد والغايات الإصلاحية في الدّرس الحديثي للإمام ابن باديس، فقد حرص الإمام على خوض الإصلاح السياسي والاجتماعي والاقتصادي؛ داعيا في أثناء ذلك إلى الوحدة والتّوحد والاتّحاد في إطار الوطنية الإسلامية، ثمّ السّير بخطى ثابتة نحو معركة التّحرير والجهاد في سبيل الله تعالى، ولم يتوقّف الإمام عند هذا الحدّ؛ بل انطلق يدعوا الأُمّة إلى الأخذ بأسباب المدنية والتّطوّر، وإصلاح الأوضاع الاجتماعية، وذلك لاستكمال البناء المميّ للأُمّة الجزائرية من كلّ جوانب وجودها.

- غنى كتابات الإمام ابن باديس ومؤلفاته بالأحاديث النبوية، وحرصه على الاستدلال بالسنة النبوية بجوار القرآن الكريم، وقصده في ذلك إلى الثّابت الصّحيح، ومجانبة تحذيره من الضّعاف والموضوعات.

في الأخير؛ أرجوا أن أكون قد وفّيت هذا الموضوع بعض حقّه من النّظر والبحث والتحليل، وأن أكون قد أجبت على الإشكاليات المطروحة في البحث، كما أرجوا أن أكون قد التزمت بأهمّ معالم وقوانين المنهجية العلمية الأكاديمية في مثل هذه المذكرات الجامعية.

وصلّى الله على نبيّنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما كثيرا.

RÉSUMÉ:

Au nom de Dieu le Miséricordieux, et la paix et la bénédiction soit sur le plus noble des messagers, ainsi que sa famille et ses compagnons, et tous ses compagnons, et ceux qui se guident et suivent sa tradition jusqu'au jour du Jugement dernier.

Cette thèse est un effort académique, et travail scientifique où le chercheur essaye de répondre à un ensemble de problématiques dont le cadre de recherche tourne autour du patrimoine du Hadith de l'imam Abdelhamid Ibn Badis – Que Dieu aie son âme-, ce domaine qui n'a pas été très exploré et minutieusement étudié, mais il a seulement fait l'objet des recherches et des études générales, sans la touche de la spécialisation, malgré ce qui distingue ce domaine en matière de richesse.

Cette recherche a tenté de répondre aux problèmes les plus importants qui peuvent construire une unité complète, faisant connaître ce côté méconnu des efforts scientifiques de l'imam Ibn Badis. C'est pour cela que ce travail de recherche universitaire est venu avec cette forme extérieure composée des éléments éditoriaux suivants: Une introduction, trois chapitres et une conclusion, avec ce qui suit cela comme éléments académiques nécessaires, tels que: Les annexes scientifiques, les sommaires, ainsi que d'autres sous-rubriques, comme les unités, les chapitres et les sections.

Concernant le contenu et le fond; le mémoire a tenter de répondre à la problématique à travers trois aspects fondamentaux qui sont apparus explicitement dans le titre principal de la recherche, et ce sont:

- La leçon du Hadith chez l'imam Ibn Badis: Comprend la réponse à la première problématique qui traite la relation entre l'Imam Ibn Badis et la Sunna, et l'idée évoquée dans cette partie est délibérée et intentionnelle, et pour la spécificité de la science du Hadith, et étant toujours enseigné en prenant en compte deux côtés, à savoir: Le côté de la réception, et celui du déroulement, et ce qui est exprimé dans la deuxième partie du titre combine les deux types, comme il peut combiner la conférence, la dictée et la rédaction.

J'ai également évité l'utilisation de termes qui renvoient au résultat, tels que: « s'intéresser », « se préoccuper »...et j'ai laissé ces jugements et avis pour la partie de la recherche qui leur est consacrée, de sorte que les résultats sont atteints après réflexion, à la différence

de ceux qui commencent par les résultats, puis essayent de la démontrer.

- Sa méthode: Dans cette partie nous essayons de découvrir la méthode « Badisside » -de Ibn Badis- dans l'étude du Hadith, et l'exposition de la façon dont il a adopté dans sa leçon, et d'établir une preuve de son patrimoine à toutes les questions et les résultats qu'il a évoqués, sans plus ou risque susceptible de nous détourner de la l'objectivité et de la précision souhaitées, et les aspects les plus importants à être divulgués, sont comme suit:

- L'approche de l'Imam Ibn Badis dans la sélection des sources du Hadith.

- Son approche dans le choix des Hadiths qu'il évoque avec leurs explications.

- Sa méthode d'accepter ou non un Hadith, et les règles les plus importantes à cet aspect, qui pourraient être accessibles.

- Son approche dans la présentation du Hadith et de son analyse, et la déduction de ses sens et de ses jugements.

- Ses fins: Une réponse à la dernière problématique sur les fins du Cheikh et ses objectifs derrière la leçon du Hadith, et ici j'ai choisi le terme de: « fins », plutôt que « effets et résultats », pour être mieux répondre à l'exigence de la recherche, et aussi parce la personne ne peut pas être jugée sur la base des résultats ou des effets, ces derniers peuvent être un aspect partiel de l'effort de la personne, il est donc préférable de faire une étude sur ses efforts et non pas ses résultats.

Cet effort est inclus dans le cadre du plan scientifique adopté, dont les axes sont :

L'introduction ; elle comporte les éléments les plus importants qui peuvent être la présentation de la recherche, tels que la problématique, et l'importance du sujet, et de l'approche et de la méthodologie utilisées.

Le premier chapitre est intitulé: « L'Imam Abdelhamid Ibn Badis, sa naissance et son éducation », avec trois sections; dans la première j'ai traité; l'époque de l'imam Abdelhamid Ibn Badis, tandis que dans la deuxième section, c'est un bref passage sur les étapes les plus importantes de sa vie et ses migrations, pour conclure avec le côté de la science du Hadith dans le parcours scolaire de l'Imam

Abdelhamid Ibn Badis.

Le deuxième chapitre consacré à l'approche de l'Imam Ibn Badis en traitant avec le Hadith, selon l'importance qu'il donnait au Hadith. Puis, les sources et les ressources de l'Imam dans la leçon du Hadith. Pour sortir avec une méthodologie fondamentale et essentielle de l'Imam pour expliquer le Hadith et l'enseigner.

Le troisième chapitre, il a englobé les fins et les objectifs de la leçon du Hadith chez l'Imam Ibn Badis, qui ont été limités à trois objectifs fondamentaux: les objectifs de la réforme, les objectifs pédagogiques et les objectifs scientifiques et cognitifs, et sous ces sections, il y a des chapitres et des sous-sections, en fonction du sujet de chaque recherche et de contenu. Pour enfin finir avec une conclusion comportant les résultats scientifiques les plus importants, et les recommandations finales.

J'ai fait de mon mieux dans ce mémoire pour adopter la méthodologie scientifique académique recommandée dans les thèses universitaires, où l'on ne peut pas atteindre les résultats souhaités qu'en suivant cette méthode précise, qui requiert principalement de l'objectivité et de la précision ainsi que beaucoup d'analyse et de concentration.

Une fois la rédaction achevée, et les chapitres complétés, les réponses et les instructions sur les problématiques soulevées dans la recherche élaborées et le plan élaboré; il est important de mettre l'accent sur quelques points :

- La considération que l'Imam Ibn Badis a pour la Sunna – tradition du prophète -paix soit sur lui-, qu'il considère comme l'élément qui peut faire revivre la nation, et apporter des soins à ses maladies ravageuses.
- La méthode de l'Imam Ibn Badis et sa façon distincte dans l'explication du hadith et son étude apparue dans son héritage scientifique et pratique ; l'explication sage et durable de l'Imam, sa capacité d'analyse et son discernement et sa sagesse, tout cela avec une terminologie propre à cet art et de ses commandes.
- Excellence de l'Imam Ibn Badis et sa connaissance de tous les côtés et les parties, qui est de manière apparente et évidente dans ses choix dans le Hadith, ainsi que dans son style et sa manière

d'explication et de l'enseignement, en passant sur son talent rhétorique inimitable, à travers lequel il a pu attirer les cœurs des Algériens.

- La diversité des buts et objectifs de la réforme dans la leçon du Hadith chez l'imam Ibn Badis. Le souci de l'Imam était de lutter contre une réforme politique, sociale et économique; appelant en même temps à l'unité et l'union nationale islamique, puis marcher sur des pas sûrs vers la lutte de la libération et le jihad au nom de Dieu. Il ne s'est pas arrêté à cela, mais il a lancé un appel à la nation pour l'introduction des causes civiles et le développement, la réforme et les conditions sociales, de manière à achever la construction de la nation algérienne sur tous ses aspects.
- Richesse des écrits de l'imam Ibn Badis avec les Hadiths du prophète – paix de Dieu soit sur lui -, et son empressement à argumenter avec la Sunna authentique à côté du Coran, et reste loin et averti des plus faibles et erronés.

En conclusion, je souhaite avoir réussi à donner à ce sujet ne serait ce qu'une partie de l'analyse et de la recherche qu'il mérite, et que j'ai pu répondre aux problématiques soulevées lors de la recherche. Je souhaite notamment avoir respecté les plus importantes règles de la méthodologie scientifique académique utilisées dans les travaux de recherche universitaires.

Que Dieu bénisse notre Prophète Muhammad, sa famille et ses compagnons

Université' Alger1/ BenYousef Benkhedda
Faculté des sciences islamiques
Section: Les croyances et les religions

LA LEÇON DU HADITH CHEZ L'IMAM IBN BADIS, SON APPROCHE ET SES FINS.

Mémoire en vue de l'obtention du diplôme de magistère en
sciences islamiques.

Spécialité: Le Coran et la Sunna.

Préparé par l'étudiant:

BOUHEMADOU Younes

Encadré par le:

Dr. BOUCHAMA Redha

Jury de délibérations:

Nom/Prénom:	Niveau académique:	Etablissement initial:	Statut:
Dr TIMEZGHINE Mohammed	Maître de conférence	Faculté des sciences islamiques/ Université d'Alger 1	<i>Président</i>
Dr BOUCHAMA Redha	Maître de conférence	Faculté des sciences islamiques/ Université d'Alger 1	<i>Encadreur</i>
Dr BEN SAFIA Slimane	Maître de conférence	Faculté des sciences islamiques/ Université d'Alger 1	<i>Membre</i>

Année académique: 1435-1436H/2014- 2015.

Université d'Alger 1 / BenYousef Benkhedda
Faculté des sciences islamiques
Section: les croyances et les religions

LA LEÇON DU HADITH CHEZ L'IMAM IBN BADIS, SON APPROCHE ET SES FINS.

Mémoire en vue de l'obtention du diplôme de magistère en
sciences islamiques.

Spécialité: le Coran et la Sunna.

Préparé par l'étudiant:
BOUHEMADOU Younes.

Année académique: 1435-1436H /2014-2015.